رودولفو جراتزياني

نحو فزان

نقلـه عـن الأيطاليـة
طـه فـوزي

دار الفرجاني
القاهرة . طرابلس . لندن

الطبعة الثانية

١٩٩٤

رودولفو جراتزياني

نحو فزان

نقله عن الايطالية
طه فوزي

دار الفرجاني
القاهرة . طرابلس . لندن

مقدّمة

كان الغرض من وضع هذا الكتاب تقديم فكرة سريعة للقارىء عن الحوادث الجديرة بالذكر التي وقعت في طرابلس الغرب ، وخاصة في الفترة الواقعة من سنة ١٩٢٢ الى يومنا هذا .

لم يشأ الجنرال « جراتزياني » وضع كتاب تاريخي مزود بالوثائق وهو العمل الذي سيضطلع به في الوقت المناسب المكتب التاريخي التابع لاركان حرب الجيش الملكي .

أما هذا الكتاب فإنه على العكس من ذلك عمل أكثر تعقيداً وفي الوقت ذاته أكثر حيوية بحيث لا يمكن أن يكون تقريراً من التقارير الرسمية .

ورغماً من أن هذا الكتاب قد احتفظ للوقائع العسكرية بحقيقتها التاريخية كما هي ، ورغماً من انه قد خصص لها أعظم جانب من جوانبه ، إلا انه لم يجعل هذه الوقائع بمعزل عن البيئات التي حدثت فيها ، بل إن من فضائله الجوهرية انه قد أوضح مميزات هذه البيئات الغريبة كل الوضوح ، وسلط الأضواء بريشة فنان قدير على الشخصيات المهمة التي لعبت دورها

وخاصة تلك الشخصيات الوطنية وقدر العمـــل الكبير الذي قامت به السياسة في هذه الأعمال الاستعمارية حق قدره .

هذا وقد لعب الجنرال « جراتزياني » دوراً كبيراً كان له أثره الفعال في كل هذه الحوادث ، بل يمكن القول بانه قد مارس في معظم الحالات أعمال القيادة الكاملة .

ولكنه استطاع ان يتجنب تلك الصخرة الخطرة التي كثيراً ما اصطدم بها وغرق بسببهـا اولئك الذين كلما أرادوا سرد الحـوادث التي اشتركوا فيها لم يقوموا إلا بسرد تاريخ حيـاتهم ولم يتحدثـوا إلا عن أنفسهم ، وهناك صخرة أخرى تخطاها الجنرال « جراتزياني » وهي الخاصة بالاهتمام بشكل الكتاب أكثر من العناية بجوهره ، وفي الحق انه قد أبعد في عرضه للحوادث كل ما يوحي بالتوكيد وضروب البلاغة حتى جاء سرده واضحاً سهلاً جذاباً لدرجة انه من الصعب ان يجد فيه القارىء ما يجعله يتوقف عن الاستمرار في قراءة هذه الصفحات .

وهذه فضيلة كبرى من فضائل الكتاب اذا مـا نظرنا بعين الاعتبار تلك البلاغة الزائفة التي افسدت أدب ما بعد الحرب حتى ان كل من قرأ جانباً كبيراً منه ممن عاشوا تلك الحوادث سرعان ما يشعر بالضيق وبالاشمئزاز .

وبالجملة فان الكتاب قد استطاع في شيء كثير من الايجاز وباجتناب كل التعاليم والمبادىء الثقيلة أن يجمع بين ما هو مفيد نافع وبين ما هو

سار جذاب يبهج النفس ويسر الخاطر ، إذ نجد فيه بعد سرد الحوادث الواحـدة تلو الاخرى بعض ملاحظات ذات طابع عسكري تتالف من مجموعها تعليمات على جانب من الاهميـــة فيا يتعلق بشكل الحروب الاستعمارية ونظامها .

ومجمل القول ان الجنرال « جراتزياني » قد وضع كتاباً يلقي ضوءاً على الوقائع العسكرية التي لم تعرف باكملها المعرفة الواجبة حتى الان ، وفي الوقت ذاته يقدم للضباط الوسائل اللازمة لاستخلاص تعاليم غاية في الاهمية .

ولذلك فاني لا أوصي بقراءتها رجال المستعمرات وحدهم ، بل كل أولئك الذين يريدون أن يكونوا على أتم استعداد لخدمـــة الوطن عن جدارة واستحقاق باية طريقـــة من دون ان تكون لديهم اية فكرة واضحة عن واجباتهم .

« بيترو بادوليو دي سابوتينو »
ماريشال ايطاليا

« نسالم من يسالمنا ،
ونسحق من يعادينا »

فيرجيليو في « الانياد »

الإهداء

إلى ذكرى الضباط والجنود الذين قتلوا بعد أن أبدوا بطولة خاصة في سبيل فتح طرابلس الغرب واستردادها ، أهدي هذه الصفحات وكلي أمل في أن تبث تضحيتهم في الأجيال الجديدة الإرادة التي لا تتزعزع حتى يسترجعوا لأمهم العظيمة إيطاليا امبراطوريتها القديمة .

تمهيد

إننى أقص في هذا الكتاب دون أن أدعي أنني من المؤرخين أخبار الحوادث التى وقعت في ما يقرب من عشر سنوات بطرابلس الغرب ، وقد عشتها كلها تقريباً كشاهد عيان لها او ممثل لعب دوراً فيها . وذلك لكي احدد اتجاهنا بإعادة احتلالنا لفزان لإرساء أسس السلام واحلال الاستقرار الكامل في هذا القطر بعد ان أوجدنا بالنظام الفاشستي استعداداً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وروحياً فيه الضمان لنجاحنا .

وإني أقدم كتابي هذا بصفة خاصة الى الشبان للتأمل فيه ودراسته حتى يستخلصوا منه حافزاً ودافعاً لحب الصحراء والكفاح والمخاطرة والمجهول التي هي عناصر القوة التي لا تقدر لتكوين الخلق الذي لا يمكن بدونه القيام بأي مشروع قوي له صفة الدوام والاستمرار .

الفصل الأول

الحوادث التي وقعت من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٢

الحوادث التي وقعت من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٢

على أثر الصلح المبرم في مدينة لوزان (١٨ اكتوبر ١٩١٢) تنازلت تركيا عن حكم طرابلس الغرب بأكملها وارتقت جيوشنا بمعونة الاهالي العرب « الجبل » واحتلت « غريان » و « ترهونة » و « بني وليد » دون قتال .

وفي ٢٣ مارس سنة ١٩١٣ كان الجنرال « ليكويو » يقاتل في « الاصابعة » في يوم مشهود ، وكان البربر بقيادة « سليمان الباروني » الذي كان قد بقي على خصومته لنا ويخضع لسلطته كل « الجبل » قد اندفعوا نحو « يفرن » و « جادو » و « نالوت » .

بعد ذلك بقليل بدا للحكومة انه قد حان الوقت للتوغل في فزان وقد نيطت هذه الحملة باللفتنانت كولونيل س. م مياني الذي كان فيه بفضل ذكائه وأخلاقه وثقافته الضمان الكافي لنجاح الحملة .

في ٦ ديسمبر ١٩١٣ كانت القوة التي تحت امرته تتألف من كتيبة اريترية وثلاث فصائل ليبية وبطاريتين من المدفعية الجبلية والخدمات اللازمة لحملة من هذا النوع – تتحرك من « سوكنه » متجهة نحو « براك » . وعلى أثر المعارك العديدة التي وقعت في « الشب » و « إشخدة » و « محروقة » (٢٣ ديسمبر ١٩١٣) استولت على فزان .

وكان يبدو للمراقب السطحي ان المشروع قد تم تنفيذه باحتلال مرزق (٣ مارس ١٩١٤) .

وبعد معركة « محروقة » التي هزم فيها وقتل محمد بن عبدالله اكبر زعماء اولاد « بو سيف » الذي كان قد نظم حركة المقاومة ضد جيوشنا اصبح من المعتقد انه قد تم التغلب على كل الصعوبات الناشئة من جماعات البدو الرحل الذين كانوا يسيطرون على فزان ، ولكن اذا صح ان اولاد بو سيف كانوا قد تلقوا في معركة « محروقة » ضربة شديدة واصيبوا بأضرار فادحة فانه لم يتم الحصول على شيء نهائي مع هذا الشعب الذي استمر في مجموعه مسلحاً ومعادياً لنا .

وكذلك الحال بالنسبة لاولاد سليمان الذين كانت قد عملت الحكومة في ذلك الوقت بسجنها اسرة سيف النصر على اثارتهم فانهم ولو انهم قد ارتدوا إلى جبال « هروج » قد بقوا مسلحين ومعادين لنا .

وأخيراً فان المغاربة الذين هم بدو رحل آخرون لهم أهميتهم ويقيمون في سرت رغماً من الدرس القاسي الذي تلقوه في معركة النوفلية لم يعترفوا بهزيمتهم . وليس هذا فحسب بل استمروا في عدائهم وقاموا بمحاصرة حامية « النوفلية ».

ولقد أصبحت حكومة طرابلس الغرب باستيلائها على « مرزق » مسيطرة على جميع أراضي المستعمرة ولكنها لم تكن قد هزمت بعد البدو الرحل المقيمين في « القبلة » ولا البدو المقيمين في « سرت » الذين كانوا في جميع الاوقات المسيطرين على جميع الاراضي الليبية الداخلية وسادتها الحقيقيين .

وكان احتلالنا للاقليم بواسطة حاميات منعزلة تبعد كل منها عن الاخرى بمسافات شاسعة تتكون منه شبكة غاية في الضعف كان البدو يستطيعون العمل من خلالها كما فعلوا ذلك اضراراً بنا دون أن يزعجهم أحد .

وفي نهاية سنة ١٩١٤ كانت هذه الجماعات المحاربة مقسمة على النحو التالي :

جانب من أولاد بوسيف وعلى وجه الدقة الرجال الذين كانوا قد اشتركوا في معركة « محروقة » مع الزعماء « محمد بن بشير » و « حسن درويش » كانوا يقيمون في ضواحي « زلة » وكان معهم جانب من أهالي « المشاشية » وأما الباقون من أولاد بوسيف مع بقية « المشاشية » فقد حطوا رحالهم بين وادي « بي » و « رواوص » كذلك استقر أولاد سليمان فوق جبال « هروج » بينما كان المغاربة يطوفون في منطقة الاتصال بين طرابلس الغرب وبرقه بين «مرادة» و« النوفلية » وكذلك الحال بالنسبة «للزنتان» وهم بدو رحل يقيمون في «القبلة» فإنهم كانوا لا يزالون يناصبوننا العداء ولو ان الحكومة كانت تدفع لرؤسائهم مرتبات ضخمة وتقدم لهم عطايا سخية من المال .

وعندما اندلعت نيران الحرب الاوروبية وانحازت تركيا إلى جانب الالمان أعلنت الحرب المقدسة في ليبيا وناطت بالسنوسيين واجب القيام بها .

وبعد الهجوم على « سبها » (٢٧ نوفمبر ١٩١٤) واستيلاء الثوار عليها اتسع نطاق الثورة اتساعاً كبيراً وتلا ذلك سقوط « اوباري » .

ولما فوجئت الحكومة بهذه الحوادث وكانت تعوزها القوات لمواجهة الموقف أصدرت أمرها الى الكولونيل مياني بسحب الحاميات من فزان ، ونزولاً على هذا الأمر أخذ الكولونيل مياني بعد ان عمل على انقاذ مواطنيه في « مرزق » في التراجع من « براك » حيث كان معسكراً هو وجنوده واتجه الى « سوكنه » (١ ديسمبر) وبلغ « مصراته » في ٢٥ ديسمبر . وفي هذه الأثناء كان قد بدأ تراجع حامية « غات » وبعد ذلك مباشرة (٢٧ يناير سنة ١٩١٥) تم إخلاء « الجفرة » .

كان عدوان الثوار وهياجهم يزداد باستمرار بعد ترك « فزان » و « الجفرة» وكان لذلك أثره ايضاً في المنطقة الغربية . ورغبة في قمع الثورة التي كانت الدلائل تدل على أن نطاقها سوف يتسع على وجه السرعة قررت الحكومة القيام

بعمليتين حربيتين هامتين سواء في « القبلة » أو في « سرت » ولكن الأولى باءت بالفشل في المعركة المشئومة التي وقعت في وادي « مرسيط » (٧ ابريل) وأما الثانية فقد انتهت نهاية أليمة في « قصر بوهادي » (٢٩ ابريل) وعلى اثر هذه الخسارة التي أصابتنا عمل السنوسيون على تقوية صفوفهم بالعصابات الغادرة، وبعد ذلك بقليل استولوا على « ترهونة وبني وليد » اللتين كانتا محاصرتين واشعلوا النيران في « الجبل » ولم تتأخر كثيراً مذبحة حامية « ترهونة » التي وقعت عندما كانت هذه الحامية تحاول الوصول الى الشاطىء (١٨ يونيه) .

ولما رأت الحكومة ان كل محاولة تم القيام بها في سبيل تقديم المدد والمساعدة إلى الحاميات المحاصرة قد ذهبت ادراج الرياح قررت الجلاء عن « مزدة » التي كانت هي الأخرى مهددة بالحصار (١٥ و ٢١ يونيه) كما وقعت « بني وليد » في تلك الاثناء بأيدي الثوار .

وكذلك توالت الأحداث في المنطقة الغربية وفي « الجبل » .

ففي يوم ٥ يونيه هوجمت حامية « سناون » ولكنها استطاعت بكل جهد الانسحاب الى « نالوت » وفي الوقت ذاته هوجمت حاميات « الجبل » الصغيرة.

في مثل هذه الظروف أمرت الحكومة في ٥ يوليه بانسحاب جميع الحاميات وارجاعها الى الشاطىء فانسحبت حامية « يفرن » الى « الزاوية » واستطاع جزء قليل من بقايا حامية « جادوفساطو » الوصول الى الشاطىء . وأما حامية « نالوت » فقد هوجمت هجوماً عنيفاً في « تكوت » أثناء تقهقرها واستطاع نفر قليل منها الالتجـــاء الى الاراضي التونسية ، وكانت حامية « غريان » هي وحدها التي استطاعت ان تتراجع الى طرابلس (٩ يوليه) دون ان يزعجهـا أحد وكان رجالها يبلغ عددهم ٤٤٠٠ جندي .

وفي يوم ١٦ يوليه تم إخلاء « العزيزية وسرت » .

وفي يوم ١٧ أخليت كل من « زوارة والزاويـــة » و « مصراته » في اليوم

الخامس من اغسطس . وبعد ذلك بقليل استطاعت حامية « غدامس » الانتقال الى الاراضي التونسية .

وفي أول يناير عام ١٩١٦ كان احتلالنا لطرابلس الغرب مقصوراً على قاعدتي طرابلس و « الخمس » البحريتين . وفي هذه الاماكن تكدست قواتنا في حلقة الأسلاك الشائكة الضيقة . كما ان خط دفاعنا في طرابلس بوجه خاص كان يمتد من « تاجوراء » الى « قورجي » وفي المنعزلة القائمة في سيدي عبد الكريم وفي « اميليو » و « عين زارة » و « باستوريللي » و « قرقارش » وكان يقوم بتنظيم صفوف العرب في داخل البلاد نفر من الضباط الاتراك والالمان ، وقد استخرجوا من مخازننا ومستودعاتنا التي تركناها بسبب سرعة انسحابنا كميات هائلة من الأسلحة والذخائر ، ويقدر عدد الأسلحة التي كانت تحت تصرف الثوار في مجموعها بنحو ٤٠,٠٠٠ بندقية فضلاً عن عدة مئات من مدافع الميتراليوزات المختلفة ونحو ثلاثين مدفعاً كما استجلبوا ايضاً أسلحة أخرى أثناء الحرب الكبرى .

وفي يناير ١٩١٧ نزل الاي بقيادة الجنرال « لاتيني » من البحر في ميناء « زوارة » وكان عليه صيانة المواصلات في طرابلس .

وفي يومي ١٦ و ١٧ يناير وقعت معركتان قويتان موفقتان في « الجديدة » و « العجيلات » ولكن نظراً لما شوهد من تفوق العدو في العدد رؤي من الأنسب العودة الى « زوارة » .

وفي آخر شهر مارس أعيد تشكيل الالاي الذي تحت قيادة الجنرال « كاسينيس » وضمت اليه قوات أخرى جديدة مرسلة من طرابلس .

وفي يوم ١٥ ابريل التقى في « العجيلات » بقوات كبيرة من قوات الثوار ورأى من المناسب احتلال الواحة ولكنه في اليوم التالي عاد مرة ثانية الى « زوارة » .

وفي نهاية شهر أغسطس قررت الحكومة تكرار العملية بمعاونة قوات طرابلس ، فتحرك الالاي الذي كان تحت قيادة الجنرال « كاسينيس » في مساء ٣ سبتمبر وأخذ يقاتل الخصم في « العجيلات » واحتل الواحة . وقد استمر في زحفه في الأيام التالية واستولى على التوالي على كل من « جودايم » و « صياد » و « جنزور » حتى وصل في يوم ٩ الى حيث اتصل بطلائع الاي « بيِّروني » الآتية من طرابلس .

وعندئذ كان الاي « كاسينيس » يبدأ العمل في يوم ١١ . وهنا انسحب الثوار الى خط « فندق بين غشير – سواني بن آدم » .

وفي فجر يوم ٢٠ سبتمبر بعد ان تركز في «السواني» الاي الجنرال «كاسينيس» بدأ زحفه على « فندق بن غشير » ولكن بالرغم من انه قد استطاع بعد معركة عنيفة دامت خمس ساعات جعل العدو يتراجع الى العزيزية لم يستطع أن يبلغ هدفه .

ولم تقع أية حوادث أخرى هامة في الأشهر الأخيرة من سنة ١٩١٧ . وفي اوائل سنة ١٩١٨ ، بل اقتصر العدو على القيام بغارات قليلة الاهمية وعلى اطلاق بعض قنابل على « طرابلس – سيدي بلال » لم تحدث ضرراً في أغلب الأحيان.

أما من جانبنا فقد اتسع النشاط في اطلاق النيران في كل جهة وتمت عمليات استكشاف على مسافات قصيرة في كل من طرابلس « وزوارة » .

وفي يوم ٢٣ سبتمبر ١٩١٨ كانت قوات زوارة التي تجمعت وتكون منها الاي واحد قوي تقاتل العدو في « قصر تلّيل » .

وفي يوم ٥ اكتوبر كانت قوات عديدة من قوات الثوار تهاجم معسكر « جميل» ولكن اسراع قواتنا من « زوارة » جعل قوات العدو تلوذ بالفرار .

وفي يوم ٦ كانت قوات طرابلس لا تزال تقاتل العدو في « المعمورة » .

وفي نهاية شهر ديسمبر كانت الحكومة تعد العدة لزحف جديد على « الزاوية » بجزء من قوات « زوارة » بينما كان على قوات حامية طرابلس ان تزحف على « سواني بني آدم » وصوب « جنزور » .

وفي اليوم السادس والعشرين كان الاي « زوارة » يتحرك تجاه الشرق .

وفي اول يناير ١٩١٩ قام الاي آخر (بقيادة الجنرال بانتانو) من طرابلس واحتل واحة « جنزور » .

وفي اليوم ذاته اتصلت طلائع الالايين ببعضها .

وفي آخر ١٩١٨ عند نهاية الحرب العظمى كان احتلالنا لطرابلس الغرب مقصوراً على مناطق طرابلس و « الخمس » و « زوارة » دون غيرها . وكانت تصل في تلك الاثناء من الوطن الأم فصائل متعددة من مختلف الاسلحة انضمت الى القوات التي كانت منفصلة في المستعمرة وانقسمت الى فرقتين هما الفرقة الثامنة والثلاثون والحادية والثمانون .

وفي نهاية شهر فبراير نزلت الى البر في طرابلس على عدة دفعات أولى فرق الهجوم (بقيادة الجنرال زوبي) بأكملها . وهكذا اصبح عدد الفرق المرابطة في طرابلس الغرب ثلاثاً .

وفي أوائل شهر مارس كانت تحت تصرف حكومة المستعمرات القوات التالية :

ثلاث قيادات فرق – ٥٦ كتيبة مشاة – ٢٩ بطارية من عيارات مختلفة .

فضلاً عن القوات الموجودة في حاميات مناطق « طرابلس وزوارة » .

وفي يوم ١٧ مارس صدر الأمر بالقيام بعمليات الزحف على « سواني بن آدم » التي تكررت عدة مرات ثم أوقفت بعد ذلك بسبب المفاوضات التي كان المكتب السياسي يقوم بها مع زعماء الثوار للوصول الى صلح سلمي .

وأخيراً تقرر القيام بالعملية في صباح يوم ١٧ ابريل وكان يجب القيام بها بقوات الفرسان على خط سكة حديد طرابلس – العزيزية. وقد تحركت الفرقة الحادية والثمانون من قاعدتي جنزور والزاوية وكان هدفها « سواني بني آدم » و « بئر ترينة » وكان يتحتم على الفرقة الثامنة والثلاثين احتلال « فندق بن غشير ».

وكانت فرقة الهجوم الاولى تعمل بصفة قوة احتياطية وكان عليها ان تبقى مرابطة بين « فندق التوغار » و « واحة جنزور ».

وكان على القوات ان تزحف في وقت واحد على جبهة يبلغ طولها خمسين كيلومتراً من « الزاوية » حتى « بئر الفرجان » وكان من شأن اتصالها ان يسمح بأن تعتمد كل منها على الأخرى.

ولكن الفرقة الملونة (المكونة من سبع كتائب – وقوة « خربيش » المساعدة والفرقة الحادية والثمانين) وحدها التي كانت تعسكر في « بئر ترينة » كان عليها ان تعتمد على وسائلها الخاصة بسبب المسافة التي كانت تفصلها عن الهدف المحدد للفرقة البيضاء (سواني بني آدم).

وكان يبلغ مجموع القوات المعسكرة من جنزور الى « بئر الفرجان » ٢٩ كتيبة تعززها سبع سرايا من سرايا المتراليوزات و ١٨ بطارية خفيفة ، وكانت الفرقة الملونة تعتمد على اربع بطاريات كما كان تحت تصرف القيادة العاملة ما يربو على ٧ بطاريات بعيدة المدى للتمهيد للزحف ولمرافقة القوات الزاحفة بنيرانها من مواضع بعيدة للغاية فضلاً عن ٢٧ كتيبة لحماية القواعد ، وقد خصصت لكل فرقة فصيلتان ميكانيكيتان (٤٤ سيارة مصفحة) وذلك للخدمات الادارية. هذا بخلاف عدد كبير من سيارات النقل التي تحت تصرف قوات العمليات لمختلف الخدمات ، وقد تركزت ١٦٠ منها في جنزور لسرعة نقل الجنود من نقطة الى أخرى من نقط ميدان القتال.

وهكذا كان بلوغ الهدف يجب ان يتم تلقائياً وكنتيجة طبيعية لهذه

التجمعات الهائلة .

ولكن بينما كانت جيوشنا تنتظر وهي ممـــلوءة حماسة وحمية صدور الأمر اليها بالتحرك انتشر على النقيض من ذلك في ليلة ١٧ – ١٨ ابريل فجـأة خبر مؤداه ان المكتب السياسي العسكري عقد اتفاقاً مع الثوار . ولذلك فقد انتهت الأعمال العدوانية وتوقفت .

وهكذا حصلت المستعمرة على الاستقرار والسلام لا بسبب انتصار جيوشنا ولكن بسبب الصلح السياسي .

إلا ان ذلك الصلح كان صلحاً مزعزعاً ووقتياً وخداعاً في بلد لا يستقر فيه الحكم والهدوء كما تعرفنا وتدلنا على ذلك تقاليـد القرون الماضية – إلا بالقوة وحدها ، ولقد أوقف الصلح المبرم مع الثوار ايضاً مشروع إعادة احتلال منطقة « مصراته البحرية » الذي كانت قد وضعت له خطة واسعة النطاق للعمليات وكانت جيوش هذه الحملة يجب ان تتألف على النحو التالي :

وحدتان للهجوم من فرقة الهجوم الأولى (٦ كتائب) – كتيبة اريترية – مجموعة تتكون من ثلاث بطاريات من عيار ٦٥ – بطارية مدافع من عيــار ١٠٥ (على اربع قطع) – كتيبة مهندسين – سرية تلغرافية – مفرزة صحية .

وكانت معاونة البحرية لهذه الحملة يجب ان تتم على النحو التالي :

أ – بوساطة فرقة من البحارة تنزل على البر قبل غيرها وتعمل على تسهيل نزول الجنود من السفن .

ب – بوساطة نيران البطاريات البحرية التي تضرب الشاطىء على عمق ٥٠٠ متر وعلى مسافة ٥٠٠ متر شمال « رأس الزروق » الى ٥٠٠ متر جنوبي « رأس القديم » لكي تمنع عنها أي هجوم من جانب العدو .

هذا ما كان يجب ان يتم أولاً . وكان من الواجب بعد ذلك وفي فترة ثلاث ساعات بدون انقطاع اطلاق النيران من المدافع من جميع العيارات لجعل المنطقة

الجنوبية كلها غير صالحة للسكنى . تلك المنطقة التي كان من الممكن ان تأتي منها هجمات على قواتنا التي تتحرك نحو هدفها .

وكان على البحرية ان تشترك في هذه العمليات بالسفن الآتية :

سفن القتال : « كامبانيا » و « مارسالا » و « اجوردات » و « بورتو ماوريتزيو » و « كوياتيت » (قوة ١٥٢ و ١٢٠ و ٧٦) .

السفن المساعدة المسلحة : « توكرا » و « زينسون » و « بوكوفينا » و « هيدرفاري » و « بيرنيتشي » (قوة ١٢٠ و ٧٦) .

السفن الخفيفة : « لانشيري » و « ايورو » و « لامبو » و « داردو » و « اورنا » و « اوريوني » و « اوليميا » و « ساجيتاريو » (قوة ٧٦).

سفينتين مختلفتين وهما : « ابريدانو » و « جانوتري » .

وكان يجب ان يوضع تحت تصرف قيادة الحملة لنقل الجنود والمعدات الحربية فضلاً عن السفن المساعدة الباخرة « البرازيل » وقد وضع تحت تصرف الحملة ايضاً قاربان بخاريان وثلاثة جرارات وذلك لجر وقطر اللانشات العديدة التي كان عليها القيام بانزال الجنود الى البر . وكان من الممكن وضع ستة قوارب من طراز « ماس » لشد ازر الحملة على مسافة قريبة وللقيام بعمليات الاتصالات بين مختلف السفن .

وعندما كان هناك في طرابلس ما يقرب من ثمانين الف جندي من بينهم « فرقة من فرق الهجوم » على تمام الاستعداد للاستيلاء مرة ثانية على المستعمرة بأكملها واخضاعها عسكرياً رؤي من الأفضل ايجاد حل سياسي مشين لهيبتنا بصفتنا شعباً كبيراً خرج منتصراً من الحرب العظمى .

فـــترة الاذلال ، (١٩١٩ – ١٩٢٢) .

بدأت المفاوضات الاولى مع الثوار في مارس ١٩١٩ في خلة الزيتونة التي انتقل اليها مفاوضونـــا وطالت اكثر من شهر دون الوصول الى اية نتيجة حسب عادات وتقاليد الزعماء المضاربين المترددين القصيري النظر، ولكنهم ازاء تجمعات القوى الهائلة التي تكدست منذ ذلك الوقت وضعوا حداً لهذا المماطلة وارسل « رمضان الشتيوي » في مساء ١٥ ابريل خطاباً الى الحكومة حدد فيه موعداً نهائياً في الساعة العاشرة من صباح يوم ١٦ ابريل . ولقد اشترك في هذا الاجتماع فضلا عن « رمضان الشتيوي » كل من الهادي بك كعبار ومحمد الصويعي الخيتوني والحاج فرحات القاضي .

أما الاخرون فقد رحلوا على العكس من ذلك في الليلة السابقة كل منهم الى منطقته وهم على يقـين من أنه لن يتم اي اتفاق. وقد عاد مفاوضونا وعلى رأسهم الجنرال « تارديتي » من رجال المكتب السياسي الى مدينة طرابلس في الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم بعد ان بحث مختلف المسائل المتصلة بكل الامتيازات التي كانت الحكومة على استعداد لمنحها وسجل ما اقترحه الزعماء من التعديلات والاضافات واظهر بجلاء انه متى تم الحصـــول على هذه التغييرات سوف يقرر الزعماء قبول الصلح .

وبعد ذلك بينما كانت القيادات والجيوش في ليلة ١٧ ابريل مســتعدة كما ذكر للزحف الى الامام للحصول على الانتصار العـسكري المأمول والذي كانوا يتلهفون عليه والذي كان من شأنه الانتقام لكل تلك اللطمات ولذلك الاذلال الذي تحملوه من عام ١٩١٥ وما بعدها اذيع خبر الصلح المـــعقود مع الثوار وتوقفت الاعمال الحربية نتيجة لذلك .

وهكذا بدا من ذلك الصلح الذي سمي على سبيل السخرية صلح خلة الزيتونة انه قد تلاشى نهائياً كل ظل لسيادتنا الفعلية على طرابلس الغرب وأصبح السبيل ممهداً للطمات شديدة جديدة نتلقاها وذلك بفضل سياسة التنازل التي كانت على غرار تلك السياسة التي اتبعت في ايطاليا سنة ١٩١٩ ، فقد كان ذلك الصلح من جانبنا تسليماً حقيقياً وكانت الاعمال العدوانية يجب أن تتوقف على أثر صدور دستور يمنح عرب طرابلس الغرب حقوقاً وامتيازات مدنية وسياسية واسعة دون أن يتحمل الشعب كما هو الحال في كل البلاد المتمدينة أعباء واجبات ثقيلة في مقابل ممارسة الحرية بمفهومها الحديث ، وفي انتظار اصدار قانون بهذا التعاقد السياسي العقيم وتنفيذه تم اعطاء زعماء العرب تأكيدات مستفيضة حول الحقوق والامتيازات التي منحت لهم والفوائد المؤكدة التي سوف يجنيها الشعب. وقد وضع اتفاق ابتدائي ذو صفة مؤقتة ولكن كان فيه ما يكفي من الضمانات المتبادلة .

وقد انعقدت الاجتماعات الاخيرة في خلة الزيتونة في شهر مايو ١٩١٩ وفي ٢٦ من ذلك الشهر تم تبادل الاسرى ودفع في نظير ذلك عدة مئات الآلاف من الليرات للزعماء العرب ، وقد قامت الاستعدادات في أثناء ذلك على قدم وساق في مدينة طرابلس لاستقبال الاعيان الآتين لتمثيل ذلك الشعب الذي كان يستعد للمرة الاولى في التاريخ لممارسة نوع جديد من الحرية لا عهد له به وللاحتفال بهم احتفالاً عظيماً والترحيب بهم بأجلى مظاهر الغبطة والسرور . وكانت هذه الاحتفالات هى الاخرى من أعمال الاذعان التي لم يسمع بها أحد من قبل ، وكان أساس المطالب العربية الرئيسي وبالتالي المبادىء التي تم قبولها وادماجها في الدستور الليبي انشاء برلمان ومنح الجنسية الايطالية لجميع الليبيين واعفاؤهم من الخدمة العسكرية الالزامية وكذلك من دفع العوائد والضرائب لأجل غير مسمى ومن حق المراقبة إلى غير ذلك . . . وتم التصريح بعد ذلك للموظفين العرب بإنشاء بعض الفصائل المسلحة للمؤسسات المحلية. وكان يجب أن

يتم نزع السلاح من أيدي السكان العرب (وكانت هذه هي رغبة الزعماء) بطريقة تدريجية غريبة كان يبدو ان من شأنها الا يتم الى الأبد ...

وفضلا عن ذلك التزمت حكومتنا بتبديل أوراق النقد التركية في أقصر وقت، وقدكانت لاتزال متداولة فيطرابلسالغرب بما يعادلها من النقودالايطالية وقد « أنشئت مراكز اتصال» في جميع مراكزالدواخل البنادر التيكانت بها في الماضي حاميات قوية من حامياتنا وهي « الزاوية » و « جنزور »و« مصراته » و« العزيزية » و«سرت» و«ترهونه» و «غريان» و«الرياينة» و« نالوت » و« بني وليد» . كما تم تعيين ضباط اتصال أصبحوا بسبب وظيفتهم مجرد وكلاءقنصليات ولو انهم لم يكونوا يتمتعون — ومن الجدير ان نلاحظ ذلك — بالامتيـــاز الأساسي الذي يمنحه قانون الشعب لمثل هـــذه الفئة من الموظفين وهو تأمين سلامته . وكان لضبـــاط الاتصال هؤلاء الحق في أن يكون في معيتهم بعض العسكريين وان يحملوا معهم ما يلزمهم وما لا غنى لهم عنه للخدمات والأعمال ومحطات اللاسلكي .

وفي شهر سبتمبر ١٩١٩ أعلن الدستور الذي فسره الاهالي بطبيعـة الحال وهو بشكله هذا على انه اعلان عظيم عن ضعفنا. وماذا كان يهم الذين قبلوا هذا الصلح اذا كانت هناك في« ترهونة »وفيكلطرقات « فزان »وعلى طول الشاطىء وفي الوديان المملوءة بالأوحال والأدوية المنعزلة لا تزال تبدو ناصعة البياض عظام جنودنا الذين قتلوا في عامي ١٩١٤ و ١٩١٥ ؟ كانت السياسة أي سيـــاسة الاسترخاء والضعف والتردد قد أخذت تنفث سمومهـــا وكل ما فيها من دناءة ومكائد اذ كان دعاتها يهمسون قائلين : « اننا جميعاً اخوة ! » ففقـــدنا بذلك الكثير في سنة ١٩١٩ التي كانت سنة الديماجوجية وسنـــة التنازل والهوان بالنسبة لايطاليا .

في تلك الاثناء كان لا يزال باقياً فيعدد كبيرمن المناطق كثير من المعسكرات تتألف من العساكر النظاميين الوطنيين وكان بقاؤها والانفاق عليها على حسابنا

ولو انها كانت مخصصة لخدمة الأعيان دون غيرهم ، وكان كل طلب نتقدم به لنزع السلاح منها يقابل بما يدل على الرفض ، فكانوا يعترضون علينا بوقاحة قائلين : ان هؤلاء الجنود النظاميين أكثر تنظيماً وأعظم خبرة من الجنود الايطاليين ويستطيعون الدفاع عن مختلف المراكز ضد الأعداء . ولكن ترى من كانوا هم الاعداء ؟ كان الاعداء في الظاهر هم أعداء الزعماء العرب الذين وقعوا الصلح معنا ، ولكن الاعداء في الحقيقة لم يكونوا احداً سوانا نحن الذين مع مرور الزمن كان يجب طردنا من تلك المعسكرات التي كنا ننفق عليها ! .

كان الزعماء الرئيسيون الذين جعلوا حقنا مقصوراً على سلطة وقتية وهمية غير مباشرة وعلى موقف من مواقف التسامح والهوان – كان هؤلاء الزعماء هم « رمضان الشتيوي » و « احمد المريض » و « الصويعي الخيتوني » و « عبد الرحمن عزام » و « محمد فكيني » و « علي الشنطة » والاخوان « هادي ومختار كعبار ».(« خليفه بن عسكر »وغيرهم..وسوف نرى في معرض الأحداث كيف ان الانتقام الإلهي قد أصابهم الواحد تلو الآخر .

أما مقدار تنازلنا الفادح فهذا ما تشهد به مأساة ضباط الاتصال فإنهم فضلا عن انهم لم يكن لديهم أقل نصيب من حرية العمل كانوا يقعون تحت رقابة وحراسة شديدتين وما كان من الممكن تنفيذ ما يقترحونه الا عندما يروق ذلك لزعيم المنطقة .

إلى هذا الحد وصل مركزنا الأدبي كما يدل على ذلك ما حدث عندما كان العلم الايطالي ينزل في المساء في « مصراتة » في تواضع وغير احتفال من فوق سارينه المقامة فوق المقر ، اذ كان الجنود النظاميون الوطنيون قد استدعوا للحضور إلى الميدان لكي يؤدوا التحية اليومية المعتادة بأسلحتهم وأفواههم للسلطان .

في تلك الأثناء لم يضع الزعماء وقتهم سدى إذ انهم بتوثيق العلاقات فيما بينهم شجعوا هيئة الاصلاح التي كانت قد تكونت بعد نشر الدستور وكان غرضها

الظاهر هو القيام باعادة النظر في الحقوق التي منحت في الآونة الأخيرة للحصول على حرية دستورية أوسع نطاقاً بينما كان غرضها الحقيقي هو الحصول على استقلال المستعمرة كلها استقلالاً تاماً حتى يصير احتلالنا مقصوراً على النفوذ التجاري .

ولقد كان ضباط الاتصال الايطاليون مضطرين الى مشاهدة مثل هذه الوقاحة وهذا الجبروت والتعنت وهم عاجزون عن عمل أي شيء والى احتمال ذلك التعصب وعدم التسامح الذي كان يبدو من الزعماء في كل مكان بشكل واضح جلي ضد كل تدخل من جانبنا حتى ولو كان ذلك يدخل في اعمال الادارة العادية .

ولقد صرح الزعيم « الهادي كعبار » من أعيان « غريان » في فبراير ١٩٢٠ انه قرر الاقامة في مدينة طرابلس وطالب باتخاذ مقر رسمي له في قلعتها الى جانب « السكرتير العام » مع الحصول على لقب « متصرف » طرابلس . وكان يقول بأن موظفاً من الوطنيين هو وحده يستطيع معرفة حاجيات الأهالي المسلمين الحقيقية .

لم تتم الموافقة على هذا الطلب غير المفهوم ومع ذلك فقد سمح « لكعبار » بإشغال بعض الأماكن في القلعة وبإنشاء مكتب فيها يقوم فيه باداء وظائف غير محددة تمام التحديد ولكنها كانت تدخل منطقياً في نطاق مناوراته الخبيثة .

في تلك الأثناء كان « رمضان الشتيوي » يرى فشل اطماعه وطموحه في السيطرة على « ورفلة » وحكمها وكانت هذه المنطقة في حيازة « عبد النبي بالخير » الذي كان رغماً من وقوفه بعيداً وعدم قبوله الدستور يبدي علامات واضحة على عدم ائتلافه بنا. ولم يكن قد قبل الخضوع للزعيم « الشتيوي » نظراً للأحقاد القديمة التي كانت بينهما في سنة ١٩١٥ . ومع ذلك فان هذا الأخير الذي استبد به الحقد على منافسه كان يدعي بأن حكومتنا قدمت له الوسائل اللازمة للزحف على « بني وليد » .

كان ذلك في شهر نوفمبر ١٩١٩ .وفي تلك الايام كان « رمضان الشتيوي» قد

نصب خيامه في « المشاشطة » فيضواحي « جنزور » وكان معه رجاله المسلحون النظاميون بقيـادة المغامر الشهير « عبدالله تمسكت » (ويلاحظ جيداً ان رجال « الشتيوي » كان يشرف عليهم فيما يختص بمرتباتهم ومؤنهم وملابسهم ضابط برتبة كولونيل وبعض ضباط أقل منه رتبة من الضباط الايطاليين) .

وعلى أثر بعض حوادث قليلة الأهمية وقعت بين اولئك المسلحين تبودل فيها اطلاق الرصاص بينهم اثناءها اتخذ « رمضان » من ذلك ذريعة للقيـــام بعمل شخصي ضد الحكومة التي لم تقبل طلبه من المساعدة في مشروعه ضد أهالي « ورفلة » ونزع خيـــامه ورحل متجهاً الى « مصراته » وأكد بأنه كان في استطاعته القيام بهذه الحملة على « بني وليد » .

وفي الوقت ذاته كان « الشتيوي » يعمل على تقوية علاقاتـه مع « خليفة بن عسكر » الذي كان يسيطر على « نالوت » ويحكمها حكماً اوتوقراطياً ويفتخر بذلك بكل وقاحة دون أن يهتم أي اهتمام أو يعير أي التفات الى وجود ضابط الاتصال الايطالي .

وفي تلك الأثناء لم يبق هناك أي اثر للأمن والطمأنينة . فقد نصب كمين في ضواحي « غريان » لإحدى سيارات النقل الخاصة بنا وفقد حياتهما في هـذا الكمين مدني وأحد العسكريين .

وفي يوم١٥ مارس انتهز خليفـة بن عسكر وهو في « نالوت » فرصة اعتقال الحكومة في مدينة طرابلس لقائد الجنود النظاميين في « الرباينـــة » « عيسى الباروني » وقـــام في حضور جنودنا وعلى مرأى منهم بانزال سارية المحطة اللاسلكية وأمر بمحاصرة المقر وبإخلاء مكتب الاتصال في مدة نصف ساعة .

ولم تكن هناك أية نتيجة لاحتجاجات ضابط الاتصال الايطالي الشديدة . وقد صرح زعيم « نالوت » الغادر بأنه قد يلجأ الى اتخاذ اجراءات شديدة .

وهكذا اضطر رجالنا القلائل الذين كان يبلغ عددهم تسعة الى الرحيل إلى

« الرياينة » بعد ان شاهدوا مصادرة اسلحتهم ومهماتهم وجميع امتعتهم . وبعد ذلك مباشرة بدأ « خليفه بن عسكر » في اتباع طرق ارهابية ضد كل من يظهر ميله الينا وزاد من التقرب من « رمضان الشتيوي » الذي هنأه تهنئـة حارة على الضربة الشديدة التي قام بها .

وبعد أيام قلائل من اخلائنـا لبلدة « نالوت » هوجم مركز الاتصـال في « الرياينة » واضطر رجاله هم الآخرون الى الانسحاب منها .

واستمر الموقف يزداد حرجاً في كل مكان يوماً بعد يوم . ولم تكن هناك أية ضمانة لضباط الاتصال الايطاليين؛ فقد كان الزعماء يؤكدون بوقاحة بأن هذه هي ارادة الشعب وبأنهم لا يستطيعون عمل أي شيء يخالف رغبة الشعب .

وكانت أعمال الجبروت التي يقوم بها « الشتيوي » في « مصراته » تزداد يوماً بعد يوم . فلم يكن باستطاعة أحد من الاهالي الابحار من مياه « مصراتة » بدون تصريح من السلطة المحلية .

وقد حدث اكثر من مرة أن قام القائمقام بإلغاء او اهمال التصريحـات التي منحها معتمدنا . ولم يكن هذا كل ما حدث بل أن كل من كانوا يحملون تصاريح المرور الصادرة منا فضلاً عن عـدم استطاعتهم الابحار كانوا يضربون بالسياط ويلزمون بدفع غرامات باهظة .

كان رمضان يعتقد ان الحكومة تنوي اسقاطه في يوم من الأيام وجعله يكفر عن خياناته السالفة . ولذلك فانه لم يكن يعمل أو يفكر إلا في التخلص من كل سيطرة لنا أو اقتراب منا .

وقد ارتكب الشتيوي اعمـال القسوة والتعذيب التي لا مثيل لها ضد امرأة كانت تميل الى الايطاليين لأنه أي « الشتيوي » كان قد شنق زوجهـا في سنة ١٩١٥ ، وكذلك أمر بضرب بحار عربي كان يتقاضى منا مرتباً . وذلك لأنه كان قد نزل على أمر صادر من معتمدنا وقـام بترحيل أحد رجال البوليس

التابعين لنا كان متجهاً الى طرابلس بدون ان يحصل على إذن من القائمقام .

وقد أظهرت هذه الأعمال بجلاء مدى ما وصل اليه استخفاف رمضان بسلطة الحكومة التي عندما رأت ان الأمور قد وصلت الى الذروة أمرت بأن تعود حاميتنا في الحال الى طرابلس .

وقد حاول « الشتيوي » منع تنفيذ هذا الانسحاب ، ووصل به الأمر الى حد التهديد بأسر الحامية . ولكن المسلك الحازم الذي سلكه ضابط الاتصال الايطالي كان له تأثير شديد على « الشتيوي » حتى انه لم يجرؤ على تنفيذ تهديده فأبحرت الحامية الصغيرة (التي كان مجموعها نحو خمسين رجلا) من مياه « مصراتة » في يوم ٢٨ مارس ١٩١٩ .

وفي النصف الثاني من شهر مايو وعلى وجه التحديد في يوم ٢١ مايو هوجمت سيارتان من سيارات النقل كانتا تحملان عدداً من الضباط والجنود من « خمس » الى قصر « القربوللي » لمعاينة طريق البريد الجديد ، وقام رجال رمضان بايقافهما واسرهما وجيء بهما الى « مصراتة » .

بعد ذلك مباشرة أصدر رمضان أمراً تليفونياً الى قائمقام « سرت » الحاج علي المنقوش وهو شخص كان شديد الاخلاص له بأن يقوم بأسر حاميتنا وبإرسالها الى مصراتة .

وفي فجر ٢٢ مايو تم القبض على المائة ايطالي الذين كانوا في حامية « سرت » تحت التهديد باطلاق الرصاص عليهم . وقد جرى التذرع بنفس الحيلة القديمة إذ قيل ان الاهالي قد ثاروا . وكان على القائمقام التدخل لحماية الايطاليين من غضب الشعب .

ولكي يظهر الحاج علي المنقوش بمظهر من يعمل على حماية رجالنا أمرهم بالتخلي عن أسلحتهم لتجنب ما هو أشد من الويلات . وما داموا قد نزعوا سلاحهم فلم تكن هناك فائدة من المقاومة نظراً لأن رجالنا القلائل كانوا محاطين

بقوات هائلة وقد جعلهم الحاج علي المنقوش يرحلون الى مصراته .

وفي يوم ٨ يونيو أطلق الرصاص على سيارة البريد في « القواسم » من ضواحي مدينة « غريان » وتم اسرها .

وفي الوقت ذاته قطع الخط التلغرافي بين « غريان » و « العزيزية » .

وفي اليوم نفسه انحاز رجال بوليسنا الوطنيون في غريان الى آل « كعبار » وتم احتلال جميع آبار هذه المنطقة بواسطة رجال هذا الزعيم المسلحين وصوب المدفعان الى مقرنا .

وبعد الظهر توجه « مختار كعبار » يحيط به حرس كبير « مكوّن من ٦٠٠ رجل » الى القلعة وطلب من ضابط الاتصال التسليم بدون قيد ولا شرط مع تسليم جميع الأسلحة والمهمات . وقد رفض المعتمد في أول الأمر الخضوع لهذا العمل الذي هو أشبه بأعمال اللصوص . ولكنه اضطر بعد ذلك للخضوع إزاء القوة القاهرة وتلا ذلك إحراق القلعة ونقل الاسرى الى « تغرنة » حيث وضعوا في مبنى كانت حكومتنا قد شيدته خصيصاً لتقديمه الى الأخوة هادي ومختار وراسم كعبار لكي يكون مقراً عصرياً وفخماً لإقامتهم .

وفي يوم ١٩ يونيه كان رتل من سيارات النقل يقل من فندق « الشيباني » سبعين أسيراً ايطالياً الى العزيزية تحت الحراسة .

وما كان اطلاق سراحهم سوى أسلوب من أساليب سياسة الخداع التي سمحت في الماضي لآل كعبار بالتلاعب بنا والضحك على ذقوننا .

* * *

زحف رمضان الشتيوي على « بني وليد ».

في تلك الأثناء كان رمضان الشتيوي في مصراته يستعد بكل ما لديه من قوة لتحقيق مشروعاته ضد « ورفلة » .

وفي يوم ٢٤ اغسطس انقض رجال « محلته » البالغ عددهم ألفي رجل فجأة على « بني وليد » التي كان يقوم على حراستها نفر قليل من اتباع « عبد النبي » المسلحين واستولوا عليها . ومع ذلك فقد كان رد أهالي ورفلة على هذا العمل سريعاً وحاسماً . فقد كانت الآبار كلها باقية تحت أيديهم، ومن جهة أخرى كان رجال « رمضان » قد خارت قواهم من التعب والحر والعطش وكانت الورقـة الرابحة في أيدي المدافعين، ونشب قتال غاية في الشدة والعنف وأُبيدت قوات رمضان عن بكرة أبيها واستسلم شخصياً ذلك الرجل الذي كان أكـبر خصوم الايطاليين وأعظمهم تجـبراً والذي لم يدع وسيلة منذ سنة ١٩١٢ وما بعدهـــا لعرقلة اعمالنا التي كنا نعملها لتهدئة البلاد ولإظهار عدائه علناً ومناوأته لكل عمل من جانبنا لا يدل على تدعـــيم سلطتنا فحسب بل على سخائنا وتسامحنا وامعاننا في نسيان الجرائم وعدالتنا في ادارة البلاد .

لم يكن هذا الرجل قد نال أي قسط من الثقافة ولكنه كان حاضر الذهن سريـع البديهة على أن ذكاءه كان مشوباً بسوء النيـــة . كما كان سيىء الخلق مدمناً على تعاطي الخمور . ولكنه ارتفع بعد ذلك الانحطاط السريـع ووصل الى مركز خطير بلغه بفضل جرأته وتعصبه ومساعدة الحظ له . وكان الألمان والأتراك أفضل دعامة من دعائم قوته وسلطانه .

ولقد كان أثناء الحرب الايطالية التركية بفضل شجاعته وميـــله الغريزي قائداً من بين قواد « المحلة » المرموقين . كان عدواً لكل من كانوا يرون عمله في الحكم اوتوقراطياً استبدادياً ظالماً . ولقد منعه عمل حازم في سنة ١٩١٥ من

من الاستمرار في عمله الاجرامي الذي كان يقوم بـه لإلحاق الضرر بنا إذ وقع أسيراً في أيدينا . ولكن عملاً آخر يدل على الضعف الشائن لا يمكـن تبريره أو تفسيره كان من شأنه إطلاق سراحه مرة ثانية .

وفي يوم ٢٩ – سنة ١٩١٥ غدربنا رمضان الشتيوي هو وجميع أفراد الفرقة التي كنا قد قمنا بتسليحها إبان المعركة التي نشبت بين آلاي الكولونيل « مياني» وبين الثوار في قصر «بوهادي» وذلك بأن انقض على الحملة وصب نيرانه على جنودنا . وأثناء دكتاتوريته (١٩١٥ – ١٦ – ١٧ – ١٨) أحل الغطرسة والتحكم محل القانون وبث في كل أعماله الحقد والقسوة المتناهين ضد كل انسان يتكلم عـن الايطاليين أو يظهر العطف على الايطاليين وضرب بالسياط أولئك التعساء الذين كانوا يطالبون بوجود قانون وحكومة حتى أدمى أجسادهم ، كما بتر أطراف من كانوا يقدمون لقمة مـن العيش إلى الأسرى من جنودنا وشنق كل مـن كانوا يحبون الايطاليين أو يتظاهرون بحبهم في سبيل مصلحتهم وربحهم .

أما كل من كانوا يحملون إلى الأسرى الايطاليين أخباراً طيبة عن عائلاتهم البعيدة فقـد جعلهم يموتون جوعاً وعطشاً كما أمر بقتل بعض الجنود وبضرب الاسرى من الضباط الايطاليين بالسياط .

وقد استمر في عصيانه إلى النهاية . وعندما رأى أن جميع إخوانه الآخرين قد استسلموا وان الشعب قد شعر بالتعب من الألم والقتال أراد إملاء شروطه . ورغماً من أن الآخرين قد نصحوه بالاستسلام إلا أنه لم يطلب الرحمة من اولئك الذين طالما غفروا له خطاياه . على انه قد قبل عفونا بشروط وتحفظات كما قبـل بعض الحقوق والامتيازات ولكنه اظهر في المقابلات العديدة انه لا يريد ان يقوم بأي واجب من الواجبات في نظير هذه الحقوق . فقبل وجود حاميـة ايطالية قليلة العـدد في مصراته واعتبر ضابط الاتصال الايطالي مجرد وكيل قنصلي وتجاهل جميع القوانين كما لو لم يكن هناك دستور . وقلب رأساً على عقب كل عمل من اعمالنا وعصى الاوامر ولم يقبل دعوات الحكومة له واخـذه غرور

العظمة واعتقد انه يمكنه التغلب بسهولة على منافسه « عبد النبي بالخير » زعيم ورفلة . ومن غلطاته التي لا تغتفر بوصفه زعيماً وطنياً انـــه اهمل التنظيمات المائية الخاصة بمحلاته (قواته) حتى ان هذه القوات ولو انها وصلت فجأة الى بني الوليد ولكنها كانت منهوكة القوى من العطش وغير صالحة للقتال . وكان رجاله يقدمون بنادقهم للنساء في نظير قربة من الماء .

ولما وجد نفسه على وشك الدمار بين قواته المسلحة والمختـلة النظام حاول هذا الزعيم انقاذ نفسه من هذا المأزق بحركة جريئة يقوم بها لأسر الزعيم الآخر. وكان هذا هو امله الوحيد في النجاة .

كان عبد النبي بالخــــير ينام ناعم البال في صباح يوم ٢٤ اغسطس في عشه الموحش عندما فوجىء بثلاثة من رجال رمضان المسلحين دخـلوا خلسة حتى غرفة نومه ودعوه باسم زعيمه لأن يتبعهم لمقابلته حيث هو .

ولما كان بالخير واسع الحيلة كثير الدهاء رابط الجأش فانه لم يفقد شجاعته وتظاهر بارتداء ملابسه ببطء نزولاً على امرهم. ولكنه ابدى اشارة متفقاً عليها وسرعان ما قام رجاله ودخلوا الغرفة فجأة ونزعوا السلاح من ايـدي رجال رمضان وقتلوهم .

بعد ذلك جمع عبد النبي بعض رجاله وبدأ باطلاق النيران من داخل بيته . وعندئذ هرع رجال « بني وليد » من كل مكان حاملين أسلحتهم وسرعان مـا وقع رجال رمضان في الفخ بسهولة . ورغماً مـن جهود زعيمهم وقـع رمضان نفسه في ايدي رجال « ورفلة » وقام رسول بإبلاغ نبأ أسر رمضان الى عبد النبي بالخـير . وسأله اذا كان في الاستطاعـة احضاره أمام خصمه مقيـداً بالاغلال فأجابه بالخير قائلاً : انكم اذا فعلتم ذلك فان واجبي بصفتي مسلماً يقضي علي بالعفو عنه .

وبعد عشر دقائق قدم اليه رأس رمضان الشتيوي.

وهكذا كانت خاتمة ألد خصوم إيطاليا وأكبر الحاقدين عليها وكان هذا من حسن حظنا. لأنه كان حائزاً لصفات الزعيم البربري[1] إلى جانب كفاية وسياسة غير معتادة ، كما كان زعيماً دينياً كبيراً استطاع الحصول على هذا المركز بالرغم من ماضيه الخلقي السيء . لأن هذا الرجل إذا كان قد بقي في قيد الحياة لكان أمامنا عمل كثير لمواجهة زعيم من الممكن أن تتجمع حوله قوات الثوار أثناء قيامنا بعمليات اعادة الاحتلال .

وقد استمر الناس في طرابلس وفي داخل البلاد مدى سنتين يشكون في نبأ وفاته ويتمنون أن يكون خبر وفاته من الأخبار الكاذبة .

بعد يومين اثنين وصل نبأ هذه المعركة الى ترهونه حيث كان قد ذهب اليها مؤقتاً ضابط الاتصال الايطالي في بني وليد . وعندئذ أسرع هذا الضابط بالعودة الى مقره حيث وجد أن كل مهماتنا كان قد نهبها رجال رمضان المسلحون وان جنودنا القلائل قد وصلوا الى حالة تدعو الى الرثاء لأن الحامية الصغيرة قد أسرعت بالعودة الى طرابلس في ٢ سبتمبر سنة ١٩٢٠ .

وفي شهر مارس سنة ١٩٢١ انسحبت أيضاً حامية ترهونه الى مدينة طرابلس لأن أكبر زعمائها المحليين احمد المريض الذي أغرقناه بالذهب والعطايا كان قد انضم بدوره الى الثوار .

ولم تبق على أقدامها سوى حاميات العزيزية وجنزور والزاوية بينما انهارت في كل مكان كل قوة لنا حتى تمثيلنا السياسي الصوري الذي كان قائماً فيما كان يسمى بمراكز الاتصال .

تأثير صلح الزيتونة على الموقف في الجبل ١٩١٩ – ١٩٢٠ .

بعد بضعة أشهر من الاتفاقيات التي أبرمت في سنة ١٩١٩ تقرر أن يعود أهالي « فساطو » و « الرحيبات » و « يفرن » البربر اللاجئون في زوارة الى

١ – صفة من البربرية والوحشية وليس من البربر .

بلادهم في الجبل وكان جميع الرجال الأصحاء ضمن جماعات « خوبيش » التي تكونت في اكتوبر سنة ١٩١٦ . عندما اضطر أهالي فساطو البربر الى ترك منطقتهم والالتجاء إلى « زوارة » بعد خمسة عشر شهراً من معارك مستمرة ضد الثوار العرب .

وقد تمت المفاوضة بطبيعة الحال في حل هذه الجماعات بعد إبرام الصلح .

وسرعان ما ظهر في الجو اتجاهان مختلفان : هل كان من الواجب اعادة البربر الى بلادهم وهم مسلحون أو بعد نزع أسلحتهم ؟ .

كان الزعماء العرب الذين فاوضوا في الصلح يطلبون نزع أسلحتهم وكانت الحكومة تساند هؤلاء إلى حد ما .

أما « خربيش » وزعماء آخرون من البربر يساندهم قائد منطقة « زوارة » والضابط السياسي بمنطقة «النوايل » فكانوا يصرون على القول بان من الانسب عودة هؤلاء البربر وهم مسلحون . وذلك لأن جميع الأهالي المجاورين لأراضيهم كانوا مسلحين تسليحاً تاماً .

ولذلك كان ارسالهم في غير سلاحهم الى الجبل معناه تعريضهم لأعمال الأخذ بالثأر والانتقام ولأحقاد اعدائهم السابقين .

أخيراً بعد أخذ ورد طويلين اقتنعت حكومة طرابلس بترك أسلحتهم في أيديهم وكانت هذه الأسلحة تبلغ نحو ١١٠٠ بندقية وقرابينه حملها البربر معهم الى الجبل وقد عادت الأسر بأجمعها تقريباً الى الجبل بين شهري نوفمبر وديسمبر .

بعد انقضاء فترة أولى وقعت اشتباكات وحوادث ليست بذات أهمية كبيرة مع الزنتان والرجبان .

أصبح البربر عاجزين عن التردد على الاسواق الموجودة في الاراضي المجاورة لهم .

وهكذا كانت العلاقات مقطوعة بينهم قطعاً حقيقياً وبين القبائل العربية التي بدورها استعملت الطريقة ذاتها وقطعت علاقاتها بهم . وكان الناس في كلا الجانبين مسلحين جميعاً ويستمرون في البحث يجنون عن البنادق والمؤن والذخائر والخيول . وكانت النفوس بعيدة كل البعد عن الهدوء ومتوترة إلى حد بعيد . وكان من الممكن أن يؤدي أقل حادث بدون شك إلى استئناف الحرب بين العرب والبربر .

وقد بدأ هبوب العاصفة في الواقع في « نالوت » التي كان يسيطر عليها خليفة بن عسكر . ذلك اللص المخادع الغادر الذي حرك في سنة ١٩١٤ ثورة نالوت بهجومه على احدى قوافلنا وقتل حراسها والذي قام بعد ذلك بالهجوم على حاميتنا في « تكوت » وأسر رجالها والذي أمر بطرد ضابط الاتصال الايطالي في سنة ١٩٢٠ بعد أن منع فرقة الهجانة من الانتقال الى غدامس وكتيبة ليبية الى نالوت. وكان ذلك الرجل متقلباً شريراً قاسياً ضعيف الايمان . ولكن لم تكن تنقصه مع ذلك الشجاعة الشخصية والبراعة الحربية وقد بقي في غاية الضيق من ان مجموعة من جنودنا الخيالة قد استقرت في « بيشول » لمنع أعمال التهريب على الحدود التونسية ولو أن هذه البلدة كانت بعيدة عن الجبل في « الجفارة الغربية » .

عندئذ سنحت الفرصة لمحمد فكيني بأن يناصر سلطة الحكومة وأخبرها بأنه يستطيع الزحف بقواته « بمحلاته » في « الزنتان » و « الرجبان » على « نالوت» للانتقام من ذلك العار الذي لحق به بطرد ضابط الاتصال . وقد وعد بأن يقوم بأسر ابن عسكر بذاته .

وفعلاً كان القصد من تلك الحملة التي يقوم بها زعيم الرجبان هو التخلص من خصمه الوحيد الذي كان ينازعه السلطة المطلقة على الجبل .

وقد كلف فكيني بقيادة. هذه الحملة ولده حسين الذي كان يدرس الحقوق في مدينة تورينو على نفقة الحكومة ، وقد أعلن أهالي فساطو حيادهم عندما

طلب منهم المشاركة في هذه العملية .

ولكن بينما كانت طرابلس تعضد هذه الحملة كانت هناك أيضاً محاولة سلمية للصلح مع « بن عسكر » وأرسل « سليمان الباروني » في يونيه سنة ١٩٢٠ إلى « نالوت » وكان لهذا الأخير نفوذ عليه . فاستطاع إقناعه بحسن استعداد الحكومة ونصح له بالحضور إلى طرابلس ، فانتقل اليها في يوليه سنة ١٩٢٠ وحصل هناك على العفو من الحكومة . بل لقد منحته هدايا وهبات طائلة ، كما دفعت له مرتباته المتأخرة بوصفه قائمقام ...

وبعد ذلك اتخذ طريق العودة . ولكن عندما وصل بن عسكر إلى بيشول في مساء يوم ٢٧ يوليه سنة ١٩٢٠ وجد عدة رسائل من أخيه « عمر » يبلغه فيها أن « فكيني » وغيره من زعماء « الزنتان » و « الرجبان » قد أذاعوا أثناء غيابه إشاعات بأنه تم اعتقاله في طرابلس وأنه لن يعود بعد ذلك إلى «نالوت». وقد علم كذلك أن جماعة قوية من « الزنتان » و « الرجبان » قد أغارت في « مرقس » على مواشي البربر في يومي ٢٠ و ٢١ يوليه وأخذت معها عدة عائلات عربية .

ولما وصل بن عسكر الى نالوت جمع في أوائل سبتمبر كل الرجال المسلحين في المنطقة ودفع بهم على « الحرابة » التي كانت معظم بلادها قد ناصرت « الرجبان » .

وقد التقى فرسانها في ١٢ سبتمبر بالرجال المسلحين الذين كان يقودهم نجل « فكيني » الذي حصل في ذلك اليوم على انتصارات كبيرة . حتى ذاع في طرابلس خبر هزيمة « بن عسكر » .

ولكن في اليوم التالي وصلت قواته كلها بأكملها الى ميدان القتال وتمت هزيمة قوات « الرجبان » و « الزنتان » وقد لقي حتفه في هذه المعركة نجل « فكيني » شخصياً . وملأت هذه الهزيمة قلوب الأهالي جميعاً بالهلع والرعب .

وذلك لأن خليفة بن عسكر قد تشجع بهذا النصر الذي حصل عليه وتقدم نحو «الرحيبات» وصمم على معاقبة أهالي «الرجبان» في بلادهم.

أما أهالي «فساطو» البربر الذين كانوا أعلنوا في بداية الأمر حيادهم إزاء الحرب بين «فكيني» وخليفة، فانهم عندما رأوا أن هذا الأخير قد هاجم أهالي «الرجبان» و«الحرابة» انضموا الى صفوفه وخضموا له.

وعندما كان «خليفة» يتقدم من «مرقس» بكل قواته نحو أراضي أعدائه كان يعاقب أثناء مروره أهالي بلاد «الرحيبات» الذين كانوا يناصرون «فكيني» دائماً.

ولما ازدادت قواته بانضمام قوات بربر «فساطو» اليها هاجم ونهب «تاردية» وبلاداً أخرى من بلاد «الزنتان» و«الرجبان» التي لجأ أهلوها الى «قبله» و«الشاطيء» وانسحب زعماؤها الى طرابلس طالبين عون الحكومة.

وبعد ذلك بشهر عاد خليفة بن عسكر الى «نالوت».

وهكذا بدأت فترة من فترات الهدوء. ولكن أهالي «الزنتان» و«الرجبان» كانوا يضمرون الأخذ بالثأر والانتقام.

الحرب بين البربر والعرب سنة ١٩٢١.

انتهت الشهور الاخيرة من سنة ١٩٢٠ وأوائل سنة ١٩٢١ بسلام وهدوء في «الجبل».

وقد ذهب «سليمان الباروني» الى الجبل لكي ينصح «خليفة بن عسكر» بالصلح مع أهالي «الزنتان» و«الرجبان». ولكن عمله دل على العكس من ذلك، على أنه كان يحرضه على الصراع.

وفي الواقع إن سليمان قد استطاع أن يحول الى جانب البربر كل بلاد

« يفرن » و « الرياينة » وقام بمفاوضات مع أهالي «المشاشية» و «بوسيف» الذين كانوا يعطفون على البربر وعلى خليفه . وقد انتقل بنفسه في فبراير سنة ١٩٢١إلى « يفرن » ولكن قام في وجهه أهالي « الزنتان » فضلاً عـن أهالي « الرجبان » وكذلك أهالي « غريان » و « ترهونة » .

وكان الجميع يرون في سليمان الباروني الرجل الذي يسعى لتكوين إمـــارة بربرية ، وهي الإمارة التي كان قد اقترح إنشاءها في أثناء حرب سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ قبل هزيمة « الاصابعة » .

أما الحكومة فرغماً من أنها كانت تبدي عطفها على البربر عن طريق قيادة « زوارة » وكانت تساعدهم إلى حد ما فانها كانت تحتفظ بعلاقات المودة مع « الزنتان » و «الرجبان » . وكانت تذاع إشاعات بأنها أرسلت اليهم ذخـائر ومدفعين من مدافع المتراليوز .

أما هذا التردد بين جانب وآخر الذي كان يبدو أنه قد تم بقصد تطبيق نظرية « فرق تسد » فقد ظهر أنه لا جـــدوى منه ، بل كان له أسوأ الأثر وضاراً بنا ، وذلك لأن هذا العمل السياسي لم يكن يعتمد عـــلى مركز حربي قوي يستطيع في الوقت المناسب فرض إرادة الحكومة على الجميع .

ولسوف نرى فيما بعد كيف تغير هذا الاسلوب . فان خليفة بن عسكر قد عاد الى نالوت في أواخر فبراير بعد زيارة قام بهـــا لبلدة « جادو » وأعطى تعليمات مناسبة تتصل بتلك الاشاعات الذائعـــة حول انشاء محـله « لزنتان » و « الرجبان » في القبلة .

وسرعان ما وقعت بعد ذلك بقليل بعض الحوادث .

فانه لما ذهب أحد أهالي « فساطو » الى أراضي « الرجبان » التي كانت قد عادت اليها بعض الاسر من شهرين أو ثلاثة أشهر اعتدى عليه بالضرب رجال مسلحون من « الرجبان » وجردوه من أمتعته .

وقد قام أهالي « فساطو» بدورهم وذلك أخذاً بالثأر لأنفسهم بقتل رجلين من « الرجبان » كانا يقومان بالعمل في أراضيهم .

وقد أثار هذا العمل رغبة شديدة في الانتقام وفعلا حدثت بعد ذلك بقليل غارة بالجمال اضراراً باهالي « جادو » .

في ذلك الوقت أقام عدد كبير من أهالي « الزنتان » و «الرجبان » بقصد الرعي أيضاً خيامهم في « رأس الحسن » وهي جهة على مسيرة سبع ساعات تقريباً من « جادو » وقد شغل هـــذا العمل بال أهالي «فساطو » وأخافهم . فقامت كوكبة كبيرة من الفرسان في أواخر إبريل من « جادو » وقصدت إلى « رأس الحسن» واستولت على بعض قطعان الماشية بعد أن قتلت نفراً من أهالي « زنتان » . فاجتمع المسلحون من المخيمات في الحـــال وساروا في أثر المغيرين واستردوا منهم الماشية بعد أن أوقعوا بعض الخسائر في كوكبة الفرسان الــتي لجأت الى بلادها وأثاروها ونبهوها الى الخطر .

فهرع أهالي «فساطو» الى حمل اسلحتهم ولكن معظم رجالها كانوا منتشرين في أنحاء البلاد للقيام بأعمال جني المحاصيل الزراعية .

وعاد معظم الأهالي الى بلادهم.وتلا ذلك أن لاذ الجميع بالفرار وعلى رأسهم القائمقام سليمان بن سعيد والقاضي واندفع معظم الأسر الى « شكشوك » ومنها الوطـية . وانتشر الهياج أيضاً في « الرحيبات » .

على أن بعض الزعماء فهموا أن هذا الفزع كان لا مبرر له. اذ انه بعد صدام مع المسلحين من البربر انسحب أهالي « الزنتان » ولاذوا بالفرار .

وسرعان ما هرع « خليفة بن عسكر » مـن « نالوت » وأوقع بالقائمقام والقاضي عقوبة شديدة لأنهما ضربا أسوأ الأمثلة للأهالي .

وقد خشيت الحكومة من أن يعود اندلاع نار القتال وأرسلت الى «جادو» « يوسف خربيس » ليقوم باعادة تنظيم رجال « فساطو» المسلحين .

وقـــد نسي خربيش اهمال الحكومة له الذي لم يكن له مبرر ذلك الاهمال الذي استمر حوالي سنتين . وسافر بعزيمة صادقة الى « جادو » حيث تحدث مع « خليفة بن عسكر » الذي كان قد جاء الى نالوت بعد أيام قليلة مـن وصوله .

وفي تلك الأثناء كانت الحكومة قد أمرت في مايو التالي بعملية استطلاعية للطريق من «الزاوية» الى مـــا وراء «بيئر الغنم» بواسطة قوة مسلحة بقيادة « ميتزيتي » وهي تأمل بذلك ايقاف زحف العرب على البربر .

ولكنها رأت بعد ذلك وجوب الامتناع عـن أي تدخل آخر جرياً على سياسة التردد التي كانت تتبعها .

وفي شهر مـايو بالذات أحس سليمان الباروني بضعف مركزه في يفرن ، ولذلك طلب تدخل خليفة الذي لحق بـــه بجميع فرسانه في أوائل يونيه . ولكنه سرعان ما هاجمته قوات آتية من « غريان» كان الأهالي العرب المحليون قدانضموا اليها واستطاع هو بكل جهد النجاة بحياته وعاد بفرسانه الى«جادو» بينما التجأ البربر من أهـــالي « يفرن » بعائلاتهم الى الشاطىء بين « العجيلات» و «الزاوية ».

وهكذا فقد الباروني على حين غفلة كل آماله وكل ما كان له من هيبة .

ولقد كان من شأن زيارة صاحب السمو الملكي الامير«امبيرتو دي بيمونتي» لطرابلس التي تمت في سبتمبر التالي أن جعلت الحكومة تعرف انه من الممكن التوصل الى نشر الهدوء واحلال الصفاء بين مختلف السكان .

وفعلاً وصلت من داخل البلاد وفود من كل القبائل تقريباً لتقديم التحيـة لصاحب السمو الملكي .

وقد بدا أن هذه الآمال كانت في محلها ولها ما يبررها . فقد جاء خربيش شخصياً بهذه المناسبة ولم يصحبه خليفة بن عسكر اذ رأى من الملائم بقاءه في الجبل حتى لا يترك قيادة المنطقة في أيدي اناس لا كفاءة لهم للقيام بها .

ولما وصل خربيش إلى طرابلس أخبر الحكومة أن الأمور في القبلة غامضة كل الغموض وطلب مساعدات للبربر من ذخائر وبنادق ومدافع أيضاً . ومع ذلك فقد كان يصر بصفة خاصة على قيام الحكومة باحتلال الجبل احتلالاً تاماً حقيقياً ، وبأنه كان يرى هو وابن عسكر أن استئناف الصراع أمر قريب الوقوع ويخشى أن يكون سبباً في إراقة كثير من الدماء .

هزيمة البربر (اكتوبر – نوفمبر ١٩٢١) .

حدث فعلاً في ليلة ١٠–١١ أكتوبر ١٩٢١ أن قامت جماعة قوية من « الزنتان » بعد الاتفاق مع بعض العناصر العربية من بلاد « الرحيبات » ودخلت فجأة في بعض هذه الجهات السالفة الذكر ونهبت منازل البربر وقتلت كل من وجدته منهم ومن بينهم مدير الرحيبات المتقدم في السن وعدداً من الأعيان من انصار خليفة فانتشر الفزع بين كل بربر « فساطو » الذين عندما وجدوا انفسهم بدون زعيم ثابت لديه القوة والسلطة – اذ كان خربيش في طرابلس وخليفة في « نالوت » – تفرق شملهم وانسحبوا في غير نظام في اتجاه « الجفارة » ونحو حاميات الشاطىء .

ووصل اوائل اللاجئين من « فساطو » و « الرحيبات » ومعهم القائمقام « سليمان بن سعيد » إلى « الوطية » في يوم ١٣ من ذلك الشهر وقد امر الحاكم « فولبى » وكان في روما في تلك الأيام بأن يقوم الكابتن « كورو » الضابط المعتمد في « النوايل » بالتوجه من « جميل » إلى « الوطية » لإقناع المسلحين البربر بالعودة الى الجبل وان يحملوا معهم الى « نالوت » لتقويتها « محله » « خليفة بن عسكر » واشغال بلادهم مرة ثانية .

وسرعان ما أرسل « ابن عسكر » من نالوت بعض الرسل لإثارة بربر « فساطو » و « الرحيبات » وحثهم على الانتقال الى « نالوت » ولكن لم يلب طلبه

هذا سوى عدد يزيد قليلاً على المائتين من بين تسعمائة من المسلحين ، بينما لم يشأ الآخرون وأسرهم ترك « رقدالين » والأراضي الساحلية . وقد انقضى شهرا اكتوبر ونوفمبر في هدنة نسبية في الجبل حيث كان الطرفان يتأهبان لاستئناف القتال في أقرب وقت .

لم تر الحكومة بدأً من الخروج من صمتها وأمدت « خليفة بن عسكر » علناً بالاسلحة والذخائر بينما كانت تسعى في تلك الاثناء بكل ما لديها من وسائل وما لها من نفوذ لجعل « فكيني » يسمح للبربر بالعودة الى أراضيهم بسلام .

وقد وضع « خليفة بن عسكر » في أوائل ديسمبر مقر قيادته العمومية في « كاباو » حيث استعرت نار القتال مرة ثانية على حين غفلة في يوم ٧ ديسمبر وامتدت حتى يوم ٨ من ذلك الشهر وقد أبلى البربر و « ابن عسكر » شخصياً بلاءً حسناً وأبدوا شجاعة فائقة ولكنهم اضطروا الى الخضوع ازاء العدد الضخم من القوات التي كانت تحاربه .

ولما رأى « خليفة بن عسكر » ان كل شيء قد ضاع جمع عدداً قليلاً من الابطال واحتل بهم مضيق «فرسطة» الخطر الوعر. وهكذا منع في اليومين الثامن والتاسع تعقب رجال « الزنتان» لقواته . وأرسل في تلك الاثناء الى أخيه « عمر » في نالوت اخطاراً عاجلاً بالقيام بإجلاء السكان والسير بهم في طريق الحدود المؤدية الى « بيشول » وبأنه سوف يلحق به . وقد نزل من « فارستا » الى « الجفارة » وجمع كل المسلحين الذين استطاع جمعهم وسار بهم على سفح الجبل حتى وصل الى نالوت التي اتجه منها الى بيشول بمحاذاة جموع اسر البربر اللاجئة التي كانت تتجه عن طريق الحدود صوب « بيشول » و « الوطية » وهي تكاد تكون محرومة من كل شيء وذلك للدفاع عنها ضد اي غارات يحتمل وقوعها من جانب اهالي « الزنتان » .

وفي يوم ١١ نقل ثلاثة من « السبايس» الذين كانوا موجودين في الجبل من نحو اثني عشر يوماً الى طرابلس خبر الهزيمة بكل تفاصيلها . وقد اعلن خطاب

قال كتبه خليفه بن عسكر من « بيشول» كيف تم وصول البربر الى « الوطية » في اليوم الثاني عشر . وبعد ان ترك البربر « نالوت » و « كاباو » أصبح كل الجبل الغربي ابتـــداء من « يفرن » حتى الحدود التونسية تحت سيطرة العرب الذين كان غضبهم الوحشي المدمر يصيب كل المراكز الرئيسية .

وفي أواخر ديسمبر خيم في « الوطية » حوالىعشرة آلاف شخص مـــن الجائعين المهلهلي الثياب .

وهكذا كانت هيبتنا تنزل الى الحضيض باستمرار. وقد بـــدا أن هذا هو الحادث الاخيرمن حوادث ذلك الصراع القديم العهد القائم بـــين البربر والغزاة العرب ، اذ أن خمسة عشر قرناً من الحكم الاسلامي في « افريقيا » لم تنجح في جعل البربر ينسون ماضيهم وأسماء اجدادهم ، فهم يعيشون في عزلة تامة عن الأسر العربية التي ترجع اصولها واسماؤها الى اشخاص آتين من الشرق يؤمنون بالتعاليم القرآنية وبمعزل ايضاً عن الكتلة الاسلامية الكبيرة لأنهم ينتمون الى الطائفة « الاباظية » التي تحاول اعادة شقاق الخوارج القديم الى ما كان عليه بأن اتخذت لنفسها لغة خاصة وعادات خاصة سواء في « زواره » او في « جبل نفوسة » و « غدامس » و « سوكنه » و « غات » وهم يشعرون بأنهم تسيطر عليهم كل السيطرة تقاليد قديمة تفوق على التعاليم الاسلامية ويرجعون الى فترة الحكام البيزنطيين وغارات الفاندال والى المعارك « الدوناتية » الحامية الوطيس ويتمسكون بها . ويرجع البربر بذكرياتهم الى قرطاجنة ولما كانوا مقتنعين من ان الله قد منحهم الارض التي يسكنونها ولو انهم عاجزون عن ان يجعلوا من انفسهم شعباً متحداً قوياً فإنهم يحتفظون بروح المغامرة كاملة وبحمى الاستقلال وبالعزة والإباء وينتظرون بفارغ الصبر وبحمية ذلك اليوم الذي يظهر فيـــه لتحريرهم وتخليصهم أحد أبناء كسيلة أو الكاهنة أو ابن خالد بن حـامد الزناتي ابن عبد الملك بن ابو خطاب ابن ابو حاتم . وهذه كلها اسماء محاربـــين اقترنت اسماؤهم بأساطير مجـــد المعارك التي وقعت بين وديان مراكش السحيقة في « مضارب القبائل » وفي سهول تونس ومنحدرات جبل « نفوسة » ومسالكه

الملتوية وفوق صفحات الصحراء التي لا تبلغ العين مـداها حيث قام اجدادهم بالقتال في سبيل الحصول على استقلال بلادهم .

هذا ويقوم شيوخ البربر الذين يعرفون كيف يبعثون ذلك الماضي بنقل هذه الاسماء بمنتهى الدقـــة الى ابنائهم واحفادهم . تلك الأسماء التي يعتبرونها اسماء مقدسة تغنى بهـــا كبار الشعراء .. كما يعلق رجل الطوارق في راحلته ذلـك الصليب الذي عبده آباؤه والذي تحمله الفتاة البربرية وتضعه فوق الوشم الذي يزين جبينها وكما تحيي العادات مرة ثانية ذكريات روما الوثنية تحت الخيام وفي القلاع القديمة الى جانب خرافات الشرق وعباداته – بهذه الكيفية يتجدد كل يوم حلم البربري بالاستقلال .

ولقد قاتل البربر أثناء حرب احتلال طرابلس الغرب قتـــالاً عنيفاً تحت قيادة سليمان الباروني ولما ألحق بهم الهزيمة الجنرال « ليكويو » في « الاصابعة » استسلموا في « يفرن » ومن ذلك الحين أخذوا يناصرون الحكومة .

وفي سنة ١٩٢٢ نزلوا الى الميدان إلى جانبنا ضد عدونا المشترك العرب ثم ساعدوا في كل الحملات التي جهزت لإعادة الاحتلال وقدموا الدليل على اخلاصهم التام ومناصرتهم لقضيتنا .

وهم اليوم حراس الجبل الطبيعيون وتتكون منهم جماعات غـــير نظامية بقيادة ضباطنا كما تتألف منهم وسيلة فعالة من أكبر وسائل سيطرتنا السياسية والعسكرية فوق الخطوط الجبلية .

الفصل الثاني

تغير الاتجاه

تغيير الاتجاه

إعادة احتلال ميناء مصراتة..

كان لهزيمة البربر أكبر الأثر في نفس الحكومة وكان له رد فعل عظيم لدى جميع سكان السواحل بما فيهم أهالي « زوارة » الذين كانوا يخلصون لنا كل الاخلاص ، لأن الجميع كانوا مقتنعين بأن زعماء البلاد الداخلية الذين أصبحوا من الآن فصاعداً المسيطرين على الجبل حتى بلدة نالوت لا بد ان يسرعوا في البدء بالهجوم على الشاطىء . وكانت أعمالهم الوحشية في تلك الأثناء تستعر نيرانها في « الجبل » حتى استحالت كل من « نالوت » و «كاباو» و « جادو » و « يفرن » ركاماً واطلالاً ولا شيء غير ذلك .

وكان البربر اللاجئون إلى « الوطية » و « العجيلات » و « صرمان » يتألمون أشد الألم بعد ان أصيبوا بالهزيمة والهوان بسبب اضطرارهم لترك أراضيهم التي نشأوا فيها ، ولم يكن هناك أي أمل لدى زعمائهم البارزين في ان تقوم الحكومة بأي عمل من أجلهم .

أما « سليمان الباروني » فانه بعد أن بقي بعض الوقت في « زوارة » وبعد ان ضاعت منه تلك السيطرة الشكلية التي كانت له على قومه وتلاشت ، وبعد

فراره المخجل من « يفرن » تلقى دعوة بترك طرابلس الغرب ، فسافر الى منفاه في باريس ولم يعد بعد ذلك مرة أخرى .

وأما « يوسف خربيش » الذي قدم لنـــا في ١٩١٦ - ١٧-١٨ الكثير من البراهين والأدلة على اخلاصه وعلى شجاعته وهو يقود جماعاتــه من البربر الذين كانوا يقومون بمساعدتنا فانه كان لا يزال مقيماً في مدينة طرابلس بعيـــداً عن الاشتغال بالسياسة لاستيائه من المعاملة السيئة التي عومل بها في سنة ١٩١٩ عندما كانت الحكومة تتملق زعماء الثوار وتوقع معهم اتفاقيات « خلة الزيتونة » بينما تخلت عن الزعماء القلائل الذين بقوا خداماً مخلصين لهـا حتى ولو كانوا ممن أبلوا البلاء الحسن مثله في ميدان القتال .

في مثل هذه الظروف لم يجد الأهـــالي البربر أمامهم أي زعيم من الزعماء يتطلعون اليه ويعلقون الآمال عليه .

ولهذه الأمور كلها كانت هيبة حكومة طرابلس، وبالتالي حكومة روما قد انحطت ولم يعد لها وزن في نظر جماعات الوطنيين التي كانت تعمل في الخفاء في المراكز الرئيسية بينما كان زعماء الثوار المقيمين في الضواحي والجهات النائيـــة يتسابقون لمحاولة العمل على فرض ارادتهم ويصوروننا أمام النـــاس في صورة العاجزين عن الاحتفاظ بطرابلس الغرب بأية حال من الاحوال وباننا سنضطر الى اخلائها في أقرب وقت .

ولقد وصلت في أواخر شهر ديسمبر من داخل البلاد اشـــاعات تؤكد أن الزعماء الذين هزموا البربر وهم « محمد فكيني » و« علي الشنطة » و«احمد الصيد» و « سالم عبد النبي » والاخوان احمد والمهدي السني من زعماء « والرجبان والزنتان » والشيخ سوف « زعيم يفرن » فضلاً عن رجال آخرين من أعضـــاء الجمهورية القادمين من « مصراتة » و « ترهونة » و« غريان » كانوا قـد أعدوا خطة للهجوم على « زوارة » الغرض منها إحداث ضغط عام لإجبارنا على الجلاء.

وفي الوقت ذاته كان أعضاء لجنة الاصلاحات في روما يعملون لخلق جو في ابطاليا تسوده روح الضجر والملل والاشمئزاز .

وكانت حكومة روما المركزيةالضعيفة المصابة بوباء الديمقراطية الاشتراكية تمانع في القيام بأي عمل من أعمال القوة لإعادة هيبتنا في المستعمرة كما كانت معادية لأي عمل يرمي إلى سيطرتنا على داخل البلاد .

إزاء هذا الموقف المحزن شاء حظ ايطاليا ان يقوم بتقرير مصير المستعمرة رجل مثل صاحب السعادة الكونت « فولبي » الذي تسلم مقاليد الحكم فيها في يوليه ١٩٢١ . لأنه بعد أسابيع قليلة من وصوله الى مدينة طرابلس وسيطرته على الموقف سرعان ما اقترح على الحكومة المركزية في روما إعادة احتلال شواطىء مصراتة لقطع ذلك الجمود وللتعجيل بالقيام بالاعمال الحربية .

ولكن حكومة روما التي كان يرأسها « بونومي » ضنت عليه بالوسائل اللازمة ورفضت ما طلب وتذرعت في رفضها هذا بأسباب تتصل بالسياسة الداخلية خلافاً لما عرضه الوزير المسئول (جيوزبي جيرارديني) الذي كان يشاطر حاكم طرابلس آراءه ويوافق على اقتراحه .

ولما عاد الحاكم إلى روما في سبتمبر ١٩٢١ ألح في ضرورة القيام بهذه الحملة واحتلال شواطىء « مصراتة » ولكنه لم يحصل إلا على موافقة الوزير « جيرارديني » وحده .

وكان من شأن الحوادث التي وقعت في الجبل وهزيمة البربر الذين كان يتمثل فيهم آخر مظهر من مظاهر نفوذنا الشكلي في داخل البلاد وتلك الاستعدادات التي قام بها زعماء الثوار للقيام بعمل عدائي على الشاطىء ، كان من شأن ذلك كله ان أقنع صاحب السعادة السنيور « فولبي » في اكتوبر ونوفمبر وديسمبر بضرورة العمل للخروج في آخر الأمر من موقف الموتى هذا الذي كان يهدد بشل أي قرار من القرارات التي تصدرها الحكومة المركزية .

ولقد كتب صاحب السعادة الحاكم « فولبي » في كتابه « نهضـة طرابلس الغرب » بمنتهى الدقة والحزم ما نصه :

« لقد أعددت العدة في صمت تام لاحتلال شواطىء « مصراتة » بالوسائل الحربية ووسائل النقل الموجودة في المستعمرة وقررت القيام بالعمل في يوم ٢٦ يناير ١٩٢٢ وقد صعدت أنا بنفسي على ظهر السفينة « البرازيل » وهي باخرة من بواخر الركاب كانت تعمل إذ ذاك في الخط المـــلاحي سيراكوزا – طرابلس احتجزتها في الساعة الاخيرة . وكان العرب يعتقدون ان احتلال شواطىء مصراتة لن يتم ابداً، وذلك لأن استعداداتنا التي كانت معروفة لديهم كانت تسمح لهم بالوصول في الوقت المناسب للدفاع عن ذلك الشاطىء المنبسط المفتوح ضد أية حملة، حتى ولو كانت تقوم بهذه الحملة قوات هائلة. اذ كانوا يعرفون حق المعرفـــة انه ليست هناك أية حكومة تستطيـع أو يجب عليها المغامرة بالقيام بمشروع أولي يكلف الكثير من الضحايا والدماء للتغلب على دفاع سهل من البر .

ويرجع الفضل في هذه الحملة البحرية على « مصراتة » قبل كل شيء إلى الصمت المطلق الذي احيطت به كل الاستعدادات التي تمت ، وإلى شجاعة القوات القليلة التي قامت بهذا العمل، ثم الى عنصر المفاجأة المطلقة التي فوجىء بها العرب الذين تقدموا بقوات كبيرة بعد ثلاث ساعات من نزول أوائل جنودي إلى البر ووجـدوا أنفسهم أمام المتراليوزات التي كان يصوبها اليهم جنودنا الأريتريون العظام ».

وما دام العمل قد بدأ فلا بد من السير الى النهاية .

كانت قوات الحملة (بقيادة الكولونيـل « بيتساري ») تتألف من الفصائل التاليـــة :

كتيبتين من الجنود الأريتريين .

وفرقة من رجال المتراليوزات .

وبطارية جبلية .

وفرقة مختلطة من فرق المهندسين .

ووحدة صحية .

وفرقة من رجال الضبطية .

يبلغ مجموع اسلحتها حوالي ١٥٠٠ بندقيـة و ٤ مدافع جبلية من عيار ٦٥ و ٣٤ مدفعاً من مدافع الميتراليوز .

الوسائل البحرية التي كانت تحت تصرفها :

الباخرتان « البرازيل » و « أمالفي » .

المدمرتان « لانشييري » و « اورفيو » .

اثنتان من حاملات المدافع « اباسترو » و « دي لوتي » .

زورقان من طراز « ماس » .

هذا فضلاً عن عوامات النزول الى البر وهي اربعة مواعـين أبحرت من طرابلس وستة قوارب بمجاذيف تابعة للبـاخرة « البرازيل » .

الجرارات والقاطرات :

زورقان من طراز « ماس » دون غيرهما . ولكن نظراً لقلة ارتفاع الغاطس لم يؤديا إلا أقل الخدمات . ولذلك حلت محلها المواعين التي نظراً لتقلب البحر كانت مضطرة للتنقل بالمجاذيف بمنتهى الصعوبة .

وقد تم إعداد العدة لقيادة هذه القوات كلها على أساس ضرورة الوصول إلى شواطىء « مصراتة » فجأة وبالبدء في النزول إلى البر قبل ان تستطيع قوات الثوار المجيء من مدينة « مصراتة » .

وفي ليلة ٢٥/٢٤ يناير أوصدت جميع مخارج مدينة طرابلس حتى لا تتسرب أخبار الحملة عن طريق البر .

وفي الساعات الأولى من يوم ٢٥ تلقى الجنود ورجال الخدمات الأمر بركوب السفن . ولكن لم تكن هناك أية اشارة إلى المكان الذي يقصدونه ·

وبعد ظهر ذلك اليوم اخذت مختلف الوحدات البحرية المساعدة وسفن النقل طريقها الى عرض البحر الواحدة تلو الأخرى .

وفي الساعة السابعة مساء كانت الباخرة « البرازيل » آخر سفينة تركت مرساها وخرجت الى البحر وركب على ظهرها قائد الحملة وصاحب السعادة الحاكم .

وفي فجر اليوم التالي تجمعت مختلف السفن عند مرتفع « مصراتة » واقتربت من الشاطىء بالشكل الذي كانت تتطلبه عملية الرسو المحددة .

وعند بزوغ الخيوط الأولى من نور الصباح بدا الشاطىء واضحاً ومقفراً وكان البحر إذ ذاك لحسن حظنا هادئاً .

وفي الساعة السابعة إلا ربعاً نزلت الى البر أول وحدة من وحدات الكارابنييري ورجال الضبطية ونحو عشرة من الجنود الأريتريين ومعهم مدفع من مدافع الميتراليوزات دون أي عائق واحتلوا على الفور حصن « بايستروكي » الصغير بينما رفع علمنا عليه .

ولم تمض دقائق قليلة حتى نزلت الى البر فصيلة اخرى من جنود الكارابنييري ونصف الفرقة الأريترية من السفينة « اباسترو » وهكذا تمت تقوية احتلال الحصن الصغير .

وفي ذلك الوقت بدأ نزول الجنود ايضاً من الباخرتين « أمالفي » و « البرازيل » .

وبعد ذلك بقليل كانت فرقتان اخريان قد نزلتا الى البر رغماً من عدم وجود وسائل النقل المناسبة ونقص الجرارات والقاطرات .

بدأ البحر يضطرب . وبينما كانت أعمال النزول إلى البر تزداد صعوبة ساعة بعد أخرى ابتدأ نشاط الثوار حوالي الساعة العاشرة حيث اطلقوا نيراناً حامية من بنادقهم انهالت بشدة حتى على المنطقة التي كان ينزل فيها جنودنا من سفنهم .

في تلك الأثناء تم احتلال النقطة الأساسية التي سبق تحديدها للنزول فيها . تلك النقطة التي كان يجب ان تكون مقصورة في بادىء الأمر على الخنادق القديمة التي حفرت في سنة ١٩١٢ .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف نزلت إلى البر قوة من الأريتريين ومعها مدفعان رشاشان تحت حماية نيران بطارية السفينة « اباسترو » واحد الزوارق « ماس » واتجهت الى ضريح « بوشعيفة » واضطرت الثوار القلائل الذين كانوا قد جاءوا اليه إلى اللواذ بالفرار واستقرت فيه .

وهكذا منعت هذه القوة كل محاولة من جانب الاعداء لضرب منطقة رسو السفن وقاعدة النزول الأساسية .

ومن تلك اللحظة كان من الممكن الاعتقاد بنجاح العملية وضمان سلامتها . وباحتلالنا للخنادق التي قام القناصة بحمايتها وبوضع يدنا على المنطقة الكائنة شرق ضريح « بوشعيفة » وغرب حصن « بايستروكي » الصغير كان باستطاعة دفاعنا الصمود أمام أي هجوم من جانب الأعداء .

وفي الساعة الثالثة والنصف مساء كانت كل القوات قد نزلت الى البر .

وبينما كانت الفصائل تعمل بدون توقف لتنظيم خط الدفاع كان انزال المهمات يتم بمنتهى السرعة رغماً من اضطراب البحر ومعاكسته وقلة العوامات والنشاط الحربي المتزايد من جانب الثوار الذين كان يزداد عددهم باستمرار. وقد هبت

عاصفة هوجاء عرضت المدمرات والزوارق لخطر جسيم وقلبت خمس عوامات مشحونة بالمهمات ولم تسمح باتمام أي عمل من هذا النوع من بعد ظهر يوم ٢٨ حتى عصر يوم ٢٩ .

في تلك الاثناء تم في طرابلس استخدام الفصائل القليلة التي كانت موجودة بمنتهى الحذر ، وأمكن اعداد قوة أخرى من الجنود لمشروع احتلال « مصراتة » .

وفي يومي ٢٩ و٣١ وصلت على ظهر السفينتين « كانوفا » و « امالفي » الى « مصراتة » فعلاً الفرقة التاسعة عشرة الاريترية المختلطة وفرقة من فرق عمال المشاة وفصيلة ليبية جبلية وقسم من بطارية المدافع الثقيلة .

وقد استقبلت السفينة « كانوفا » بطلقات من المدافع واضطرت الى العودة إلى عرض البحر وكانت هذه هي العلامات الأولى لاشتراك مدفعية خصومنا في المعركة . وقد أمكن تقوية أعمال الدفاع بفضل القوات الجديدة التي وصلت إلى الميدان .

كذلك تم احتلال حصن « بيلينو » الذي كان جزءاً من جهاز الدفاع عن ضريح « بوشعيفة » .

أما العدو الذي كان منذ الأيام الأولى قد بدأ في حفر صفوف من الخنادق بطول الخط المؤدي الى مدينة « مصراتة » فانه في تلك الاثناء كان كلما يشعر بنفسه اكثر وثوقاً واطمئناناً يزيد ضغطه على ميسرتنا وبذلك يهدد المواصلات بين قلب خطوطنا وموقع « بوشعيفة » المنعزل واستمر يبدي نشاطه على طول الجبهة بأسرها . وكان تحت تصرفه مدفعان رشاشان وبعض مدافع الميدان وقنابل وبنادق ومدفع صغير من عيار ٣٧ وثلاثة مدافع من عيار ٧٠ و ٧٥ و ٨٧ .

وهكذا كان ضرب العدو لميسرتنا شديداً ومتواصلاً حتى اصبح من اللازم القيام بهجوم مضاد على الدور المتجمعة في الجهة الجنوبية الغربية من ضريح «بوشعيفة»

التي كانت تقوم علينا أشد هجماته .

وفي فجر يوم ٤ فبراير تحركت فصيلتان اريتريتان من « بوشعيفة » اثناء الليل في صمت تام وانقضتا على العرب انقضاض الصاعقة .

حدث في نفس اليوم ان قام العدو مرة ثانية باحتـــلال الدور التي كنا قد دمرناها في الصباح .

وهكذا انقطعت المواصلات بيننا وبين « بوشعيفة » مرة اخرى . ولم تفد تلك النيران القوية التي صبتها مدفعية السفينة « فيكتور عمانويـــل » التي وصلت الى مياه « مصراتة » يوم ٢ فبراير في طرد العرب واخراجهم من الدور التي كانوا متحصنين فيها والتي بقــوا فيها في عناد واصرار ودقوا لأنفسهم بها « اسفيناً » في خطوط دفاعنا واخذوا يهددون ضريح « بوشعيفة » والحاميـــة بأسرها تهديداً خطيراً .

كان من اللازم القيام بعمل حاسم لإيجاد مخلص من هذا الموقف الخطير .

وما إن وصلت من طرابلس فرقتان اريتريتان اخريان وثــلاث مصفحات طلبت على وجه السرعة حتى تقرر الهجوم دون تأخير لمنع أي محاولة للتقدم قد يقوم بها العدو ولتحديد خطنا بحيث تدخل في نطاقه مواقع العدو التي تسيطر على مواصلاتنا مع « بوشعيفة » ورقعة الماء التي ترابط فيها سفننا.

وفي يوم ١١ فبراير بعد القيام باطلاق نيران مدفعيتنا البرية والبحرية مــدة وجيزة ولكن بعنف خرجت قوات الهجوم من الخنادق جنوب الطريق المؤدية الى مدينة « مصراتة » واتجهت الى الجهة اليمنى وهاجمت بعزيمة صادقــة مواقع الأعداء .

ولقد نجحت هذه العملية التي تمت دراستها بجميع تفاصيلها بمنتهى العناية نجاحاً باهراً رغم المقاومة اليائسة التي أبداها العدو مدى خمس ساعات كاملة.

وهكذا ارتفعت روح جنودنا المعنوية ارتفاعاً هائلاً . فقد كان الايطاليون منهم والاريتريون والليبيون يتسابقون في هجومهم وفي إظهار شجاعتهم واثبتوا انهم فوق كل مدح وثناء . وقام العرب باخلاء القطاع الجنوبي في اليوم ذاتـــه وانسحبوا في اليوم التالي (١٢ فبراير) الى « الزروق » وتركوا مساكن « قصر أحمد » .

وهكذا وضع صاحب السعادة الحاكم « فولبي » باحتـــلال شواطىء « مصراتة » خاتمة لفترة الهوان الذي شعرنا به اثناء وقوفنا موقف الدفاع، وكان انتقالنا الى فترة عمل هجومي مجيد معناه قلب كل اساليبنا السياسية والحربيـة رأساً على عقب .

ولقد كان ذلك بمثابة أول ضربة أصابت قوة الثوار الخيالية في الصميم .

نتائج إعادة احتلال شواطىء مصراتة .

« منعني تلف حدث في جهاز الارسال اللاسلكي الخاص بالباخرة «البرازيل» من ابلاغ روما نبأ احتلال شواطىء « مصراتة » قبل عودتي الى طرابلس .

وبعد بضعة أيام أرسل الي الوزير « جيرارديني » الذي لم يكن قد عرف ما صممت على عمله على وجه الدقة كلمة وعد فيها بتأييدي وبتضامنه معي؛ ولم يكن ذلك بكل تأكيد بمشاطرة معظم اعضاء الحكومة التي سقطت بعد أيام قلائل» .

هذا ما قاله صاحب السعادة السنيور « فولبي » في مقدمـة كتابه « نهضة طرابلس الغرب » .

وقد قال في مكان تال ما نصه :

« تولى الحكم على أثر استقالة وزارة « بونومي » السنيور « فاكتا » وكان وزير المستعمرات في وزارته هو السنيور « امينـــدولا » الذي لم تكن لي به

معرفة شخصية تقريباً في ذلك الوقت .

ولقد كانت أولى اتصالاتي التلغرافية بالوزير الجديد جافة وقد تلاها مجيئي إلى روما لتقديم التفسيرات التي طلبت مني والتي قدمتها للجنة وزارتي الخارجية والمستعمرات البرلمانية » .

« ... وفي ذلك الوقت كانت الاشتراكية الديمقراطية المسعورة في سبيل ما يسمونه بحماية الشعوب المظلومة تزمجر وتحتج على مغامراتي الاستعمارية » .

بهذه الكيفية استقبلت روما وفسرت نبأ اعادة احتلال شواطىء مصراتة ، وقامت من ايطاليا حملة استنكار شديدة من جانب المترددين والضعفاء ودعاة الهزيمة ضد ذلك الحاكم الحازم الجديد وضد ارادته الثابتة .

واننا إذا دققنا في هذه الحوادث تعود بنا الذاكرة إلى «مجلس شيوخ روما» القديم « الذي عارض ذلك الاقتراح الذي قدمه « شيبوني الافريقي » بضرورة نقل ميدان الحرب إلى افريقيا لضرب مدينة « قرطاجنه » ورفض تقديم أية مساعدة مادية له وضن حتى آخر لحظة بأي تأييد أدبي لذلك الزعيم الذي اضطر أن يفكر مباشرة بنفسه في كل شيء يختص بتأليف هذه الحملة ابتداء من تجنيد المتطوعين من الرجال حتى بناء السفن وجمع الأموال ، كما لو كان امر انقاذ روما وهيبتها مسألة خاصة به وحده .

ولقد أحدث خبر اعادة احتلال شواطىء مصراتة تأثيراً وقلقاً شديدين بين العرب .

ورأى المشتغلون بالسياسة من الطرابلسيين في هذا العمل الحازم اهانة وامتهاناً لاستقلال البلاد واخلالاً بنصوص الدستور الصادر في سنة ١٩١٩ وبما تضمنه من وعود ، وصاحوا طالبين استعمال القوة والعنف .

ولكن سرعان ما اضطر أعضاء اللجنة الوطنية البارزون إلى الاقتناع

بضرورة تغيير الاتجاه ازاء تصرفات الحاكم الجديد ومسلكه الحازم .

وهكذا بدأت سياسة استبعاد الزعماء الموثوق بهم أو الوسطاء الوطنيين عن شؤون الحكومة . تلك السياسة التي كانت في الماضي مصدراً للدسائس والمضاربات والرشوة والفساد .

كان يجب على الحكومة ان تعمل بنفسها حسب عبارة صاحب السعادة السنيور « فولبي » التي قالها وهي :

« لا مع الزعماء ولا ضد الزعماء ولكن بدون الزعماء » .

تلك العبارة التي أصبحت النقطة الرئيسية التي تعتمد عليها كافة الاعمال السياسية الخاصة بالاستيلاء على البلاد من جديد وذلك باحلال عمل الوكلاء تدريجياً بين الأهالي محل عمل الزعماء الوطنيين الذين فقدوا بهذه الطريقة كل تدخل سياسي بقيامهم بوظائف المساعدين والأعمال الادارية البحتة .

وكان هذا العمل يتطلب همة وحزماً وعزيمة صادقة في سبيل تجديد وإبعاد اشخاص في بلد لا تزال تسود فيه الانظمة الاقطاعية والدينية وأوجد فيه ظلم الزعماء في كل مكان مصالح خاصة وعملاء له بين الاهالي من الصعب زعزعتهم أو التغلب عليهم .

احدثت اعادة احتلال شواطىء مصراتة بين زعماء البلاد الداخلية غضباً شديداً مشوباً بدهشة وهلع شديدين .

وسرعان ما استيقظ فجأة كل اهالي الشرق الذين جيء بهم الى « الجبل » للاشتراك في قتال البربر ثم عادوا الى بلادهم .

أما اهالي الغرب وعلى رأسهم « محمد فكيني » الذين انتصروا على البربر وهزموهم والذين كانوا يحلمون بالقيام بزحف يسير على الشاطىء فقد أذعنوا لما قدم لهم من نصائح .

وأما البربر اللاجئون الجائعون الذين ذاقوا الذل والهوان في كل جهة من جهات الشاطىء الغربي فقد رأوا باباً من أبواب الأمل ينفتح أمامهم لاسترداد بلادهم التي تركوها والتي أصابها الخراب والدمار .

في حين ان المستوطنين الايطاليين الذين كانوا يتألمون لضعف هيبة الحكومة الذي أثر في كل ناحية من نواحي نشاطهم الاقتصادي قد تلقوا بالغبطة والفرح هذا الحدث الجديد وعلقوا عليه الكثير من الأماني والآمال الطيبة .

واذا كانت هذه هي كل النتائج السعيدة التي ترتبت على هذا الحادث الموفق الذي كان يعتبر انموذجاً من نماذج الغزو البحري بقوات كبيرة فان من الطبيعي ان يشتد رد الفعل الذي احدثه في داخل البلاد بعد ذلك بقليل من الشرق الى الغرب وان تستعر نيران الثورة والعصيان من جديد ويحمل جميع الثوار السلاح .

ولما فشلت المحاولات التي قام بها العرب لطردنا وارجاعنا الى البحر في « مصراتة » تحول هجوم العدو الى الغرب على خطوط مواصلاتنا « بزوارة » و « العزيزية » .

وبالفعل قطع في اليوم التاسع من فبراير خط السكة الحديدية بين طرابلس والعزيزية وتم عزل هذه البلدة الاخيرة التي كان يتكون منها إذ ذاك ابعد مراكزنا الأمامية (وكانت فيه الكتيبة الاريترية العاشرة) نحو الجنوب (على مسافة ٤٥ كيلومتراً من طرابلس) .

وفي يوم ١٩ مارس التالي قطع ايضاً خط السكة الحديدية الموصل الى « زوارة » واحتلت بعض عناصر الثوار بقيادة الشيخ فرحات بك واحة « الزاوية » التي كانت تحمي مساكنها كتيبة اريترية واحدة .

وفي آخر شهر مارس كان الموقف على النحو التالي :

احتلال منطقة طرابلس والخمس وزوارة وشواطىء مصراتة . وكانت

الاتصالات بينها تتم عن طريق البحر وحده .

احتلال العزيزية والزاوية . ولكن كانت الاتصالات بينها وبين طرابلس بالسكة الحديدية مقطوعة .

اتخذت القوات المعـــادية التي تجمعت في كل مكان على وجه السرعة خلال الخمسة عشر يوماً الأولى من شهر ابريل مراكزها في الاماكن الآتية :

جنوب الزاوية	٧٠٠ رجل مسلح منهم ١٠٠ من الفرسان
منطقة جنزور سواني بني آدم	٧٠٠ رجل مسلح منهم ٥٠٠ من الفرسان
منطقة فندق بن غشير	١٢٠٠ « « « ١٥٠ « «
سهل العزيزية	١٠٠٠ « « « ٢٥٠ « «
شرق المجينين	٤٠٠ مسلح بين راجل وفارس
بئر « ترينة »	٣٠٠ » بينهم ١٠٠ فارس

ويبلغ مجموع معدات هذه القوات ٤٣٠٠ بندقية و ١٢٠٠ حصان .

بينما كان مجموع قواتنا الموجودة في المستعمرة في بداية العمليات هو كما يأتي:

٤ كتائب ايطالية (الكتيبة الاولى والثانية من كتائب المتطوعين والكتيبة رقم ٢٤١ من كتائب المشاة ورابعة من الحاميات) .

٤ كتائب ليبية (الأولى والثانية والخامسة والسادسة) .

٢ كتيبة اريترية (الثامنة والعاشرة) .

٤ كتائب اريترية مختلطة مؤلفة من اريتريين واحبـاش من خارج الحدود (رقم ١٧ و١٨ و١٩ و٢٠) .

٢ فرقة من السواري .

٣ فرق من الخيالة (السباهيس) .

٣ بطاريات (واحدة جبلية ايطالية ، وبطاريتان جبليتان ليبيتان) .

فرقة من الهجانة .

٨ سيارات مزودة بالمدافع الرشاشة .

وليس هـــذا هو مجال المقابلة التي ليست مشرفة أو مستحبة على وجـــه الاطلاق .

على اننا لا نرى بدأ من إلفات نظر القارىء الى هـــذه الارقام والى أرقام القوات التي كانت موجودة فعلاً بالمستعمرة في آخر سنة ١٩١٨ لا لشيء الا لكي نستخرج منها درساً عن القيمة العظيمة للعلاقات بين العدد والعامل المعنوي .

وفي سنة ١٩١٩ التي كانت سنة الدعوة البلشفية للهزيمة والسنة التي انحطت فيها قيمة انتصارنا ، كان الناس يفضلون شروط صلـح مذلة ومهينة على هجوم كانت قد أعدت له قوة مؤلفة من ثمانين الف رجل . وكذلك كان الحـال في سنة ١٩٢٢ اذ استطاع عمل رجل واحد متزن رابط الجأش عالي الهمة قوي العزيمـة بعيد النظر رغم ارادة الحكومة المركزية ان يواجه هذه المسألة بذاتها بقوات تقل عن ربع القوات التي كانت معدة في سنة ١٩١٩ .

ومع هذا فقد أرسلت الحكومة الى الحاكم ثلاث كتائب من جنود «اريتريا» (الكتائب الأولى والرابعة والخامسة) وذلك دون أن يتقدم اليها الحاكم بأي طلب من هذا القبيل .

في تلك الاثناء كانت لا تزال تجري تلك السياسة القديمة التي كانت عزيزة على الزعماء وتدر عليهم الكثير من الاموال ، وكان هؤلاء الزعماء قد اجتمعوا في «فندق الشريف» لمفاوضة الحكومة الايطالية مفاوضة الند للند . وقد حضر هـــذا الاجتماع « احمد المريض » زعيم ترهونة الذي كان قد نودي بـــه أميراً

« لطرابلس الغرب » منذ وفاة « رمضان الشتيوى » و « الصويعي الخيتوني » و « مختار كعبار » و « عثمان القيزاني » وغيرهم من الزعماء الاقل منهم شأناً. وكان برنامجهم هو الابقاء على اتفاقيات صلح « خلة الزيتونة » . وقد تم تبادل وجهات النظر في عدة اجتماعات .

ولكن ما أكثر ما كانت وجهات نظرهم تختلف عن تلك التي أبديت في سنة ١٩١٩ عند ما كان المكتب السياسي يتفاوض تحت خيمة « رمضان الشتيوي » في احتفال مهيب لوضع شروط الصلح ! اذ ان الذين توجهوا الآن للمفاوضة باسم صاحب السعادة الحاكم هم رجلان اثنان ورجل اجنبي عن الحكومة موثوق به ، وكان يقوم بالترجمة بين الطرفين في الاجتماعات .

وبطبيعة الحال لم يتم التوصل الى اي اتفاق جوهري نظراً لطلبات الزعماء غير المعقولة التي كانت تتعارض كل التعارض مع ارادة الحاكم وعزمه الصادق على المحافظة على هيبة الحكومة وسيادتها التي لا نزاع فيها .

وهكذا انقضت في يوم ١٠ ابريل الفترة المحددة بصفة شبه هدنة التي أفاد منها صاحب السعادة الحاكم وقائد القوات الايطالية الجنرال « تارانتو » لتحسين الجهاز الحربي واعادة تنظيم قواته .

وعندئذ قيل للجنود عبارة « الى السلاح » وهي الكلمة المقدسة التي تقال دائماً عندما يريد المرء فرض ارادته على خصمه المشاكس . ولكن قداستها تتضاعف مائة مرة اذا ما قيلت في السياسة المتبعة ازاء الوطنيين ، أي عندما يتصل المرء بالعقليات البربرية التي يعتبر حكم القوة ازاءها هو الحل المقنع الوحيد.

* * *

وقداعدت اتجاهات واضحة ودقيقة سواء في الحقل السياسي او العسكري.

في الحقل السياسي : بسط سلطة الحكومة على جميع اهالي « طرابلس

الغرب » بدون قيد او شرط . وكان يجب ان يكون هذا شرطاً نافذاً تسير عليه وتعمل على تحقيقه كل سياسة في المستقبل .

ولذلك كان يجب الخروج من ذلك الموقف الغامض المذل بالقيام بعمل سياسي واسع النطاق يضع الاهالي والزعماء امام احد امرين :

اما الخضوع والاستسلام . واما الثورة والعصيان .

كان صاحب السعادة السنيور « فولبي » مقتنعاً بأن المسألة الليبية ، والطرابلسية بوجه خاص ، كانت مسألة تخص بعض الزعماء القلائل الطموحين والمشاغبين وليس لها علاقة حقيقية بمسألة الجامعة الاسلامية الواسعة النطاق .

واما من الناحية الوطنية ، فرغماً من انه كان يعلم بأن البلاد تصف كل عمل يتم للمحافظة على كرامتنا بانه مغامرة من المغامرات ، قد تنبأ بالتغلب عليها في وقت غير بعيد . واراد وضع ايطاليا امام الامر الواقع بان قطع الطريق على كل رجوع الى الوراء وعلى كل ندم على ما فات .

في الحقل العسكري : اولاً — القيام باحداث تنقلات سريعة للقوات الاحتياطية في ميدان العمليات العسكرية الفسيح لوضع جميع القوات التي تحت تصرف القيادة في ميدان القتال الرئيسي .

ثانياً — القيام بعمل مناورات خارجية على خطوط النار في كل ميدان من ميادين العمليات الحربية على حدة بواسطة عدة طوابير تقوم من نقط مختلفة ومتباعدة نحو هدف جوهري رئيسي او اهداف مختلفة مما يجعل العدو مضطراً إلى التفرق وتغيير اتجاهه والعجز عن الحركة .

ثالثاً — استعمال القوة في ميدان التكتيك على نطاق واسع ، وكذلك بتجزئتها الى عدة طوابير وترك طريقة التموية التي تتلف امكانيات المناورة ولا تدع شكاً في اتجاهات الزحف وتفسد اثر التكتيك العربي القديم الذي يرمي الى القيام بحركة تطويق .

مبادىء تكتيكية .

ا – عدم إعارة أي اهتمام لعدد قوات العدو ولو كان ضخماً . إذ أنه من الممكن الحصول على النصر دائماً بقوة الهجوم المفاجىء وبالثقة التي لا تتزعزع في النجاح .

ب – يجب أن تكون الاهداف الرئيسية لكل عملية من العمليات هي « محلات » الثوار ، والبحث عنها في كل مكان ومطاردتها كما يطارد كلب الصيد الفريسة ، والانقضاض عليها في المواقع التي تنتظر فيها او في مكامنها لإشغالها في عقر دارها وايقاعها في الارتباك حتى لا تستطيع ان تجد مخرجاً تهرب منه . ولا يجب ان تترك لها أية لحظة للراحة او مهادنتها قبل ايقاع الهزيمة النهائية بها. ثم يجب القيام بعد ذلك على الفور بتعقب الجماعات الهاربة للقضاء عليها ادبياً ومادياً .

ج – يجب اثناء الزحف على الهدف ان يضع الزاحفون نصب اعينهم الوصول في اقل وقت ممكن ومن الطريق الذي سبق تحديده من قبل ، دون الاهتمام بالمحاولات العقيمة التي يقوم بها الخصم للالتفاف بهم ، تلك المحاولات التي لا يمكنها الا ان تبوء بالفشل ازاء الهجوم المضاد الذي يتم بسرعة الصاعقة .

د – يجب تقدير قوة الخصم بقيمتها الحقيقية . ويجب الا ننسى ان شجاعته لا ترتكز على أساس متين ، وانه لا يستطيع أن يضع امام قواتنا الفخورة الا جموعاً خائفة مترددة لا تعرف النظام الا بضرب السياط . وليست لذلك في حالة تسمح لها بان تصمد طويلاً لقتال جنودنا الذين تربوا وترعرعوا على اداء الواجب والذين تعلموا النظام حتى التضحية .

ه – يجب ان نذكر دائماً ان من مواهب خصومنا ومميزاته العظيمة ما يأتي :

احتياجاته القليلة التي تقلل الى أصغر الحدود ضرورة ايجاد مساكن لرجاله، ثم سرعته في الزحف ومقدرته الكبيرة على الحركة في ميدان التكتيك ومهارته على مواجهة قوات خصمه الكبيرة العدد وإشغالها بتشكيلات قليلة العدد .

ثم ان لديه احساساً حربياً غريزياً في منتهى الدقة يسهل له الخلاص من هجماتنا المباشرة والعمل على تطويقنا بحركات واسعة يقوم بها بالاعتداء فجأة على فصائلنا المنعزلة أو غير المترابطة . وهذا الاحساس يجعله يتقدم أكثر مما يجب للعمل على اطالة العملية العسكرية حتى تحين اللحظة التي ينهك فيها التعب والطقس جنودنا ، ويصبحان عاملاً من العوامل الفعالة في المرحلة الحاسمة . ثم يضاف الى ذلك مقدرته الهائلة على القيام بمناورات يستغلها حتى لا تسمح القوات الموزعة على جبهة طويلة للخصم بتقدير قوته الحقيقية ومعرفة اتجاه هجومه على وجه الدقة .

وبالجملة فان العرب ، نظراً لصفاتهم الحربية الغريزية العظيمة ، وللسهولة التي يستطيعون بها تحويل هجومهم الى كل اتجاه، ولأنهم لا يعتبرون الارض مظهراً تكتيكياً للعمليات الحربية ولا يهتمون بالاحتفاظ ولو مؤقتاً بالاراضي التي في حوزتهم — تمتاز حروبهم بخفة الحركة الى حد بعيد . ولكنهم عندما يحال بينهم وبين ذلك اما بواسطة مناورة حربية مضادة قوية نقوم بها، او من جراء ضرورة مواجهة زحف من جانبنا يضطرهم الى اتباع خطط حربية تكاد تكون مشابهة لخططنا يبقون في حيرة في بادىء الامر لا يعرفون أي اتجاه يتخذون، ثم يكون من السهل انزال الهزيمة بهم وسحقهم اذ أنهم لا يستطيعون الاعتماد على الوسائل الآلية الاحتياطية التي هي على العكس من ذلك متوفرة لدينا .

العمليات على طول الساحل الغربي بين «زوارة» و «الزاوية» و «العزيزية» تتم على مرحلتين :

المرحلة الاولى : على طول الشاطىء الغربي بين طرابلس وزوارة بقصد تحرير « الزاوية » من احتلال الثوار وإعادة المواصلات بالسكة الحديد الرئيسية – وقد اشترك فيها جنود طرابلس بقيادة الكولونيل « كووتوري » وجنود « زوارة » بقيادة الكولونيل « جراتزياني » . ولم يكن قد بقي في « زوارة » سوى الكتيبة الليبية الاولى . بعد ان تناقص عدد رجالها بسبب العجز في التجنيد الذي جعله انحطاط سمعتنا امراً صعب المنال . وفرقة من الخيالة (السواري) والبطارية الثانية الليبية التي كانت تحمي هذه الجبهة منذ نقلها إلى طرابلس عند ابتداء العدوان .

وقد طلب زعماء البربر الذين كانوا متغيبين هناك من قائد المنطقة (الكولونيل جراتزياني) باصرار إنشاء جماعات مسلحة منهم . ولكنهم كانوا رجالاً غير أكفاء وجشعين ؛ وكل ما كانوا يطمعون فيه هو الحصول على مكاسب على حساب الجنود ، كما هي عادة كل زعيم من الزعماء . وكذلك فإن خليفة بن عسكر من « الوطنية » أمطرنا برسائله التي طلب فيها تكوين جماعة من المسلحين تحت امرته . ولقد كان خليفة هذا في الحق زعيماً حربياً عظيماً ، وأبدى دلائل واضحة على ذلك في تلك الحملة العسكرية الأخيرة التي قاتلت في الجبل ، والتي تميزت بانسحاب فريد في بابه تمَّ تنفيذه على خير الوجوه بفضل همته وعبقريته العسكرية . ولكن ماضيه في الخيانة التي لاتغتفر جعلت قائد المنطقة والحكومة يشتبهان فيه ويترددان في إعطائه الاسلحة .

ومع هذا فقد كان من اللازم أن يبقى رجل خطير للغاية مثله مرتبطاً بنا

ببعض امتيازات صغيرة قدمت اليه ، وبوعود بهبات كبيرة حتى لا يعود الى إظهار عداوته لنا علناً .

وقد قدمت اليه على سبيل المساعدة خيام وأدوات وأموال لإعادة رجاله اللاجئين في « الوطية » . وكذلك منح ثلاثمائة بندقية لتوزيعها على رجاله ، إذا ضمت إلى الخمسمائة بندقية التي في أيديهم يصبح من الممكن استكمال الدفاع عن هذا الموقع المتقدم الذي كان يوجد فيه الرئيس « كورو » مع جزء من جنود الخيالة (السباهيس) .وقد نيط به هذا الواجب مع تعيينه قائداً عسكرياً في خدمة الحكومة حتى يصبح مسؤولاً .

وفي « زوارة » صرح القائمقام علي بن شعبان علناً بأن أهالي « زوارة » يستطيعون أداء واجب الدفاع عن أراضيهم وحدها ، دون أي تعهد منهم باستخدام رجالهم المسلحين المحليين خارج منطقتهم .

كانت هيبة الحكومة لا تزال منحطة إلى درجة كبيرة، كما ان الثقة بها كانت قليلة مما جعل هذا الموظف المتفاني في إخلاصه لنا يضع تحفظاته إذ كان يقرر بصراحة أنه لا يستطيع توريد الجمال ، حتى لا يؤخذ هذا العمل بمثابة ذريعة للانتقام منه من جانب زعماء الثوار .

وعندما بدأ في العمل على إنشاء القوة التي كان عليها أن تعمل في اتجاه الزاوية ، وصل به الأمر إلى أن طلب من قائد المنطقة أن يمتنع للأسباب السالفة الذكر عن الخروج بقواته من « زوارة » . وكان لا يمكن تبرير هذه التحفظات إلا لما لها من علاقة بتلك اللحظة العصيبة والتي لم يحسب لها القائد أي حساب أو يقيم لها وزناً – عندما أكد للقائمقام علي بن شعبان بأن في استطاعته إذا ما لزم الأمر أن يحصل على الجمال بالقوة ، كما فعل ، وانه يستطيع أن يخرج مع قواته إلى أي مكان يشاء .

أما فيما يختص بالبربر المقيمين في « فساطو » و « يفرن » ، فإنه عندما أراد

تجنيدهم من جديد لم ير بداً من الالتجاء إلى « يوسف خربيش » الذي كان يعيش في طرابلس بعيداً عن الحياة العامة .

ولما سأله الكولونيل « جراتزياني » باسم صاحب السعادة الحاكم عن رأيه في ذلك ، جرؤ هو أيضاً على وضع بعض التحفظات والشروط ولكنه سرعان ما تنازل عنها. وكانت هذه علامات تدل على الشك والارتياب اللذين كانا يساوران في تلك الأوقات أشد أنصارنا إخلاصاً من بين الوطنيين .

وبعدئذ وصل « خربيش » إلى « زوارة » ، واستطاع في مدى ثمانية أيام – من ٧ إلى ١٥ ابريل – تشكيل تلك الفرقة القديمة المساعدة المؤلفة من ١٠٠٠ بندقية . ولكن أفرادها كانوا أناساً قد أنهكهم التعب ونزل بهم الذل والهوان ، وكانت تنقصهم الثقة في أنفسهم والكفاءة الحربية ولا يمكن الاعتماد عليهم .

أما « ابن عسكر » الذي كان قد حاول حتى النهاية بلوغ هذه الغاية ، فإنه قد اشتد به الغضب واستبد به الحسد والغيرة ، وبدأ في إيجاد أسباب جديدة يتذرع بها للخيانة والغدر . وكان هناك حساب قديم لا يزال باقياً يجب تصفيته بين الرجلين . وكان كلاهما رجلين طموحين متعطشين للحصول على المال . وكانا مثالاً حقيقياً لقلة الأمانة والفضيلة ، ولما امتاز به كل زعيم بربري من عيوب كبيرة منذ أقدم العصور حتى اليوم .

وقد حدث أنه أثناء إقامة « خليفة بن عسكر » في « جادو » ، وفي غياب « خربيش » الذي كان قد نزل في سبتمبر ١٩٢١ في طرابلس ، أن عمل خليفة على طلاق أجمل زوجات منافسه وأحضرها إلى « نالوت » . وقد بقيت هذه الإهانة الشديدة منذ ذلك الحين دون أن يلاقي مرتكبها ما يستحق من عقوبة . على أن خربيش كان ينتظر الساعة التي يقوم فيها بالانتقام في هدوء وطمأنينة . وكان يعرف حق المعرفة الطريقة التي يستطيع بها تدمير خصمه والقضاء عليه دون أن ينال أي عقاب ، وسوف نرى ماذا حدث في هذا الصدد .

كان من اللازم قبل ترك « زوارة » العمل على بث الأمن والاستقرار في المنطقة . وكان قائدها بسبب عدم وجود فرق نظامية قد أخذ في تشكيل قوة من أهالي «زوارة» (٥٠٠ بندقية) بقيادة القائمقام السالف الذكر لحماية أطراف المنطقة . وقام في سبيل الدفاع عنها بعمل تحصينات كبيرة استخدم فيها بعض العناصر الايطالية بعد أن قام بإحاطة الواحة كلها بحلقة واسعة من الأسلاك الشائكة . ولذلك تم تشكيل ألاي من القوات الخفيفة بالوسائل المحلية وحدها دون طلب أي شيء من طرابلس . وتم تجهيز بطارية من البطاريات التي تحملها الجمال وذلك بقطع الأسلحة الموجودة في الحامية وبالعسكريين الإيطاليين وكانت تشتمل على ما يأتي :

الكتيبة الليبية الاولى (٤٥٠ رجلا)

فرقة « خربيش » الاحتياطية

فرقة من الهجانة

جماعة من الخيالة « السباهيس»

بطارية جمال

وكان ألاي « كوتوري» الآتي من طرابلس يتألف من عدة كتائب اريترية، وعدة فرق من الخيالة « السواري »وبطارية .

وقد تحرك الألايان بطول الشاطىء ، واتجها الى « الزاوية » ، وقام ألاي « زوارة » في يوم ٢٢ ووصل الى « صرمان » في يوم ٢٣ ، وسيدي ناصر فييوم ٢٤ . والتقى بألاي طرابلس ثم قام كلاهما بمحاصرة جميع الواحات الموجودةعلى الشاطىء وانتهيا في يوم ٢٥ من هذه العملية بعد اعادة تطهير واحة «الزاوية» .

وهكذا أعيدت المواصلات مرة ثانية في مدى أيام قلائل بين طرابلس و « زوارة » .

المرحلة الثانية : على طول طريق « سيدي بلال – سواني بني آدم – العزيزية » بقصد فك الحصار عن تلك الحامية وإعادة مواصلات السكك الحديدية بين طرابلس والعزيزية التي كانت محاصرة بداخل حصنها الكتيبة الأريترية العاشرة ، والتي كانت قد نقلت اليها بطريق الجو من طرابلس فصيلة من الكتيبة الاولى لبدء الحلول تدريجياً محل الكتيبة العاشرة التي كان رجالها قد أتموا الخدمة العسكرية .

ومن المعلوم أن الأريتريين الذين هم من خيرة الجنود ويمتازون بالبسالة والإقدام ، ما إنْ تنتهي مدة خدمتهم حتى يطلبوا إطلاق سراحهم في الحال .

ولقد وقعت بهذه المناسبة أحداث خطيرة للغاية ، حتى ليبدو أنها تكاد تكون مستحيلة . وكان أكبر هذه الأحداث ذلك الحادث الذي وقع في «فزان» من الكتيبة الأريترية الخامسة التي ثارت وتمردت لأنها أتمت مدة الخدمة العسكرية رغم معرفتها بأن « البدل » قد وصل الى الشاطىء ، أي على مسافة ما يقرب من ١٥٠٠ كيلو متر منها .

وليكن الجنود المرتزقة كما يكونون ، ولكن يجب أخذهم على هذا الاعتبار ، ويجب استخدامهم كما هم ومعرفة عيوبهم وفضائلهم ، دون أن نطالبهم بمراعاة الشعور أو الاعتبارات التي لا يمكنهم فهمها أو ادراكها .

ولذلك استعجلت الحكومة أيضاً بإحلال الكتيبة الأريترية العاشرة في « العزيزية » لتجنب ما يمكن وقوعه من حوادث خطيرة .

وقد اشتركت في هذه العملية الألايات الآتية :

الكولونيل« كوتوري»: ٢٠٠ بندقية و ٨٠ حصاناً و ٤ قطع مدفعية

الكولونيل « جراتزياني » : ١٢٥٠ بندقية و ٨٠ حصاناً و ٤ قطع مدفعية

اللفتننانت كولونيل « جالينا »:١٤٠٠ بندقية و ١٠٠ حصان و ٢٥٠ من الهجانة و ٤ قطع مدفعية

الرائد « امودا »: ٣٠٠ فارس .

وكانت الفكرة من هذه العملية هي : التقدم من طرابلس و « جنزور » و « سيدي بلال » (٢٠ كيلو متراً) في منطقة « سواني بني آدم — وسواني البيابصة » ، والوقوف فيها والهجوم على الثوار بكل شدة ، ودفع ألاي من القوات الخفيفة السريعة (جراتزياني) في اتجاه « العزيزية » للانضمام إلى تلك الحامية وإحلال الكتيبة الاولى محل الكتيبة العاشرة. والاتجاه الى « فندق الشريف وفندق بن غشير » بقصد إكمال هزيمة الثوار الذين كانوا قد هوجموا من لامام بين هاتين الجهتين ، و « سواني بني آدم » وتطويقهم من جهة الغرب .

كانت ألايات « كوتوري» و «جراتزياني » و«بيللي» قد قمعت بزحفها السريع وبرغبة صادقة في الهجوم مقاومة الثوار في كل مكان وتركزت بصلابة على خط « فندق بن غشير — سواني بني آدم وسواني البيابصة » في يوم ٢٩ من ذلك الشهر .

وفي صباح اليوم الثلاثين استؤنفت المناورة، وقامت فصائل ألاي «جراتزياني» تحت عاصفة شديدة مخيفة من ريح القبلة — رفعت درجة الحرارة الى ٥٥° — بزحف أُحسن اعداده من قبل الى مسافة تزيد على ٧٠ كيلو متراً ، وفكت الحصار عن « العزيزية » ، وقامت بقتال عنيف مع العدو في « بئر المرغني » .

وفي الساعة الحادية عشرة مساء ذلك اليوم بعد سير مستمر دام ٢٢ ساعة ، بلغت الهدف المقصود وهو « فندق الشريف » .

ومع هذا فان الجانب الاكبر من الثوار الذي انهزم في اليوم التاسع والعشرين فرّ من الطريق الضيقة المحيطة بهذه المنطقة وانسحب الى منطقة الكثبان الرملية في « سيدي السايح » جنوب غربي « فندق الشريف » واحتمى بالطريق المؤدية من « ترهونة » الى « وادي ملغا » . وقد تمت في تلك الجهة في يوم ٢ مايو أول عملية هجوم استطلاعية بواسطة ألاي الكولونيل « كوتوري » .

وفي اليوم الرابع قام ألاي الكولونيل « جراتزياني » بقتال تشكيلات الثوار في هذه الجهة التي كان يقودها « المريض » بنفسه واضطرها للفرار بدون انتظام إلى « ترهونة » التي دفع الذعر الذي سادها جميع الأهالي إلى الانسحاب منها إلى « بني وليد » .

وقد علم بعد ذلك ، بعد تسليم « غريان » على يد « الهادي كعبار » ، أن تشكيلات الثوار قد أصيبت في ذلك اليوم بخسائر فادحة ، وأن المريض شخصياً قد استطاع بجهد انقاذ حياته بإسراعه بالهرب . وقد تم وضع اليد على أسلحة كثيرة في ميدان المعركة مما يدل دلالة قاطعة لا جدال فيها على الانتصار الذي أحرزناه ، وعلى عدد القتلى من الثوار .

ولقد اشتركت في معركة ذلك اليوم المشهود الذي انتهت به الحلقة الأولى من عملياتنا الحربية الكتيبتان التاسعة عشرة والثالثة عشرة والكتيبة الأريترية الخامسة والبطارية الليبية الثانية وفرق الخيالة «السواري» الأولى والثانية والثالثة ثم فرقة الخيالة « السباهيس » الأولى ، التي قامت كلها بمهمة خالدة تحت قيادة الرائد « امودا » ، قائد قوات الفرسان في طرابلس الغرب .

وقد اتجهت الألايات العاملة ، وهي ألاي « جراتزياني » وألاي « بيتزاري » (حل هذا الأخير محل الكولونيل « كوتوري ») دون أن تعطي العدو فرصة للراحة نحو « الجفارة » الغربية .

وفي المدة من يوم ١٣ إلى ١٩ مايو اجتاحت كل الأراضي حتى « بئر الغنم » .

ولقد كانت تلك المناورة الماهرة الباسلة التي جعلت بطولة الثوار يختفي كل أثر لها في أيام قلائل في « الجفارة ــ العزيزية » صحيفة مجد وفخار من صفحات الحروب الاستعمارية الحازمة . يرجع الفضل فيها إلى تطبيق المبادىء الاستراتيجية والتكتيكية التي أملاها قائد القوات المحاربة الجنرال « تارانتو » ، والتي باركها صاحب السعادة الماريشال « بادوليو » الذي كان قد وصل في ذلك اليوم من روما إلى طرابلس لبحث الموقف السياسي والعسكري .

كان من نتائج هذه الحملة الحازمة السريعة اعادة السيطرة على أراض غاية في الاتساع ، والانحلال المعنوي الذي دبّ في صفوف خصمنا .

ولقد فهم العرب أنهم يقفون الآن أمام عدو جديد ، له روح جديدة أوجدتها الانتصارات الكبيرة التي أحرزها في الجبهة الأوروبية ، ويستعمل طرقاً وأساليب جديدة . فهو لا يكتفي بالوقوف عند حد إطلاق النيران وما تحدثه من ضجيج في أول الأمر ، ولا يعبأ بحر الصيف الشديد ولا ببرد الشتاء القارس . وليس هناك ما يجعله يتحوّل عن أغراضه ونواياه ، أو يمنعه من أن يهاجم عدوه بسرعة وبشدة من الجنب ومن الخلف دون هوادة .

وكان صغار القواد ، من كافة الرتب ، العباقرة والشجعان الذين ينفذون الفكرة الصائبة التي يجب تطبيقها حسب كل حالة بذاتها .

كان كل هؤلاء يعملون بحزم وبهمة وبشدة لا قيود لها ، ويستغلون على خير الوجوه صفات الجنودالأريتريين والليبيين وفضائلهم الجوهرية والممتازة . اولئك الجنود الذين عرفوا في الماضي حق المعرفة خططنا التكتيكية ، وأفادوا منها ، والذين تنقصهم الكفاية بسبب عدم تعودهم السرعة وقلة المناورات .

كان هناك من يقول : إن الجماعات البربرية وحدها ليست الجنود الذين تربوا على الأساليب الدولية المجمع عليها تستطيع أن تسلك هذا المسلك وتقوم بما قمنا به من عمل . كما كان هناك من ينتقد الأسلوب الجديد ، وعلى الأخص أسلوب القواد .

ولكن لما كان العدو هو دائماً خير القضاة فإنه قد حكم على هذا الخطأ وذلك النقد ، واعترف بأنه قد انهزم لا لشيء إلاّ بسبب الطرق والأساليب الحديثة التي جرى اتباعها ، والتي قلبت رأساً على عقب كيانه وروحه وبسالته واسلوبه الحربي ، الذي كان الناس جميعاً يظنون حتى ذلك الوقت انه لا يمكن التغلب عليه .

وكانت تجاربنا في هذا الصدد تبرر دائماً النظريات الثابتة الراسخة ، وبذلك كثيراً ما يصبح أصحاب أسلوب عتيق من النقـــاد المتحيزين غير الإيجابيين ، وذلك عندما لا يريدون الاعتراف صراحة بفضل المجددين حتى لا يقوموا بدور المتفرجين .

ولقد كان من شأن طريقة القتال الجديدة في الحالة الراهنة التي تمت تجربتها في الحركات التكتيكية الاستعمارية أن أوصلتنا إلى النجاح والانتصار دائماً وفي كل مكان .

ولقد اصبحت اليـوم بعد التجارب الطويلة التي استمرت دون انقطاع هي الطريقة التكتيكية اليومية التي يستعملها كل قائد محنك في المستعمرة .

وبينما كانت هذه الاحداث تقع في « الجفارة الشرقية » كان هنـــاك حادث بالغ الخطورة يقع في « الوطية » على يد « خليفة بن عسكر » الذي كان ساخطاً لعدم تأليف قوة مسلحة تحت إمرته على غرار تلك القوة التي تألفت تحت قيادة « خربيش » ولذلك كان يتميز من الغيظ .

وصلت الى « الوطية » في ليلة ١١ — ١٢ مايو أنباء تقول بأن وحـدة قوية من رجال « الزنتان » قد تهاجم هذه الجهة في يوم ١٢ مايو . وبدلاً من ان يضع «خليفة بن عسكر» نفسه تحت تصرف الرئيس « كورو » مباشرة للدفاع عـــن الموقع ، فإنه بعد أن قام بترحيل العائلات الى الجهة الشمالية في ليـــلة ١٢ مايو تراجع من نفسه ودون استشارة احد .

وهكذا يكون قد أخل بتعهداته المحددة التي تعهد بها للحكومة ، وهي أن يساهم في الدفاع عن « الوطية » بالأسلحة التي منحتها له .

وقد ذكر في اليوم التالي في خطاب بعث به أنه قام بهذا العمل الذي لم يكن في الحسبان لأنه لم يكن راضياً عن المعاملة التي عومل بها ، والتي تختلف كثيراً عما كان يلقاه « خربيش » من الرعاية .

وبعد ذلك بيومين رجع الى نفسه وعاد الى « الوطية » برجاله المسلحين .

لم يقع أي هجوم في تلك الجهة ، ولكن لو كان قد وقع هجوم من هـذا القبيل لكان الرئيس « كورو » قد وجد نفسه هـو ورجاله الخيالة « السباهيس » القلائل في موقف خطير . وكان الجميع على حق عندما افترضوا ان نبأ ذلك الهجوم المتوقع لم يكن صحيحاً ، وقد اذاعه « خليفة بن عسكر » عمداً للضغط على الحكومة والحصول منها على تصريح بتشكيل الوحدة المسلحة .

ومهما تكن الحال فإن هذه الأعمال قد كشفت بجلاء مرة ثانية أن التقرب من هذا الزعيم مسألة معقدة ، وأمر لا يخلو من خطر .

كان الرئيس « كورو » أثناء كل فترة العمليات التي تمت في « الجفارة الشرقية » ومعه الخيالة « السّباهيس » القلائل الذين كانوا تحت تصرفه قد قام بعمليات حربية جريئة ، ودفع بعض فصائله حتى « الجبل » . وهكذا ساعد على جعل تشكيلات الثوار الغربية عاجزة عن كل حركة .

وفي اليوم الحادي والعشرين سن شهر مايو توجه صاحبا السعادة « بادوليو » و « فولبي » بنفسيهما الى « الوطية » و « العسّة » ، وكان موجوداً هناك « خليفة بن عسكر » الذي أصر بطريقة شاذة غير لائقة أمام صاحب السعادة الحاكم على طلب تشكيل القوة المسلحة ، وعلى منحه مخصصات مالية طائلة .

وقد علم فيما بعد ان « خربيش » كان هو الذي يحرض ابن عسكر على سلوك هذا المسلك ، وهو يعلم حق العلم الأثر السيىء الذي يحدثه في نفس صاحب السعادة الحاكم العام ، والجزاء الذي لا بد أن ينزل « بخليفة بن عسكر » نتيجة لذلك .

وهكذا كان « خربيش » يعد انتقامه للطمة التي لقيها في سنة ١٩٢١ .

الفصل الثالث

إعادة احتلال "الجبل"

إعادة احتلال "الجبل"

اعادة احتلال الجبل .

قامت حكومة المستعمرة بإخلاء السهل في مدى أيام قلائـــل ، وبذلك ادركت أول هدف من اهدافها السياسية والعسكريـــة . ثم اتجهت عنايتها من فورها الى اعادة البربر الى « الجبل » .

وهكذا بدأت العمليات العسكرية لإعادة الاستيلاء على الخط الجبلي ، تلك العمليات التي تمت في خلال الفترة الواقعة بين شهر يونيه ونوفمبر ١٩٢٢ ، ويمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل :

اولاً – اعادة احتلال « جبل نفوسة » و « فساطو » .

ثانياً – « « الجبل الاوسط « يفرن » .

ثالثاً – « « « غريان » .

ولقد بدأت عمليات المرحلة الأولى في مايو ١٩٢٢ واشتركت فيها الألايات التالية :

ألاي « بيتزاري » ١٦٠٠ بندقية و ٢٠٠ فارس و ٤ قطع مدفعية .

ألاي « جراتزياني » ٣٠٠٠ بندقية ، ٣٠٠ فارس و ٢ قطع مدفعية .

ألاي « جالينا »	١٤٠٠ بندقية .
ألاي « بيللي »	١٤٠٠ بندقية و ١٠٠ فارس و ٤ قطع مدفعية .

وقد اسند الواجب الرئيسي إلى ألاي « جراتزياني » الذي كان عليه ان يحتل بادىء ذي بدء « الجوش » وان يعيد ثانية اهالي « نالوت وفساطو » الى الجبل الغربي بالتحرك من « زوارة » .

وكان على الألايات الأخرى القيام بأداء واجبات ثانوية لمساعدة الألاي الأول، بأن يقوم ألاي « بتزاري » من قاعدة « بئر الغنم » بإشغال الثوار المسلحين الموجودين في منطقة جبل « يفرن » ويأخذ في تهديد هذه المنطقة الاخيرة باعتداءات مستمرة نشيطة .

ويقوم ألاي « بيللي » من قاعدة « العزيزية » باشغال الثوار المسلحين في « غريان » ، ويأخذ في تهديد هذه المنطقة باعتداءات شديدة سواء من طريق « بير كوكة » — فندق الشيباني » ، أو من طريق الوديان الواقعة غربي «غريان» بأن يتجه من العزيزية نحو الجهة الجنوبية الغربية . وبينما يهدد هذه الجهة الاخيرة كان عليه أيضاً أن يقوم بأداء واجب حماية الألاي الرئيسي ، على مسافة من جناح ألاي « بيتزاري » الأيسر .

أما الموقف في الجبل الغربي فكان في ذلك الوقت على النحو التالي :

كان البربر وكلهم — كما رأينا — من اللاجئين على الشاطىء ، كما كان العرب يسيطرون سيطرة تامة على الجبل من « يفرن » إلى « نالوت » . وكانت طرق الامدادات مفتوحة مع تونس عن طريق « وازن » و « الجوش » وكان الحاج « محمد فكيني » ، مستشار الحكومة السابق ، يبسط سيطرته على كل مكان . وكان إلى جانبه كبار زعماء « الزنتان » و « الحرابة » و « الصيعان » والشيخ « سوف » زعيم « يفرن » وزعماء آخرون أقل من هؤلاء شأناً ، وقد تكونت منهم جميعاً كتلة موحدة بعد أن فصلوا بقايا البربر .

كان « فكيني » يساوم الحكومة كعادته القديمة بواسطة «احمد الفساطوي» الذي بعد تعيينه مستشاراً للحكومة بناء على اقــتراح « رمضان الشتيوي » ، بقي بعد ذلك منذ عام ١٩ في طرابلس وكان موضع التبجيل والاحترام ، بينما كان في واقع الأمر المتحدث بلسان الثوار والمدافع عن مطالبهم .

كان يطالب بتعيينه متصرفاً للجبل بأكمله وبأن يمنـــح سلطة إدارية شبه مستقلة . وكان يطالب أيضاً بطبيعة الحال بالحقوق الدستورية التي نصت عليها اتفاقية « خلة الزيتونة » . وكان يضع شرطاً أساسياً للاتفاق مع الحكومة وهو تحريم عودة البربر إلى الجبل مرة ثانية . وهكذا كان يمتهن مبدأ سيادة الحكومة الايطالية على القطر كله امتهاناً خطيراً .

ولقد كانت قوات الثوار التي كانت إذ ذاك منعزلة من «جادو » إلى «نالوت» هي الآتي بيانها ، كما يدل على ذلك تسليم الاسلحة الذي تم بعد ذلك :

الزنتان : ١٥٠٠ بندقية

الرجبان : ١٠٠٠ بندقية

الصيعان : ٥٠٠ بندقية

الحرابة : ٥٠٠ بندقية

« الرحيبات » والأجزاء العربية من أراضي « الرياينة » وأولاد « محمود » و « الحوامد » و « يفرن » و «الخلايفة » ١٠٠٠ بندقية .

ويبلغ مجموع ذلك حوالي ٤٥٠٠ بندقية

ومن المعلوم أن سلسلة الجبال من « جادو » الى « نالوت » شديدة الوعورة ، ولا يمكن الوصول اليها الا عن طريق بعض الممرات الجبلية القليلة ،بعضها وعر لدرجة كبيرة حتى يمكن الدفاع عنها بقذف الحجارة دون غيرها . ولا يوجـد فيها طريق ممهد تستطيع سيارات النقل السير فيه ولذلك كان ارتقاؤها بقوات

كبيرة يبدو أمراً شاقاً ومحاولة جريئة .

كانت القوات التي تحت امرة الكولونيل « جراتزياني » يحيط بها الأهالي البربر ، أي بالجماعات غير النظامية المساعدة بقيادة « يوسف خربيش» (١٠٠٠ رجل) ورجال « خليفة بن عسكر » المسلحون غير النظاميين .

وكان الزعيمان المذكوران يختلفان كل الاختلاف فيما يتعلق بإخلاصهما .

فقد كان « خربيش » مأمون الجانب بقدر ما كان خليفة بن عسكر رجلاً لا يؤمن جانبه وموضع الريبة والشك. فان هذا الأخير كان يجمع إلى جانب تقلب طباعه – كما بدا منه ذلك عدة مرات في الماضي – الاستياء الشديد لعدم تكوين فريق من المجندين تحت إمرته بمرتبات ثابتة .

وفي اليوم الذي وقع فيه في « العسة » ذلك الحادث الخطير مع صاحب السعادة الحاكم ، حفظ الكولونيل « جراتزياني » تلك العبارة التالية التي نطق خليفة بها باللغة العربية الذي لم يكن يعرف أن أحداً قد فهمها ، إذ قال :

« كل شيء يسير الآن على ما يرام . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد عندما نكون في الجبل » .

من ذلك اليوم (وليسمح لي القارىء بأن أقص عن هذه النقطة بصفتي متحدثاً عن هذه الصحيفة التاريخية غير المعروفة ، لأن ظروف تلك الفترة حالت أو كادت تحول دون التحدث عنها) أدركت تمام الإدراك ضرورة إبعاد رجل من هذا القبيل عن جانبي ، لأنه كان لا بد أن يغدر بنا مرة ثانية ، ما في ذلك ريب .

القبض على خليفة بن عسكر .

بعد أن أعدت النظر في المسلك الذي سلكه في الوطية في ليلة ١١ – ١٢

مايو تحققت من الجريمة التي ارتكبها بترك مكانه أمام العدو ، وخيانته . وأبلغت المحكمة عنه وسلمت الأوراق في سرية تامة إلى صاحب السعادة الحاكم العام مباشرة ، الذي سمح بالقبض عليه بالطريقة التي رأيتها أنسب الطرق وأقلها ضرراً في نظر الأهالي .

لم يكن من السهل خداع رجل حذق فن الخبث والمكر مثل هذا الرجل ، وكان نجاح هذا الأمر يتوقف على مراعاة السرية المطلقة .

ولقد احتفظت بهذا السر ولم أبح به لأحد ، ولم أطلع أحداً على مافكرت فيه .

وفضلا عن ذلك ، فإني في أواخر أيام إقامتي في « زوارة » ، ورغبة مني في أن أجعل « ابن عسكر » أكثر هدوءاً واطمئناناً ، صرحت بالقبض على الشيخ « مسعود بن عيسى » زعيم « نالوت » ، الذي كان ينافسه في زعامة أهالي « نالوت » . ولقد طمأنه هذا الخبر كل الاطمئنان .

على أن الأمور قد صارت أكثر صعوبة ، وذلك لأنه كانت هناك قوة مسلحة قوامها ٩٠٠ بندقية تنزل على أوامره وتطيعه طاعة عمياء . وكان من الواجب نزع سلاحها وتجنب ما قد يقع بينها وبين الجنود النظامية من نزاع لعدم إخلال التوازن السياسي مع البربر .

ولذلك كان لزاماً عليّ أن أعمل بحزم لا يخلو من شيء كثير من التبصر وبعد النظر لتتوافر لدي فرص النجاح .

كان الألاي الذي تحت قيادتي يتحرك في يوم ٢٨ مايو من « زوارة » نحو الوطية .

وكان يتألف على النحو التالي :

الكتيبة الأريترية الرابعة

الكتيبة الليبية الأولى

جماعات الخيالة « السباهيس »

جماعة « خربيش » المساعدة

قسم من مدفعية البطارية الثانية

وكان يبلغ مجموع رجاله حوالي ٢٥٠٠ رجل.

وقبل أن أبرح « زوارة » أصدرت أمراً تليفونياً إلى الرئيس « كورو » بأن تتجمع عند وصولي إلى « الوطية » قوة « خليفة » بأسلحتها حتى أقوم باستعراضها .

ولكني عند وصولي لاحظت والدهشة آخذة مني كل مأخذ أنها اخذت شكل قوات متأهبة للقتال ، وتجمعت في صف واحد على جبهة متناهية الطول ووقفت أمام قوات الألاي الأخرى.

وسرعان ما أدركت أنه يتحتم عليّ أن أعمل بجرأة وبحزم وتصميم ؛ وأصدرت إلى كل قائد من القواد على حدة الأوامر بالتطويق والمحاصرة . وتوغلت بسيارتي وحدها في قلب الصفوف وأمرت « خليفة » بتجميع رجاله الذين كنت أريد أن أتحدث اليهم . فاعتذر عن طريقة التجمع التي اتخذها رجاله بأن قال لي ، إنه كان يريد أن يريني طريقته في القتال . وأطاع أوامري في شيء من التردد .

وبينما أخذ رجاله المسلحون المتفرقون في الانضمام إلى بعضهم دعوت « ابن عسكر » وكبار الزعماء للسير في أثري إلى الحصن للتشاور معهم ، على أن نعود بعد ذلك إلى رجالنا .

وهكذا تقرر في حصن «الوطية » الصغير مصير هذا الرجل المراوغ القصير النظر ، الذي برع في أعمال الخيانة والغدر وضرب فيها بسهم وافر ، حتى وقع في النهاية بين براثن الانتقام الإلهي دون أن يفطن إلى ذلك .

ولقد تم القبض على هذا اللص بطريقة تدعو إلى الرثاء .

وبينما كان رجال الجيش الملكي يقومون بالقبض على صغار الزعماء في فناء الحصن كنت أستبقي خليفة وحده وأقف أمامه وجهاً لوجه في حجرة صغيرة من حجرات الحصن القائمة على طرف أحد الأقبية .

ولقد حدث نتيجة لتوافق القدر العجيب أن وقع في الحجرة المجاورة في تلك اللحظة السقف بأكمله ، وكان من الممكن أن يقضي علينا نحن الاثنين لو كنا على مسافة خطوة خارج هذا القبو .

ولقد ساعدت الضجة التي حدثت من جراء سقوط السقف على دخول اثنين من جنود « الكارابنييري » كما كان مقرراً ، فمد « ابن عسكر » اليهما ذراعيه بحركة لا شعورية لأنه كان يحس بخطاياه التي اقترفها ، وقد أخذ في ذلك اليوم الى طرابلس حيث أودع سجن القلعة رهن المحاكمة .

وهكذا اختفى من ميدان الغرب السحيق رجل شديد الخطر من أمثال « رمضان الشتيوي » ، وبدا إذ ذاك أن خاتمة الزعيمين كان لا بد أن تبدأ في طرفي الأقليم ، كما لو كان ذلك تنبأ بما سينزل بهما من عقاب .

وقد اتضح اثناء نطر القضية ان « ابن عسكر » كان يراسل « المريض » من « الوطية » وكان يستعد للقيام بخيانات جديدة .

وفي ذلك اليوم بالذات تم في « العسّة » القبض على جميع أفراد أسرته الآخرين ، بينما تم نزع سلاح عصابته بواسطة رجال الجيش دون أن ينشب لحسن الحظ أي نزاع او يقع أي حادث .

وفي ذلك اليوم تهلل « خربيش » فرحاً لهذا الانتقام الذي حل بخصمه وزاد في التفاني في خدمتنا .

وقد انتاب دهشة اهالي « نالوت » بادىء ذي بدء شعور بالراحة والطمأنينة

دخل على قلوبهم رويداً رويداً على اثر اختفاء ذلك الزعيم الذي طالما أعمل السلب والنهب ، والذي كان طالماً طاغياً محباً للانتقام ، والذي كان يباشر في قومه أعنف اعمال الأخذ بالثأر التي لم تعرف إلا في القرون الوسطى ، والذي بلغ به الأمر إلى انه كان يدعي لنفسه الحق في بلد إسلامي في ان يقضي الليلة الاولى مع كل نساء الإقليم حسب ما كانت تزين له شهوته الجامحة .

وبعد أن تخلص الألاي من هذا الكابوس أخذ طريقه الى « الجــوش » متجهاً الى « الحمراء » في يوم ٢ يونيو بعد ان زين علمه بشعار الجرأة .

الزحف على الجوش .

كان فصل الصيف قد بدأ واشتد الحر اشتــداداً عظيماً . وكانت ذكرى الماضي الرهيبة تعكس ظلالها الحزينة على الطريق الذي كان يجب السير فيه .

فان ألاياً مؤلفاً كله من الإيطاليين تحت قيادة ضعيفــة لم يحسن تشكيله واختيار رجاله كان قد قام بن «جادو » دون أن يكون مزوداً بكمية احتياطية من الماء ، بالرغم من علم قائده بأن الآ بار التي سيلاقيها في طريقه هي آبار تكاد تكون جافة — هذا الألاي ضيقت عليه الخناق جماعة قليلة من الثوار شجعتهم على جرأتهم هذه الأحوال السيئة ، وقضي عليــه بالدمار من شدة العطش حول آبار « قصور غدّو والحمراء » التي نضبت مياهها .

وقد كانت هناك في ذلك اليوم التعيس مناظر وحشية ، كما وقعت حوادث قتل متبادل وانتحار وحالات جنون عديدة ، وتشتت شمل الألاي وملأ طريقه بالموتى . ولكن تلك العظام لا تزال بعــد سبع سنوات مضت تبدو بيضاء تحت ضوء الشمس دون أن تقوم الرحمة الانسانية بجمعها ودفنهــا في مقبرة لائقة ، ودون ان تدق ساعة الوطن للانتقام لذلك المصير المحزن . وكانت هذه العظام ترسم الآن خط السير لذلك الألاي الذي وجب عليه الانتقام لها ، والذي اختار

لرايته شارة رومانية شعارها « النصر للجرأة » ربما كانت بشيراً بذلك الزحف الحميد الذي تم في الوطن الأم رمزاً للعظمة القديمة .

كان الألاي يسير تحت وهج حرارة الشمس الصيفيـة ، بعد أن ترك وراءه منطقة من أشد المناطق حرارة في ذلك السهل المؤدي الى الجبل وهو متأكد كل التأكد من أن النصر وحده هو الذي يسمح له ببلوغ الغرض المنشود ، ومن أن الهزيمة لا بد أن تؤدي الى الخراب والدمار .

لم يكن هذا الألاي قويـاً كل القوة ، على انه كانت تتمثل فيه روح النصر العظيم وترفرف حوله أرواح كل أولئك الذين ماتوا في سبيل الوطن ، الذي كان ينتظر ان تعود اليه قيمته ومجده وان يتم الانتقام له في افريقيا ايضاً .

وكانت هناك مفرزات خاصة تقوم اثناء الزحف بجمع العظام المبعـثرة فوق الرمال ، وتضعها في اكياس تم نقلها فيما بعد .

وكانت هذه البقايا المجيدة رمزاً دعـا الجميع للتضحية والتصميم على النصر والانتقام .

وفي ٢ يونيو وصل الألاي الى آبار « الحمراء » . ولكنه لما وجد ان الثوار قد ردموها اضطرالى مواصلة الزحف على آبار « سواني الكردي » ، وهي آبار أبعد من هذه الآبار وقليلة الماء وتحيط بها منطقة واسعة من الاراضي الرملية .

ولقد سبب ذلك اليوم الشديدالحرارة عدة اصابات بضربة الشمس بين أفراد الكتيبة الليبية الأولى وبين جماعات البربر من رجـال « خربيش » الذين قلت مقدرتهم على القتال بسبب ما نالهم من الجهد والكلال اثنـاء نفيهم في المنطقة الساحلية .

على أن الذين صمدوا على خير الوجوه كانوا هم أفراد الكتيبة الأريترية الرابعة .

وهكذا وصل الألاي إلى الآبار وقد تناقصت مقدرته الى حد بعيـد ، وفي حالة لا تمكنه من التقدم في اليوم التالي نحو «الجوش» التي كانت الهدف الذي يجب

بلوغه دون أن يلحق بها خطر الانكسار أمام تشكيلات الثوار التي يقودها «الحاج محمد فكيني» وجميع زعماء «الزنتان»، والتي تعترض الزحف والتقدم نحو آبار «الوخيم» القريبة.

ومما زاد الموقف حرجاً هبوب ريح قبلية عاتية في ذلك المساء رفعت درجة الحرارة الى ٧٠° في الشمس. ولم يكن حولنا أي عشب أو نبات في تلك الساحة الرملية الشاسعة ليحمي المعسكر.

أما المشكلة المائية التي هي افظع المشاكل التي تعترض كل عملية حربية استعمارية فقد واجهناها في عنفوانها وشدتها. اذ ان آبار «سواني الكردي» الثلاث كانت تعطي جردلاً من الماء في كل ربع ساعة. وكان يجب أن يكفي هذا لتغذية ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل وما معهم من دواب. لهذا كان الاحتياطي من الماء يجب حمايته بأي ثمن من جشع الجنود.

وفي مثل هذه الأحوال الجوية والمائية السيئة لم يكن من الممكن التفكير في الاستمرار في الزحف الى الأمام دون التعرض لمخاطرات شديدة.

وكذلك لم يكن في مقدور هذا الألاي التراجع الى الوراء، لأن هذا قد يكون معناه انتصار الثوار والتقليل من هيبتنا.

ولذلك فإني قررت أن أطلب كتيبة على سبيل المدد من طرابلس، وأن أبقى في المعسكر حتى تصل هذه الكتيبة وحتى تعود جماعة «خربيش» والخيول إلى «بئر الحمراء» لإخلاء تلك الآبار مما فيها من أتربة والاستفادة منها.

معركة الوخيم، (٣٠ يونيه ١٩٢٢).

وفي صباح اليوم الثالث في «الوخيم» قبل تنفيذ هذه التدابير هوجمت جماعات الخيالة «السباهيس» التي توجهت لاستكشاف مواقع الأعداء وطوقتها قوات

كثيرة العدد ، ولكن أمكنها أن تتخلص من هذا الحصار بعد جهد وعناء شديدين ، وبعد أن فقدت ضابطين من ضباطها الثلاثة وكثيراً من الجنود فضلا عن عدد من الخيول . كما فوجىء ما يقرب من مائة من رجال « خربيش » وهم يبحثون عن الماء في الجهات القريبة من المعسكر ، وذبحوا في ذلك اليوم عن آخرهم بعد ان فقدوا كل اسلحتهم . وقد قتل « فكيني » ثلاثين منهم بيده .

ولكن هذا الموقف الحرج قد تحسن في الأيام التالية بفضل تراجع الفصائل التي كانت قد أرسلت إلى « الحمراء » ، وإخراج الأتربة من الآبار التي بدأت تفيض بالماء ، وأفادت منها جميع الوحدات بما فيها الفصائل التي بقيت في « سواني الكردي » . ولكن ريح القبلي اشتد هبوبها اشتداداً عظيماً منقطع النظير في الخمسة الأيام التالية ، وكانت تخنق بدواماتها الرملية العاتية الرجال والدواب . وكانت ساريات المحطات اللاسلكية مدى خمسة أيام (من يوم ٣ إلى يوم ٨) لا يمكن رفعها إلى أعلى . وكان يبدو أن الطبيعة تعترض بقوتها الغاشمة ارادة جماعة من الرجال الأبطال كانوا يريدون أن ينتهكوا أسرارها . وكانت تظهر هناك بعيداً بين السحب الرملية جوانب « الجبل » الوعرة السوداء ، ذلك الحمى المنيع الذي كان يبدو أنه لا يمكن الوصول إليه أو التغلب عليه .

وكانت واحة « الجوش » تبدو من بعيد جهة الغرب في ذلك الأفق الداكن وقت الأصيل ، وعندما تهدأ الريح كأنها غادة فتانة تسبي العقول وهي ملأى بالنخيل والمياه الجارية .

كانت تلك الأيام أيام قلق وجزع ولا يمكن أن تنسى على مرور الزمن وكرّ الأيام . ولكن الإرادة القوية التي لا تتزعزع تتغلب على جميع الشدائد .

ولقد شجعت الظروف السيئة التي أحاطت بالألاي زعيم الثوار الحاج « محمد فكيني » فكتب إليّ عدة خطابات يطلب مني فيها بأن أعيد البربر إلى المنطقة الساحلية وبعد ذلك أتحدث معه في معسكره .

وهكذا أتاح لي الفرصة للاستفادة من الوقت حتى تصل كتيبة المدد ، وذلك بفضل المفاوضات التمهيدية والأخذ والرد .

وقد أجبته فعلاً بأن البربر يجب أن يصعدوا باستسلام بأمر الحكومة إلى جبلهم الذي طردهم منه جبروت العرب وغطرستهم ، وأن أي انسان يعترض سبيل زحف جنود الحكومة التي لها السيادة على كل بلاد طرابلس الغرب لابد من اعتباره لهذا السبب فقط مذنباً ومتمرداً عاصياً . وما عليه إلا أن يخلي الطريق ويسحب « محلاته » إذا لم يرد أن يحل به الدمار والخراب .

وقد أجاب الزعيم على قولي هذا بأن جمع « محلاته » في صباح اليوم التالي أمام معسكري .

ورداً عليه قام رجال القوات الجوية بإلقاء القنابل على هذه المحلات وضربتها ضرباً شديداً في اليوم التالي . وقد وصفني في احتجاجاته بأنني لست بالرجل السياسي ، لأنني أتبعت الخطابات بالقنابل والقنابل بالخطابات. وقد رددت عليه بخطاب أشرت فيه إلى استفزازه لي بإحضار « محلاته » أمام معسكري .

وأثناء ذلك الأخذ والرد ، تقدمت الكتيبة الليبية السادسة من طرابلس إلى « زوارة » عن طريق السكة الحديدية ، ومن ثم زحفت سريعاً إلى « بئر الحمراء» حيث تلقت أمراً بالبقاء في الانتظار . كذلك تقدمت من « رقدالين » فرقة الهجانة التي كان عليها أن تقوم بواجب البقاء لحراسة معسكر « سواني الكردي» أثناء زحف الألاي على « الجوش » .

وقد عملت القوات الجوية من « زوارة » وسط ريح صرصر عاتية لنقل القنابل لإيداعها في هذا المعسكر .

وهكذا ارتفعت روح الجيوش المعنوية ارتفاعاً كبيراً ، واستعدت كل النفوس وسط عذاب الطبيعة والأحوال الجوية للمحاولة الحاسمة .

اما ألاي « بئر الغنم » فإنه بسبب نقص الماء كان اضطر الى العودة إلى

« الزاوية » قبل ان تبدأ حركتنا .

وكان المعتقد أن الرجال المسلحين الذين يواجهون الألاي لن يستطيعوا بلوغ « محلات » « محمد فكيني » للعمل على شد أزرها في هذه لأوقات .

وعلى كل حال، فإنه إذا وقع هذا فلن يكون هناك ما يمنعنا او يعوق زحفنا الذي يجب أن يضع حداً لموقف من مواقف التوتر بقي أكثر مما يجب .

وفي ليلة ١٢ يونيه وصلت الى « سواني الكردي » الكتيبة الليبية السادسة (بقيادة الرائد « مارجينوتي »)، وقد تلا ذلك مباشرة الزحف على « الجوش ». وكان أمامي طريقان ، إما أن أتجه مباشرة الى « الوخيم » حيث كان العدو يرابط في أماكن أعدها من قبل لسد مداخل « جادو » في طريق « شكشوك » وطريق « الجوش » ؛ أو أن أتجه مباشرة إلى هذه الواحة عن طريق « العين الجديدة » .

ولقد وقع اختياري على هذا الحل الثاني الذي كان يسمح لي بالبدء في العمل ويضطر الخصم لتغيير موقفه . وكان من الممكن أن ينتج عن هذا في مقابل ذلك أن أتلقى هجوماً على جناحي الأيسر . وهذا ما حدث .

معركة الجوش ، ١٢ يونيه ١٩٢٢ .

حوالي الساعة الثامنة والنصف هاجمتني وحدات قوية من وحدات العدو كانت تتلقى على الدوام امدادات من « المحلات » التي كانت تأتي من « الوخيم » ، وكانت هذه كلها من الزنتان والرجبان والحرابة والصيعان وغيرها (قوامها ٢٥٠٠ بندقية) وكلهم من الرجال المدربين على الحروب ، والذين كانوا يفاخرون بانتصاراتهم علينا التي أحرزوها في سنة ١٩١٥ .

وسرعان ما استعرت نيران القتال الحامية حول الألاي الذي كان يزحف

وهو يتبع نظام التشكيلات العسكرية القديمة « المربعات » ويضم عدداً كبيراً من الحراس لأنه كان يسير في أرض منبسطة مكشوفة .

ولقد تدخل رجال القوات الجوية الذين كانت طائراتهم جاثمة في معسكر أعدّ لها في « سواني الكردي » حيث وقفت لحراستها قوة الهجانة . وكانوا يحضرون القنابل ويعودون إلى العمل دون توقف ، وهم يلقون معها ايضاً الذعر والهلع في صفوف الأعداء . وكانت الكتيبة الليبية الاولى تصد هجوم الأعداء على ميسرتنا وتضعف حماستهم ، بينما كانت الكتيبة الليبية السادسة تعمل في الجهة اليمنى والكتيبة الأريترية الرابعة تصد هجمات قام بها العدو على مؤخرة الألاي . وبثلاث هجمات قمنا بها احتللنا « العين الجديدة » التي ضمنت لنا الحصول على الماء اللازم لنا . وبهجومين آخرين احتللنا واحة « الجوش » بينما كان العدو يولي الأدبار وينسحب إلى « جادو » عن طريق « شكشوك » تتبعه جماعة الخيالة « السباهيس » في غير هوادة .

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر رفعنا فوق قلعة « الجوش » القديمة رايتنا الوطنية ، وكان الذي قام برفعها الرئيس « جيزموندي » من ضباط الكتيبة الليبية الأولى، الذي قد أنزلها وطواها في نفس هذا المكان سنة ١٩١٥.وكان هذا عملاً رمزياً علقنا عليه آمالاً كباراً وتفاءلنا به . ولقد تحمل الألاي خسائر فادحة سواء في الضباط أو الجنود . وكان غرضه الواضح من ذلك أن يسد ممراته في وجوهنا . وكانت هذه الممرات أربعة من الشرق الى الغرب بين « جادو » و « الجوش » وهي ممر « شكشوك » وممر « تمزدا » وممر « الندوة» وممر « السلامات » . وقد بدأت أحس بالعذاب الناتج عن اتخاذ القرارات السريعة ، اذ انه كان من اللازم ان نستثمر هذا النجاح على وجه السرعة ونصعد الى الجبل بدورنا لنصد مناورات العدو .

ومع ذلك فلم تكن مسألة ايجاد مساكن للجنود مسألة هينة ، لأن الألاي

لم يكن لديه من الأقوات إلاّ ما يكفي لمدة عشرة أيام ، بعد أن قطع مرحلة تبلغ ١٥٠ كيلومتراً وهو مكشوف من جناحه الأيسر .

وعندما توغل في المضايق المؤدية الى الهضبة أصبح خط السير يزداد صعوبة وخطراً .

وفضلاً عن هذا فان كل جموع الثوار الذين انهزموا في « الجوش » قد صعدوا فوق الجبل بأسلحتهم ، وأصبح في إمكانهم الدفاع عن الممرات بقذف الأحجار نظراً لوعورتها الكثيرة وصعوبة سلوكها .

وكان الزعماء الوطنيون المحليون بما فيهم « خربيش » يستبعدون ان يستطيع العدو في الحال جمع شمله ، وكانوا يميلون إلى البقاء في «الجوش» في الانتظار لمدة بضعة أيام .

ومن العبث أن يستمع القائد إلى آراء القواد الذين تحت إمرته او الى نصائحهم وإرشاداتهم . وإنني حتى إذا ما استمعت لهم فإنه يكون من الصعب عليّ بعد ذلك أن أقر ما أراه وما يخطر ببالي في حدود المسئولية الخطيرة التي تقع على كاهلي ، إذ أن تولي القيادة معناه البت وإصدار القرار . وهذه حكمة قديمة ترن في ذهني كدق المطارق .

وعلى مسافة ليست بالبعيدة كان خط الجبل الوعر الذي يقوم كأنه حصن عجيب لا يمكن انتهاكه ، كان هذا الخط يقول لي بلغته الصامتة : إن البقاء على سفحه معناه الهزيمة وليست السيطرة ، ويجب الإسراع بالصعود وبأنه من العبث أيضاً انتظار الأوامر والتصريحات من طرابلس . وفي مثل هذه الحالات يجب أن يبت في الأمر من هو في مكان المعركة . وهذه الحكمة القديمة يمكن تطبيقها في الحروب الاستعمارية بوجه خاص .

ارتقاء الجبل .

انقضت ليلة ١٣ بين أناشيد النصر التي كانت تنشدها الجنود أثناء اجتماعاتهم في ساعات راحتهم خارج الخيام ، وفي التفكير في الأعمال التي كان يجب عليهم القيام بها .

وقد قاموا في فجر يوم ١٤ بعد ان تلقوا الأوامر الآتية :

يقوم الرئيس « كورو » بالتحرك في المساء مع جماعات الخيالة « السباهيس» التي تحت تصرفه ومع جميع رجال « نالوت » المسلحين للتوجه الى « كاباو » عن طريق « تيجي » واحتلال هذا المركز الهام من مراكز الجبل الغربي . وكان هؤلاء الاخيرون يحملون ما يقرب من ثمانمائة بندقية ، وكانوا منذ بضعة أيام تابعين لزعيم خائن لئيم وقد تولى قيادتهم الآن ضابط إيطالي يقوم على حراسته مائة فارس لا غير ، من الموثوق بهم ،وكان يحدوه الايمان والحظ .

وتقوم جماعة البربر غير النظاميين بقيادة الكافاليير « يوسف خربيش » واشراف الرئيس « جيراردي » بالتحرك في ذلك المساء نحو « السلامات » وباحتلالها فجأة ، مع تجنب المرور من الطريق غير المأمون وسلوك الطريق المأمونة بالمشاة دون غيرهم .

على أن يكون واجبهم هو وضع مدخل جبل « السلامات » تحت حماية الألاي النظامي الذي يتبعهم في الوقت المناسب .

وقد تمت الحركات التي صدر الأمر بالقيام بها في سرعة مدهشة .

وقام الرئيس « كورو » فعلاً باحتلال « كاباو » في الساعة العاشرة والنصف من يوم ١٦ بعد ان تغلب على مقاومات ضعيفة من جانب الثوار ،

بينما انقضت جماعات « خربيش » البربريـــة فجأة في صبـاح يوم ١٥ على « السلامات » .

وكان من اللازم الآن التقدم نحو « جادو » شرقـــاً ، وصوب « نالوت » غرباً .

ولقد كان تحقيق أول الهدفين أكثر استعجالاً للموقـــف التكتيكي ، ولذلك اتجهت اليه الجنود النظاميون .

وفي صباح يوم ١٧ كنا نصعد الجبل الطرابلسي للمرة الأولى منذ ١٩١٥ عن طريق ممر « السلامات » بالآلاي الذي كان يتألف من الكتيبة الأريتريـة الرابعة والكتيبة الليبية الاولى وجماعات الخيالة « السباهيس » ، وقسم من مدفعية البطارية الثانية بعد أن تركنا في واحة « الجوش » الكتيبة الليبية السادسة لحماية القاعدة .

وليس في مقدوري أن أصف التأثر الذي كان يصل إلى أقصى مـــداه ويضغط على حلوق الشيوخ من الجنود ويسيل مدامعهم . أولئك الجنود الذين جعلتهم الحرب العظمى جامدين قساة القلوب عندمـــا شاهدوا أعلامنا المجيدة ذات الماضي العظيم ترتقي مسالك « السلامات » وتختفي فوق قمم الجبل وترفرف في الهواء بين تهليل الوطنيين وزغاريد النساء بعد ان غابت من تلك الجبال طوال سنوات العار والهوان .

ولما بحثت الموقف على الطبيعة رأيت انه يكفي ان أترك كتيبة اريتريـــة (وهي الكتيبة الرابعة) لمساعدة جماعة البربر ، فضلاً عن قسم من المدفعية وخمسين رجلاً من السباهيس .

وكان يجب على الآلاي بأكمله بقيادة الرائد « تراكيا » أن يتجه في يوم ١٩ نحو « جادو » .

ولقد كان من الممكن تزويده بمؤونة خمسة أيام لا غير . وقـــد بقيت مثل

هذه المؤن في واحة « الجوش » للجيوش الباقية .

كما قامت إحدى القوافل بالزحف من « زوارة » ومعها مؤن تكفيها مـــدة ١٥ يوماً .

وكان حل الأزمة متوقفاً على وصوله أو عدمه ان لم يكن نجاح العملية بأسرها .

وكان من الممكن أن يبدو كل هذا وليد الصدفة ، ولكنـــه كان دون شك عملاً جريئاً اقتضته ضرورة الاستفادة بأسرع ما يمكن من ذلك النجاح التكتيكي الذي أحرزناه في موقع « الجوش » الاستراتيجي . حتى إذا سلمنا بأن الجيوش الزاحفة على « جادو » قد استطاعت أن تجد ما تعيش عليه في بلاد « الرجبان » و«الزنتان» التي لا بد أن يكون العدو قد أخلاها . وهذا ما حدث بالفعل .

معركة السلامات، ١٨ يونيه ١٩٢٢ .

على أن « محلات » الثوار التي كان قد تم تشكيلها من جديد على وجه السرعة في « جادو » بعد تشتيت شملها في «الجوش»، والتي كانت قد اندفعت في زحف سريع نحو « السلامات » لحصار هـــذا المضيق الذي وجدته محتلاً ـ قامت في فجر يوم ١٨ بهجوم عنيف على مواقعنا .

وقد استمرت المعركة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر وانتهت بانكسار العدو وتشتيت شمله .

احتلال « جادو » ونتائجه : ١٩ يونيه ١٩٢٢

شنق خليفة بن عسكر : بدأ الرائد « تراكيا » دون تأخير في تعقب العدو طوال الليل . وفي صباح يوم ١٩ احتل بلدة « جادو ». وهنا أيضاً رفع رايتنا

فوق قلعتها القديمة بين تهليل البربر وغبطة الجنود .

ولقد كان اعادة احتلال هذا المركز ومركز « كاباو » قـــد نتج عنه نزوح جميع اهالي « الرجبان » و « الزنتان » إلى « القبلة » ، فضلاً عن بعض جماعات اخرى ، كما أدى إلى تسليم الأسلحة وإلى استسلام جميع اهالي الجبل العرب من « جادو » إلى « نالوت » .

وقد تم احتلال هـذه البلدة الاخيرة على يد الرئيس « كورو » في الساعة الحادية عشرة من يوم ٦ يوليه ، ورفعت فوق قلعتهـــا البربرية القديمة الراية الايطالية من جديد بعد أن قام خليفة بن عسكر مرتين بإلحاق الإهانـة والعار بها ، ذلك الرجل الذي شنق بعد ذلك بقليل في « الزاوية » .

وكان هناك في طرابلس عدد من الإيطاليين والوطنيين قـــد جرؤوا أثناء التحقيق على رفع صوتهم ضد عدم شرعية تهمة الخيـانة العسكرية بسبب إخلاء « الوطية » ، وربما كانوا يتوقعون بهـــذه الطريقة الحكم بالبراءة عن الجرائم السياسية ، القديمة منها والحديثة .

على هذا النحو تم الاستيلاء ثانيـــة على الجبل الغربي كله من « جادو » إلى « نالوت » في مـــدى شهر ونصف شهر بفضل نفر قليل من الجنود الشجعان البواسل تدفعهم الجرأة والإقدام ويحركهم إيمان ثابت في نهضة الوطن المنتصر .

كان هناك في روما أناس مترددون ضعاف الإيمان ، كما كانت هناك إشاعات قوية تسمع في « مجلس الشيوخ » كلها استنكار لهذه الحوادث لإظهار ما يترتب عليها من خطر جسيم . وكان يقابل هـــذه الإشاعات تلك العبارات القوية التي تهز المشاعر التي اعتاد أن يقولها صاحب السعادة الماريشال « بادوليو » .

ومع هذا فقد منعت الإشارة إلى هذه الحوادث وحرم على الجميع التحدث عنهـا .

وهكذا بقيت مرحلة من أهم مراحل انتفاضتنا الطرابلسية غير معروفـة .

تلك المرحلة التي كانت لها نتائج مماثلة لإعادة احتلال سواحل «مصراته» وانتهاك حرمة ذلك الخط الجبلي الذي كان زعماء الثوار يعتقدون أنه منيع لا يمكن الوصول اليه بأي حال من الاحوال، والذي كان لامتلاكه أثر كبير على العمليات المستقبلة لإعادة الاستيلاء على الاقاليم الباقية .

وبعد اتمام احتلال « جادو » كان يجب تقرير ما إذا كان من المناسب أو غير المناسب ترك الجيوش النظامية فيها لتعمل سويا مع جماعات « خربيش» لتدعيمها أو سحبها من هذه المنطقة وترك « خربيش » بمفرده .

وكانت هناك أسباب كثيرة تدعو لقبول الحل الأول. ومن اهم هذه الأسباب هو أن نظهر للجميع كيف وصلت الحكومة إلى « الجبل » بجيوشها وليس « خربيش » البربري هو الذي جاء اليه للسيطرة عليه بدلاً من «فكيني».

ومن تبادل وجهات النظر على وجه السرعة وصلتني الكلمة الجليلة التي قالها سعادة الحاكم ، الذي رغماً من أنه ترك لي أمر البت في الموضوع ، قدم لي بعض العناصر الإيجابية بوصفه رئيساً لي . وقد قدرتها حق قدرها واستطعت أن أطبقها وأنا مطمئن البال حسب مقتضيات الاحوال .

لذلك قررت أن أتحرك في « جادو » بجنودي النظاميين إلى جانب رجال « خربيش » ، وأن أنتظر أن تقدم لي الحوادث المرة بعد المرة القاعدة التي أسير عليها .

وهكذا كنت متفقاً تمام الاتفاق مع فكرة الحكومة .

وكان من شأن الأيام التي تلت الاحتلال أن أعطت في تلك الأثناء الإحساس الدقيق بكل ما كان لضربات « الوخيم » و « الجوش » و « السلامات » من اثر في انكسار قوات «فكيني» وهزيمته .

وبعد ان قامت الكتيبة الاريترية الرابعة بضربات مستمرة في بلاد الرجبان

والزنتان استطاعت أن تدرك في الواقع كيف أصبحت هذه البلاد خاوية على عروشها . وقد اتفقت جميع المعلومات التي وردت تدريجيـــاً على التأكيد بأن «فكيني» انسحب إلى «مزدة» وبأن قبائله قـد انتشرت بين «بئر علاق» و«بئر الكلاب» و«بئر سانية الجديد» في «القبلة». وكانت الخسائر التي اصيب بها في الأعيان والأقارب والرجال المسلحين والمواشي فادحة للغاية .

ويؤكدون أيضاً أن من يوم واقعة (الوخيم) (٣ يونيه) بدأ اهالي الزنتان والرجبان في الفرار بمنتهى السرعة نحو «القبلة» بعد ان استبد بهم الفزع والذعر الشديدان وان آلافاً من المواشي قد ذبحت بسبب ما أصابها من العطش .

ونظراً لندرة التموينات التي زادت قلتها أيضاً بعد المعـارك التي وقعت ، وللصعوبات المالية يمكن القول والاستنتاج ان احوال هذا الزعيم قـد أصبحت سيئة حقاً ، كما دلت على ذلك عبارتان متميزتان ، إحداهمـــا نطق بها بفمه والأخرى وجدت مكتوبة على جدار بيته في «تاريدية» إذ قال ما نصه : بأنه منذ الآن قد فقد كل شيء ، ولم يبق له سوى الانتقام .

كما أنه قد وجدت في منزله مكتوبة على الجدار هذه العبارة اليائسة والتي لها مغزاها وهي : من هذه اللحظة وصلت معونة الله إلى أعدائنا .

ولذلك لم يبق أمامنا إلا المساعدات التي يمكن أن تأتي من الشرق . وقـــد تأكد أن أناساً من «يفرن» و«بئر الغنم» و«ككلة» و«الرياينة» وجانب من أهالي «الصيعان» ممن انضموا إلى رجال «الزنتان» و «الرجبان» من بقايا اهالي «الوخيم» و«الجوش» قد حاربوا في «السلامات».

كما تأكد أيضاً أن «خالد القرقني» كان موجوداً على مقربة من «جادو» عندما تم احتلال هذه المدينة .

كما كان هناك أيضاً جنود الزعيمين «تمسكت» والشيخ «سوف» النظاميين ومعهم مدافع وميتراليوزات ، وانهم قـــد اخذوا طريق الشرق بعد احتلال «جادو» .

وقد دل هذا على أنه كانت هناك تجمعات من أهالي الشرق في اتجاه «جادو» تقوم بسد الممرات الجبلية لمنعنا من ارتقاء الهضبة وعزلنا عن الساحل . وكان عزمنا على التقدم إلى الأمام قد منع تحقيق هذا العمل الخطير الذي كان من الممكن أن يعمل على احباط اغراضنا الحربية احباطاً تاماً لو اننا اقتصرنا على احتلال «الجوش» دون غيرها .

كانت النتائج العاجلة لانكسار العدو واحتلال «جادو» هي :

١ – قرار اهالي «الصيعان» و« الحرابة » بالاستسلام النهائي وتسليم أسلحتهم بعد تردد طويل .

٢ – تعجيل عائلات «نالوت» و«فساطو» – التي استطاعت في ايام قلائل ان تطمئن إلينا وتعتمد علينا – بالعودة زرافات ووحداناً من الوطية إلى اقاليم «كاباو» و«جادو»

٣ – امكان الاتصال عن كثب باهالي « يفرن » والتأثير عليهم سياسياً . وفعلاً وصلت للحكومة من كل مكان تأكيدات من الأهالي بالإخلاص لها (من الرياينة وقصر الحجيرة والأصابعة والمشاشى واولاد بوسيف وغيرهم) .

٤ – مراقبة الحدود التونسية ومن ثم منع التهريب حتى سفح الجبل .

٥ – تثبيت سلطاننا وزيادة احترام الأهالي الوطنيين للحكومة .

٦ – ازدياد المزايا الأخرى ذات الصفة العامة تبعاً للموقف في الشرق ومن بين هذه المزايا ايضاً امكان التقدم نحو « يفرن » و « غريان » متى وكيفما أرادت الحكومة ذلك وقررته .

تنظيم الاراضي المحتلة .

في فترات الغزو الاستعماري توجد مواقف يستلزم الأمر فيهـــا تفويض جانب كبير من السلطة من قبل الحاكم العـــام للقائد الذي يسند إليه القيام بواجب في مكان بعيد منعزل يقتضيه اصدار قرارات عاجلة يقوم بتنفيذها في حدود سلطته العامة .

ومن الواضح ان هذه السلطات لا يمكن ان تكون عسكرية بحتـــة ، بل سياسة وادارية ومدنية ايضاً . اذ تنبثق من مجموعها خير فرص العمل أمامه .

وقد ادرك ذلك صاحب السعادة السنيور « فولبي » بثاقب فكره وبعد نظره . اذ انشأ بمرسوم رقم ٦٤٢ بتاريخ ١٧ يوليه سنة ١٩٢٢ « قيادة منطقة الجبل » واسندها إليّ .

وقد وضعت تحت ادارة هذه القيادة جميع اراضي الجبل من « نالوت » الى « غريان » واراضي «القبلة » من « غدامس »الى « مزدة » . وقد دلت هـــذه القرارات صراحة على أن إرادة هذا الحاكم تتوخى أغراضـاً بعيدة كان يجب عليّ أن اتطلع الى تحقيقها .

وقد تم العمل الذي يرمي الى إعادة التنظيم السياسي والمدني من يونيه الى سبتمبر ١٩٢٢ في انتظار ان يمتد احتلال الجبل نحو الجهة الشرقية ؛ وكان ذلك على النحو التالي :

أ — باعمال التعمير المباشرة في مراكز «الجوش» و«نالوت» و«كاباو» و«الحرابة» و«الرحيبات» و«فساطو » التي وقعت في نطاق حكمنا المباشر باحتلال «الجوش» و«نالوت» و«جادو» .

ب— بممارسة النفوذ السياسي على أهالي «القبلة» الذين تقوم بينهم وبين اهالي

الزنتان عداوة قديمة أي على «اولاد بوسيف» و«المشاشى» لجعلهم يدورون في فلكنا مع «الربايىنة» الذين هم أيضاً من اعـــداء «الزنتان» و«الرجبان».

– مع عدم الاهمال في الإبقاء على العلاقات بالزعماء والاهالي الثائرين الهاربين لتشجيعهم على التسليم.

ولكن هذه الفترة الأولى من فترات اعادة البناء السياسي والاداري قـــد امتازت بوجه خاص بضرورة التوفيق بين مصالح الأهالي البربر الذين بمجرد أن أعيدوا إلى المراكز الاصلية التي كانوا قـد تم طردهم منها قوة واقتداراً والذين كانوا يتعطشون لذلك إلى الانتقام – وبين مصالح العرب الذين استسلموا بعـــد وصولنا، وذلك لإيجاد توازن بين الفريقين من جانب الحكومة من شأنـه أن يساعد على تحقيق اهدافنا واغراضنا العامة.

ولقد بلغنا هذا الهدف ووفقنا بين مختلف احتياجات الفريقين اللذين خضعا لقرارات الحكومة وذلك بفضل إرادتنا القوية وما قدمناه من عمل بعيد عن كل تحيز. ولو أننا كنا نستطيع ان نفرض عليهما ما نريد بالقوة.

ومع ذلك تم تطبيق المبدأ القديم القائل «فرق تسد» على الاهالي الذين تم خضاعهم والذين كان يراد بسط نفوذنا عليهم. ولكن على اساس التظاهر بقوة حقيقية لا خيالية وكان لذلك نتائج طيبة فعالة.

ولما كنت مقتنعاً بانه من اللازم في فترة اعادة البناء والتعمير تركيز العمل الاداري بقدر الامكان، فـاني نفذت ارادتي بواسطة اثنين من الضباط لا ثالث لهما يقيم احدهما في «نالوت» والثـــاني في «جادو» وينفذان أوامري بمنتهى الدقـة.

وفي الخمسة عشر يومـــاً الأولى من ايام شهر أغسطس، أي بعد شهرين من اعادة الاحتلال قمت على صهوة جوادي ومعي حرس لا يتـألف من اكثر من

عشرين رجلاً من الخيالة « السباهيس » وثلاثة من الضباط بقطع كل خط سفح الجبل من « الجوش » الى « نالوت » ، ثم تنقلت في الجبل كله من بلدة الى أخرى ابتداء من « نالوت » حتى « جادو » .

وهكذا استطعت ان أدرك بنفسي مختلف الاحتياجات التي كان يجب العمل على تحقيقها ، وأن اعرف الاهالى مباشرة وعلى الاخص جميع زعمائهم .

وقد ألقيت نظرة ثاقبة على كل ما احدثه غضب العرب وتخريبهم في بلاد البربر التي استحالت ركاماً وأطلالاً .

فقد كان هؤلاء الاهالي الجائعون يطلبون مساعدة الحكومة لهم . وكانت جموع غفيرة منهم بين رجال ونساء واطفال يكادون يموتون من الجوع والجهد ، يمدون أيديهم إليّ اثناء مروري وهم يعدونني بوفائهم وإخلاصهم مدى الحياة .

وكان من الواجب مواجهتهم بكافة الطرق . ولذلك بدأ من تلك اللحظة ذلك العمل المتواصل لتقديم المعونة الأدبية والمادية التي كان من شأنها ان تزيد من تعلق البربر بنا .

وكان من ثمرات استيلائنا الفعلي على هذه البلاد أنْ رأينا اليوم مرة ثانية ، بعد سنوات طويلة ، تلك البلاد المزدهرة والحقول النضرة ومراعي الجبل الغربي الخصبة الغنية ، وأنْ رأينا البربر على اهبة الاستعداد دائماً لحمل السلاح لخدمتنا ، وأنْ نسمع الأطفال يتحدثون بلغتنا ونستمع إليهم وهم يرتلون اناشيدنا الوطنية ، وان نشاهد زيادة النشاط في كافة ميادين الحياة .

ولقد كان لرحلتي في الجبل وأنا بمفردي تقريباً أكبر الأثر في نفوس الأهالي. فإنهم كانوا يشعرون بقوة كبيرة في شخصي وهي قوة إيطاليا التي انتصرت في الحرب العظمى ،ولو أن النصر لم يكن قد أتى بثمراته .

وقبل ان ابرح « الوطية » كتبت انا و « خربيش » خطابات الى زعماء

«المشاشى» وأولاد «بوسيف» لاجتذابهم إلى فلكنا أو لجعلهم يلتزمون الحياد على الأقل في مبدأ الأمر.

ولقد وصلتنا في «الجوش» تأكيدات بهذا المعنى، وتمت بالفعل في هذه الاثناء عمليات استلام من جميع الاهالي بما فيهم اهالي «جادو» و«غريان» (الريانية وقصر الحاج والخلايفة المنشقين من أهالي يفرن والحوص وككلة والأصابعة).

وقد جاءت بطريقة غير مباشرة من «غريان» البعيدة ذاتها إلى جانب المحاولات التي تمت مع حكومة طرابلس أوائل اتصالات «الهادي كعبار» الذي يقال بأنه سلك مسلك العداء نحو زعماء الثورة الآخرين ونحو أخويه مختار وراسم.

كذلك وصلت من «غدامس» و«سناون» رسائل تستعجل تدخلنا؛ فإن الانتصارات التي أحرزناها في «الوخيم» و«الجوش» و«السلامات»، وظهور جيوشنا في الجبل على غير انتظار، كانت تلقي الرعب والفزع في كل مكان، وتحدث انهياراً كبيراً في هيبة زعماء الثوار الزائفة الذين انشقوا على بعضهم بسبب خصوماتهم المعتادة وبسبب أطماعهم الشخصية وجشعهم.

ومما هو جدير بالذكر أن سكرتير «أحمد العياط» أحد وجهاء اولاد بو سيف، والذي كان من المخلصين لنا والذي كان الحاكم «ميركاتيلي» قد اسند اليه متصرفية «فزان» في سنة ١٩٢١، والذي حضر الينا بمجرد وصولنا إلى «جادو» لتقديم خدماته ـ كتب هذا السكرتير من «غريان» لرئيسه بلغة لها مغزاها يقول:

(..... إن النيران التي اطلقت في «الجوش» و«السلامات» قد أنضجت خبز «غريان»؛ وذلك لكي يفهمه نتائج احتلالنا للجبل وتأثيره على الأهالي حتى «غريان» التي كانت مع ذلك بعيدة كل البعد ومركزاً للثورة بأكملها.

كل ذلك أظهر بجلاء كيف أدى زحف سريع نحو الشرق إلى نتائج إيجابية ونهائية لا شك فيها .

على أن الناس كانوا في مدينة « روما » أكثر من مترددين وغير واثقين .

وعلى كل حال فإنه إذا وجب التحدث عن دفعة إلى الأمام ، فإن هـــذا الاندفاع يجب ان يتوقف في «يفرن»لإكمال عملية طلوع البربر إلى الجبل للعودة بعد ذلك منه إلى الساحل ، لأن برنامج الحكومـــة المركزية يقتصر على الوقوف عند هذا الحد .

وعبثاً أخذت في الصياح بأعلى صوتي المتواضع مستنكراً هذا الخطأ . وعبثاً طلب صاحب السعادة السنيور « فولبي »في روما أن تترك له حرية العمل.وكان هناك من يفكرون في أنه من الممكن التوقف على خط سفح الجبل في« الجوش» و«بئر الغنم » و«العزيزية » كما لو كان من الممكن امتلاك قصر بمجرد التطلع اليه من إحدى النوافذ .

وكان هناك أيضاً من يفكرون في الزحف بقصد تطهير البلاد من الغرب إلى الشرق كحملة تأديبية والعودة بعدها إلى الساحل .

وكل هذه أنصاف حلول وألعاب بهلوانية لا جدوى منها إطلاقاً ، من شأنها أن تجعلنا نقع في موقف أسوأ من موقفنا الأول بالحط من قيمـــة ذلك النجاح والانتصارات الباهرة التي احرزناها .

كان من اللازم البقاء في الجبل للسيطرة على هـــذه البلاد الممتدة حتى البحر وبسط نفوذنا على الأراضي الشرقية والجنوبية . وإلا لكان من الأفضل الجلاء عن طرابلس الغرب وإخلاؤها .

وكان الماضي كله ينذر بجلاء بشيء من هـــذا القبيل ، وليس ماضينا الأخير فحسب بل ماضي الرومـــان والأتراك في « طرابلس الغرب » بالذات وماضي فرنسا في بلاد الجزائر القريبة حيث قام هناك هذا النقاش والجدل عند مـــا كان

يجب البت بعد احتلال الشاطىء واحتلال « التل » .

واني كنت أسمع وأنا في «جادو» صوت الأشياء وقمت بتفسيرها بكل ما لدي من قوة .

على أن زعماء الثوار لم يكونوا في تلك الأثناء نائمين ، واستغلوا ترددنا هذا أحسن استغلال ، وحاولوا إيجاد موقف يعرقل زحفنا ويقف في وجهه وإعادة هيبتهم الأدبية الضائعة . وانتقل « أحمد السني » إلى مواقع « صُفـّيت » و«أم الجرسان» و«القلعة» وهي مراكزمنيعة بطبيعتهاولا تزال تبدو فوقها حتى اليوم اطلال حصون رومانية عديدة ـ واقام فيها مركزاً لتجمع رجاله المسلحين للدفاع المباشر عن « يفرن » والطريق الى « غريان » . وكان يدعو الى هذه الاجتماعات باسم « النبي » واعلن نفسه زعيماً دينياً لحركة المقاومة الإسلامية .

وقد حاول القيام بأعظم دعاية ضد الحكومة لكي يبقي الى جانبه الأهالي الذين قد حل بهم التعب وتضعضعت روحهم المعنوية ، وكان يضارب قبل كل شيء بهذين العنصرين، وهما :

١ ــ أن الحكومة ليست لديها نية احتلال الجبل.

٢ ــ أن الهدف الوحيد الذي تتوخاه الحكومة هو إرجاع الاهالي البربر مرة ثانية الى مراكزهم في « جادو » و« نالوت» حتى يعودوا بعد ذلك الى الساحل .

ولقد كان من شأن توقفنا أن ساعد كثيراً على نجاح دعاية خصمنا .

وهكذا انتقل الى صفوف الثوار مرة أخرى اهالي « يفرن » و « الحوص » و « ككلة » (حوالي ١٠٠٠ بندقية) الذين كانوا قد ارسلوا مضبطة باستسلامهم وذلك تحت ضغط قسوة زعمائهم . وبعد ان فقدوا ثقتهم بنا بسبب ترددنا .

ولكن بقي أهالي « الرياينة » و « الخلايفة » و « الأصابعة » على ولائهم

لنا . وكان يزداد ولاء « المشاشي » لنا بعد أن كانوا واقعين تحت نفوذ « أحمد العياط » الذي كان لا يتبعه إلا خمسون شخصاً من أولاد « بوسيف ».

وفي شهر يوليه حضر الى « الجوش » « محمد بن جلبـان » من « الريابنـة » وكان قادماً من « ترهونة » حيث كان « المريض » قد أبقاه سجيناً عدة أشهر اذ كان يشتبه في أنه ممن يعطفون على البربر ويوالونهم (وقد كان هذا صحيحاً) بسبب صلات المودة التي كانت تربطه بهم من أمد بعيد وبسبب عداوته لأهالي « الزنتان » . وكان « المريض » نفسه قد أرسله الى « الريابنـة » لكي يؤدي عملاً يفيد جماعة الثوار في الغرب ، إلاّ أنه نظراً لما كان يكنه من الحقد بسبب ما أصابه من الألم أثناء سجنه في « ترهونة » انتهز فرصة إطلاق سراحـه واستعادته حريته واتخذ مسلكاً عدائياً ضد الجمهورية .

ولذلك سرعان ما بدا لي أنه من الملائم كل الملاءمة الاستفادة من هؤلاء الزعماء ورجالهم لصالحنا وتنفيذ أغراضنا .

ولما كان « أحمد العياط » قد وصل الى « العوينية » حيث كانت تعسكر جماعة « المشاشي » ، وقام هو من تلقاء نفسه بإقناعهم بأن يجاهروا بوقوفهـم أمام الحكومة ، بدا لي أنه قد حانت اللحظة المواتية لدعوته الى « جادو » هو و « محمد بن جلبان » الذي كان قد عاد في تلـك الاثناء الى «الريابنة» ومعهما محمد بن حاج حسن من رجال « المشاشي » . وقد تقرر في هذا الاجتماع عقد محالفة بضمانـة « يوسف خربيش » . وكان من شأن نفوذ « العياط » على أهالي « الأصابعة » أن ضمن حياد هؤلاء الناس ايضاً .

وبهذه الطريقة تألفت بين « جادو ويفرن » وبين «يفرن وغريان» جماعتان مواليتان لنا تشكل منهما بعد ذلك حلف« الريابنة – المشاشي –اولاد بوسيف – الأصابعة»الذي متى انضم إلى البربر كان لا بد أن يؤدي لنا أحسن الخدمات ويساهم في إعادة الاستيلاء على الجبل و «القبلة » .

وافقت الحكومة على هذا العمل وأرسلت إليّ الإرشادات الآتية :

أ – لا يجب دفع أي شيء من المال ، لأن المال كان حتى تلك اللحظة أساس كل سياسة خاطئة وكل فساد، وفضلاً عن ذلك فإني كنت قد رفضت عند سفري من « زوارة » أن أحمل معي الاعتمادات المالية « السياسية » التي كانت الحكومة تريد ان تخصصها لي ، ووضعت على مقر قيادتي لوحة مكتوب عليها باللغة العربية العبارة التالية :

« لا توجد خزانة في هذه القيادة » .

ب – لا يجب توزيع أسلحة أو مؤن .

ج – لا يجب التعهد بأي شيء ولا إعطاء وعد بأي شيء .

د – يجب أن تقدم الخدمات للحكومة دون قيد أو شرط ، ويجب أن يصارح الجميع الحكومة إما بولائهم أو بعدائهم .

و كان لهذه الكلمات الأخيرة لون قاتم في نظر الزعماء الوطنيين الذين تعودوا على الطرق والأساليب القديمة .

وقد طلب مني « العياط » أن أرسل له على الأقل عشرين صندوقاً فارغاً من صناديق المؤن والذخائر لكي يوهم بها رجاله بأنه يتلقى مني معونات ، وقد أجبته الى ما طلب . وبعد أن قام بملء هذه الصناديق بالحجارة أودعها تحت خيمته بمنتهى العناية والحرص .

بهذه الطريقة تكونت الكتلة السياسية الموالية للحكومة . ولكي يمكن فهم طبيعتها ومقدرتها على العمل يجب التفكير في أن الأهالي الذين تكونت منهم هذه الكتلة كانوا معادين من أقدم العهود لجماعات « الزنتان » و « الرجبان » الذين سبق أن هزمناهم ، وكانت مصلحة هذه الكتلة تتفق في هذه اللحظة مع مصلحة الحكومة .

ولما كان من العبث والضلال محاولة معرفة كنه سياسة الأهالي والاعتماد عليها، فإن عمل الحكومة الذي بدىء به كان يصاحبه شيء كثير من تقدير الواقع .

ولما كان الذين تتكون منهم هذه الكتلة قد قدموا الدليل الواضح بأسلحتهم على إخلاصهم فقد أسندت إليهم واجب مواجهـة العدو في خط « صفيت » والمحافظة على خط « الرومية » طالما لم تتقدم قوات الحكومة . وفعلاً قاموا حوالي منتصف شهر أغسطس بقتال الثوار المسلحين وقد ساعدهم الحظ إذ انهزم « السني » و « محلاته » ثلاث مرات ، وانحطت سلطته انحطاطاً كبيراً فضلاً عن الخسائر المادية الفادحة التي لحقت به .

ولما فقد « السني » الامل الذي كان يراوده في أن يستطيع الانتصار في ميدان الحرب والنزال استنجد « بالسيد ادريس السنوسي » للاستعانة بسلطته لكي يعمل على تخلي حلفائنا عن القتال الى جانبنا وينضموا الى انصار القضية الإسلامية والدعوة السنوسية .

ولذلك جاء من «مصراتة» بعض المبعوثين يحملون رسائل من السنوسي يدعو فيها حلفاءنا الى تحرير مضبطة يخولون له فيها الحق في ان يتوسط في الصلح مع الحكومة ، بينما يدعوهم للتخلي عن الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه .

وكان تأخرنا في الزحف والتحرك الى الأمام قد احدث هزة شديدة في الثقة بقوتنا ، كما ادى خوف الزعماء المتحالفين معنا من الهزيمة الى عقد هدنة ، بينما رفضوا مع ذلك الموافقة على تحرير المضبطة المطلوبة رفضاً تاماً .

وسرعان ما اقتنعوا من أن هذه الحركات تخفي وراءها خطر اعتداء مفاجىء . وقد تأكد اقتناعهم هذا من خطابات لزعماء الثوار صودرت بين الغنائم التي تم الحصول عليها في « صفيت » وكانت تتبين منها بجلاء نية « المريض » وفكيني وغيرهما ممن كانوا يريدون ضربهم عقاباً لهم . كما أوضح ذلك « المريض » شخصياً حتى تبقى إلى الأبد ذكرى خيانتهم ويكونوا عبرة لغيرهم .

وهكذا وصلنا إلى آخر شهر سبتمبر وكان الموقف يفرض علينا إصدار

قرارات والقيام بأعمال ظاهرة من جانبنا ضد أولئك الذين كانوا حتى اللحظة قد انحازوا الى جانب الحكومة من تلقاء أنفسهم ، والذين كنا قد جعلناهم يشعرون بأن جهودهم لن تكون بلا جدوى .

وقد وصلت في هذه الأثناء من جهات أخرى أخبار أكيدة بأن الثوار يعدون العدة للقيام بهجوم مسلح ضدهم . كما جعلتني هذه الأحوال اقترح ارسال بعض « محلات » من يفرن (حوالي ٣٠٠ رجل) الى العوينية لشد أزرهم . وكذلك نقل كل قواتي الى « جادو » لكي اظهر للخصم بجلاء تصميمنا على التقدم الى الأمام وعلى الزحف .

وفي أوائل اكتوبر تمت التحركات التي كانت قد تقررت من قبل فرفعت روح الأهالي المعنوية وزادت في ثقتهم بنا .

قتلانا في سنة ١٩١٥ .

قبل ان نبرح « الجوش » اقيمت حفلة رمزية على صفحة الصحراء . ولقد جمعت في صندوق واحد عظام الجنود الذين خروا صرعى في سنة ١٩١٥ ، والتي كان قد تم العثور عليها أثناء الزحف ، وصلى عليها الأب « سكيليرو » الذي جاء خصيصاً من « زوارة » لهذا الغرض ، ثم أرسلت الى طرابلس لكي تجد مثوى يليق بها . وقد أتبعت إرسالها بالبرقية التالية :

« اليوم قد قمت بجمع عظام جنودنا المجهولين في صندوق واحد وبإقامة الصلوات عليها . وكانت هذه العظام قد وجدت مبعثرة في ممرات الوديان الجبلية حيث بقيت من غير دفن من سنة ١٩١٥ حتى الآن ، وقد قامت شفقتنا بتغطيتها بالعلم الوطني . واني إذ أقوم بهذا الواجب المقدس لتتجه أفكارنا ، أنا والضباط والجنود ، إلى الوطن البعيد لتأكيد إرادتنا الصادقة للعمل على رفعة إيطاليا ومجدها في أرض افريقيا ، وعلى انتصار المدنية والحضارة ، وإننا نجدد اليوم

هذا القسم الذي أقسمناه » .

وقـد قامت جريدة « كريري دي تريبلي » (جريدة طرابلس) بنشر دعوة على الشعب ، أيدتها الحكومة ، لعمل اكتتاب عام لإقامة تمثال لإحياء ذكرى هؤلاء الشهداء .

وقد تحققت هذه الأمنية في اليوم الثالث من شهر مايو سنة ١٩٢٥ عندما احتفل برفع الستار عن هذا النصب التذكاري الذي لا تزال تثوي أسفله رفات من استحقوا ميداليات طرابلس الغرب الذهبية الآتية أسماؤهم :

رئيس أركان حرب « الكافاليري » « بيتروفيري » .

ملازم ثان مشاة « فيتوريو فيردوني » .

كولونيل مشاة الكافالير « جيوفاني باستوراللي » .

جندي مشاة « ارمينيجلدو كانتوني » .

لفتنانت كولونيل مشاة كافالير « فيتوريو جادوليني » .

رئيس بيرساليري « اركولي دي جاسبيري » .

لفتنانت كولونيل مشاة كافالير « تشيزاري بيليا » .

السيدة « دونا ماريا بريجنتي » .

رائد مشاة كافالير « قسطنطين بريجنتي » .

ملازم أول مشاة « بيتروتيرافانتي » .

وقد كتب على النصب التذكاري ما نصه :

نفوس طاهرة وأرواح زكية

وهبت كل شيء في سبيل

الوطن المقدس
دون أن تبتغي أي جزاء
الا الذكرى الطيبة وحسن السيرة
ولقد قامت الاجيال الحاضرة
بإذكاء الشعلة الوطنية
لتخليد اسمائهم ونقشها
على صفحات القلوب ولوحات الرخام
بعد ان روت
دماؤهم القرمزية طرابلس الغرب
الرومانية واعادوا الى روما
مجد روادها الاقدمين .

مقدمات الزحف على يفرن .

كان لنقل القوات الى الجبل أثر أدبي كبير على الثوار المسلحين ، وقلب رأساً على عقب كل قصور الشعوذة التي شيدها الزعماء الذين يتولون توجيه الثورة وإدارتها ، تلك الشعوذة التي كانت تعتمد أساساً على تأكدهم من أن زحفنا نحو الشرق لن يتم في يوم من الأيام .

وفي الخمسة عشر يوماً الأولى من شهر أكتوبر كثرت في تلك الأثناء غارات جماعات « الزنتان » على الجهات الجنوبية وذلك بقصد العمل على إقصاء قوات « المشاشى » و« الرياينة » عن خط « الرومية » ، وأنزلت خسائر فادحة ،

وعلى الأخص برجال « المشاشى » الذين كانوا على وشك مبارحة هـــذا الخط والانتقال لمقاتلة أعدائهم .

وكان من الممكن أن يؤدي ارتدادهم إلى انهـــزام « الرياينة » في أقرب وقت ، وإلى تبديل كل الموقف الذي كان في صالحنا ، ذلك الموقف الذي كلفنا جهود أشهر عديدة ، إذ كان على وشك أن ينهار وتصاب الحكومة وهيبتهـــا بأضرار جسيمة .

ولذلك ، فإنه بينما كان يبدو أن هناك اتجاهاً جديداً في الأعمال التي يجب القيام بها لأسباب جديدة كان يبدو أن الحكومة لا بـد أن تأخذ بها - كنت أنا في ذلك الوقت مضطراً الى اظهار الموقف على حقيقته ، والى الإصرار على أن يبدأ زحفنا ولو على الأقل على « يفرن » ان لم يكن على « غريان » نفسها .

في هذه الأثناء وصل الى « جادو » في اليوم العاشر من اكتوبر « أحمـــد العياط » الذي بعـــد أن قـدم لي صورة للموقف الحالي في « العوينية » أفهمني صراحة أنه ليس هناك ما يضمن اتمام زحفنا ان لم يبدأ به في مـدى خمسة عشر يوماً على أكثر تقدير .

ولذلك رأيت من اللازم ان أبدأ بدفع قوات « خربيش » دون تأخير نحو « العوينية »وذلك لدعم حلفائنا بأي ثمن وشد أزرهم في انتظار ما قـــد يتخذ من قرارات .

وقد تم التحرك دون أن يلقى أية صعوبة . ولهـذا رفع الروح المعنوية لدى الجميع في أسرع وقت ، وأكد كذلك أن الآمال المعقودة علينا لن تضيع سدى ، وقد قام رجال « خربيش » في « العوينية » بما يأتي :

١ - استطاعوا السيطرة على الموقف وإبقاءه كما كان عندما ترك «المشاشى» الخط للتوجه لمقاتلة رجال « الزنتان » في « القبلة » وللاستيلاء من جـديد على المواشي العديدة التي فقدوها .

٢ – تشكيل طليعة لي عندما يتقرر الانتقال إلى « يفرن » .

وهكذا كنت أعضد من الجبل تلك الجهود التي كنت أعرف أن صاحب السعادة الحاكم العام يبذلها في روما لإقناع الوزارة التي كانت لا تزال مترددة بضرورة العمل .

وأثناء فترة الانتظار الطويلة هـذه ، وبينما كان يتم هـذا العمل السياسي المتواصل وتتم عودة البربر إلى « نالوت »و« جادو » كانت القوات العسكرية قد بسطت سلطانها على المنطقة الواسعة دون تعب أو ملل ،وكان وجودهم في كل مكان يشعر الناس بقوة الحكومة وسلطانها ، وكنت على يقين من ذلك المبـدأ القائل بأن بقاء الحكومة المسيطرة في افريقيا يتوقف على هيبتها .

واستطاعت الكتيبة الأريترية الرابعة وجماعـة « خربيش » القادمة من « جادو » المحافظة على المنطقة الممتدة نحو الشرق بهجمات متعددة قاموا بها على بلاد « الزنتان » و«الرجبان ». وأما المسلحون من أهالي « نالوت » الذين كانوا يقومون بحراسة مراكز « نالوت » و « كاباو » فإنهم قاموا بأعمال المراقبـة في الجهات الممتدة نحو الجنوب حتى خط « سناون – مزدة » لمنع قيـام أهالي « الزنتان » بأعمال الانتقام والأخذ بالثأر ، ولجعل أعمال التهريب على الحـدود التونسية أكثر صعوبة على الأقل .

وأما الكتيبة الاريترية الخامسة التي كانت تنتقل بين « جادو وأم القرب » للدفاع عن الممرات المؤدية إلى سهل « شكشوك » و «الجوش» فانها سهلت وضع أيدينا على طرق المساكن والحصون .

ولقد قام فرسان « زوارة والخيالة السباهيس » والهجانـة الموجودون في منطقة « مشة » و«العقربية » و« زرير » و« الوطية » و « الهبيلية » و « سواني الكردي » و« الجوش » بحراسة خطوطنا الطويلة الممتـدة من « زوارة » إلى « جوش » .

كما قامت بعض فصائل من قوات « خربيش » ومن الخيـــالة «السباهيس» باحتلال « شكشوك » .

وكانت عدة فصائل من الفرسان التي اندفعت في اتجاهــات مختلفة شرق خطوطنا تقوم بحراسته باستمرار لدفع ما قد يتعرض له من هجمات ، حتى انه ليمكننا أن نفخر بأنه في مدى أربعة أشهر انقضت في تحركات دائبة قامت بها قوافل عديدة من قوافلنا لم يجرؤ الأعداء على محاولة القيام بأي اعتداء على أية واحدة منها . وقد ازدادت الاتصالات ونشطت في أول الأمر بالرسائل . ثم بعد ذلك بواسطة اللاسلكي الذي لم يكن له وجود في البداية .

بهذه الطريقة توصلنا إلى خلق موقف عسكري عظيم بقي حافظاً لكيانـه حتى وقت بدء الزحف إلى الأمام .

وفي آخر سبتمبر كان من الممكن القول بأن الأحوال في المنطقة الواقعة بين « جادو » و « نالوت » ملائمة كل الملاءمة وتسمح بالقيام بالزحف فيما بعـد نحو الشرق .

ولكن كان يتسرب شيء من الخوف في أن تعدل الحكومة عن نية الزحف إلى الامام وتطلب منا الانسحاب من الجبل . وهكذا تترك البربر عرضة لانتقام لا يمكن تحاشيه من جانب اهالي « الزنتان » الذين كانوا يتحفزون من الجنوب في انتظار العودة إلى الهجوم واعمال العدوان .

الزحف على يفرن : (٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و٣١ اكتوبر ١٩٢٢) .

كان من شأن زحفنا على «يفرن» أن أعاد أخيراً الطمأنينة إلى نفوس الجميع وأكد الثقة في اعمال الحكومة .

وفي يوم ٢٨ اكتوبر على اثر الأمر بالقيام بالعمليات الحربية الصادرة من قيادة

الجيوش تحرك الألاي الذي كنت أقوم بقيادته للزحف أخيراً من « جادو » على « يفرن » .

وكانت الفكرة التي توحي لنا بالعمل هي الآتية :

« يتقدم ألاي الجبل (جراتزياني) نحو « يفرن » حيث يقوم بالهجوم على الثوار ليقطع عليهم بحركة تطويق من الجنوب خطوط المواصلات الطبيعية نحو « غريان » و « مزدة » ، ويدفعهم نحو الشمال في « الجفارة » حيث يقوم ألاي « بيتزاري » بإكمال هزيمتهم .

وفي مساء يوم ٢٩ وصل الألاي الذي أتولى قيادته الى « الرياينة » كما وصل ألاي « بيتزاري » إلى « بئر الغنم » .

وفي يوم ٣٠ انتقلت أنا إلى خط « العوينية – الرومية » حيث اتصلت بقوات « خربيش » المساعدة وبتشكيلات « المشاشى » و « الرياينة » غير النظامية .

وفي يوم ٣١ اتجهت من « العوينية » إلى مواقع « صفيت » والى مساكن « يفرن » بعد أن قسمت قواتي الى ألايين ، أولهما المؤلف من الجنود النظاميين ليقوم بالزحف على « ام الجرسان » وهي شبكة الطرق المؤدية الى « يفرن » ، والتي اتضح ان الثوار يقومون بالدفاع عنها بقوات كبيرة لأننا اذا ما قمنا بالاستيلاء عليها كان في استطاعتنا ان نقذف منها بفصائل لاحتلال مساكن « يفرن » وان نرسل فصائل أخرى صوب « صفيت » .

وأما الألاي الثاني ، وهو الذي يتألف من فرقة الفرسان كلها (حوالي ٥٠٠ فارس بين فرسان « سباهيس » وغير نظاميين) ومن تشكيلات « خربيش » و « المشاشى » و « الرياينة » غير النظامية ، فكان عليه ان يقوم بتطويق مواقع « صفيت » من الجهة الجنوبية الشرقية وينقض على خطوط انسحاب العدو .

وقد قام الآلايان بالقتال بمنتهى العنف وعلى أكمل وجه ، فوقع العدو بين ضغط من الأمام وهجمات من الخلف . ولذلك انهزم وتشتت شمله بعد أن ترك في الميدان مدفعين وبضعة مترااليوزات وكثيراً من الأسلحة ، فضلاً عن جميع المستودعات ، وبعد أن أصيب بخسائر فادحة .

وقد قامت فرقة الفرسان بقيادة الرئيس « اورس فيراري » البطل بحركة التفاف كبيرة حتى « ككلة » وكانت تلقي الرعب والذعر في كل مكان .

ولقد قاتل رجال « المشاشي » و « الرياينة » المسلحون قتالاً باهراً ، ومات في ذلك اليوم شقيق زعيم « المشاشي » محمد بن حاج حسن ، الذي اشترك بنصيب وافر في الحوادث المقبلة كما سنرى ذلك فيما بعد .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم ٣١ قام الرئيس « ماريو كورنالبا » من ضباط الكتيبة الأريترية الخامسة برفع العلم الايطالي مرة ثانية فوق قلعة « يفرن » القديمة المتهدمة ، واستحال ذلك المركز العامر والمزدهر فيما مضى ركاماً وأطلالاً .

وهكذا هدأت روح الزعيم البربري « ساسي خزام » الذي كانوا قد ارسلوه الى « يفرن » في سنة ١٩١٦ على رأس جماعة من المسلحين ووعدوه بمساعدة القوات النظامية له ، الا أنهم تركوه وشأنه فهزمه العرب وقاموا بشنقه .

وكانت آخر الكلمات التي وجهها الى الحكومة هي الآتية :

« لقد وفيت بوعدي في سبيل شرفي وشرفكم ولكنكم أخلفتم وعودكم ».

وكان هناك انذار شديد يرن صداه باستمرار في خاطري في فترة استيلائنا المجيدة على هذه البلاد مرة ثانية .

وفي يوم ٣١ ذاته تم في « تاغمة » حسب نظام العمليات — الاتصال بقوات « الجفارة » القادمة من « بئر الغنم » . وشاء القدر أن يتم هذا الزحف في الأيام

ذاتها التي تم فيها زحف السنيور موسوليني على روما . كما شاء ذلك القدر أيضاً أن تتاتل حول ضريح « صفيت » القديم العهد الذي وجدت بين اطلاله عملة من النقد على ظهرها صورة روما المسيطرة وعلى وجهها الثاني صورة أحد الأباطرة حيث رفع رجال قواتي المنتصرة أسلحتهم تحية لمجيء الفاشية ، واحتفلوا على صفحة الصحراء بذلك النصر الذي تم إحرازه أخيراً ، وأعربوا عن أطيب تمنياتهم لهيبة إيطاليا وسمعتها المستقبلة في أرض افريقيا .

ويوجد هنا اليوم في « صفيت » نصب تذكاري من الرخام اراد البربر انفسهم إقامته تخليداً لذلك الحادث الرمزي . كتب عليه باللغة اللاتينية ما يشير الى وقوع هذه الانتصارات في الوقت الذي فيه انتصرت الفاشية بقيادة « بنيتو موسوليني » .

كما اراد البربر ايضاً ان يعربوا لي عن امتنانهم وعرفانهم بالجميل بأن قدموا لي إحدى المداليات وأرفقوها بخطاب مؤداه ما يأتي :

« لك النصر الباهر الذي يجلب لك الشرف العظيم .

« إن الوعد الذي وعدت به ووفيته يجد ما يعبر عنه في هذا التذكار الذي يقدمه لك اولئك الذين حصلوا منه على اعظم الفوائد التي لم يكن من الممكن الحصول عليها في هذه الدنيا ، وكل هذا يرجع اليك يا منقذ حياة البربر الذين اعدتهم الى بلادهم في اللحظة التي وصلوا فيها الى اعظم درجات الألم والتضحية . فبعد ان تضعضعوا وتشتت شملهم استطاعوا بفضلك ان يعودوا فجأة وعلى غير انتظار الى ارض آبائهم واجدادهم الغنية بالقرى ، والتي كانت فيما مضى مركزاً للحضارات العظيمة . كما تدل على ذلك اطلالها وآثارها العديدة .

« ايها القائد الهمام .

« انظر كم لك من المآثر والمفاخر .

« فلم يكن باستطاعة البربر بدونك ان يفتحوا عيونهم عليها ، ولم يكن في

مقدورهم بدونك أن يصلوا إلى وطنهم ، أو يجدوا فيه مقامهم الطيب .

« ولكن بفضل عملك الجليل كان في استطاعتهم بعد أن تغلبوا على المصاعب والعقبات الكبرى التي كانت تنزلهم منازل الهوان أن يعودوا للتمتع بالحياة ، بينما كانوا قد يئسوا من الحصول على ذلك من غيرك ممن أوتوا قوة أسود الصحراء. فعادوا إلى بيوتهم مرفوعي الرؤوس مملوئين بالزهو والفخار أمام غيظ العدو المهزوم . وكان هذا أكبر أمنية تهفوا اليها قلوبهم .

« وهذه هي الحقيقة الواضحة المحسوسة .

« ولهذا يقدمون اليك هذا التذكار ، على أمل ان تتفضلوا بقبوله ولو انهم يعلمون أنك ارفع منه بكثير . وانهم يقدمونه لك لا لشيء الا لكي يبقى كل هذا ذكرى خالدة في سجل الحوادث ، ولذلك يقدمون هذا التذكار أمام شخصك النبيل ويهرعون اليك والشجاعة تملأ قلوبهم بوجوههم الوضاءة كما كانوا يوم معركة السلامات الذي هو اعظم يوم من ايامهم.

« ان نفوسهم تفيض بفرح لا مثيل له ، كما ان الأبناء يشاركون آباءهم في هذا الفرح الشامل الذي يفوق أي فرح آخر، لأنه يصدر عن اعترافهم بالجميل لهذا العمل الذي فيه خير الجميع سواء كانوا كباراً أو صغاراً .

« الله اكبر — ان هذا العمل العظيم قد رفع الى ذروة العلا نفوس اولئك الذين افادوا منه ، بينما قد أذل الأعداء كل الإذلال ومرغهم في الاوحال .

« وهكذ اتاحت العناية الإلهية لقلوبهم ان يقتربوا منك ، بينما ابعدت عنك قلوب الأعداء .

« لله درك يا جنرال جراتزياني ! انك قد حصلت على الخير بانتصارك على الشعوب وغزوك للمدن والبلاد .

« انك اعظم القواد جميعاً . إن اصرارك على الوفاء بوعدك لا يجد له مثيلا

الا في ثبات « السموأل » الذي آثر ان يضحي بولده على ان يخلّ بوعده ».

« وإنني أقسم امام الله على انك قائد عظيم – ان ارادتك تطوي الجبال ، كما ان افكارك امضى من الحسام اليمني ، وان الجنود التي قدتها تشهد لك بذلك بكل إخلاص .

« وسوف يجلب النصر لك كل سعادة وهناء .

« كل ذلك مكتوب في لوح القدر بعطر البخور . وبقوة ارادتك ، وصلت إلى النصر الذي كان يبتغيه مليكنا ورئيس وزرائه وحاكمنا الهمام الذي يسهر الليالي ويضحي بنومه في سبيل رفاهية البلاد . انهم يستطيعون ان يعيشوا في طمأنينة تحت ظل الراية المثلثة الألوان التي سوف تخفق على العالم اجمع بفضل سيفك الذي ينتصر في كل مكان » .

***

وعلى اثر احتلال « يفرن » اتجهت افكارنا في الحال الى ان نجمع عظام أولئك الجنود الذين سقطوا في الزنتان سنة ١٩١٥ المشئومة وسطروا بدمائهم صحفاً من صحف البسالة والإقدام تستحق التبجيل .

وإنني أدع ذكر ذلك للكاتب « تشيزاري تشيزاري » الذي كتب مقالاً في « المجلة الاستعمارية » قال فيه :

« ان الحوادث التي وقعت سنة ١٩١٥ في ليبيا غنيـــة بأعمال البطولة التي ترفع من قاموا بها إلى ذروة المجد . ولم تعرف حتى الآن كل هذه الأعمال، إذ لم تسمح الاحوال وقتئذٍ بالإشادة بها والتحدث عن قيمتها . وان صدى تضحيات تلك الحاميات البعيدة التي كانت قابعة على الساحل تحت ضغط ثورة الاهالي التي عمل على اذكاء نيرانها عملاء الاجانب – وصل هذا الصدى ضعيفاً خافتاً الى ايطاليا . وسرعان ما انطفأ تحت تأثير تلك الحرب المقدسة التي استعرت نيرانها على الحدود .

« واني احتفظ لنفسي بالحق في أن أخرج الى حـــيز النور وعلى صفحات هذه المجلة تدريجياً كثيراً من هـــذه الحوادث والاعمال التي تستحق اعجاب الايطاليين .

« واننا نذكر اليوم ما يطلقون عليـــه اسم « الزنتان » ، وهو اسم لكي يعرفه القليلون هو في حد ذاته دليل واضح على الصمت الذي احاطوا به حتى اليوم ذلك الدفاع اليائس وتلك التضحية السامية التي قدمتها فصيلة من فصائل جنودنا المشاة التي فقدناها في داخل طرابلس الغرب في صيف سنة ١٩١٥.

« ومع هذا فانه لتبرير هذا النسيان يجب ان نذكر حقيقة لا يمكن التغاضي عنها ، وهي ان حادث « الزنتان » قد قدمه الى التاريخ الماريشال « كادورنا » في كتابه الأخـــير الموسوم « صفحات اخرى من صفحات الحرب العظمى » ، اذ يقول :

« ان الفصيلة الثانية عشرة من فصائل الكتيبة المشاة الرابعة والثمانين بقيادة اليوزباشي « ميليو » الذي هو الآن برتبة كولونيل ، ويعمل قائداً لكتيبـــة المدرعات قد حوصرت في « الزنتان » وهوجمت في صباح يوم ٢ يوليو . وقـــد قاومت مقاومة عنيدة حتى يوم ١٠ . ولما لم تستطع اطالة أمـــد الدفاع قرر قائدها فتـــح الطريق لنفسه بالسلاح . وقد حاول ذلك اثناء الليل واستطاع المرور والاتجاه نحو « بئر الغنم » ، ولكنه بعد ان قاتل حتى الصباح واصيب بخسائر فادحة اخذ اسيراً واقتيد الى « الزنتان » مـــع حوالي خمسين من جنوده وهم الذين كانوا قد بقوا من رجال الفصيلة التي كان يبلغ عددها ١٧٠ رجلاً عند سفرها . وان الدفـــاع عن « الزنتان » ومسلك الرئيس « ميليو » تتألف منها واقعة مجيدة في تلك السلسلة التعيسة من الكوارث الاستعمارية » .

هذا هو ملخص الواقعة في كلمات قليلة وقد علق عليه رئيس اركان حرب الجيش تعليقاً مشرفاً ، وتلاه اهداء مدالية ذهبية للملازم اول « بيترو بترافنتي » واثنتي عشرة ميدالية فضية وسبع من البرونز وتسعة صلبان من صلبان الحرب؛

وكان معظمها مكافآت ولم تكن لتشريف صدور هؤلاء الشهداء بل لتمجيد ذكراهم .

وإذا كانت هذه الواقعة لم تعرف بخطوطها العريضة فان تفاصيلها كانت جديرة بالذكر .

وكانت الاحوال الاستعمارية في يناير ١٩١٥ قد اقتضت نقل الفصيلة الثالثة من الكتيبة الرابعة والثمانين لحماية منطقة «يفرن» في جبل « نفوسة » على ارتفاع ٨٠٠ متر في أرض وعرة موحشة تتخللها نتوءات وتخطها وديان سحيقة . وقد تم استخدام هؤلاء الجنود مدة تقرب من ستة أشهر في أعمال استطلاعية متعددة وفي بعض العمليات الحربية الهامة مثل العمليات التي تمت في « مزدة » و « العوينية » و «الجوش» ، تلك العمليات التي قامت بها الكتيبة بأكملها خلال شهر يونيه . واثناء عودتها كان عليها لضمان سلامتها عزل إحدى الفصائل في «الرياينة» وبعد ذلك في «الزنتان» وهما قريتان حقيرتان جاثمتان فوق الجبال.

وقد ارسلت في تلك المرة الفصيلة الثانية عشرة رغماً مما كانت تشعر به من الضعف على أثر ما لاقته من المتاعب فوصلت بعد مسيرة يومين الى الجهة التي كانت تقصدها في صباح يوم ٢٧ يونيه .

وكان المخيم الذي يحميه جدار صغير يقع إلى جانب احدى القمم على مسافة ٤٨ كيلومتراً من « يفرن » . وكانت الفصيلة مؤلفة من ثلاثة ضباط وهم اليوزباشي « ميليو » والملازم أول « بترافنتي » والملازم ثان « مافي » وثلاثة من ضباط الصف وهم الجاويشية (جالينا) و (ماركيزي) و(كونتي)ومن ١٨٢ من الجنود . وكان مستودع الأغذية الجافة الذي كانت قد تركته فصيلة سابقة من فصائل كتيبة المشاة ٣٧ و١٣ صندوقاً من الذخائر - فيها ما يكفي مؤقتاً . وكان ينقصهم الماء الذي كان يفيض به خزان في حالة سيئة ، بينما كان اقرب مصدر للماء منهم يبعد مسافة كيلومترين .

لذلك انقضت الثلاثة الأيام الأخيرة من شهر يونيه في أعمال زيادة مخزون المياه الذي جمـــع في عشرين برميـلا . وكان الحر شديداً قاسياً وكانت درجة الحرارة تزيد على ٤٣ ° .

وفي مساء يوم ٢ يوليو أعلن رجال الكشافة وجود بعض الاهالي الوطنيين على مقربة من المعسكر .

وسرعان ما خرجت إحدى الدوريات وقبضت بالفعل على أربعـــة من جواسيس (القبلة) إذ انهم بعد أن تقدموا قريباً من الجدار لم يستطيعوا الفرار في الوقت المناسب .

لم تدع هذه العلامة أي شك في ان العدو سيقوم بهجوم قريب، وقد استقبلها الجنود بكثير من الفرح .

ولم يكن يبدو صحيحاً انه من الممكن التحرك من ذلـــك المكان المنهك وتلقين درس لهؤلاء التعساء المهلهلين. ولذلك فانهم بقوا ساهرين طول الليل .

وفي تمام الساعة الخامسة والنصف صباحاً قامت فجأة جماعة غير نظامية صاخبة تتألف من حوالي ٦٠٠ شخص وانقضت – كما لو كانت تلبي نداء متفقاً عليه من مرتفعات قريبـــة (الزنتان) . بعد لحظة قصيرة اطلقت فيها نيران على البنادق على المخيم حتى وصلت على مسافة تبعد حوالي خمسين متراً من الجدار،

وقد كتب الرئيس (ميليو) في تقريره عن هذه الواقعة ما يأتي :

« استعرضت رجال المشاة ورأيت وجوههم وقـــد بدا عليها الهـدوء والاستهتار بالخطر ، في فترات الانتظار هـــذه . وكانوا ثابتين رابطي الجأش كأنهم قد تسمروا في اماكنهم من المعركة ، وهم ينتظرون في ثقة صدور امري لهم بالقيام بهجوم مضاد . وقد صدر هذا الامر فعلا وكان الجواب مدهشاً مـلأ ارض المعركة بقتلى الاعداء ، واضطر الباقين منهم الى الفرار السريع .

ولكن المرتفعات التي لجأ اليها الثوار كانت قريبة ، ومن هناك بدأت منذ ذلك اليوم حركة تطويق بطيئة مستمرة صاحبها إطلاق نيران حامية نهاراً وليلاً من كل جانب .

وما زاد الموقف حرجاً أمران :

أولهما يرجع إلى قلة المياه واستحالة الخروج للحصول عليه.

وأما الثاني فهو أمر خارجي عام . وهو الأمر الذي صدر في تلك اللحظة بالذات من طرابلس الى جميع الحاميات بالانسحاب الى الساحل .

ولم تستطع فصيلة « الزنتان » ان تعلم بهذا الانسحاب أو يخطرها به أحد ، ولم تصلها أية معونة بأية حال . ولذلك فان الفصيلة وقد تعرضت الى آلام العطش والحر التي لم يسمع أحد بمثلها ، وليس لديها إلا أقوات قليلة وذخائر معدودة وقد تكدست في صخرة منعزلة عن العالم ، لم يكن لديها إلا حل واحد للخروج من هذا المأزق ، وهو ان تقاوم ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ، ثم تحاول بعد ذلك الخروج من الحصار ثم التضحية بنفوس جميع أفرادها بدلاً من التسليم .

وفي اليوم الثالث كان المهاجمون قد ازداد عددهم زيادة هائلة . فان جميع « محلات » هضاب « نالوت » و « الجوش » و « فساطو » و «يفرن» و«غريان» قد تركزت كلها حول العلم الايطالي الوحيد الذي كان لا يزال باقياً هناك في أعلى الجبل. وقد تعددت الهجمات اثناء الليل بوجه خاص، وكانت تصاحبها صيحات وحشية مؤثرة .

وعندما كان يتوقف اطلاق النيران كان اكثرهم شجاعة يصيح بأعلى صوته باللغة العربية او الإيطالية طالباً التسليم مع الوعد بالحرية أو مهدداً بعذاب الخازوق .

ولكن لم يشعر احد من المحصورين بأي شيء من الضعف في أية لحظة .

وكان الجميع دون استثناء يتبارون في إخفاء عطشهم في شيء كثير من البطولة لكي يبللوا بنقط المياه الاخيرة شفاه الجرحى . وكانوا يردون على تهديدات تلك الجماعات بروح عالية جديرة بأبطال الاساطير القديمة ويقذفونها بالحجارة وبكل شيء حاد بالرغم من ان الجميع كانوا يؤمنون في دخيلة انفسهم بقرب نهايتهم التعيسة المؤلمة .

وفي اليوم السابع تم تسليم آخر جرعة بقيت من الماء ، وتقرر الخروج من الحصار وهدفهم نبع الماء البعيد لكي يستطيعوا الاستمرار في المقاومة .

وقد قام الأعداء بعد أن تشجعوا بمهاجمة الطابور ولكن ادهشتهم شجاعته فلم يجرؤوا على التوغل والاستمرار إلى النهاية .

ولقد كان من شأن الخسائر الفادحة التي اصيب بها رجالنا وخطر السقوط قبل الوصول إلى الماء أنهم آثروا العودة إلى موقف دفاعهم الاول ، وعند النداء المعتاد على الجنود في مساء ١٠ يوليو المشئوم لم يرد ١٩ جندياً والجاويش « كونتي » . أما الباشجاويش (جالينا) فانه كان راقداً يشرف على الموت . وأما الملازم البطل « بترافنتي » الذي كان نموذجاً دائماً لأسمى الفضائل فقد اخترقت صدره رصاصة ، كما كان هناك ستة وعشرون رجلاً قد جرحوا وكانت جراح بعضهم خطيرة ، ولم يكن من الممكن المقاومة أكثر من ذلك ، إذ أن الماء كان ينقصهم منذ ستة وثلاثين ساعة ! ولكن كان من المستحيل عليهم أن يسلموا أبداً .

وفي تلك الليلة ذاتها حملوا جرحاهم على ما يشبه النقالات . وأما الباقون من فصيلة الابطال فقد قاموا بزحف تظاهري وعلى رأسهم الرائد وإلى جانبه الملازم « بترافنتي » الذي كان يخفي بكل عناء ما يشعر به من ألم الجرح الشديد الذي أصيب به ، ثم بدأوا الانسحاب في جنح الظلام .

وقد أضاف الرائد « ميليو » قوله في تقريره :

« ومع الأسف الشديد سرعان ما لاقينا ستاراً كثيفاً من الكشافة قد وقفوا

لنا بالمرصاد يراقبون حركاتنا وانهالوا علينـــا بإنذاراتهم وصيحاتهم العاليـة وضرباتهم على صفائح البترول التي اتخذوا منهـا طبولاً وبطلقات نيران سريعة وجهوها الينا ! . ولم يكن هناك وقت نستطيع أن نضيعه ولذلك أمرت بعدم الرد مطلقاً على الطلقات النارية ، إذ أن هــذه الليلة كانت مظلمة للغاية ، وكان الظلام وحده هو الذي يخفي عن العدو اتجاه سيرنا ... فسرنا إلى الأمـام وإلى الأمام دائماً،وقد رأيت من المرتفعات المحيطة بنا نارين مشتعلتين.. انهما بلا شك علامات على اجتماعات يعقدها العرب، وذلك لأن الضجيج الذي كان خافتاً في أول الأمر ، كان يزداد ويرتفع كلما تقدمنا في السير ويصير أكثر وضوحاً. كان هذا الضجيج عواء وحشياً وأناشيد مرعبة من أناشيد الحرب . ولمـا كانت الارض التي نسير عليها شديدة الوعورة وطويلة مملة فإن سيرنا - وقد أخذ التعب كل مأخذ من الجنود واستبد بهم العطش الشديد - صار شاقاً وبطيئاً ... ثم لم نلبث أن وجدنا ان حلقة حصار العرب صارت ضيقة أكثر من ذي قبل كلما زاد تهديدهم لنـا ، ولم يكن باستطاعتي مواصلة السير بهذا الشكل . ونظراً لقوة العدو توقعت قرب نهايتنا ولكني حاولت انقـاذ جانب كبير من الفصيلة ، فأمرت الملازم ثان «مافي» بالتقدم إلى الامام بسريته وبالسرية الرابعة في اتجاه قصر الحاج ، فاذا ما وصل هناك يجب ان ينتظر حتى الساعة السابعة صباحاً ثم يواصل سيره وحده وهو يتتبع الطريق المرسومة له من قبل إذا لم يجدني أصل اليـه في تلك الساعة . وقـد قرر الرائـد مساندة انسحاب الجنود الآخرين بالسريتين الباقيتين ثم يقوم هو بالانسحاب إذا مـا استطاع إلى ذلك سبيلاً في أسرع وقت .

ولكن حوالي منتصف الليل أصيب المـلازم أول « بترافنتي » برصاصة من عيار كبير في بطنه ، وكان الآخرون يقعـون طوال هذه الليلة الواحد تلو الآخر باستثناء الرائد وثلاثـة من الجنـود ، هم موظف التلغراف « افالوني » والعامل « فالنتي » والجنـدي « دونوفريو » وقـد اخذوا اسرى في صباح اليوم التالي .

أما السريتان اللتان كانتا مع الملازم « مافي » فانهما بعد ان اندفعتا الى الامام حوالي ثلاثين كيلو متراً هاجمتهما جماعات من فرسان العدو وفقدتا في هذه الاثناء جانباً كبيراً من رجالهما من بينهم الملازم ثان ذلك البطل المقدام . اما الباقون القلائل فانهم اخذوا أسرى واقتيدوا إلى « الزنتان » في حالة تدعو الى الرثاء . فقد بقي جندي لم يكن من الممكن التعرف على هويته من بين المفقودين – معزولاً ، اذ التجأ في تلك الايام الى شجرة من اشجار التين الى جانب أحد الخزانات ، وقد بقي يدافع عن نفسه من فوق هذه الشجرة اسبوعاً كاملاً ضد مهاجميه الذين كانوا يعجبون بشجاعته ويعدونه بالإبقاء على حياته اذا ما قام بتسليم نفسه ولكنه لم يقبل الاستسلام ابداً .

وفي احدى الليالي قضى نحبه ، ولقد امكن الحصول على اخبار عن موته وبسالته من بعض الأعراب بعد ذلك بزمن بعيد؛ وقد كان ذلك الجندي المجهول البطل الذي مات في سبيل الواجب مثلاً عالياً للبسالة الايطالية .

ومع هذا فإن المسلك الذي سلكه الرائد عندما وقع في الأسر كان هو أيضاً جديراً بالذكر ، إذ لم يكن أقل بطولة من ذلك الجندي . فقد وقف وذراعاه مضمومتان الى جانب زميله الملازم الذي كان مصاباً بجرح مميت يحيط به الجنود الثلاثة الباقون بعد هذا الصراع اليائس في تلك الساحة التي رقد فيها هؤلاء القتلى الأمجاد وهو ينتظر المهاجمين الذين تأثروا لشجاعته ولموقفه وأرادوا الإبقاء على حياته . ولقد اخذوا منه كل شيء إلا مظروفاً من الورق وجدوا انه لا فائدة منه قد وضع فيه ٣٩٠ ليرة ايطالية وبعض اشياء صغيرة خاصة بجنوده .

ولما اقتيد الى احدى المغارات وقع خائر القوى في سبات عميق .

وفي صباح اليوم التالي أخذ مرة ثانية وسط جماعة صاخبة من العرب الى قلعة « الزنتان » القديمة حيث كان كل شيء قد قلب رأساً على عقب بحثاً عن

الاسلحة ، ولم تسلم من التفتيش حتى قبـور الموتى المساكين التي انتهكوا حرماتها .

وتحت شجرة كبيرة من اشجار الزيتون وجد ثانيـة بسرور بالغ الملازم « بترافنتي » وهو لا يزال يعاني سكرات الموت يساعده الجنود الثلاثة الباقون في شيء كثير من الرحمة والحنان .

بعد ذلك بقليل لحق به ايضاً جنود السريتين الآخريين اللتين كان يقودهما الملازم ثان « مافي » المسكين ومعهم المـــلازم الطبيب « البسيو » والبريجادير « ريفابيني » والبريجادير « مارجاليو » ؛ وكانت تبلغ عدتهم ٣٨ رجـلاً انقسموا الى فريقين خصصت لكل فريق دار حقيرة كان في احداهما الضباط وفي الاخرى الجنود . ولم يكن هناك الضابط « مافي » الذي كان قـد اطلق على نفسه رصاصة وخر على أثرها مصعوقاً .

وبعد ذلك بيومين مات ايضاً الضابط « بترافنتي » والذي لم يستطع الملازم الطبيب ان يفعل له شيئاً لإنقاذ حياته ، اذ كانت بطنه مفحورة وذراعه قد تفتتت ولم يكن لديه حتى ما يضمد له به جراحه ،لأن العرب كانوا قد اخذوا منه حتى قميصه .

وهكذا بدأت واستمرت فترة أسر طويلة المدى وهي قصة محزنة من قصص الذل والهوان والألم والحرمان .

وفي يوم ٢٤ سبتمبر صدر الأمر بضم الأسرى جميعاً إلى بعضهم في «ترهونة»، وقد قاموا يحيط بهم الرجال المسلحون بسير متعب عن طريق « غريان » ووصلوا في يوم ٥ اكتوبر للمكان المقصود .

وهنا كان من حظ الرائد « ميليو » ان وجـــد تسعة آخرين من افراد فصيلته الباسلة ،اذ انهم بعد ان هربوا من العرب في صباح يوم ١١ يوليو حاولوا الوصول الى « يفرن » للانضمام الى كتيبتهم ولكنهم وقعوا في الاسر على غير

توقع واقتيدوا الى (ترهونة) وامضوا كل فترة الشتاء في ذلك المكان التعيس ، والذي أضيف فيه إلى آلام الجوع نقص الملابس نقصاً تاماً . وقد تحمل جنودنا في هذه الجهة كل نوع من اعمال القسوة والوحشية وأجبروا على القيام بأحقر الخدمات واكثرها إذلالاً . ولم يسلموا فيه حتى من الضرب بالسياط .

وأخيراً حل صيف عام ١٩١٦ ، وكان البر يجادبير « ريفابيني » في يوم ٣ يونيه قد استطاع الفرار .

وفي يوم ٢٢ يوليو على أثر المفاوضات الطويلة التي جرت بشأن إطلاق سراح الاسرى سافرت الطائفة بأجمعها بعد ان منيت مع الاسف الشديد بخسائر جديدة في الأرواح بسبب الأمراض إلى « بئر عرقوب » ووصلت إلى طرابلس بعد مسيرة ستة ايام وبعد أن قضت ٣٨٤ يوماً في آلام لا مثيل .

بعد عشر سنوات ، بينما كان العلم الايطالي المثلث الالوان يتقدم منتصراً في تلك الجهات التي شهدت كثيراً من الآلام المبرحة والبطولات المجهولة ، بعد أن قام الجنرال «جراتزياني» باحيـــاء ذكرى اولئك التعساء الذين ماتوا في سبيل الدفاع عن «الزنتان» أرسل برقية إلى الكولونيل « فيري » قائد كتيبة المشاة الرابعة والثمانين هذا نصها :

لقد عملت على اخراج جثث الجنود الباقية من فصيلة المشاة التي سطرت في «الزنتان» سنة ١٩١٥ صفحة من اجمل صفحات البطولة الايطالية ، وانتشلتها من ذلك المكان الذي سقط فيه اصحابها بمجد وفخار كامثالهم من ابطـــال الاساطير القديمة .

انها رفات ٤٣ من الجنود المشاة واحد الضباط من كتيبتكم التي بعد أن جمعت بعطف وحنان سوف يجري دفنها في طرابلس لكي تتطلع إلى بحر الوطن ولكي تشير لنا هنا إلى طريق المجد والشرف. وسوف اضع ثانية مخلفاتهم الثمينة إلى جانب جثثهم . ولقد تم الانتقام لموت الرائد « ميليو » وابطاله .

ويوجد اليوم هناك في «الزنتان» نصب تذكاري من الرخام يحفظ ذكرى

هذه الواقعة المجيدة وسطرت عليه هذه الكلمة التي أملاها ذلك القائد الذي أصبح اليوم الكولونيل (ميليو) وهذا نصها :

فوق هذة المرتفعات قامت من يوم ٣ إلى ١١ يوليو سنة ١٩١٥ فصيلة من جنود المشاة من فصائل الكتيبة الرابعة والثمانين (فينسيا)، بعد ان حرمت من الاقوات والماء ودون أي أمل في أية امدادات ، وهي متأكدة كل التأكيد بانها تموت في سبيل ايطاليا – وقاومت باسم ايطاليا المقدس هجوماً عنيفاً متواصلا من جانب قوات تزيد عليها عشرات المرات من قوات الثوار .

وقد رفض هؤلاء الجنود الأمجاد وأولئك الابطال المجهولون التسليم وآثروا أن يموتوا في ميدان القتال دفاعاً عن العلم الايطالي المثلث الالوان .

نتائج احتلال « يفرن ».

اوضحت فيما سبق كيف أن صعودنا الى جبـل « فساطو » بعد احتلال كل المنطقة الممتدة من « جالو » الى « نالوت » واستسلام سكانها كان له أثر بعيـد حتى منطقة « غريان » .

ففي شهر يوليو وصل فعلا الى الكوماندور (خربيش) في (جادو) خطاب – ولو انه مكتوب بخط مصطنع (بقصد اعفاء صاحبه من العقوبة) إلا انه عرف فيما بعد انه بخط الهادي كعبار– وفيه يرسم الخطوات الأولى للتقرب من الحكومة .وكانت هذهالخطوات الاولى تتفق مع المحاولات الاخرى التي حاولها مباشرة في طرابلس .

وقد وصلت بعد ذلك على التوالي وعلى فترات متعـــددة الى (جادو) في شهور يوليو واغسطس وسبتمبر واكتوبر اخبار تدل على ان الهادي كعبار على خلاف علني مع اخويه مختار وراسم ، وبالتـــالي مع المريّض وزعماء الثوار الآخرين . وقد ثبت فضلا عن ذلك بما لا يقبل الشك ان أهالي غريان منقسمون

الى قسمين : القسم الاول منهم يتزعمه اخوه كعبار ، والقسم الآخر على رأسه كبار زعماء حزب نافع الكبير الذي كان يعتمد علينا لتحقيق مصالحه ومآربه الشخصية لا لإخلاصه للحكومة .

وكان يقال أيضاً نتيجة لذلك ، إنه إذا وصلت جيوشنا الى (غريان) فان نصف المسلحين على الأقل لن يحاربوا .

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر اكتوبر اثناء الزحف على (يفرن) تقدم إليّ في العوينية بلال افندي من اهالي (غريان) ومعه خطاب (من مبروك الخوجه) مدير بني خليفة ومن زعماء حزب نافع الآخرين . وقد اكدوا فيه انهم باقون على اخلاصهم للحكومة ، وأحاطونا علماً بأن جانباً من الأهالي من اتباع آل (كعبار) قد انفصل عن هؤلاء .

وقد اضاف (بلال) على ذلك شفوياً أن (الهادي كعبار) نفسه قد صمم منذ الآن على الاستسلام للحكومة .

ولقد اخطرت الحكومة من (العوينية) في يوم ٢٩ اكتوبر بأن هناك دلائل ظهرت قبل احتلالنا (يفرن) تجعلنا نتوقع بأن الموقف في (غريان) مناسب لنا وان الزحف يكون موفقاً .

على ان انتصارنا التالي الذي أحرزه جنودنا في (صفيت) في يوم ٣١ اكتوبر مع ما تلاه من احتلال (يفرن) الذي قطع كل صلة بين الشرق والغرب ، والذي كان يبشر بهزيمة (السني) و (فكيني) هزيمة ساحقة ، هذا النصر أوجد في (غريان) انشقاقاً خطيراً وتوتراً كبيراً بين الحزبين ، وزعزع ثقة قادة الثورة ببعضهم بعد اختلاف (الهادي كعبار) مع اخويه مختار وراسم ، ومن ثم مع المريّض ذلك الاختلاف الحقيقي او الصوري .

وهذا ما اوضحه (الهادي كعبار) بنفسه في خطاب أرسله إليّ من (يفرن) جاء فيه ما يأتي :

«ان انتصار (يفرن) قد ألقى الرعب في البلاد حتى ترهونة وفي كل المنطقة الشرقية . ويعتقد زعماء الثوار أن سقوط (غريان) سوف يهدد (ترهونة) نفسها والشرق بأكمله تهديداً خطيراً ».

وكان يقابل الموقف الخطير في غريان بالنسبة لقادة الثورة موقف آخر لصالحنا في المنطقة بين (يفرن) و (غريان) نفسها .

وقد أسرع بالفعل اهالي (ككلة) بتسليم أسلحتهم بينما قام اهالي (الأصابعة) بالخروج عن الحياد الذي كانوا يلتزمونه حتى ذلك الوقت وهاجموا وحدات الثوار في (القواليش) ، وبقوا على هذا الحال حتى تم احتلال (صفيت) وهرعوا الى (القبلة)وسلكوا مسلكاً يتفق مع مصالحنا كل الاتفاق .

اما (الرياينة) و (المشاشى) الذين وفوا بعهودهم وحاربوا الي جانبنا لاحتلال (يفرن) فانهم من جانبهم كانوا يتلهفون شوقاً على الاستمرار في الزحف حتى (غريان) .

ازاء هذا الموقف العظيم المناسب لنا لم يسعني إلا أن أقوم من « جادو » وان أعرض هذا الموقف على الحكومة وأستخلص منه ما يأتي :

« في نظراتي الأولى البسيطة بصفتي قاضياً عسكرياً وعلى حسب تقديري يجب عليّ أن أوضح كيف كان الطريق إلى غريان مفتوحاً أمام الجنود بدون أن يلاقوا اية مشقة » .

وفي يوم ٣ نوفمبر وصل إلى « مسكة » وفد من زعماء «غريان» يتألف من مبروك الخوجه والشيخ الفرجاني وغيرهما وكلهم من زعماء حزب نافعَ القديم ، وبعث إليّ بضبطة موقع عليهامن كبار اعيان ربوع بني داود وبني خليفة يصرحون فيها بأنهم على تمام الاستعداد للاستسلام للحكومة دون أي قيد أو شرط . ونسخة من خطاب موجه إلى الحكومة رداً على كتابها المؤرخ في ٣ اكتوبر . ورسالة من مبروك القعود ومبروك الخوجه وخليل برشان يخطرون فيها بفرار

(عبدالله تمسكت) و(السني) إلى ما وراء (غريان) بعدانتصارنا في (صفيت) ، وقد طلبوا مني ان أزحف دون تأخير ، وحتى لا أدع وقتاً لمختار كعبار وغيره لكي يعودوا إلى جمع شملهم والدفاع عن (غريان) .

هذا ، وقد كتب الهادي كعبار بنفسه خطاباً إلى (خربيش) و(العياط) — يطلب منهما فيه التدخل للحصول له على العفو والرحمة من الحكومة .

وبعد ان اتصل مبروك القعود بهؤلاء أكـّد ما يأتي :

« ان الحكومة تستطيع الوصول إلى (غريان) بطريقة سلمية ، وان الزعماء مستعدون للحضور إلى أي مكان يؤمرون بالحضور اليه » .

كان من الممكن ان نستنتج من هذا الموقف السياسي الملائم لنا كل الملاءمة ان إنتصارنا في (يفرن) يسمح لنا بالدخول إلى (غريان) دون اية صعوبة .

وفي هذه الاثناء حضر الوفد بذاته في (صفيت) في يوم ٥ نوفمبر وطلب التحدث اليّ .

وفي صباح اليوم السادس استقبلته في قلعة (يفرن) وقد حصلت من رجاله على تأكيد شفوي لما كتبوه من قبل .

وقد اضاف الوفد إلى ذلك قوله ان (تمسكت) قد أقام خط دفاع في (تغسات) بعد ان انضم الى مختار كعبار ، وانه من المنتظر وصولهما مسلحين للقبض على جميع الموقعين على المضبطة .

وكان هؤلاء قد أنشأوا خطاً في (خرمة آصبيح) جنوبي (تغرنة) وكانوا يطلبون الاسراع اليهم أو على الاقل مدهم بالمساعدات .

وقد استبقيت كبار الزعماء في (صفيت) في انتظار وصول الشيخ نافع والوجيه محمد عاكف افندي من طرابلس ، وكانوا قد طلبوهما ، كما أرسلت الباقين إلى (غريان) . وأبلغت الحكومة انه من المتوقع ان يقع نزاع مسلح بين

جماعات (غريان) وان يقوم اهالي (الأصابعة) بتأييد حزب نافع المناصر للحكومة .

وفي اليوم الثامن حضر الى (صفيت) الشيخ محمد بن نبيّة من مشاهير الاولياء وكان قد أرسله الهادي كعبار مع ثلاثة من أهالي (غريان)، وقد نقل نفس الاخبار عن الموقف وقال ، انه قد جاء لكي يضمن الحالة بما له من سلطة ونفوذ بوصفه زعيماً دينياً .

ولما كان الشيخ نافع وعاكف أفندي قـــد تأخرا عن الوصول فإني تركت الحرية للوفد في العودة إلى (غريان) ، وقد زودته بخطاب إلى مبروك القعود قلت فيه ببساطة وصراحة ما يأتي :

« لقد تلقيت وفدكم المؤلف من مبروك الخوجه ورفاقه ، وقد تحدثوا معي عن الحالة في (غريان) وطلبوا مني ان يستقر فيها الهدوء وان تشملها الحكومة بعفوها، وإني أقبل ذلك فقط عندما تظهرون لي بالأعمال استسلامكم بإخلاص».

وفي اليوم العاشر وصلني، رداً على ذلك، خطاب من مبروك القعود ومضبطة موقع عليها من نحو ثلاثمائة من زعماء (غريان) وأعيانها ، صرحوا جميعاً بأنهم مستعدون للاستسلام دون قيد أو شرط للحكومة . وقد وقع الهادي كعبار على هذه المضبطة لإثبات التوقيعات التي عليها، وكانت هذه أول مرة يظهر فيها توقيع هذا الزعيم على وثيقة موجهة إليّ .

ولقد أكد لي مبروك القعود في خطابه ما ذكرته فيما سبق ،وأضاف إلى ذلك قوله بأنه قد وصل الى (القواسم) حوالى ٥٠٠ من المسلحين و ١٠٠ فارس قادمين من (ترهونة) واستقروا في قلعة (غريان) امام خطهم في (خرمة آصبيح). وقد ختم رسالته طالباً الإسراع بالزحف فوراً ، وقال : إنه إذا وصل مسلحو (ترهونة) كلهم من الشرق لأمكنهم تسليح ما يقرب من ٤٠٠٠ رجل . وقد أعطيت هذا الخطاب ما يستحقه من قيمة بالنسبة لما اعتاده الوطنيون من المبالغة فيما يتعلق بالقوة وبالخوف الذي كان يخشاه مبروك القعود وأعوانه .

ومع هذا فقد ظهر بجلاء من هذا الخطاب أنه إذا مرت فـترة الفزع الأولى

حاول زعماء الثوار الحصول بالقوة مرة ثانية على سيطرتهم على أهالي (غريان) .

الزحف على « غريان » .

وأخيراً وصلتني في اليوم الثاني عشر إشارة من الحكومة بالاستعداد لمواصلة الزحف على (غريان) بمجرد أن أتلقى أمراً من قيادة الجيش بالعمل .

وقد صدر هذا الأمر في الساعة الواحدة من يوم ١٣ نوفمبر، على أساس الاستعداد السياسي الذي عرضته ، ووصلني في (يفرن) بطريق الجو في صباح اليوم الرابع عشر .

ولقد اشتركت في هذه العمليات المجموعات الآتية :

مجموعة بيتساري	٢٢٠٠ بندقية	٣٠٠ حصان	قطعتان من المدفعية	
« جراتزياني	٣٥٠٠ «	٣٥٠ حصاناً	٤ قطع «	
« بيللي	٦٠٠ «	١٠٠ حصان	قطعتان «	
« العزيزية	٤٥٠ «			

وكانت الخطة على النحو التالي :

مجموعة الجبل (جراتزياني) تزحف على غريان وتطوقها من الجنوب والشرق ، بحيث تقطع عليها طريق الانسحاب إلى (القبلة) . وتمنع وصول ما يمكن إرساله إليها من مدد من (ترهونة) .

ومجموعة الجفارة (بيتساري) تقوم بهجمات شديدة لتهديد (غريان – الجفارة) من طريق الوديان المؤدية إليها من الجهة الشمالية .

ومجموعة (بيللي) تحتل بوغيلان لإيجاد تهديد قوي لطريق (بوغيلان – غريان) الذي تسلكه السيارات ؛ وفي الوقت نفسه تقوم جماعة العزيزية بتوجيه ضربات شديدة للمواقع الأمامية لتجمعات « ترهونة » (سهل سيدي

السايح) لشل حركة جنود المريّض لمنعهم من الإسراع لمعاونـــة « محلات » غريان .

وفي صباح ذلك اليوم أيضاً أبلغتني الحكومة ببعض اخبار وصلتهامن غريان تتفق مع الاخبار التي كنت قد أبلغتها إياها .

وقد جاءتني أيضاً صورة من خطاب مرسل من الهادي كعبار الى طرابلس يرسم فيه الخطط التي يجب أن يتم بها تسليم غريان .

لقد وضع هذا الزعيم والرجل السياسي المحنك الذكي شروطه الصحيحـــة التي كان يجب على الحكومة أن تقبلها في مقابل الاستسلام وهي :

« العفو الشامل عن جميع أهالي غريان بدون استثناء .

« تطبيق القانون الأساسي على أوسع نطاق .

« عدم إعلان أية حالة حصار في غريان .

« الاعتراف بجميـــع الموظفين وتثبيتهم في وظائفهـم فضلاً عن رجال الجندرمة .

« امتياز بعدم تسليم الأسلحة ما دامت لم تتم حل مسألة (النواحي الاربع) في (ورفلة) و (أولاد بو سيف) .

« دفع المرتبات المتأخرة لجميع موظفي « غريان » .

« ايجاد النظام الإداري الصالح لضمان الإقليم من استبداد المشاغبين والذي تراه الحكومة أنسب من غيره وأنفع للأهالي .

« اصلاح خط السكة الحديدية بين (غريان) و (العزيزيـــة) في أسرع وقت ممكن .

« منح اوسع قسط من حرية التجارة في طرابلس لتجار (غريان) .

«إلغاء الحراسة علىالاملاك الخاصة في (غريان) وفي طرابلس الغرب كلها» .

* * *

من هذه الوثيقة كان من الممكن ان يبدو جلياً كيف أن الهادي كعبار كانت له في (غريان) اليد الطولى على كافة الزعمـــاء . وكان متشبعاً بأمل كاذب سخيف في أن يجد مرة ثانية ذلك الضعف القديم الذي استغله لمصلحتـــه على احسن وجه .

وان تلك الوقاحة التي جرؤ على أن يعرض بها – إن لم نقل أن يملي بها – شروط الصلح والاستسلام كانت تفوق كل حد .

ولم يكن من الممكن اعتباره ممتـــازاً عن غيره ممن كان يتكلم باسمهم للتفاوض مع الحكومة مفاوضة الند للنـــد في مصير الشعب المخدوع والمغلوب على أمره .

وعند إبلاغي هذا الخطاب – الذي وصلني بعد ذلك مباشرة – أمرتني الحكومة بعدم تقييد حريتها في العمل بأية طريقة بضمانات من هذا القبيل .

وفي اليوم الثالث وصل إليّ في (يفرن) عن طريق مبروك القعود خطاب آخر من كعبار يطلب فيه هذا الأخير تدخل الحكومة لمنع وصول العدو الذي كان متوقعاً . وقد قدم لي نصائح فيما يختص بزحفنا العام على(غريان) بدت لي كأنها صورة صحيحة من الأوامر التي وصلتني من قيادة الجيش .

وإني أرى أنه من المفيد كثيراً أن أنقل هنـا النص الكامل لهذا الخطاب ، الذي هو وثيقة عجيبة تدل على غرور الزعماء الوطنيين وسوء نيتهم . وقـــد حاول كعبار دون شك بهذا الخطاب أن يخفف التأثير السيىء الذي أحدثه خطابه السابق في الحكومة .

وهذا هو نص الخطاب :

إلى قائد منطقة الجبل الشرقي الكولونيل جراتزياني ،

بعد السلام ،

قبل خطابي هذا أرسلت لكم خطاباً قلت فيه : إن احمد المريّض قد جعل محل اقامته في (ويف) ، وهو يقوم بعمل دعاية حتى ينتقل كل الأهالي إليه . وهو في الوقت ذاته يستقدم رجالاً مسلحين من الشرق ومن (ترهونة)ويرسلهم إلى (غريان) على ظهور الخيول بقصد الزحف نحو الغرب ، كما علم ذلك من الاخبار الذائعة . ويقول الناس إن العدو ينوي أن يقسم رجاله المسلحين إلى ثلاث جماعات : إحداها على طريق (وادي غان) ، في الجانب الجنوبي من (غريان) ، لمهاجمتنا من جهات (الأصابعة) واحتلال (هنشير الطويل) ؛ والجماعة الثانية في (تغسات) للانتقال على طريق السيارات لتحقيق غرضها من تدمير كافة البلاد التي استسلمت للحكومة ؛ وأما الجماعة الثالثة في (بوغيلان) فللانتقال عن طريق(منطروس) والوصول الى (الرابطة الغربية) و(ككلة). ويمتلك كل هؤلاء المسلحين مدافع ومتراليوزات . ويعلم الأهالي الذين استسلموا للحكومة بحركات العدو وهم مذعورون . وقد رجوني أن أكتب إلى جنابكم للزحف بجيوشكم .

إني أرجوكم رجاء حاراً أن تفكروا في موقفنا ، وأن تعملوا على طرد العدو قبل ان ينزل الدمار بنا .

وإني اطلب أن تتقدم جيوشكم نحو (الأصابعة) و(غريان) ، كما أرجوكم أن تخبروا الحكومة حتى تأمر قوات العزيزية بالزحف على (بوغيلان) وقوات (بوغيلان) بالزحف على (رابية منطروس) و(غريان).

وإن جميع أهالي (غريان) موافقون على ذلك ، وقد أرسلوا وفداً إلى أحمد المريّض الموجود في (ويف) حتى لا يأتي إلى بلدتنا .

ولقد تحدثنا مع رجال عبدالله تمسكت ومع المجندين ومع الشيخ سوف ورجال (ترهونة) وغيرهم حتى يجلوا عن أراضينا بما أننا ،على العكس منهم ،

وقد أرسلنا لسيادتكم مبروك القعـــود لكي يقدم لكم إيضاحات أوسع عن حالتنا ، وفي الوقت ذاته لكي يتعجل زحف الحكومـــة إذ أن جميع أسر (غريان) مذعورة .

وإني أرجوكم أن تستقبلوه بكل ما يلزم من الإكرام . وأرجو ان تتفضلوا بقبول أصدق التحية من أعماق قلبي .

المخلص

الهادي كعبار

٢١ ربيع الأول سنة ١٣٤١

***

أكد (القعود) جميع الأخبار السابقة ، كما أكد أن الرجال المسلحين الذين تحت إمرة مختار كعبار موجودون في (خرمة آصبيح) ، وان مختار كعبار هو وتمسكت لا يزالان يحتلان القلعة .

كذلك كان الهادي كعبار هو وأتباعه في (خرمة آصبيح) ، وأنه على اتفاق مع حزب نافع .

وكان أهالي (آصبيح) هم أيضاً قد وصلوا إلى تلك الجهـــة يحملون أسلحتهم وذلك للانضمام إلى أهالي (غريان) .

وصل القعود في الوقت الذي وصلني فيه الأمر من قيادة الجيش ، فسألته أن يعطيني أخباراً عن خطاب الهادي كعبـار الثاني ، ولكنه أخبرني بأنـه لا يعلم عنه شيئاً بالمرة ، وانه يفهم ما له من خطورة.

ولما كنت أستطيع أن أتحدث بتأكيد عن الحوادث والحركات التي قد تقع

في القريب ودون أن أحدد هذه الحركات والحوادث جعلت (القعود) يسافر ثانية وهو يشعر بأن زحفنا سيتم في أسرع وقت ، بعد أن أنذرته بأنه إذا تم التسليم بمجرد حضوري فيجب أن يتم التسليم دون قيد أو شرط . وقد أبلغ كعبار والآخرين: « أنه ليس من الممكن مناقشة أي شرط من شروط التسليم مــع الحكومــة بأي حال من الأحوال ، ويجب أن يظهر الهادي كعبار وكل اهالي (غريان) مشاعر إخلاصهم في وقت دخولي هناك ، أو بالأحرى عندما أكون قد وصلت الى (آصبيح). ويجب أن يحضر الهادي كعبار بنفسه دون خوف من أي انتقام من جانبي . وإني إذا مـــا احتللت (غريان) وفرضت الشروط التي أراها ، آمل أن اكون خير وسيط لدى الحكومة لطلب رحمتها ولتهدئة البلاد. ويجب أن يذكر الأهالي بأن الحكومة في يدها القوة لمواجهة كل شيء ولديهـا الصــبر » .

ولقد أضفت إلى ذلك قولي للقعود بأنني لا أريد أن تخرج طلقة واحدة من الرصاص في وقت دخولي (غريان) ، وبدون ذلك أكون مستعداً لدفع رجالي للقيام بأعمال السلب والنهب وتدمير البلاد والعباد .

لم أبعث بأي رد على خطاب الهادي كعبار . ولقد اتبعت طريقة العمل على عدم إبراز شخصيته ، بـل عاملته معاملة أي فرد آخر ، وبذلك طبقت الخطة السياسية التي أشير اليّ بها. واذا كان هذا الرجل الذي يقف أمامي ، والذي جرؤ فيما سبق أن يكتب بوقاحة : كأن الحكومة الإيطاليـــة طفل من الأطفال وفي حاجة الى أن يقوده إنسان من انفه — اذا كان هذا الرجل يحسب نفسه شيئاً ذا قيمة فمن الواضح ان الواجب الملقى على عاتقي شاق عسير .

منذ تلك اللحظة كانت اعمالي التي اقوم بها إزاءه تسير طبقاً لهذه القواعد الأساسية :

١ — عدم الاعتراف له بأية سلطة في (غريان) في حين أنه كان على العكس من ذلك يريد إظهار أنه يتولى في المدينة كل السلطات .

٢ – عدم الإضرار بعمل الحكومة إزاءه بإعطائه وعوداً جزافاً بإعفائه من العقوبة التي يمكن أن تؤثر فيما بعد على حرية القضاء في العمل .

٣ – جعله يشعر صراحة منذ اللحظة الأولى أنه لن يستطيع التخلص بأي حال من أن ينال جزاءه ، بينما يستطيع أن يأمل في كرم الحكومة دون أي شيء آخر .

كان أمر قيادة الجيش يطلب منا استئناف الزحف على « غريان » في يوم ١٥ نوفمبر .

وكان على الألاي أن يصل الى « كردمين » في نفس ذلك اليوم ، وأن يبلغ « الأصابعة » في يوم ١٦ للزحف بعد ذلك على « غريان » بالاشتراك مع الألايين الآخرين المشتركين في العمليات في يوم ١٧ .

تم الوصول الى « كردمين » في يوم ١٥ دون أية صعوبة . ولم يصلني هناك بعد ذلك أي خبر عن الموقف في « غريان » .

وفي يوم ١٦ استأنفنا الزحف على هدفنا في « الاصابعة » وتم الوصول اليها في الساعة الخامسة بعد الظهر .

وفي « هنشير الطويل » وفي نفس المواقع التي ضرب فيها الجنرال «ليكويو» في يوم ٢٣ مارس سنة ١٩١٣ سليمان الباروني ، جاء لمقابلتي رجال هذه المنطقة المسلحون وعلى رأسهم المدير خليفة مغم في مظاهرة حافلة ، وأظهروا بهذا العمل الأخير إخلاصهم الذي وعدوا به منذ ظهورنا ثانية في مدينة « جادو » .

كان يجب على الألاي – حسب نظام العمليات – ان يتوقف في « الأصابعة » ولكن لما وصلتني أخبار مؤكدة بأن الموقف في « خرمة آصبيح » هو بالفعل كما وصفوه لي في « يفرن » ، قررت الوصول الى تلك الجهة دون تأخير وذلك لتحقيق الأغراض الآتية :

١ – استيضاح موقف أهالي « غريان » السياسي على حقيقته .

٢ – الإفادة حربياً من الاقتراب في ذلك اليوم من مواقع الاصطدام ومن قلعة « غريان » ذاتها ، الأمر الذي تنتج عنه فائـدة للألايات الأخرى المشتركة في العملية .

كان هذا القرار عظيم الفائدة، ويتناسب كل التناسب مع المساعدة التي كان في استطاعتي ان أقدمها فيما بعد لألاي « بيللي » .

وفي « هنشير الطويل » قمت بفصل فرسان « خربيش » مع جماعة الخيالة « السباهي » بقيادة الملازم « ماتينا » .

وقد كلفت الملازم « ماتينا » بالتحدث مع زعمـاء « غريان » وخاصة مع كمبار ، ومعرفة ما إذا كانوا حقاً قد صمموا على مقابلتي .

وقد حدث هذا فعلاً . فقد جاءوا إليّ جميعاً على مقربـة من « تبادوت » رافعين أسلحتهم إلى أعلى ، علامة على الاستسلام بمجرد ظهور طلائع فرساننا .

وقد بين التقرير الثاني الذي قدمه الملازم « ماتينا » البلاغـات التي قدمت إليهم فيما يتعلق باستسلامهم . وهذا نصه :

غريان في ٧ نوفمبر ١٩٢٢

الموضوع – تقرير عن مقابلتي للهادي كمبار .

الى الكولونيل الكافاليري جراتزياني – غريان ،

بالأمس . بناء على الأمر الذي تلقيته من جنابكم في هنشير الطويل، انفصلت عن القوة وتوجهت نحو (تبادوت) لكي أعلن للهادي كمبار نيات قائـد الألاي .

وأمام (تبودات) قابلني الهادي كمبـار في قوة من الفرسان كانت تحرسه ، وهي رافعة بنادقها إلى أعلى وتطلقها في الهواء حسب العادات المحلية .

فنزلت عن جـوادي وقلت له ، إنني موفد من قبل الجنرال جراتزياني . وقد تحدثت معه بشأن التسليم وذكرت له عباراتكم . فقلت له :

« يجب عليك تسليم نفسك دون أي شرط ، ويجب على رجـــالك أن لا يطلقوا طلقة واحدة من بنادقهم . وستبقى رهينة حتى تقرر الحكومة ما تراه بشأنك » .

وكررت له القول « بألا تخرج طلقة واحدة من بندقية ، وإلا اعدمنـــاك واشعلنا النار في كل شيء » .

وقد أجابني الهادي كعبار بقوله :

« إن مستقبلي مظلم ، واذا قدّر لي أن أموت . فسأموت وأنا مسرور بأني عملت الخير بلادي » .

بعد ذلك جئت إلى الألاي بصحبته هو وفرسانه .

المخلص

الملازم ماتينا روبرتي

كل هذا له أهميته بوجه خاص ، فيما يتعلق بالهادي كعبار لتسجيل ما قمت به من عمل في لحظة حرجة حاسمة إزاء زعيم الثورة الكبير في وثيقة دامغة .

وهو عمل ليس في الحقيقة سهلاً ، ومملوء بالمصاعب . زاده حدة النقد اللاذع الذي ظهر في العاصمة الطرابلسية التي كانت تخشى العودة الى الماضي ، في حين أنه كانت تقتضيه الظروف والحكمة وبعد النظر والحزم .

تمت مقابلتي مع زعماء غريان على الفور بعد ذلك ، وكررت لهم ما سبق أن أعلنته لهم عن طريق مبروك القمود — وهو ما يأتي :

أ — استسلام مطلق دون قيد او شرط ؛ وقبول لكل ما فرضته عليهم في

القلعة .

ب – لا علاقة لي بعمل الحكومة القضائي . وكل ما أعد به هو الوعد بأن أكون وسيطاً ، وذلك تبعاً للمسلك النهائي الذي يسلكه أهالي غريان.

جـ – ضمان عدم المساس بالأشخاص والممتلكات إذا ما تجنب الأهالي الاعتداء على الجنود أثناء مرورهم عبر البلاد الى القلعة .

في هذه الحدود العامة دخل الجميع دون أي تمييز بين الأهالي والزعماء . ولم تكن هناك أية ضمانات خاصة لهؤلاء الأخيرين ، وحتى بالنسبة لكعبار الذي أجاب قائلاً :

« إنني كغيري من الآخـرين تحت تصرف الحكومة . وحتى إذا ما ضحيت بحياتي ثمناً لما قمت به من عمل ، فإني سأكون سعيداً بأنني قد أنقـذت بلادي وتجنبت إراقة الدماء » .

كان الموقف في غريان بالفعل كما سبق ان صوروه لي :

كان رجال مختار المسلحون مع تمسكت في القلعة « تغسات » ورجال القعود المسلحون ورجال الهادي كعبار في خرمة آصبيح حيث كان الزعماء مجتمعين . وما إنْ وصلت إلى هذه الجهة (في الساعة الرابعة من بعـد ظهر يوم ١٧) حتى سألني القعود إذا كنت أسمح لهم بمهاجمة تمسكت فوراً لإخراجه من (تغسات) ، وبهذه الطريقة يأمنون عدم وقوع أي عدوان محتمل على الجنود ، حتى ولو كان بسيطاً ، أثناء زحفهم على القلعة في صباح اليوم التالي .

لم أهتم بالأمر . وقد علمت فيما بعد من الكوماندور (خربيش) أن القعود انتقل الى (خرمة آصبيح) وهي نقطة تسيطر على المنطقة كلها حتى (تغسات) حيث قامت بالفعل بين الفريقين معركة أدت الى إخلاء الجهة من مختار وأعوانه.

احتلال غريان ، ١٧ نوفمبر ١٩٢٢ :

في صباح يوم ١٧ ، سرت نحو قلعة غريان يتبعني كمبار والزعماء الآخرون، يحرسهم رجال الكارابنييري في موقع « خُرْمة آصبيح » .

وفي الساعة الثامنة والنصف احتللت البلدة دون إطلاق رصاصة واحدة ، ورفعت العلم مرة ثانية فوق القلعة التركية القديمة بين صيحات الفرح التي خرجت من أفواه الجنود وتأثرهم العميق .

ولكن سرعان ما نبهني إلى الواقع صوت المدفع الذي كان يدوي في الجهة الجنوبية .

ولما فهمت أن ألاي (بتساري) أو ألاي (بللي) لا بد أن يكون مشتبكاً في قتال جدي ، دفعتُ نحو (القواسم) بإحدى القوات الثلاث بقيادة الماجور (تراكيا) وبقوات (خروبيش) نحو وادي ويف على طريق ترهونة .

وفي الواقع فإن ألاي (بيللي) هو الذي كان محصوراً في فندق الشيطان .

ولكن إسراع قواتي وخروج قوات (بتساري) إلى الهضبة من (بوغيلان) كان من نتيجتها تخفيف الضغط على قوات (بللي) وفرار الثوار الذين كانوا يعرقلون خطواته .

هذا ما حدث بمناورة ماهرة وبعمل سياسي حكيم ، فخضعت كتلة غريان بأكملها ، وكذلك منطقة الجبل كلها حتى (نالوت) .

وقد بدت هذه الحوادث في طرابلس كأنها ثمرة خيالية ، لأنه كان من المعتقد أن طريق الجبل لا يمكن دخوله ؛ وكان الجميع يحاولون أن يجدوا أسباباً غير واضحة لتبرير اعتقادهم .

وهكذا قيض الحظ السعيد لرايتي التي اتسمت بالجرأة – عندما خفقت في الهواء في (زوارة) في يوم عيد ميلاد روما في ٢١ ابريل سنة ١٩٢٢ – ان ترفع الألوان الثلاثة المنتصرة على قلاع (الجوش) و (نالوت) و(كاباو) و(يفرن) و (غريان) بعد أن كان قد لحق بها الذل والهوان في سنة ١٩١٥ .

وإن تولي الحكومة الوطنية للسلطة أوقف كل تهاون وتقصير ، ودفع بنا إلى الزحف على (غريان) ومن ثم إلى إعادة الاستيلاء على طرابلس الغرب بأكملها.

كان من النتائج البعيدة والقريبة لاحتلال غريان والعمل السياسي الذي صحبه ما يأتي :

١ – قطع كل علاقة بين زعماء وأهالي الشرق وزعماء وأهالي الغرب .

٢ – إخلاء (مزدة) من رجال أحمدالسني، الذي اضطر للتقهقر والانسحاب نهائياً نحو (درج) دون أن تكون له بعد ذلك أية سلطة .

٣ – اصابة (الزنتان) و(الرجبان) بهزيمة ساحقة ، مما أدى بهما منذ هذه اللحظة الى الاستسلام الذي تم تدريجاً ، وإلى تسليم الأسلحة وعودة عائلاتهما وترك جانب من انصار (فكيني) له لاضطرارهم لمشاركته السير الى مصيره .

٤ – تهديد مباشر لترهونة بتجمع كل القوات في مثلث (غريان – طرابلس/ الخمس) .

٥ – استسلام (ورشفانة) وعودة عدد كبير من الأهالي الفارين اللاجئين في الجبل إلى الواحات الساحلية .

٦ – عودة الأهالي البربر في أراضي (يفرن) .

٧ – تأمين (الجفارة) تأميناً نهائياً في جنوب (غربي طرابلس – غريان) .

٨ ـــ زيادة النفوذ المباشر على (ورفلة) وفي بلاد (القبائل) عامة .

٩ ـــ حدوث تأثير عظيم للغاية على موقف الثوار كله في شرق مصراتة .

نتائج داخلية :

تم تسليم كافة الأسلحة (١٩٠٠ بندقية ومدفع ومتراليوز) في ٥ أيام .

استرداد جميع مهمات الدولة .

اعتقال زعماء الثورة المسئولين من سنة ١٩٢٠ وما بعدها ، بما فيهم الهادي كعبار .

إبقاء جميع الأهالي الوطنيين في البلاد حيث استمروا في العيش من الزراعة وتمتعوا بالهدوء والاطمئنان .

كان من نتائج إعادة احتلال الجبل بين (نالوت) و (غريان) وسفح الجبل – تسليم ما يقرب من خمسة آلاف بندقية من مجندي الحرابة والصيعان وأولاد محمود والحوامد و ككلة الحوض والأصابعة وغريان .

ولقد أكد صاحب السعادة الحاكم العام بأنه يجب الاعتراف بأن احتلال غريان كان مثلاً فريداً للنجاح الذي ينبغي الحصول عليه لإخضاع جميع المناطق الأخرى التي لم يتم احتلالها بعد .

كان الجنود يغنون في مرح وهم يستريحون حول النيران أثناء زحفهم الجريء. وكانت أغانيهم هذه أغاني مرتجلة حيث كان يدور القتال والألم . ومن هذه الأغاني :

إذا كنتم لا تعرفون ، فإن الهضاب والتلال تعرف
أننا نحن رجال الكولونيل جراتزياني الشجعان

بوم . بوم . بوم . على قصف المدافع
علينا ملابس مهلهلة ، وربما كان فيها قمل

ولكن يعوضنا عن ذلك البرق الذي يلمع في عيوننا
لقدصبرنا دائماً وحدنا دون أن نهتم
لا بالكيلومترات ولا بالأعداء
وهدفنا الاستيلاء على الجبل
انتصرنا في سيدي صالح وحررنا العزيزية ،
وصرنا سادة الجبل الغربي
والجوش وجادو ويفرن
ونحن لا نقتنع بذلك ونريد رأس زعيم ترهونة
بوم . بوم . بوم على قصف المدافع
واذا كان هناك ، أو في طرابلس ، سنذهب إلى مصراتة
التي كان فيها الحظ دائماً للشجعان
بوم . بوم . بوم على قصف المدافع .

تسوية سياسية وعسكرية للجبل :

كان الموقف السياسي في الجبل يسمح لي بمجرد احتلال غريان باسترجاع جانب من القوات العسكرية ، وبأن أبقى مع ذلك ومعي قوة استطيع بها العمل بأمان في كل اتجاه .

كان في استطاعتي أيضاً أن اؤكد أن كل المنطقة المستولى عليها – حتى الحدود التونسية – من الممكن أن أسلمها لجماعة البربر المجاورين لها (الرياينة والمشاشى) بعد أن قدمت الضمان على استقامتها التي ترجع الى هيبتنا الوطنية نتيجة لمجيء الحكومة الفاشستية التي أدرك الأهالي أنه يرجع إليها الفضل في الزحف والنصر .

كان هذا الواجب دون شك صعباً وعسيراً لما فيه من المسئولية . ولكنه كان يعتمد على عناصر واقعية ملموسة كان في الامكان ادراكها ، أي أن من كانوا يسيرون معنا ، جنباً الى جنب ، كانوا يرون في ذلك مصلحتهم .

ومع هذا فقد اقتضى الامر مواجهة مسألة سحب الأسلحة بطريقة مناسبة وملائمة . إذ أنه ، منذ احتلال الجوش وجادو ونالوت، كان كل المجندين العرب في المنطقة الغربية وسفح الجبل قد نزع سلاحهم .

وقد أدى الزحف على يفرن بعد ذلك إلى نزع السلاح من أهالي ككلة والحوض .

أما الرياينة الذين كانوا متضامنين مع البربر ، فقد تركت لهم بنادقهم بينما سحبت البنادق من مجندي (الاصابعة) وأهالي غريان .

واما المشاشي ، فقد كان من اللازم عمل حساب لبداوتهم الطبيعية التي كانت تجعل السلاح أمراً لا يستغنى عنه للدفاع عن مخيماتهم ومراعيهم في اراضي (القبائل) (وصحراء الحمراء) السحيقة غير المضيافة .

ولذلك فكرنا في أنه من الأنسب ترك السلاح في أيديهم حتى نستطيع استخدامهم لأغراضنا في الدفاع عن جبال الجنوب ضد ما يمكن وقوعه من إغارات من جانب (الزنتان) .

ولسوف نرى الخدمات الجليلة التي أدوها لنا فعلاً مدى سنوات عديدة ، وما قدموه لنا من مساعدات قيمة أثناء تغلغلنا البطيء التدريجي في أراضي (القبائل) .

وكذلك أيضاً تركت الأسلحة للبربر الذين كانت تتألف منهم قوات (خربيش) المساعدة ، والتي كانت جزءاً من الجيش الملكي في طرابلس وبرقة الموجود في الرياينة والمشاشي .

ولكن كان يتحتم علينا ألا نترك دون حماية من غارات الأعداء مختلف البلاد .

ولذلك فإني بعد أن قمت بتسليح بعض الموظفين الوطنيين ، وهم رجال موثوق بهم كل الثقة ، ومعظمهم كانوا من قدامى الجندين اصحاب الرتب في القوات الوطنية ، سمحت لكل مديرية بأن يكون فيها وحدة من الرجال المسلحين تتناسب مع حاجة الدفاع عن المراعي في اسرع وقت .

وقد تألفت هذه الوحدات من رجال مسلحين محليين ، وكانت نفقاتهم يدفعها الأهالي الذين ساهموا بهذه الطريقة في نفقات المنافع العامة .

وقد قدمت هذه الوحدات المذكورة خدمات جليلة في صد الغارات ، وأحدث وجودهم اقتناعاً عند الثوار بأن كل مكان في الجبل مشمول بحراسة قوية .

ومن جهة أخرى فإن هذه المئات القليلة من البنادق لم يكن في وجودها ما يقلق بالنا أو يخيفنا .

ومع هذا ، فقد كان هناك بعض المتشائمين الذين كانوا يرون في كل هذه الأنظمة أخطاراً كبيرة للغاية وتهديداً بالغدر أو العصيان أو غير ذلك .

ولكن لما كان هذا النظام يعتمد على عناصر واقعية ، ومن الممكن الثقة به ، استطعت الاستمرار بهدوء في ضمانه للحكومة .

كان هذا النظام في الواقع يتدرج في طريق الكمال وأصبح نظاماً دائماً وثبتت صلاحيته . وقد قدم الدليل على فائدته ونفعه إذ كان يعتمد على المعرفة الكاملة بالموقف لا على ذلك التشاؤم الكاذب الذي كان يبديه النقاد من غير ذوي الاختصاص .

بهذه الطريقة أمكن الاحتفاظ بمنطقة هائلة ، وباستخدام محطات لاسلكية قليلة وبعض الممرات النادرة – أمكن توقف الجنود النظاميين فيها واستخدامهم لها عندما اقتضت الحاجة ذلك .

وفي الوقت نفسه تم عمل جدي لمعالجـــة كل اولئك الذين اتضحت إدانتهم لاحتفاظهم بأسلحة وتواطئهم مع الثوار .

وكانت هناك أمثلة مروعة لتطبيق العدالة ضربت في كل مكان . وكانت لها نتائج إيجابية .

كما قدمت عملية اجتذاب المحـــاربين الفارين ، وعاد كثيرون من الزنتان والرجبان إلى بلادهم وسلموا أسلحتهم في الحال .

وفي يناير سنة ١٩٢٣، قبل إعادة احتلال ترهونة ، تمّ في الرحيبات استسلام كل اخوة (فكيني) مع معظم رجال (الرجبان) .

وتلا ذلك استسلام عدد عظيم من الزنتان ، أحضرهم (علي الشنطة) مستشار الحكومة السابق .

وقد كتب لي الحاج محمد فكيني شخصياً من غدامس التي كان قـــد انسحب اليها طالباً مني ضمان حياته ، وقرر بأنه اذا ما حصل على هـذه الضمانة سوف يحضر في الحال .

ولما لم يكن لديّ تصريح أكيد بذلك من الحكومة التي كانت ترغب دائماً في الاحتفاظ بأكبر قسط من حرية العمل ، فقد أجبته بأني لا أستطيع أن أضمن له ذلك . وكنت دائماً مخلصاً لذلك المبـــدأ القائل بأن اعطاء الوعود للوطنيين وعدم الوفاء بها يسقط من هيبة الحكومة .

في تلك الأثناء كانت الإدارات المحلية قد عادت الى نشاطها ، وبدأت عملية إعادة البناء الاقتصادي والمدني في المنطقة كلها . ذلك البناء الذي كان يفرض غرامة مالية على الثوار العائدين إلى بلادهم لتعمير الأماكن التي تهدمت .

كانت سياسة الحكومة تستلهم روح العدالة المطلقة في كل عقوبة وفي كل عمل من أعمال القمع . ولم يكن هناك أشد ضرراً من استعمال القوة والعنف

بطريقة غير مشروعة ودون مبرر .

بهذا العمل البناء أمكن التوصل الى العمليات المؤدية الى احتلال ترهونة . اذ كان لدينا ضمان بأن خط الجبل سوف يمكن الاحتفاظ به دون أية حاجة إلى جيوش نظامية . وهـذا ما حدث فعلا .

وكانت أخطر المسائل التي يجب عليّ مواجهتها هي المسألة الخاصة بالمسلك الذي سوف أسلكه مع الهادي كعبار .

كان من الممكن إثبات أن خلافاته الظاهرة مع الزعماء الآخرين في هـذه المرحلة الاخيرة من مراحل الحيـاة العامة كانت عملا يحمل طابع سلوكه الماضي ، وأنه كان على العكس متواطئاً معهم ، فقد بقي في غريان ليكون زعيمها الأكبر وليستأنف المفاوضة مع الحكومة مفاوضة الند للنـد على أساس الدستور .

هذا وإن خطابه المتضمن لشروطه التي أرسلها إلى الحكومة في اللحظـة التي كانت غريان فيها محصورة من كل مكان كان يبين عقلية هذا الزعيم الذي كان لا يزال يرفض كل تسليم دون قيد أو شرط .

وهكذا هدم بيديه القيمة التي كان يمكن أن تكون له لو ان معاونتـه الأخيرة في تسليم غريان كانت معاونة مخلصة عادلة .

وعندما أطلقت سراحه وتركت له حريته مؤقتاً تحت ضمانتي ومسئوليتي ، اتضح أنه لسان حال المريض وزعماء الثوار الآخرين. ولكنه لما كان يخشى كثيراً من تلك الإشاعات التي كانت ذائعة عن القبض عليه في القريب العاجل ، بدا لي أنه من الأنسب إرساله إلى طرابلس ليكون تحت تصرف الحكومة .

ولما أبعد الى (الخمس) بقي فيها حتى تتم محاكمته جنائياً ، تلك المحاكمة التي جرت في يوليو سنة ١٩٢٣ في مصراتة حيث شنق بعد الحكم عليه .

ولقد وقف في المحكمة ، كما واجه المشنقة بشجاعة .

كان منصفاً لي عندما أكد لرئيس المحكمة الكولونيل (بوري) كذب تلك الاشاعات القائلة بأنه وضع معي شروط تسليم غريان في مقـــابل وعدي له بالاحتفاظ بحياته .

لم تقف الإيعازات عند هذا الحد؛ لقد فهمت بتجربتي الشخصية مقـــدار صعوبة طريق النجاح ووعورته ، وخصوصاً إذا طرقهـــا الإنسان بأمانة وإخلاص وبقصد حسن .

ولقد كثر الجدل حول ما اذا كان شنق الهادي كعبار فيه فائدة حقيقية أو ضرر يمنع وضع حد للثورة في طرابلس الغرب .

على أنه يجب قبل كل شيء للحكم في هذا الموضوع العودة الى العهود الماضية ، واستعراض خيانات ذلك الزعيم الداهية وخداعه ومكره وأطماعه .

كان هذا الزعيم لا ينقصه الذكاء والكفاية ، وكان يعمل دائماً لإلحاق الضرر بنا وضد مصالحنا . لذلك كان من شأن هذا المثل ان يكون إنذاراً عاماً .

وكانت فئة الزعماء الطرابلسيين كلها وعلى رأسهم (احمد الفساطوي) تنادي بالاعدام . ولكن المسألة كانت عندهم مسألة انتزاع منافس لهم ، لأن الجميع في دخيلة انفسهم كانوا يأملون في العودة الى الدستور ، وكانوا يخشون أسبقيـــة كعبار في الوظائف الأخرى الحكومية التي كانوا يتوقون اليها .

وكان يبدو دون شك أن الحكم على مثل هذا الزعيم قد يكون من شأنه عدم إمكان استسلام الزعماء الآخرين ، وان يأخذ الصراع من جانب هؤلاء صفة المقاومة الشديدة .

ولكن هذا كان يتفق مع المبدأ الأساسي الذي تسير عليه حكومة صاحب السعادة السنيور فولبي – الحاكم العـــام – ، التي كانت تستبعد كل تدخل من

قبل الزعماء . وكانت لا تتردد في توقيع الجزاء عليهم والعودة الى تلك الطرق الفعالة لتثبيت هيبة الحكومة .

وقد وضعت برنامجاً واضحاً حاسماً دون جلبة أو ضوضاء .

لو كان الهادي كعبار قد بقي على قيد الحياة لكانت قد وضعت على بساط البحث مسألة كبار الزعماء .

ولذلك كان شنقه حجر الزاوية في طريق إعادة الاستيلاء على البلاد بنظرات واضحة وشجاعة وحساب دقيق للعواقب .

أما أخوا كعبار الآخران ، مختار وراسم ، اللذان انسحبا نحو الجنوب بعد احتلال غريان ، فإنهما لا يزالان هائمين على وجهيهما حتى الآن من الغرب الى الشرق دون أن تكون لهما حاشية أو أية سلطة ، وهما يعلمان أننا لا ننسى اساءتهما الينا .

كان راسم موجوداً في زلة اثناء احتلالنا لها ، وهرب منها تاركاً وراءه كل ما كان يمتلك .

ومن بين ما ترك الميدالية الفضية التي كان قد احرزها في سنة ١٩١٥ ، والتي صار غير جدير بها . فعادت بهذه الطريقة الى أيدينا بارادة الحظ العجيب .

الفصل الرابع

احتلال مسلاته وترهونه ومصراته

احتلال مسلاته وترهونه ومصراته

صرح صاحب السعادة السنيور فولبي في الكتاب المسمى (نهضة طرابلس الغرب) فيما يختص باعادة احتلال الجبل وسير العمليات قائلا :

« نفذ الكولونيل جراتزياني في أحوال عسيرة العمليات العسكرية في جبل (نفوسة) حتى الحدود التونسية بأن ارتقى الهضبة من (الجوش) بسلسلة من العمليات الناجحة انتهت باحتلال « غريان » في يونيو سنة ١٩٢٢ ، في انسجام مع تولي الحكومة الوطنية للسلطة . وكان مجيء هذه الحكومة معناه في نظري وفي نظر المستعمرة وجود سياسة جديدة وخاتمة عناء مؤلم كان يزيد مصاعب عملنـــا .

« ولقد تفضل السنيور موسوليني ، رئيس مجلس الوزراء ، في حـــديث مستفيض لي معه في ثاني يوم من توليه الحكم ، بإظهار موافقته على أعمـــالي وعلى مقاصدي . ولقـــد دعي لتولي شئون وزارة المستعمرات السنيور (لويجي فيدروزوني) ، أحـــد رواد الكرامة الوطنية في أحلك الاوقات ، والذي كان يؤيد واجبنا في إفريقيا منذ الساعة الأولى من احتلالنا ، والذي سرعان مـــا أعطى للجميع دليلا واضحـــا على عمله الفذ لرفع مقام إيطاليا وهيبتها في المستعمرة » .

في هذا الاتجاه أخذت الحكومة وقيادة الجيش في طرابس الغرب في تجهيز

خطتها بمنتهى السرعة لإعادة احتلال موقع ترهونة البالغ الأهمية . وكانت هـذه الخطة تفرض ضرورة التخفيف في أسرع وقت ممكن من الضغط على خط غريان العزيزية – طرابلس . فضلاً عن ملاءمة الوقت لبسط سيطرتنا على كافة أنحـاء طرابلس الغرب . وكان هذا الخط قد تميز بهجوم عنيف على قواتنا في بئر أبازة (على مسافة بضعة كيلومترات من فندق بن غشير) وقد صدت هـذا الهجوم بمهاوة فائقة الكتيبة الأريترية السابعة عشرة . كما فرضتها أيضاً ضرورة تخليص الأراضي الشرقية من تلك الغارات التي كان الثوار يقومون بهـا حتى واحة (تاجوراء) .

لم تتأخر الحكومة في طرابلس عن العمل مباشرة بوساطة الرجل العاقـل الشديد الإخلاص حسونة باشا وأحمد المنتصر على اقناع « المريض » وزعمـاء ترهونة الآخرين الأقل شاناً بأن يقبلوا الاستسلام من تلقاء أنفسهم دون قيد أو شرط .

وقد حاولت قيادة منطقة الجبل ، التي كانت قد وضعت مقرها في غريان ، أن تعمل هي الأخرى على التأثير على « المريض » الذي كان يبدو في وقت مـا أنه يقبل الاستسلام ، ولكنه سرعان ما اتخذ طريق العدوان .

وافق هذا التغيير نفي الهادي كعبار إلى طرابلس والخمس ، وأظهر بجـلاء أنه توجد بين الرجلين اتفاقات سابقة على العودة الى احتلال غريان لتنفيذ برنامج محدد تمام التحديد .

لذلك وجب إصدار عبارة : « إلى السلاح » .

وكذلك كانت ترتبط باسم « ترهونة » ذكرى سنة ١٩١٥ الرهيبة . إذ أنه بعد كارثة قصر « بوهادي » كانت تلك الحامية قد حوصرت في أول الأمر وتم فصلها عن المواصلات الصعبة التي كانت تربطها بطرابلس و « القصبات » . ثم ذبح افرادها في وادي « سريت » في يوم ١٨ يونيو ، عندما كانت تلك القوات

التي لم تكن تحت قيادة حكيمة تحاول فتح طريق لهـا إلى الشاطىء بكل ما فيها من قوة .

وقد سقط البطل اللفتانت كولونيل (بيليا) قتيلاً في ١٨ مايو في إحدى تلك الهجمات الباسلة والجريئة التي امتازت بقوتها وعنفها ، وبقي مدفوناً في ترهونة بطريقة غير لائقة ولا مستحبة في انتظار الانتقام له والأخذ بثأره .

وقد قتلت أيضاً عنـــد الانسحاب (ماريا بريجنتي) ، وهي سيدة فاضلة ومهذبة ، بينما كانت محاصرة هي الأخرى في (بني وليد) ، وكان زوجها البطل لا يزال يرفع بيده إلى الأعلى في يأس العلم الإيطالي .

ومن المعلوم أن هضبة ترهونة يصعب دخولها من أي جانب من جوانبها . وبخاصة من ممرات (أملغا) و (سريت) . وقد اثبتت المحاولات التي تم القيام بها في سنة ١٩١٥ لفك الحصار عن الحامية المحصورة شدة وعورة هـــذا الممر وصعوبة المرور فيه بقوات كبيرة . وإن هذا الاعتبار ، مضافـــاً إليه ملاءمة مفاجأة الثوار بهجوم لا يتوقعونـــه ، والأمل في إمكان تهديد طريق انسحاب الثوار تهديداً خطيراً كل ذلك جعل قيادة قوات الجيش ترمي الى بلوغ الهدف لتطويقه بمناورة على الخطوط الخارجية . تلك المناورة التي اتضح أنها أنموذج للتركيز والتنفيذ .

كان موقف الثوار المسلحين في بداية شهر يناير سنة ١٩٢٣ كالآتي :

كان في وادي (ويف) أحمد المريض بنفسه ، هـو ومعظم القوات ، لسد الطريق على القوافل التي تسير من غريان — ترهونة .

وكان عبدالله تمسكت في مدخل (أملغا) — وتمسكت هـــذا رجل تركي مغامر تابع للجمهورية وكان قد قاتل فيما مضى في (الزاوية) و (سيدي السايح) و (يفرن)— مع جماعات من (سيدي عرقوب) و (سيدي الجيلاني) و(مواجن دغمان) و (سيدي بوعيشه) .

انتشرت وحدات ثانوية بقيادة المبروك المنتصر في جميع أنحاء المنطقة الساحلية بين (تاجوراء) و (الخمس) رجال مسلاتة والجفارة الشرقية والخمس المسلحين .

كان هناك أخيراً على سبيل الاحتياط في المنطقة الساحلية بين الخمس ومصراتة رجال « الساحل » المسلحون .

لم يكن الخصم يظهر أي خوف من مجيء أية قوة من الجبهة الجنوبية الغربية .

في هذه الظروف التي كانت ملائمة للمفاجأة استفاد قائد منطقة الجبل في نطاق الحرية الممنوحة له لاختيار اتجاهه في الهجوم .

وبعد التأكد من تنقلات الخصم ، وضعت قيادة الجيش خطة العمليات التي كانت تتضمن ما يأتي .

« يجب القيام بتطويق مزدوج لهضبة ترهونة الجبلية بالآلايين ، يأتي أحدهما من الجهة الشمالية الشرقية ، والثاني من الجبهة الجنوبية الغربية يصحبه هجوم ثانوي مواجه يجب القيام به بواسطة آلاي يأتي من الغرب (بالنسبة للهدف) ، أي من طرق مخارج العزيزية .

اما القوات المخصصة لهذه العملية فكانت كما يأتي :

ألاي مسلاتة (بقيادة بيتساري) ٣١٠٠ بندقية و٣٠٠ حصان و ٤ قطع مدفعية .

ألاي الجبل (بقيادة جراتزياني) ٣٧٠٠ بندقية — ٣٥٠ حصاناً و ٤ قطع مدفعية .

ألاي جفارة (بقيادة بلـــلي) ١٤٠٠٠ بندقية — ٢٢٠٠ حصان ٤ قطع مدفعية .

وعندما يتحرك ألاي (مسلاتة) من تاجوراء) كان عليه أن يكتسح الجبهة الجانبية كلها ؛ وبعد أن يصل بقواته إلى وسط منطقة (الخمس) يقوم بمعاونة تلك الحامية بالزحف على (القصبات) ومنها الى جبل (مسد) فوق ترهونة. وفي سيره من طرابلس والخمس تقوم بمساندته بعض قوات البحرية الملكية .

وبعد أن يقوم ألاي الجبل من قاعدته في غريان بدلاً من الزحف مباشرة على (ويف) من الطريق الطبيعي الصخري (طريق غريان – ترهونة) ، كان يجب عليه أن يقوم بحركة التفاف واسعة نحو الجنوب ، لكي يضرب تجهيزات الخصم في وادي ويف من الجنب ومن أسفل ، أو لتهديد طريق انسحابه نحو الجنوب .

هذه المناورة كان لها خطتان لهما صفة سياسية وهما :

أن لا يصبح من الممكن وصول أي تهديد في أول الأمر للجانب الأيمن ، حتى ولا من (مزدة) .

وأن يبقى رجال (ورفلة) عاجزين عن الهجوم .

كانت تتم الخطة الاولى لاجتذاب أهالي (المشاشى) وأولاد (أبو سيف).

وأما الخطة الثانية فكانت ترمي لضمان حياد عبد النبي بو الخير الذي راسله قائد الجبل – منذ كان في (جادو) – وقد ازدادت هذه الاتصالات والمراسلات في الايام الاخيرة السابقة للعمليات الحربية ولو أنه لم يكن يعلق عليـــه كثيراً من الأهمية في المستقبل .

ومع ذلك فمن الممكن الاعتقاد بكل تأكيد أن عبد النبي بوالخير ما كان ليهاجمنا أثناء هجومنا على ترهونة ، لأن هذا كان يتمشى مع مصالحه .

وبدون هاتين الخطتين كان اتجاه الهجوم الذي وقع عليه اختيار قائد المنطقة ثم قائد الألاي يصبح كثير الخطورة وغير مقبول .

وكان يجب على ألاي (الجفارة) ، عندما يتحرك من قاعدته ، أن يقوم بضغط شديد على تجمعات الخصم في وادي (أملغا).

بدأت المناورة الجريئة في فجر يوم ٢٩ يناير بأن قـام من تاجوراء ألاي مسلاتة الذي وصل في النهار إلى قصر (القره بوللي) بعد ما صد حركات تهديدية قام بها فرسان ترهونة على وادي الرملة . وقام بين الطرفين بعـد ذلك اصطدام امتازت فيه فرقة السواري بقتال باهر .

وبعد أن تقدم الألاي المذكور في سيره أثناء ليلة ٣٠ احتل قصر (الجفارة).

وبعد ظهر ذلك اليوم بعث الحاكم العام بالطريق الجوي إنذاراً رهيباً إلى المريض ، دعاه فيه مرة ثانية الى التسليم بدون قيد أو شرط .

وفي فجر يوم ٣١ هاجم ألاي الجفارة في بوعرقوب فجأة « محلات » الثوار التي كان يقودها الشيخ فرحات بك ودمرها .

وفي نفس اليوم بدأ ألاي الجبل زحفـه نحو الجنوب على الجبل في أحوال جوية سيئة للغاية . ولكنه كان قد اضطر للتوقف في (المصفين) بينما كان ألاي امسلاتة يصل بعد الظهر إلى موقع فندق العلوص واحتله بعد معركة عنيفة .

وفي أول فبراير ، وبالرغم من سوء حالة طريق القوافل بعد الأمطار والسيول التي انهمرت ، كان يتحرك من الموقـع الجديد الذي استولى عليه للوصول في الساعات الأولى من بعد الظهيرة إلى فندق النقازة التي كانت وحدات صغيرة من قوات العدو تعتدي عليها باستمرار اثناء الزحف ، وقد صدها الألاي ودفعها إلى الوراء بفرقة السواري وبالفصائل الجانبية .

وفي يوم ٢ فبراير استأنف ألاي الجبل زحفه نحو الشرق . ووصل بعد الظهر إلى بئر غـان دون أن يطلق رصاصة واحـدة . ثم اندفع نحـو صهاريج (مقلب المـاء) التي وجد العدو يحتلها برجاله فقام بمهاجمـة هؤلاء الرجال وشتت شملهم .

ومع هذا فإنه لم يستطع الاستيلاء على الصهاريج بسبب حلول الليل .

وفي اليوم نفسه احتفظ ألاي الجفارة بخطته العدوانية ، وهاجم هجوماً عنيفاً مواقع العدو التي قابلته بمقاومة عنيدة . ثم استولى على سيدي الجيلاني وسيدي الوليد .

وبعد أن تحمل الثوار خسائر فادحة تقهقروا بدون انتظام إلى المواقع المشرفة على مخارج الوديان الآتية من ترهونة .

ولما تابع ألاي مسلاتة زحفه على طول طريق القوافل (النقازة – سليم – الخمس) أتم اتصاله بقوة حامية الخمس الخفيفة وخرجا في ذلك الصباح ذاته من الميدان .

وقد تم هذا الاتصال دون أن يلاقي معارضة من العدو الذي كان يتخبط في سيره .

ولكن ما إن تحركت هذه القوات بعد ظهر ذلك اليوم على (سيدي الحمري) حتى اضطرت للدخول في معركة عنيفة مع بعض وحدات العدو القوية التي كان من بين أفرادها عدد كبير من مجندي مصراتة ومسلاتة .

لم يصل حتى تلك اللحظة أي خبر يختص بزحف ألاي مسلاتة أو ألاي الجبل على جموع الثوار الذين كانوا يواجهون في وادي – (أملغا) الليفتنانت كولونيل (بيللي) .

وقد وقف العدو هناك وبدا أكثر إصراراً وعناداً ؛ وكان يقصر اهتمامه على الصمود في وجه الهجمات التي كان يتلقاها في تلك الجبهة .

وفي الساعات الأولى من يوم ٣ أخذ ألاي الجبل في الزحف نحو الشرق . وبعد أن هزم بهجماته الشديدة القاسية «محلة» كبيرة بقيادة راسم كمبار قوامها ما يزيد على ٨٠٠ رجل من المسلحين بين راكب وراجل – وكانت هذه المحلة تحاول إعاقة زحفنا في جهة (مقلب الماء) وصل بعد الظهر الى (بئر الواعر) واستولى على تلك الآبار البالغة الأهمية .

في تلك الاثناء كان الخصم يحتل مواقــع (قصر الحجيرة) المنيـع التي تسد طريق الوصول إلى ترهونة. فأسرع قائد ألاي الجبل بإعطاء أخبار عنها بواسطة اللاسلكي إلى قيادة الجيش ، وأبلغها بأنه قد يقوم بمفاجـأة العدو لكي يفتح لنفسه الطريق بأي ثمن . وطلب منها معاونة الطيران له في هذه المعركة .

وقد قام الليفتنانت كولونيل (بيللي) من (سيدي الجيلاني) و(سيدي الوليد) بمناوشات مستمرة مع الثوار .

ولقد كان من شأن المقاومة التي ابداها العدو مدة من الزمن في (سيدي الحري) ، والتي كانت تعوق الزحف، أن جعلتنا نعتقد أن الثوار يستفيدون من المواقع المنيعة التي تواجه ألاي (الجفارة) ، وأنهم حصنوها تحصيناً قوياً لتقف كتلة قوية في وجه ألاي مسلاتة .

ولقد حدث في ذلك الوقت ان دفعت قيادة الجيش بالقوات الاحتياطيـة لتقوية ألاي (الجفارة) بحيث يصبح هذا الألاي في حالة تمكنه من تدمير القوات المدافعة عن وادي(أملغا) ومن الانقضاض على (ترهونة) .

وبعد ساعات قلائل وصلت القوات الاحتياطية من طرابلس. ولقد ظهر أن هذا الافتراض كان مخالفاً للواقع. إذ ان الليفتنانت كولونيل (بيللي) قام في اليوم التالي (٤ فبراير) بعملية استطلاعية واستطاع أن يؤكد لقيادة الجيش أنه لم يحدث أي تجديد في خطط العدو ومسلكه .

وفي الساعات الأولى من ذلك اليوم ذاته هاجم ألاي الجبل مواقع (قصر الجفارة) .

وبعد عملية تمهيدية بإطلاق الرصاص بشدة على العــــدو قامت مجموعة فرق المشاة المؤلفة من الفرقة التاسعة عشرة الاريترية وجماعة (خربيش) بالزحف تحت ستار عنيف من الرصاص على مواقع العدو الحصينة التي تم الاستيلاء عليهـا واحتلالها بهجوم عنيف

وقد أخذت فرقة الفرسان كلها التي قذف بها في الميدان تضغط حتى المساء على جموع الثوار الفارين الذين تشتت شملهم وحاق بهم الدمار .

وقد قام خربيش والعياط بتتبع مختار كعبار واقتفـــاء آثاره ولكنه استطاع الإفلات منهما بعد جهد كبير .

احتلال القصبات ، ٤ فبراير سنة ١٩٢٣ .

استمر ألاي مسلاتة في قتاله ، كما استمر على تدمـير مقاومة الثوار الذين حل بهم الضعف بعد مسير وقتال دامـــا عشرة أيام حتى وصل إلى القصبات واحتلهـا .

وفي يوم ٥ ، توالت الحوادث وتتابعت . وبعد أن تشتت شمل الثوار – كما رأينا – في قصر الجفارة قام ألاي الجبل بإخـــلاء الطريق وتقدم الكولونيل جراتزياني بسرعة ، ودون أن يعطي فرصة للراحـة لجنوده ، وتخطى كل عقبة واجهته بسبب وعورة الأرض غير الممهدة والخالية من المياه . ووقف في المساء على مسافة ١٦ كيلومتراً جنوبي آبار (مجي) بعد أن قذف بقوة الفرسان إلى سهل ترهونة .

وفي ليلة ٦ فبراير كان المريض قد أحس أخيراً بالكماشة كأنها توشك أن تطبق عليه . لذلك أسرع بإخلاء المواقع الموجودة في مدخل وادي (أملغا) وبالانسحاب بأقصى سرعة الى ترهونة .

وفي الصباح اخذ الليفتننانت كولونيل (بللي) في تتبع آثار الثوار الذين اختل نظامهم بمنتهى السرعة .

وقـد أبلغت قيادة الجيش بواسطة اللاسلكي الخبر إلى ألاي مسلاتة وألاي الجبل . وفي الوقت ذاته اصدرت إليهما الأوامر بالعمل بمنتهى الصرامة لسرعة

احتلال ترهونة ، وقد قامت حركة الكماشة بأداء واجبها .

وفي صباح يوم ٦ فبراير تحرك آلاي مسلاتة من (القصبات) وتوغل في جبل (مسد) ؛ وبعد أن تخطى وعورة الأرض ووحشتها ، وبعد التغلب على المقاومة التي أبداها العدو ، وصل إلى (قصر الداوون) حيث قضى الليل . وقد اشتبك ألاي (الجفارة) بالعدو بطلائعه في مداخل (وادي أملغا) .

احتلال ترهونة ، ٦ فبراير سنة ١٩٢٣ .

منذ ذلك الحين فصاعداً كان الجميع يحسون أن قوات العدو قد تضعضعت وتفتتت وانهارت . ولذلك نسي ألاي جراتزياني كل ما كان يشعر به من تعب ، وواصل زحفه الخاطف ودمّر كل مقاومة كان يبديها العدو ثم انقض على ترهونـة .

وفي الساعة السادسة من بعـد ظهر يوم ٦ فبراير كان العلم المثلث الألوان ، الذي رفعه ألاي الجبل يرفرف منتصراً فوق أعلى القمة .

فر الثوار بغير انتظام نحو الجهة الجنوبية الشرقية ، وقد تعقبتهم قوة فرسان ألاي الجبل وأكملت هزيمتهم الساحقة .

وفي نفس الوقت الذي هرب فيه العدو من تضييق قواتنا الخناق عليـه ، لم تتمكن رجال (النواحي الاربع) من ذلك فتم تطويقهم واضطروا للاستسلام وتسليم أسلحتهم .

وكان من بين الغنيمة التي وقعت في أيدينا ثلاثة مدافــع جبلية وخمسة مترالیوزات وعدد من قاذفات القنابل من أحـدث طراز مع كميات وفيرة من الذخائر .

هكذا سقطت ترهونة بعد أن أحاطت بهـا من الغرب والجنوب والشرق الآلايات التي جاءت اليهـــا بسرعة الريح . وقد كان الضمير الوطني يتطلع إلى ترهونة التي كانت مركزاً عسكرياً وادبياً للثوار ، والحمى الذي كانت تخرج منه وتعود إليه كل صفوف الثورة والتي كان « المريض » بعد موت رمضان الشتيوي يحلم مدة من الزمن بإقامة إمارة له فيها .

وقد هرب الزعمـاء والأهالي منها والفزع يملأ قلوبهم أمـام قواتنا التي لا يمكن مقاومتها. وإن العمليات التي مكنت إيطاليا في ٩ أيام لا أكثر من إعادة احتلال هضبة ترهونة ، وضمت إلى حكمنا قطراً تبلـغ مساحته ١٢ ألف كيلو متر مربع — هي دون شك أخصب أراضي طرابلس الساحلية — تلك العمليات تعتبر حادثاً عسكرياً من الطراز الأول دل على عبقرية وشجاعـــة عظيمتين في الإشراف عليه ، كما دل على مهارة وانسجام في تنفيذه . وكانت هذه العمليات هي التي مكنت جيوشنا من القضاء على هيبة العدو .

وقد تمت العمليات دون انقطاع مدى تسعة أيام دون أن يقع أي حادث ، وفي غير هوادة ودون أية مباغتة من العدو .

وقد تم تنفيذ الخطة التي سبق وضعها بمنتهى الدقة والأمانة والحيطة ، رغماً من الصعوبات التي ترجع الى قسوة الطبيعة في ذلك الفصل ووعورة الأرض وصلابة العدو .

ولإعطاء القوات الكبيرة التي كانت تعترض خطواتنا بعناد قيمتها الحقيقية ، يبدو لنا أنه من المفيد أن نذكر البيانات الواقعة الآتية :

كان ألاي بيتساري في طريق (تاجوراء) و (وادي الرمل) و (قصر القره بوللي) و (قصر الجفارة) و (فنـــدق العلوص) و (فندق النقازة) و (شقران) و (سيدي الخمري) و (القصبات) و (جبـــل مسد) و (قصر

الداوون) يعمل في الأراضي التالية :

« الجفارة ويبلغ مجموع سكانها (١٥،٠٠٠ نسمة) القادرون على حمـــل السلاح منهم من (٢٨٠٠) الى (٤٠٠٠) ، والذين تم تجنيـــدهم فعلاً (٢،٠٠٠) .

« مسلاتة ويبلغ مجموع سكانها (١٥،٠٠٠) نسمة والقادرون على حمل السلاح منهم ٣،٠٠٠ والمجندون منهم فعلاً ١٥٠٠ .

« ساحل الخمس ويبلغ مجموع سكانه ١٠،٠٠٠ نسمة والقادرون على حمل السلاح منهم ٢٥٠٠ والمجندون منهم فعلاً ٨٠٠ .

وفضلاً عن هؤلاء كان يعمل ضد ألاي (بتساري) كذلك بعض « محلات » (زليطن) و(مصراتة) المؤلفة مما يقرب من ١٥٠٠ مسلح .

ألاي الجبل في طريق (غريان) (المصفين)-(بئر غان)-(قصر الحجيرة) (آبار مجي) (ترهونة) كان يعمل في الأراضي الآتية :

غريان ، ويبلغ مجموع سكانها ٢٥،٠٠٠ نسمة والقادرون على حمل السلاح منهم من ٦،٥٠٠ إلى ٧،٠٠٠ والمسلحون فعلاً البدو الرحل الجعافرة الذين هربوا عندما تم الاستسلام .

ترهونة ، مجموع سكانها ٤٥،٠٠٠ نسمة والقادرون منهم على حمل السلاح من ٩،٠٠٠ إلى ١٠،٠٠٠ والمسلحون فعلا من ٥،٠٠٠ إلى ٥،٥٠٠ .

ومع ذلك فإنه مما هو جدير بالذكر أن جانباً من هؤلاء المسلحين كان يعمل ضد ألاي (بيللي) .

كان ألاي الجفارة يعمل في زحفه في طريق بئر أبازة ، و(بئر الحفرة) ، سيدي بوعرقوب ، سيدي الجيلاني ، مواجن دغمـــان ، وادي أملغا ، ترهونة في الأراضي الاتية :

«النواحي الاربع» ويبلغ مجموع سكانها ٣٠٫٠٠٠ نسمة والقادرون على حمل السلاح منهم ١٠٫٠٠٠ ، والمجندون فعـــلا حوالي ١٨٠٠ ، وترهونة باشتراك جزئي من جانب رجال العدو المسلحين المشتبكين مع ألاي جراتزياني .

وكانت مقدرة الثوار الحربية عظيمة جداً من كل ناحية . وكانت «المحلات» المختلفة تتألف من رجال تعودوا على المتاعب والآلام مزودين بوسائل حربية بكميات ضئيلة . وفضـلاً عن ذلك كانوا مدفوعين بتعصب ديني ثائر عنيد ، وبتعصب لجنسهم .

ولقد انسحب جانب من رجال ترهونة المسلحين إلى مصراتة في أثر «المريض» ، وبقوا فيها حتى تم احتلالنا لبني وليد . وكانوا يحاولون القيام بهجوم مضـاد في فصل الصيف — كما سنرى — ويشتركون في عملية المقاومـــة في (ورفلة) . والجانب الآخر استسلم فوراً وسلم في أيام قلائل ١٨٠٦ بندقيات .

أما « المريض » فإنه بقي هو وكبار زعماء ترهونة في مصراتة ، حتى تم احتلالنا لبني وليد . ثم ترك القتال وانسحب إلى مصر حيث لا يزال حتى الآن يعيش لائجاً ويشتغل بالتجارة .

وهكذا تنتهي خاتمة مهمة هذا الزعيم السياسية . ذلك الزعيم الذي كان يتطلع الى الحصول على امتيازات كبيرة تخوله حق الإمارة ، حتى كان العرب انفسهم يطلقون عليه للسخرية به اسم « أمير الرمال » .

ولقد كان هو على غرار الآخرين قد رد على الفوائد الكبيرة التي حصل عليها من الحكومة بالعصيان والخيانة .

استخراج جثة شيزاري بيليا .

وما إن تم احتلال ترهونة حتى بدأت إعادة تنظيمها في كافـــة الميادين . وهكذا بدأت الأبحاث عن جثة « شيزاري بيليا » .

ورغماً عن الوعـــود بالمكافآت التي بذلت ، لم يشأ أي عربي أن يرشد عن مكان القبر خوفاً من انتقامنا ، لأن هذا القبر كان قد انتهك .

ولكن يهودياً من اليهود المحليين أشار لنا إلى تابوت كان يملكه يهودي آخر ، وعرف هو لحسن الحظ بوجودها فيه .

وكاو المعروف أن البطل يجب أن يكون قد تم دفنه في الجهة الجنوبية على مقربة من منزل الشيخ سعد .

وفي هذه الجهة توجهت الأبحاث ، ولم تكن هناك أية إشارة خارجية تدل بأية حال على قبره ، وكانت هنا وهناك خمائل في الحشائش الخضراء الكثيفة ، ولا شيء غير ذلك .

عندئذ راودني خاطر غريب .

فقد كنت أحب وأنا في أريتريا شيزاري بيليا يوزباشي فرقتي وأعجب به كل الإعجاب . لأنه كان يضم الى قوته وصلابة طباعه كرماً لا مثيل له . وكنت أشعر أثناء فترة زحفي كلها على ترهونة بروحه القوية تؤثر في نفسي .

ودفعني دافع غريب لأن أتجه إلى نقطة من الأرض مستديرة ، رغماً من أنها لم تكن فيها أية علامة خاصة ، وأمرت بأن يجري الحفر فيها .

وعلى عمق متر لم نعثر على شيء ، وكان الجميع يريدون التوقـــف عن عمل لا جدوى منه .

أما أنا ، فعلى العكس من ذلك ، أصررت على الاستمرار في الحفر .

ولقد تم العثور بعد حفر مسافــــة أخري على رأس عمود روماني ظهر تحته بعد نصف متر ، التابوت .

وكان صندوق الزنك مفتوحاً من أحد جوانبه ، ولكن الهيكل العظمي كان سليماً .

وكانت هناك لوحة محفورة تشير بوضوح إلى اسمه واليوم الذي دفن فيه .

وكانت قد نزعت من أصابعه الخواتم الذهبية التي كان (بيليا) لا يحب تركها أبداً أو التخلي عنها . وكذلك ميدالية ذهبية هي ميدالية الكتيبة الخامسة عشرة الأريترية التي كانت آلة حديدية من آلات الحرب ، والتي كان البطل قد صممها على صورته .

وكان امر اخذ هذه الميدالية من القبر معروفاً من قبل لانها كانت قد اخذت وحملت خصيصاً إلى صفي الدين شقيق ادريس السنوسي .

ولعدم وجود قسيس كاثوليكي قام القسيس القبطي الملحق بالكتيبة التاسعة عشرة الأريترية بإقامة الصلوات الدينية المعتادة على الجثة المجيدة .

وقد نقلت على أكتاف العساكر الأريتريين من جنود الكتيبة الخامسة عشــرة .

وهكذا تم استرداد رفات شيزاري بيليا واحتفل بتمجيده . واخذ طريقه إلى مدينة طرابلس حيث يثوي في الوقت الحاضر تحت النصب التذكاري المقام لشهداء الحرب .

كانت هذه هي نهاية « شيزاري بيليا » حامل الميدالية الذهبية .

ولقد كتب عنه الكولونيل الكفاليري (اسبريموبيلجاتي) ، الذي كان في ذلك الوقت يوزباشياً في الكتيبة الخامسة عشرة ، بحب وإعجـــاب لا نهاية لهما ما يأتي :

« شيزاري بيليا » . إن هذا الاسم كان أشبه شيء برمز . فقد كان رجلاً وجندياً ، وكان يجمع فضائل ممتازة كان من شأنها أن ترفعه وتجعل منه مثلاً للجنس الإيطالي يجب الاقتداء به . وكانت له نفس كبيرة وقد ولد محارباً . كما كان له قلب وطني متحمس . وقد أعطى في سبيل عظمة إيطاليا كل ما فيه من همة نبيلة ، وكل قوة كريمة ، كما وهبها نفسه كلها .

كان قائداً وزعيماً بطبعه ، ولو كان قد كتب له أن يعيش في أيام قباطنة الماضي لكان واحداً من كبار الأبطال الممتازين . ولو كان قد عاش في هذا الزمن لكان زعيماً جاريبا لديا . فقد كانت له احياناً حركات « بيكسيو » وروحه وجرأته في القتال . ولكان « غاريبالدي » بروحه الكبيرة قد اختاره بين أعز أبطاله .

لم يكن (بيليا) ليعرف الحدود والموانع . فقد كان يهدم في طريقه كل شيء .

كان يسير مباشرة نحو هدفه ، مرفوع الجبين فخوراً وصارماً له نظرة النسر . كان يسير واثقاً من نفسه ، وكانت إرادته في أن يقهر عدوه حتى النصر .

كان يقول ما يراه ولا يخشى أحداً من الناس . كان رجلاً كاملاً فاضلاً ، ذا اخلاق نقية ، وقلب كريم إلى أبعد حد . كان سحره وعطفه وطيبته غريزية فيه .

كان يعبد جنوده وكان يشيد بأعمالهم وبطولتهم .

كان زعيماً حقيقياً من زعماء الشعب الذي نشأ منه ويفاخر به .

كان الجميع يحبونه كأنه أب لهم .

كان الجميع يتبعونه حيثما سار ، وهم يواجهون ، هادئي البال شامخي الأنوف ،

مختلف الآلام والحرمان والموت .

كانت أية حركة منه تعتبر قانوناً ، ونظرة منه تعتبر جائزة ؛ وكانت كلمته هي نفير الحرب ؛ وكان دائماً يقول : إلى الأمام . الى الامام ، والى الامام دائماً !

كان سحر غاريبالدي يظهر على وجهه .

كانت قلوب عساكره وضباطه الذين كانوا أولاداً له يحبهم ، وينظر اليهم نظرة تعظيم واحترام ،

كانت قلوب كل هؤلاء تخفق بحبه بحرارة وكرم وجرأة وبسالة .

لقد كان يجتذب الجميع إليه ؛ وما كنا لنتوقف قط عن السير و (بيليا) على رأسنا إلى أشد المعارك عنفاً ، في ثبات ، إلى المجد أو إلى الموت .

كانت شجاعته تصل إلى حد الجرأة والتهور . وكان مثله يحفزنا جميعاً على أن نتبعه مندفعين إليه ، حيث كثيراً ما كان يعرض نفسه لأشد الأخطار .

ولقد كان جريئاً في هز مشاعر مرؤوسيه بإخلاص ومحبة . وكان يتحدث إليهم بكرامة عسكرية مقترنة بالحب والمودة . وكان يقول للجميع بأنفة وكبرياء « إن الرصاصة التي تصيبني لم تصنع بعد كما انني حاذق ، ولا يستطيع أحد أن يوقع بي » .

على ان نبوءته هذه لم تتحقق في يوم ١٨ مايو : ذلك اليوم المنحوس ، وهو في سن نضوجه الكامل . إذ كان يبدو كأنه لم يكبر .

كان لا يخشى كوارث الدهر . وكانت بطولة سني أيام حياته الأولى تتجدد وتزدهر وسط آلام الحياة العسكرية التي كانت تسره ولا يشعر بأي ضجر منها .

كانت له نفس كريمة تنفث الحب ، لم يكن يعرف التشاؤم ولا الشك ولا

التردد في حياته .

كان يؤمن بالخير ، وكان له إيمان صادق لا يتزعزع بالفضيلة الإنسانية.
كان يحتقر الرفاهية المادية ، كما كان يستهين بالخطر أثناء المعركة ، وكان يعمل الخير مـا استطاع إلى ذلك سبيلاً ، في صمت وفي الخفـاء .

كان فوق كل مدح أو ثناء ، لم توجه إليه إهانة إلاّ وغفرها ؛ لم يعمل شيئاً لأحد يبتغي من ورائه المدح .

كان يعرف قيمته الادبية والفكرية والعسكرية حق المعرفة .

كان تواضعه غريزياً وبسيطاً ومحبوباً .

كان ينتظر دائماً في هدوء وطمأنينة الحظ السعيد . وعندما كانت تمر بـه ساعة من الساعات الغبراء كان نور فضيلته ينير له الطريق في أسرع وقت.

وعند ما أصيب بجرح في (سيدي القرباع) قام بسحب فصائله الباقيـة في نظام بالغ حد الكمال ، وكان الكولونيل (مادلينا) قـد رشحه وهو يموت للترقية لجدارته الحربية . وقد تأخرت الترقية كثيراً ولكنه سكت دائماً .وربما كان يتألم لذلك . ولكنه لم ييأس قط .

أيها الكولونيل الطيب ! بأي قلق شديـد قضيت كل تلك الأيام في الانتظار .

إني لاذكر وأنا في طرابلس في أكتوبر سنة ١٩١٤ وقد وصل إليه في إحدى الليالي خبر الترقية ، فجاءنا منفعلاً وأخذ يقبلنا جميعاً في تواضع وهو مسرور من أنه قد رقي إلى درجة ليفتنانت كولونيل (قائمقام) .

ولقد كنا كلنا فخورين ومسرورين لدرجة الهذيان بأنه قـد تم الاعتراف له أخيراً بهذه الترقية التي استحقها عن جدارة .

وقد قدمنا اليه تذكاراً لهذه الترقية ميدالية ذهبية قبلها بكل سرور وفخر .

وفي حفلة عشاء أقامها لنا جميعاً ، قمت وأنا أرفع كأسي هاتفاً بحياته وأتمنى أن أراه جنرالاً :

إيه يا كولونيل فرقتي البطل !...

ربما كان لا مفر لك من أن تصل إلى أرقى الدرجات ، لأن صوت الوطن العظيم الذي ينادي أكرم أبنائه عند الشدة كان لا بد أن يناديك لنجدته لما يعرفه فيك من بطولة وبسالة وفضائل منقطعة النظير ، لأنه كان يعتمد على ذكاء بطل مثلك . وكنتَ لا بد أن تلبي النداء .

وجرى البحث عن رفات (ماريا بريجنتي) وذهبت المحاولات الأولى أدراج الرياح .

ولكن بعد جهود متواصلة كان يتولاها بإشرافه الليفتنانت كولونيل (بيتزي) ، الذي كان « رائداً » مساعداً لقسطنطين بريجنتي ، أمكن العثور عليها في سنة ١٩٢٤ .

احتلال زليطن ، ٢٣ فبراير ١٩٢٣ .

على أثر احتلال هضبة ترهونة بادرت مختلف القيادات بالقيام بإيجاد تنظيم سياسي وعسكري لهذه المنطقة بالغة الأهمية . فقامت بنزع السلاح من ايدي الأهالي ، الذين بلغ بهم التعب والضعف مبلغاً عظيماً ، فجاءوا زرافات ووحداناً للخضوع والاستسلام .

وعندئذ قامت خدمات الأمن العام في جميع الأراضي التي انتزعت من أيدي كبار زعماء الثوار ، وتخلصت من ظلمهم وجبروتهم .

في تلك الأثناء ، لم تضع حكومة المستعمرات الوقت سدى . فبعد أن أمعنت النظر في الأخبار التي وردت إليها ، والتي جمعت من المراكز الأمامية بالمنطقة

عن ضعف الروح المعنوية لدى الثوار وسقوط هيبتهم ، رأت من المناسب عدم إعطاء أية هدنة للعدو ، وأن تواصل بحزم وعزم عملياتها الحربية في المنطقة الشرقية .

وبعد أن انقضى من الوقت ما يكفي لراحة الجنود والتزود بالمؤن ، صدر في يوم ٢٠ فبراير الأمر ببدء العمليات .

اشتركت في هذه العمليات القوات الآتية :

ألاي بيتساري — ٣٩٠٠ بندقية و ٣٠٠ فارس و ٤ قطع مدفعية .

ألاي جراتزياني — ٣٥٠٠ بندقية و ٣٥٠ فارساً و ٤ قطع مدفعية .

وكانت خطة العمليات تستوحي الفكرة التالية :

بينما يتجه ألاي مسلاتة (بقيادة بيتساري) على وجه السرعة نحو زليطن من الغرب ، على طول خط الخمس — سوق الخميس ، يتجه ألاي الجبل « بقيادة جراتزياني » إلى زليطن من الجنوب عن طريق قصر الداوون — الجفارة — بئر الخوجه — ويقوم بتهديد جانب وأسفل « محلات » الثوار التي تحاول اعتراض زحف ألاي مسلاتة .

وفي فجر يوم ٢١ فبراير تحركت جنود الكولونيل بيتساري . وبعد ساعات قلائل هاجموا بمنتهى الشدة تجمعات العدو الرئيسية التي تبين من الاستكشافات الجوية أنها موجودة في « رأس الحمام » و « رأس القطارة » في وادي « حرمون » .

وفي « الحمام » التي هي مركز يشرف على كل الجهاز الدفاعي عن منظمة « الخمس » كان الثوار منظمين تنظماً قوياً للدفاع بقوات تزيد على ٨٠٠ رجل ، ومعهم مدافع ومتراليوزات وقاذفات القنابل .. الخ ومع ذلك فلم تكن لديهم الإمكانيات الكافية للاستفادة من قدرة هذا الحصن الدفاعية نظراً لأن هجوم قواتنا عليه كان هجوماً مفاجئاً وشديداً .

ولما وجد الثوار أنهم أصبحوا محصورين تركوا بمنتهى السرعة هذا المركز القوي ولاذوا بالفرار متجهين نحو الجنوب والشرق .

وفي غروب ذلك اليوم حاول العدو العودة والقيام بهجوم على قوتنا التي كانت تحتل رأس القطارة ، ولكن هجماتنا المضادة اجبرته على الهرب بأقصى سرعة مرة ثانية .

كان الألاي في هذه الأثناء يزحف نحو الشرق . وفي ساعات ما بعد الظهيرة الأولى وصل إلى « سوق الخميس » من طريق القوافل (الخمس – زليطن) .

أما ألاي الجبل فإنه من جانبه قام بدون أن يلاقي أية عقبة أو أية مقاومة من أي نوع بالزحف من ترهونة ووصل بعد الظهر إلى قصر « الداوون » حيث أمضى الليل طبقاً للخطة الموضوعة .

وفي يوم ٢٢ فبراير استأنف ألاي بيتساري – المتجمع في جبهة عريضة وفي طوابير متعددة – التقـــدم ، ووصل إلى سيدي صالح حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر ، بعد ان هزم الثوار الذين كانوا يعترضون طريقه .

قام ألاي الجبل في الفجر من قصر «الداوون» . وفي مضيق « بئرسميت » هاجمته وحدات كثيفة من وحدات الثوار . ولكن الهجمات المضادة العظيمة التي قامت بها كتائبنا الملونة ، وتدخل القوات الجوية الخاطف في المعركة ، اضطرت العدو إلى ترك مراكزه المنيعة .

وبعد أن استؤنف الزحف وصل ألاي جراتزياني حوالي الساعـــة ٧ مساء إلى قصر القطارة ، واحتله بعد أن أضعف مقاومة العدو ودمرها تدميراً تاماً .

وفي فجر يوم ٢٣ استأنفت جنود ألاي مسلاتة تقدمها نحو الشرق وحطمت مقاومات العدو الأخيرة فى كل مكان ، مما جعل الثوار يلوذون بالفرار بأقصى

سرعة . ودخـــل جنودنا بلدة زليطن حوالي الساعة الثانية والربع من بعد ظهر ذلك اليوم .

أما ألاي الجبل الذي قام في الساعة السابعة من وادي الصياح فإنه تقـــدم بسرعة نحو الشرق دون أن يهتم بتهديدات العدو لجناحيه .

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر احتل مرتفعـــات (ماجر) جنوب شرقي زليطن ليحمي هذه البلدة من أي هجوم يحتمل وقوعـــه من الجنوب .

استؤنف الزحف العـام في الساعات الأولى من يوم ٢٥ ، وكانت العواصـف يشتد هبوبها في كل مكان ولذلك كان الزحف بطيئـاً ومتعباً إلى حـد كبير ، كذلك قامت القوات الجوية بمعجزات في التضحيـــة والبذل والبطولة . وقد أدت واجباتها الأساسية كاملة بعد ان تحملت الكثير من المتاعب والآلام .

وفي ساعات مـــا بعد الظهيرة الأولى وصل ألاي مسلاتة بئر « مسلم » . كما وصل في الوقت نفسه تقريباً ألاي جراتزياني إلى سيدي « علي » .

هكذا تحطمت آخر صخرة من صخور العصيان بعـد زحف استمر يوماً واحداً .

في يوم ٢٦ استؤنف الزحف في أحوال جوية طيبة ، ولم يجد ألاي بيتساري ، الذي كان قد تخلص بعد سيدي صالح من كل مقاومة للعدو ، أية صعوبة ، أو ما يعوق زحفه .

وقد كانت كل المنطقة قد أخضعتها الجنود وأخليت من الثوار .

احتلال مدينة مصراتة ، ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ .

وبعد وقفة قصيرة في واحة (بو روية) استؤنف الزحف بهجمات شديدة في ثقة وإيمان . وكانت نفوس الجنود كلها تتطلع إلى تلك المدينـة التي كانت هي الهدف النهائي للحملة المحظوظة .

ففي الساعة الخامسة والنصف من بعد الظهر كانت جنود الملازم (روجيري) طليعة ألاي (بتساري) تدخل مدينة مصراتة بين الفرح والتهليل العام .

وبعد قليل كانت رايتنا تخفق فوق قلعة المدينة .

وفي نفس ذلك الوقت وصل ألاي جراتزياني بعـــد زحف سريع باهر إلى الهدف المنشود وهو (بير ربود) وعسكر فيه لحمـــاية واحة مصراتة من عودة الثوار المحتملة وهجومهم عليها .

وفي الصباح التالي انتقل إلى (بو روية) ، ولكن جماعات الأعداء تحققت من أن كل مقاومة كان لا جدوى منها ، بعد أن تقطعت أوصالهـــا وضعفت وحاق بها الذل والهوان . ولم يبق لها إلا أن تتراجع بسرعة إلى الخلف ، وتجر معها الأهالي المساكين وتهيم بهم على وجوههم في مناطق (سرت) القاحلة المعروفة بغدرها وعدم إكرامها للضيف .

هكذا سقطت مصراتة ، أكـبر مركز من مراكز نشاط الثوار ودعايتهم السياسية ، ومقر اركان حرب الزعيم رمضان الشتيوي المخادع ، والمقر الرسمي للجمهورية .

وكان الديماغوجي عبد الرحمن عزام قـــد أذاع في مصراتة شروط المستر ولسن ، رئيس الجمهورية الامريكية ، التي تعطي الحق لجميع الشعوب في تقرير مصيرهم . واستغل سلامة نية سكانها الجهلاء وأخذ ينشر برنامجه التضليلي ، الذي

وجد أناساً يصدقونه ويرحبون به ويحبذونه بين جماعات دعاة الهزيمة والضعف من السياسيين ورجال تلك الجماعة التي كانت تعيش في روما في ظل تسامحنا ، وتتخذ لنفسها اسم عصبة الشعوب المظلومة.

وقد امتاز شهرا مارس وأبريل بنشاط عظيم دائم من جانب جيوشنا التي لا تعرف الكلل والتي ضربت شرقاً وغرباً في جميع المناطق المحتلة في غير هوادة ، وذلك لا لتجنب عودة الثوار لمهاجمتها فحسب ، ولكن لمنع الغارات عليها إضراراً بالأهالي الذين خضعوا لنا .

لم تكن دون جدوى تلك الرقابة الشديدة التي فرضناها على العدو ، لأنه كان بالرغم من الهزائم الفادحة التي أصيب بها لا يتردد أو يعدل عن الانتقام والأخذ بالثأر . وذلك لأن الأخبار التي كانت تصل إلينا من معسكر العدو ، والتي كانت تنقلها ألينا بمنتهى الدقة القوات الجوية ، كانت تدل على وجود « محلات » قوية في جنوب مصراتة .

ولذلك قررنا تضييق الخناق عليها ، وكلفنا بذلك قائد منطقة مصراتة الليفتنانت كولونيل (روجيري) .

وفي أول مايو قام ألاي قوامه ١٣٠٠ بندقية ومائتا فارس وقطعتان من المدفعية ، وتحرك من مصراتة نحو (تاورغاء) في مجموعتين : اتجهت أولاهما إلى « فندق الجمل » ، والثانية إلى (بئر جيمي—القدرية) . وبعد اصطدام قصير مع بعض جماعات صغيرة من فرسان العدو وصل الألاي إلى (تاورغاء) بعد الظهر .

وفي يوم ٣ التقت فصائلنا التي اندفعت نحو (سواني المشرك) ببعض وحدات الفرسان التي كان يظن بأنها من كشافة معسكر الثوار ، كما ذكرت ذلك قواتنا الجوية في (بئر تاجوت).

وفي الساعات الأولى من اليوم التالي ، بعد أن تخطى الليفتنانت كولونيل

« روجيري » في « تاورغاء » كل العوائق والعقبات ، اتجــه مباشرة في عزم وإصرار الى الجهة الجنوبية الغربيــة في « بير تاجموت » ومعه الألاي الخفيف المؤلف من الكتيبة السابعة عشرة الأريترية وفرقتان من السواري. وعلى مسافة بضعة كيلو مترات قليلة من تلك الجهــة التقى جنودنا بقوات ضئيلة من قوات العدو (١٠٠٠ من المشاة و ٣٠٠ من الفرسان) بقيــادة سعدون الشتيوي ، شقيق رمضان الشتيوي .

ولقد كان من قلة عدد قوتنا أن جعلت قائــد الثوار يعتقد أنه من السهل عليه إحراز النصر .

ولذلك هاجمنا بشدة لا مثيل لها وببطولة فائقة .

ولقد كانت اللحظة حرجة حقاً ، ولكن للتخلص من هذا الموقف الشاق رأى الماجور « بوزوني » ، الذي كان مع كتيبته السابعة عشرة الأريترية في المقدمة ، ان الحل الوحيد للخروج من هــذا المأزق هو الهجوم مباشرة هجوماً مركزاً .

ولذلك استدعى إلى خط النار فرقته ، وانقض بها نحو العدو بالحراب .

وفي الوقت نفسه قامت فرق السواري بإطلاق النار بشدة على جناحي العدو .

وكان من شأن شدة قوة رجالنا أن انكسر خط العدو في لحظة في عدة مواضع ، وأعمل جنودنا الضرب في العدو بالحراب . وبعد مقاومة يائسة غير مجدية فرّ الثوار إلى كل مكان في غير نظام ، ووقع رئيسهم سعدون الشتيوي قتيــلا في الميدان .

وبعد أن توقف ألاي « روجيري » عدة ساعات في هــذا المكان دخل (تاغوراء) بعد الظهر ، وعاد في يوم ٧ إلى مصراتة .

وكانت هزيمة « بير تاجموت » ، التي شهدت مصرع عدونا اللدود قائــد

قوات مصراتة ، بداية عهد من الهدوء والطمأنينة يسود المنطقة كلها تقريباً .

كانت لا تزال بقية من أفراد أسرة الشتيوي تحمل السلاح ، وكان أكبرهم ، احمد ، وهو رجل يكرس نفسه للتجارة أكثر مما يهتم بحمل السلاح ، والشاب ابراهيم نجل رمضان ، الذي كان يطمع في أن يقلد قسوة أبيه وشجاعتـــه . وقد تولى قيادة رجال مصراتة المسلحين بعد استشهاد «سعدون» ، ولو انه كان لا يزال في العشرين من عمره .

ولكن دوره كان قصيراً . وسرعان ما حلت به النقمة الإلهية كما سنرى .

التنظيم السياسي والعسكري في المنطقة .

على أثر احتلال مدينة مصراتة وواحة زليطن تشكلت قيادة المنطقة الشرقية ، وكان لهـــا نفس الاختصاصات السياسية والعسكرية والإدارية التي كانت قائمـة في الجبل . وكان مقرها الرئيسي في بلدة (الخمس) ثم بعد ذلك في مصراتـة .

وكان لهذه القيادة حق ولاية القضاء في مسلاتة والساحل وزليطن ومصراتة وتاورغاء ، وكانت تبسط نفوذها في المنطقة الجنوبية الشرقية .

أما إقليم ترهونة فقـــد أسندت إدارته ، على العكس من ذلك ، لقيادة منطقة الجبل .

بهذه الطريقة انقسمت طرابلس الداخلية إلى دائرتين واسعتين ، وكانت كل السلطات فيها تتركز في أيدي القواد العسكريين الذين عـــين تحت إدارتهم موظفون مدنيون للشئون الإدارية .

وبذلك كان للقواد أيضاً وظائف وصفات المفوضين « القومسيرين » .

وهكذا تم ، بناءً على رغبة صاحب السعادة السنيور فولبي ، تركيز السلطة العسكرية والسياسية في يد شخص واحـد ، كان يمثل في المستعمرة المثل الأعلى لشكل الحكومة في الأقاليم التي لم تتم تهدئتها .

وبهذه الطريقة أزيلت كل المساوىء التي كان السبب فيهـا في الماضي هو تجزئة الحكومة .

وهكذا أصبح كل شيء مبسطاً ، إذ صار من الممكن مد يد المساعدة بأسرع ما يمكن لإقامة الخدمات المدنية وشمول الأقاليم المختلفة بالحمـاية العسكرية . وكان الغرض الأساسي الدائم الذي يجب الوصول إليـه بإصرار ، هو نزع السـلاح .

وكانت تلي كل ضربة عسكرية في المستعمرة فـترة أولى من فترات نفي السكان ، تتبعها في الحال تدريجـاً حركة خضوع واستسلام ، خاصة إذا كانت المسألة تتعلق بالسكان المستقرين الذين يرتبطون بمصالحهم في البلاد .

أما مسألة البدو الرحل فقـد كانت أكثر صعوبة . فإن هؤلاء يعيشون متنقلين من نقطة لأخرى في هذه الصحراء الشاسعة ، وهم يعتدون ساعـة على بئر وساعة أخرى على بئر أخرى ، ولا يرتبطون بشيء إلا بالمراعي والمـاء .

ولذلك كان الصراع ضد البدو الرحل أصعب بكثير لأنه لا جـدوى من الأعمال التحصينية ، بينما يصعب كثيراً جـداً اللحاق بهم وإبادتهم بالمناورات العسكرية ، بسبب تحركاتهم المستمرة .

ويمكن أخذ البدو إما تدريجياً أو ببطء بامتصاصهم في تنظيماتنا ، أو بتجويعهم بقفل أسواق الشراء في وجوههم .

بهذه الطريقة الثانية يصبح من السهل كثيراً إبقاؤهم تحت رحمتنا إذا لم تكن لدينا حدود يمكن أن يتم التهريب من خلالها في يسر .

ولما لم يكن من الممكن اجتناب ذلك ، كانت تواجهنا مسألة ملاءمة اتخاذ طريقة لاجتذابهم إلينا ، بدلاً من اتخاذهم أعداء لدودين لنا لا يمكن قهرهم .

على أن النقطة الدقيقة هي مسألة الأسلحة ، فإذا كان من الممكن أو من السهل شمول الأهالي المستقرين بحمايتنا ، فإن المسألة ليست كذلك بالنسبة لبدو الرحل الذين لهم الحق في دفاعنا عنهم أكثر من غيرهم بسبب الخصومات والعداوات التي تقوم دائماً بين جماعات من سلالات مختلفة ، وترجع إلى أسباب بعيدة وأحقاد قديمة لا يستطيع أي عمل تحكمي إزالتها والقضاء عليها .

وهذا ما حدث فعلاً بين مجندينا من العرب الرحل (الزنتان) من جهة ، وأولاد بوسيف والمشاشى من جهة أخرى .

فإن العداوة بين الطرفين نشأت بسبب خلاف على وضع اليد على وديان غنية بالمراعي والحبوب ، وقد استمر هذا الخلاف من سنوات وسنوات .

ويحكى أنه منذ ٦٠ سنة مضت – أثناء الحكم التركي – وبسبب تزايد الصراع بين الطرفين ، أرسلت تلك الحكومة إلى بير (تاجمل) « على مقربة من القريات » كتيبة من الجنود النظاميين بقيادة ضابط برتبة صاغ كان عليه أن يقوم بوظيفة « الحكم » ، ولكنه أخذ رشوة من زعماء الزنتان الذين كان قد سلم إليهم أموالاً وأسلحة وذخائر حربية فاستعملوها للهجوم فجأة على أولاد بوسيف والمشاشى وإنزال الهزيمة بهم . و كان هؤلاء الأخيرون مسلحين في ذلك الوقت ببنادق قديمة دون أي سلاح آخر .

من ذلك اليوم تستعر نيران البغضاء في صدورهم كما تزداد لديهم الرغبة الشديدة في الانتقام .

لذلك كان أمام قيادة الجيش مشكلة البدو الرحل الخطيرة و كان يجب عليها القيام بحلها تدريجياً .

ولقد رأينـا فيما مضى كيف أن أهالي المشاشى واولاد بوسيف – بسبب عداوتهم القديمة لأهالي الزنتان – قد قبلوا أن يقوموا بقتالها ، ومن ثم أصبحوا أداة عظيمة الفائدة في أيدينا منذ أول عهد من عهود سيطرتنا على الجبل .

ولسوف نرى فيما بعد مقدار ما كان لهذا العمل السياسي من أثر مفيد في أول أيام عهد تغلغلنا التدريجي ، ثم في السيطرة المباشرة على (منطقة القبائل) .

وعلى أثر عمليات الاحتلال الجديدة التي تمت في تلك الأثنـاء ، والوعود التي بذلناها صراحة بأن كل من يعودون إلى بلادهم ويسلمون أسلحتهم يشملهم العفو وتضمن لهم حياتهم وممتلكاتهم ، بعد ذلك ، عـــاد الأهالي كلهم بالتدريج إلى بلادهم .

وهكذا عادت إلى الجبل بعد احتلال ترهونة جماعات كبيرة من الزنتان وعلى رأسها علي شنطة (المستشار السابق للحكومة ، والذي كان قد حاربنا بعـد ذلك في الجوش والسلامات ويفرن) وسلمت أكثر من ٥٠٠ بندقية .

كان زعماء الثوار يعارضون بكل طريقة ميل الأهـــالي إلى العودة إلى بلادهم والاستسلام .

وقد جاء صفي الدين شخصياً من برقة إلى سرت ، وقام في شهر أبريل سنة ١٩٢٣ بعمل سياسي عسكري نشيط في سبيل إعادة تنظيم المقاومة وإعـــداد العدة للقيام بهجوم مضاد على نطاق واسع .

ولقد كانت خطة الثوار تعتمد على افتراض لم يكن خاطئاً ، وهو أن خط قتالنا البالغ الطول من (تالوت) إلى(مصراتة) دون أن يكون له أي سند من الجهة الجنوبية يسمح له بمقاتلة (محلات) الثوار الزاحفة ، وهـــذا يمكنه من القيام بتطويق المواقع الجبلية ومن توجيه تهديداته لخطوط مواصلاتنا بكل سهـولة .

ولقد اتضح فعلا من وثائق تمت مصادرتها كيف أن صفي الدين قـد أشار

(للمحلات) على طرابلس والعزيزية كأهداف نهائية .

ومن جهة أخرى فإن تنقلات قواتنا لم تكن تتم على وجه الدقة طبقاً للنظام الموضوع لتقوية القوات المتحركة في نقط معينة من نقط احتلالنا ، ولكن قواتنا كانت متفرقة في عدد من الحاميات .

ولم تكن هذه القوات قد أدركت بعد أن الأرض يمكن الاحتفاظ بها بالتحرك من نقطة إلى أخرى من نقط الارتكاز ، وليس بالاقتصار على البقاء فيها دون إبداء أي نشاط في انتظار قيام الخصم بالمبادأة في القتال .

ونظراً لأنه قد جرت العادة على أنه متى احتلت في إفريقيا نقطة ، لا تحتل إلا هذه النقطة ، ولذلك كان من السهل دائماً على تشكيلة من تشكيلات الثوار الخفيفة الجريئة أن تمر إلى جانب هذه النقطة من بعيد أو قريب .

الثوار يستأنفون الهجوم في صيف عام ١٩٢٣ .

حدث فعلا أن قامت بين أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٢٣ « محلات » الثوار بين غريان وترهونة ، وبين ترهونة والقصبات ، وبين القصابات وزليطن ، وبين زليطن ومصراتة ، في وقت واحد بهجمات حربية نحو الشمال ، وانسابت في كل مكان على خطوط مواصلاتنا الرئيسية .

وهكذا نشأ في الخمسة عشر يوماً الثانية من شهر أغسطس موقف حرج قضى بضرورة العمل بحزم لتخفيف ضغط الثوار واستئناف المبادأة في أسرع وقت بالقيام بالعمليات العسكرية في الجهة الجنوبية ، وذلك ورغبة في التنفيس عن احتلالنا .

وضع قائد الجيش بالنيابة (الجنرال بتساري) وقائد منطقة الجبل بالنيابة (الكولونيل ميتزتي) — وقد كان الجنرال ترانتو والجنرال جراتزياني إذ ذاك

في إجازة – خطـــة حربيــة تقضي بأن يقوم ألاي قوي من غريان وينقض على قلب تشكيلات الثوار ، ويتجه نحو جنوب ترهونة والقصبات وزليطن ومصراتــة .

وهكذا يعمل على تحرير الأراضي من ضغط العدو ، الذي كانت قد ازدادت جرأته زيادة كبيرة .

وعند تنفيذ هـــذه الخطة التي جعلت من الضروري انتزاع جميع القوات النظامية المعزولة في غريان ، ساعدنا مساعدة من الدرجـة الأولى ذلك الموقف السياسي العظيم الذي كنا نقفه في الجبل وفي (منطقة القبائل).

وفعلا لم يبق في الأراضي الممتدة من غريان الى نالوت إلا جزء من جماعـة خربيش المساعدة والمسلحون المحليون . بينما كان هناك في الجنوب في « مزدة » اهالي المشاشى الذين كانوا يقاومون إغراءات صفي الدين ، وكانوا يقومون بحراسة الخطوط الأمامية ببقائهم متضامنين مع الحكومة .

وهكذا نشبت معركة شديدة تبودل فيها إطلاق النيران وثبتت صلاحيـة ذلك الجهاز السياسي الذي أنشىء في الغرب بكثير من الصبر والعزم ، رغماً من جميع الانتقادات المغرضة والمتحيزة التي أبداها أناس من غير المختصين .

وقد تولى قيادة الألاي الذي يقوم بهذه العملية الكولونيل (ميتزتي) الذي تحرك في يوم ٩ سبتمبر من غريان متجهـــاً نحو وادي عويضة على ترهونة التي وصل إليهـــا في يوم ١١ بمعاونة حامية هذه البلدة الأخيرة التي كان يقودها الماجور (سنّا) .

وقد شارك في هذه العملية ألاي (مرجينوتي) وألاي (جالينا) في أول الأمر ، وألاي (جراتزياني) فيما بعد ، فضلاً عن ألاي (ميتزتي) .

وفي الساعات الأولى من يوم ١٣ استأنف ألاي ميتزتي الزحف نحو الشرق ، وعلى مقربة من بئر الفرجان (على مسافة بضعـــة كيلومترات شرقي ترهونة) ،

التقى « بمحلات » الثوار الذين كانوا قد تجمعوا على جبهـة عريضة وذلك لمنعهم من التقدم .

وقد هاجمت قواتنا العدو بشجاعتها المعتادة . وبعـد صراع عنيف وعنيد ألزموا العدو بالفرار .

استؤنف الزحف دون تأخـــير ، ووصل الألاي في المساء ، إلى قصر الداوون .

وفي اليوم التالي واصل السير إلى القصبات ، وضرب الثوار من جديد فوق جبل (مسد) .

وبعد ظهر يوم ١٤ سبتمبر وصل ألاي ميتزتي إلى القصبات بعد خمسة أيام من قيامه من غريان .

وفي هذه الأثناء كان ألاي « مرجينوتي » الذي كان آتياً من « زليطن » قد انتزع من إيدي الثوار منطقة جبل القطار .

وبعد أن انضم في ١٥ سبتمبر إلى ألاي ميتزتي واصل معه أخـــيراً تطهير المنطقة الواسعة كلها ، ودخل في « زليطن » في اليوم التالي ، أي في يوم ١٨ .

وفي الوقت ذاته أخذ ألاي « جالينا » في العمل بهمة على تطهير المناطق الواقعـــة أسفل جبل القطار « وادي قصر جفارة ووادي سليمان » وبقي على اتصال بأراضي ترهونة وبالغرب ، وبالجيوش العاملة في جبهة الشرق .

وفي يوم ٢١ سبتمبر استأنف ألاي ميتزتي الزحف للانقضاض من بـــير « الفلاجة » على الثوار الذين كانوا قد تغلغلوا في المنطقة الواقعة جنوبي واحة مصراتة .

وفي الوقت ذاته كان على جنود هذه الحامية أن يهاجموا العدو . ومع هذا فقد تركت « محلات » الثوار في اليوم التـــالي كل فكرة في الهجوم وتخلص

رجالها من الوقوع في الكماشة التي أعـــدت لهم وتقهقروا بمنتهى السرعة نحو الجنوب .

ورغبه في إخلاء كل الإقليم من وحدات الثوار صدر الأمر بالقيام ببعض عمليات تطهيرية في المناطق التالية وهي :

المنطقة الواقعــة بين ترهونة وغريان ، والتي تمتد إلى الجنوب حتى حدود (ورفلة) .

منطقة أراضي ترهونة الشرقية ومسلاتة الجنوبية .

المنطقة الواقعة الى شرق وجنوب زليطن ، والتي تضم المرتفعات المشرفة على الجزء الجنوبي من الواحة .

وكانت الفكرة التي أوحت بهذه العمليات للوصول الى هذا الغرض هي الآتية :

ألايات خفيفة تقوم من قاعدة قصر جفارة ومن زليطن يجب أن تنقض على الخمس وتضرب الجهة الشرقية من جفـارة وكل أراضي الخمس وساحل الخمس – زليطن .

اما في المنطقة الواقعة بين ترهونة وغريان فقد عمل ألاي الجنرال جراتزياني ، الذي بعد أن عــاد من إيطاليا برتبته العسكرية الجديــدة ، تولى قيادة منطقة الجبل .

وبعد أن قام في ٤ أكتوبر من ترهونــة وصل إلى (ويف) في اليوم التالي .

وفي يوم ٦ ، بعد أن صد في اتجاه أراضي (ورفلة) هجمات قامت بها بعض وحدات العدو الصغيرة ، اتجه إلى (بئر الواعر) حيث اتصل بفرقة خربيش التي كانت آتية من جهة غريان – الواعر .

وفي يوم ٧ اكتوبر دخل الألاي مرة ثانية غريان .

وفي الحال اتصل قائده بزعماء (منطقةالقبائل)، احمد العياط ومحمد بن الحاج حسن اللذين كانا قد اجتمعا هناك لهذا الغرض .

وكان هؤلاء قد بقوا على اخلاصهم التام أثناء استئناف الثوار لهجومهم، ولم يستجيبوا لإغراء وتحريض الزعماء الآخرين . ولا لتحريض صفي الدين بذاته .

وبهذه الطريقة استطاعوا المحافظة على بقاء الموقف في الجبل دون تغيير لمصلحتنا .

ولقد كانت النتائج البارزة هي :

– توقف الغارات حول غريان .

– استقرار المواصلات الحرة بين غريان والعزيزية .

– إسترداد خمسة آلاف رأس من الماشية كانت قد أغير عليها قبل بضعة أيام من أهالي غريان، بواسطة رجال راسم كمبار المسلحين .

أما في المناطق الأخرى فإن العمليات قد تمت بين يوم ٦ ويوم ١١ أكتوبر.

وقد أخذ الثوار على غرة في يوم ٦ على المرتفعات الواقعة جنوبي جبل (مسد) .

وفي يوم ٧ انهزموا جنوبي قصر (العقوبية) ولاذوابالفرار نحو (ترغلات) . وقد اصيبوا بهزيمة اخرى فييوم ٧ سبتمبر في (سيدي زلي)في الجنوب الغربي من (زليطن) .

وفي يوم ١٠ تم الاتصال في الخمس بين الألايات الآتية من الجفارة وزليطن . وكانت قد قطعت – دون اطلاق رصاصة واحدة – كل المناطق التي كانت معينة لها .

وبعد ذلك صدر الأمر فوراً بتشديد الخناق على أراضي زليطن وترهونة الجنوبية .

ولهذا الغرض احتل ألاي « جلينا » مرتفعات رأس الأجرد (حوالي ٣٠ كيلو متراً جنوبي زليطن) بعد أن هزم الثوار يوم ١٤ أكتوبر في بئر سيدي سرور حيث تلقى الأمر بالصعود إلى وادي « ماجر » في الجهة الجنوبية الغربية .

وقد تحركت جنودنا في فجر يوم ٢١ اكتوبر . ولما وصلت في الساعات الأولى من بعد الظهر على مقربة من مرتفعات رأس التيس - التي كان الثوار يحتلونها ويحصنونها لحماية عملية إجلاء عائلاتهم وماشيتهم نحو الجنوب ونحو « ترغلات » - بدأوا في القتال في غير تردد .

ولقد كانت مقاومة العدو عنيدة كشأنها دائماً ، كما كان اندفاع جنودنا قوياً ظافراً .

واصل الألاي زحفه حتى وصل في ٢٨ اكتوبر قصور الضراير « ترغلات » وهو مكان وجده خالياً من الثوار الذين كانوا قد انسحبوا أثناء الليل إلى أراضي « ورفلة » .

وفي يوم ٢٣ وصل الى « تمسلة » بعد أن قطع - دون إطلاق رصاصة - كل المنطقة الواقعة جنوبي وجنوبي غربي « ترغلات » . وقد انتقل الألاي من « تمسلة » دون أن يلاقي مقاومة إلى وادي « المعذر » .

وفي يوم ٢٤ اتصل في « وشتاتة » مع ألاي آخر من ألاياتنا الخفيفة (بقيادة « مورامارکو » كان قد قام في اليوم السابق من ترهونة ؛ وكان قد قطع كل المنطقة الجنوبية من هذه الأراضي دون أن يقع عليه أي اعتداء .

ولقد دخل الألايان مجتمعين في ترهونة في اليوم التالي ، أي يوم ٢٥ .

وفي تلك الأيام بالذات تلقى الثوار أيضاً درساً قاسياً .

ففي نهاية العشرة الأيام الأولى من اكتوبر كنا قد استطعنا التأكد بواسطة

قواتنا الجوية من أن وحدات كثيرة من وحدات الثوار كان رجالها قد أعدوا العدة للدفاع على مقربة من فندق الجمل . ولذلك قررنا الهجوم عليهم دون تأخير .

قام ألاي بقيادة الكولونيل « ميتزتي » في يوم ١٣ أكتوبر من مصراتة قاصداً التوجه بسرعة إلى رأس الجبل .

وحوالي الساعة السابعة والنصف تم أول هجوم على وحدة قوية من وحدات العدو كانت طياراتنا قد هاجمتها هجوماً شديداً وألقت عليها القنابل فتقهقرت على عجل إلى موقع آخر. وبعد أن تشتت شمل رجالها بمعاونة القوات الجوية في بئر الكراريم «على مسافة تقرب من ثلاثة كيلو مترات من فندق الجمل » هاجمهم الكولونيل « ميتزتي » في الحال .

وفي بئر الكراريم كان الثوار قد نظموا أنفسهم للدفاع خلف سلسلة من الكثبان الرملية . وكان عددهم يبلغ ١٢٠٠ من المشاة و ٢٠٠ من الفرسان ، ومن بينهم كثير من المجندين ومعهم مدافع ومتراليوزات . وقد تمت تقوية خط النار بسلسلتين من الخنادق .

وكان هجوم جنودنا في وقت واحد من الأمام ومن الجنب، وكان غرض الكولونيل « ميتزتي » من تطويق جناح العدو الأيسر منع أي مدد عسكري يأتيه من سيدي عبد الرؤوف ، وهو مكان كان فيه جمع كبير من الرجال المسلحين ، بقيادة « عمر بو دبوس » أحد اعيان مصراتة ، الذي كان مستشاراً للحكومة في الوقت الذي كانت فيه معاهدة خلّة الزيتونة المشئومة سارية المفعول .

قامت الكتيبة السابعة عشرة الأريترية تعاونها البطارية الثالثة الليبية وبعض فصائل من كتائب أخرى بالتوغل في قلب خط دفاع العدو ، وبذلك دمر جهاز العدو الدفاعي كله . وقد تحول فرار العدو الى انكسار بفضل تعقب فرساننا له .

وبعد أن توقف ألاي « ميتزتي » ثلاث ساعات في هذا الموقف ، دخل مصراتة الليلة نفسها .

وهكذا بعد أسابيع قليلة أصبح زمام الموقف في قبضة جنودنا .

ولقد سمح الموقف السياسي الباهر في الجبل وفي (منطقة القبائل) بأن تبقى كل المنطقة الجنوبية الغربية هادئة ومستقرة . ومع هذا فقد ظهر في نوفمبر في الجبل الغربي هنا وهناك أن العدو استأنف الهجوم مرة ثانية ، وذلك بأعمال السطو وبثلاث محاولات قامت بها وحدات قوية في أراضي الزنتان ونالوت .

وفي يوم ٢٧ اكتوبر حدث فعلاً أن قامت « محلة » مؤلفة من حوالي ٣٠٠ رجل من بدو الزنتان الرحل بالهجوم على ١٠٠ رجل من جماعة خربيش المساعدة ، كانوا يقومون بحماية البلدة .

وبعد أن هزمها وتعقبها الماجور « جالياني » الذي كان قد قام من جادو مع بعض عناصر أخرى من الألاي ، متجهاً نحو رأس الحسن تقهقرت إلى (منطقة القبائل) بعد أن أصيبت بخسائر فادحة ، وبدون أن تبلغ هدفها وهو إثارة أهالي الزنتان الذين كانوا قد استسلموا .

أما في جهة جبل نالوت فان الزعيم الطوارقي « السلطان حمود » الطاعن في السن وصاحب النفوذ الكبير كان يوجه إلينا تهديداته .

فقد ركز في « سناون » « محلة » قوامها ما يقرب من ٤٠٠ رجل من المسلحين ، معظمهم من الهجانة .

وفي يوم ١٧ نوفمبر هاجم موقعنا في أولاد محمود ، الذي – رغماً من أنه كان يضم عدداً من الفرسان غير النظامين والهجانة أقل بكثير من قوة المهاجمين ، إلا أنه أبدى مقاومة عنيدة وتحمل خسائر فادحة .

وفي يوم ٣ ديسمبر حاولت « المحلة » بأكملها بعد ذلك القيام بهجوم تطويقي

على نالوت نفسها عن طريق وادي « الثلث » فتصدت لها فصائلنا واندفعت في الحال نحوها . وقد تم تطويق هذه « المحلة » وإبادة معظم رجالها .

أما الزعيم الطوارقي السلطان حمود الطاعن في السن الذي اشترك بنصيب كبير في حوادث فزان (سنة ١٩١٥) ، فإنه بعد أن عاد مشيعاً بعار الهزيمة قامت شقيقاته بتعبيره والتنديد به ، ومن ذلك الوقت اختفى من المسرح السياسي والعسكري .

ومن المعلوم فعلاً أنه لا يزال يقوم بين « الطوارق » نوع من ولاية الأم ، مما يجعل للسلطة النسائية نفوذاً كبيراً في القبيلة .

هذا النجاح الباهر الذي أعقبته في الحال عمليات عسكرية قام أنصارنا البدو الرحل من « المشاشى» ضد أهالي «الزنتان» في (منطقة القبائل) كان من شأنه أن يعيد هيبتنا في المنطقة الشرقية ، تلك الهيبة التي قام بتأكيدها جنودنا النظاميون الذين بعد أن عادوا من العمليات الحربية في مصراتة وقدموا معاونتهم الصادقة ، أثبتوا في كل مكان كفاية قواتنا ومقدرتنا العظيمة .

الفصل الخامس

احتلال النقط الأمامية لحماية الجبل

(بني وليد - غدامس - مزدة)

احتلال النقط الأمامية لحماية الجبل

(بني وليد - غدامس - مزدة)

احتلال سرت .

نتيجة للعمليات السابقة كان الثوار بعد طردهم من ساحل الجبل وجوانبه الشرقية ،قد نقلوا معسكراتهم إلى وديان « ميمون » و « سوفجين » وإلى جنوب مصراتة . وقد ساقوا معهم أيضاً أثناء فرارهم أهالي الأقاليم الذين اضطر الثوار إلى تركها تحت ضغطنا .

كانت تقوم من هذه المعسكرات وحدات كبيرة العدد في كل يوم تقريباً للقيام بغارات إضراراً بالأهالي الذين استسلموا للحكومة ، وخاصة في اقليم « مسلاتة » وساحل « زليطن » و « مصراتة » . وكانوا ينجحون في بعض الأحيان في تحقيق أغراضهم . وكثيراً ما كانوا يقعون في ايدي شرطتنا الذين كانوا يقومون في غير هوادة بتطهير الأقاليم التي كان الثوار يقومون في أغلب الأحيان بحركاتهم فيها .

ولم يكن الغرض من هذه الغارات التي يقوم بها الثوار الحصول لأنفسهم على المؤن والمواشي فقط ولكنهم كانوا يريدون بها أيضاً، وبوجه خاص ، إنزال الخوف بالأهالي الذين استسلموا لنا ، والذين كانوا يضطرون في بعض الأحيان

بحكم القوة لأن يتبعوهم الى الداخل . هذا فضلاً عن منع الثوار الذين ينوون الاستسلام من العودة إلى بلادهم .

بعد أن فشلت فشلاً ذريعاً تلك الحركة التي قامت في أغسطس – سبتمبر في الإقليم الشرقي من طرابلس الغرب ، وبعد طرد وحدات الثوار التي حاولت الاستقرار في الإقليم الواقع جنوبي « الزنتان » ثم ضربهم ومتابعتهم على أيدي الاهالي المخلصين لنا بمساعدة الجنود النظاميين في شهر نوفمبر ، اتضح أن تنظيمات الثوار في غاية الاختلال .

كان من الواجب ضرب الثوار ضربة قاضية بحرمانهم من تلك الوسيلة التي كانت لا تزال باقية لهم ، وهي اتصالاتهم بإقليم « ورفلة » .

ولقد كان رئيس هؤلاء الأهالي الأخيرين عبد النبي ابو الخير في الظاهر بعيداً عن عمليات الثوار .

ومع هذا فقد وجد زعماء الثوار ورجالهم المسلحون في أرضه ملاذاً وموارد لهم ، وكان هو أيضاً قد قام شخصياً بإنشاء وتسليح بعض « محلات» كان الغرض منها مجهولاً .

كان في الاتصالات التي تمت بينه وبين سلطاتنا السياسية يحاول كسب الوقت ، وبينما كان يعمل على أن يذيع بين رجاله أنه على اتفاق مع الحكومة وفي مفاوضات معها ، كانت نيته لا يستطيع أحد إدراكها ولا يعرفها حتى ولا أخلص خلصائه .

كان الغرض من العمليات التي نزمع إجراءها هو تصفية الموقف في «ورفلة» باجتذاب أهاليه إلى معسكرنا وتوسيع دائرة احتلالنا في أراضيهم ، وإيقاع الاختلال في وحدات الثوار الباقية وقطع اتصالاتها مع« ورفلة » وتسهيل عودة الثائرين الراغبين في العيش في هدوء وسلام .

ولقد علمتنا تجارب الماضي أن أحسن المناورات العسكرية التي تؤتي أطيب

الثمرات ضد الثوار هي التي تتم بعـدد كبير من مجموعات في فصائل الأسلحة الثلاثة التي تتحرك من طرق ومسالك رئيسية مباشرة ، والتي تتركز كلها على الهدف المنشود .

ومن الأصوب كثيراً أن يجمع الهجوم بين التكتيك الحربي وعنصر المباغتة والتطويق كما حدث في حالتنا هذه ، وذلك لمنع العدو من التسرب إلى الجنوب ، ثم إجباره على الاستسلام وتسليم السلاح .

ولقد كان الهدف النهائي هو بلدة بني وليد عاصمـــة إقليم « ورفلة » ومقر عبد النبي ، وهي مركز عظيم الأهمية لالتقاء طرق القوافل وكان قد عسكر حولها أكبر عدد من القوات التي كان من الممكن أن يوجههـــا عبد النبي ضدنا متى لزم الأمر .

ولقد وضعت الخطة في أكتوبر سنة ١٩٢٣ على النحو التالي :

يقوم ألايان بالهجوم في وقت واحد . أحدهما من مصراتة ، ويخترق الإقليم الشرقي من طرابلس الغرب ويخليه من زعماء الثوار الذين يقيمون فيه ، ثم يتجه نحو وادي « نفد » ثم ينعطف على بني وليد من الجهة الجنوبية الشرقية .

ويقوم الثاني من « غريان » عن طريق « مزدة » . وبعـــد ان يصل الى « سوفجين » من منطقـــة « الشميخ » يتجه هو أيضاً نحو بني وليد من الجهة الغربية والجنوبية .

يقول ألاي مساعد بواجب القيام بمظاهرة في بادىء الأمر ، ثم يتجه بعـد ذلك إلى بني وليد من ترهونة .

وهكذا تكون بني وليـد والأراضي الشمالية من « ورفلة » قد عزلت عزلاً تاماً وتم تطويقها .

تقوم فرق صغيرة بالانتشار في «منطقة القبائل» وذلك لإشغال ثوار الغرب ، ولجعلهم يشعرون أننا نسيطر في هذه الجهة أيضاً على الموقف .

وكانت هناك اعتبارات سياسية توحي بتعديل هذه الخطة .

فإن قيادة الجبل قد أوضحت بعد تفكير وإمعان النظر أن طريق غريان – مزدة – وسوفجين العليا لا يصلح بالمرة لسيرجيش مؤلف من كتائب متعددة .

لم يكن من الممكن معرفة ما عسى يكون أثر زحفنا بين أهالي « المشاشى » بهذه القوات من خلال الأراضي التي يحتلونها . ولم يكن من المستبعد أن يرى المشاشى الذين قمنا باستغلالهم حتى هذا الوقت لمقاتلة أهالي « الزنتان » في زحفنا هذا خطراً عليهم ، او يعتقدوا أن المقصود به هو نزع سلاحهم من ايديهم .

وقد يحرمنا مثل هذا الخوف من صداقتهم إن لم يدفعهم إلى الابتعاد عنا . كان هذا هو الاعتبار السياسي الذي ساعد على تعديل الخطة الأولى التي كنا أعددناها للعمليات العسكرية .

ولقد تقرر مع ذلك العدول عن الزحف على مزدة على أن تتركز في ترهونة القوات التي كان من الواجب أن تتحرك من غريان .

وكان الأمر يقتضي أن تسبق الألايين الرئيسيين نحو الجنوب في الوقت المناسب ألايات سريعة وخفيفة لتطهير الإقليم الشمالي من «ورفلة» تطهيراً تاماً، وذلك حتى تذلل صعوبات الطريق بفضل مميزاتها الخاصة، بينما كان من اللازم العمل بشدة وبسرعة في المنقطة الشرقية ضد الثوار المسلحين في منطقة «ورفلة». وكان مسلك عبد النبي الذي كان لا يزال غامضاً يوحي بالإسراع وبالقيام حسب رغبة الحكومة المركزية بعمل كل ما يلزم لإقناع ذلك الزعيم بضرورة الاستسلام دون قيد أو شرط .

وقد تقرر لذلك ما يأتي :

١ – يقوم ألاي خفيف « ألاي الشرق » من مصراتة وهدفه العاجل وادي « ميمون » ؛ وعليه بعد الوصول الى هذا الهدف أن يبعث بوحدات

سريعة الى جميع الاتجاهات المناسبة لمهاجمة الثوار لكي تقطع عليهم طرق الانسحاب ، ولكي ترسل إلى الشاطىء أهالي الإقاليم السواحلية وتبقى مع ذلك على استعداد للاشتراك - متى لزم الأمر - في العمليات العسكرية الموجهة على بني وليد .

٢ - يقف ألاي خفيف آخر «ألاي الجبل» - بعد ان يتجمع في «ترهونة» - موقف الانتظار وتهديد العدو في حدود إقليم « ورفلة » وللتقدم منها بعد ذلك لاحتلال بني وليد بطريقة سلمية وبقوات كبيرة .

٣ - يقوم الألايان مساعدان لتغطية الأراضي المحتلة ولحماية جناح الألايين الرئيسيين. ويجب على الألاي الأول، بعد أن يقوم من «الخمس» أن يتنقل بين وديان «كعام» و « ماجر » لتغطية منطقة «الساحل» و «زليطن» ولتكوين جناح جانبي لألاي الشرق .

كما يجب على الألاي الثاني بعد القيام من غريان بالانتقال على مقربة من حدود « ورفلة » الشمالية الشرقية لتطهير أراضي غريان ولحماية جناح ألاي الجبل . ويكون الألايان على استعداد لمتابعة السير حسب مقتضيات الحوادث .

٤ - يجب أن تتم في الوقت ذاته عمليات حربية ثانوية بواسطة ألاي أصغر من « نالوت » على « سناون » ومن « جادو » نحو « بئر علاق » ومن مزدة تجاه « الطابونية » . وأن يقوم بهذه العملية الأخيرة الجنود غير النظاميين الذين صدوا بنجاح عظيم في شهر نوفمبر محاولات « الزنتان » .

أما الغرض من هذه العمليات الأخيرة فهو :

إشغال الثوار الذين كان من المعلوم أنهم في (منطقة القبائل)، وتطهير المنطقة

ودعوة الأهالي الذين لا يزالون هاربين من المنطقة الغربية إلى العودة اليها .

ونظراً لهذه الواجبات ولطبيعة الاراضي التي يجب قطعها ، ولبعد الأهداف وأهميتها ، تمّ تكوين المجموعات المقاتلة على النحو التالي :

يضم ألاي الشرق بقيادة الكولونيل «ميترتي» الكتيبتين الأريترتين التاسعة والسابعة عشرة والكتيبة الليبية السادسة ، وطوابير الخيالة « السواري » الثاني والثالث والخامس والسادس ، والبطارية الليبية الثالثة (٤ قطع مدفعية من عيار ٦٥) وفرقة « تيزولاتو » غير النظامية وفرقة « جريتي » غير النظامية الملحقة بالخدمات .

ويضم ألاي الجبل بقيادة الجنرال جراتزياني فصيلتين من فرقة « قناصة سردينيا » وفرقة « مونتي فيلينو » والكتيبتين الليبيتين الثانية والخامسة ، والكتيبتين الثانية والثامنة عشرة ، وفرقة « خربيش » النظامية « ٤٠٠ جندي مسلح من المشاة و ١٠٠ من الفرسان » وثلاث فرق من الخيالة « السباهيس » . والبطارية الليبية الثانية « ٤ قطع مدفعية من عيار ٦٥ » الملحقة بالخدمة .

ولقد انقسم هذا الألاي إلى مجموعتين تكونتا على النحو الآتي :

مجموعة « بيلاجاتي » :الكتيبة الليبية الخامسة والكتيبة الثانية الأريترية . وفرقتان من السباهيس، وقسم من البطارية الليبية .

مجموعة الليفتنانت كولونيل « جالينا »: الكتيبة الليبية الثانية والكتيبة الأريترية الثامنة عشرة ، وفرقة من السباهيس ، وقسم من البطارية الليبية.

وكانت فرقة « خربيش » النظامية يتكون منها الاحتياطي التكتيكي لألاي الجبل .

وتضم القوة التي يجب تشكيلها في « الخمس » بقيادة الليفتنانت كولونيل « ماريوتي » الكتيبة الأريترية العشرين وطابور السواري الأول وقسماً من البطارية الليبية .

وتضم القوة التي يجب تشكيلها في غريان بقيادة الماجور « ملطا » الكتيبة الليبية الأولى ونحو مائة من رجال « غريان » المسلحين .

وتضم القوة التي يجب تشكيلها في « جادو » بقيادة الماجور « جاليـاني » فصيلتين من الكتيبة الأريترية السادسة وفصيلة من فرقة « خربيش »النظامية. ورجال « الرياينة » المسلحين .

وتضم القوة التي يجب تشكيلها في « تالوت» بقيادة الماجور « فولبيني» فرقة الهجانة وسريتين من الكتيبة الأريترية السادسة ورجال « تالوت » المسلحين.

قوة الاحتياطي العام تحت تصرف قيادة الجيش ، وقـد تم تشكيلها من الكتيبة الأريترية التاسعة عشرة وطابورين من السواري « وهما الطابور الرابـع والطابور السابـع » .

وكان على القوات الجوية أن تساهم في العمليات بقذف القنابل فضـلاً عن أعمال الاتصال بين مختلف الألايات المشتركة فيالعمليات وفي الأوامر التي تعطى إليها مرة بعد أخرى ، وحسب الظروف .

وقد اشترك في هذه القوات فضلاً عن رجال الطيران الموجودين في طرابلس (الملاحة) و (الخمس) و (مصراتة) قائد الطيران الموجود في ترهونة .

اما المطارات التي كانت بها هذه القوات فهي :

– طرابلس : ٤ طائرات من طراز « كابروني » و ٦ من طراز س. ف. ١.

– « الخمس » : (؟) طائرات من طراز « كابروني » و ٦ من طراز س. ف. ١ .

– مصراتة : ثلاثطائرات س. ف. ١ .

– ترهونة : طائرتان من طراز « كابروني » و ٣ من طراز س. ف. ١ .

اما طائرات مطار طرابلس فإنها فضلاً عن تخصيصها مباشرة للعمليات، فقد

كانت نوعاً من الاحتياطي للمطارات الأخرى .

وكان من المنظور استخدام الطيران على نطاق واسع . نظراً للمسافات بين طرابلس التي كانت القوات تعمل فيها وبين الأماكن الواقعة فيما بين هذه القوات ، وهي أراض غير معروفة وغير واضحة في الخرائط التي في أيدي القيادات والفصائل. وهذه ظروف تعطي أهمية عظمى لخدمات الاتصال بواسطة الطيران .

ويتضح من بحث طريقة تشكيل القوات المحاربة ما يأتي :

أ – تشكيل القوات الخفيفة من الجنود الملونة دون غيرها واتخاذ اجراءات ضرورية للأسباب الآتية :

١ – أقل كمية من لوازم ومهمات الجيوش الوطنية ، مما يخفف متاعب هذه الجيوش في سيرها وفي تموينها .

٢ – الزيادة في خفة ومرونة التشكيلات الأهلية بالنسبة للتشكيلات الوطنية وتوفر اشتراطات ضرورية في الجيوش المخصصة للقيام بهجمات سريعة حاسمة وتتبع العدو بمنتهى السرعة وبالتفافات طويلة لمنعه من الانسحاب أو الوقوف عند آبار المياه .

ب – نسبة كبيرة في قوة الفرسان ، للأسباب الواردة في الفقرة السابقة .

جـ – حصة قليلة من المدفعية ، سواء بالنسبة لعدد المدافع وجملتها « وعلى الأخص بالنسبة للرجال » .

« انظر تشكيل ألاي « فولبيني » أو لجعل الألاى ضعيف الحركة.

د - كمية كبيرة من عربات نقل المؤن ، مع مراعاة أن تكون عربات نقل المؤن في حاجة إلى معدل دابة واحدة لكل ثلاث رجال ، ولو ان احتياجات الجنود الملونة أقل بكثير من احتياجات الجنود البيض .

وترجع قلة نسبة دواب نقل المؤن من جهة إلى قلة موارد البلاد من الماشية التي يجب سحبها خلف الجيوش لنقل ما هو لازم لحياتهـا (بما في ذلك الماء) ، ومن جهة أخرى إلى طبيعة طرق المواصلات التي تجعل الإمدادات صعبة وبطيئة .

وقد انتقلت القوات المخصصة للعمليـــات في أول ديسمبر سنة ١٩٢٣ على النحو التالي :

فصيلة م. ف.س. م. (فرقة المليشيا الفاشستية السردينيـــة) « فسبري » ومعها قسم من مدفعية المتراليوزات	مصراتة
فصيلة م.ف.س. وطلائع قناصة سردينيا	غريان
« « « « مونتي فيلينو	الخمس
الكتيبة الليبية الأولى	غريان
« « الثانية	طرابلس
« « الخامسة	طرابلس
« « السادسة	زليطن
« « الأريترية الثانية	ترهونة
« « « « السادسة (قيادة العزيزية . فصيلتان في نالوت وفصيلة في كل من جـادو والزنتان)	
« « الثامنة	مصراتة
« « التاسعة	«
الكتيبة المختلطة السابعة عشرة	«

الكتيبة المختلطة الثامنة عشرة (طرابلس ، مع بعض فصائل في مواجن دغمان لحماية خط العزيزية)	
« « التاسعة عشرة	طرابلس
« « العشرون	الخمس
طابور السواري الأول	طرابلس
« « الثاني	مصراتة
« « الثالث	«
طابور السواري الرابع	طرابلس
« « الخامس	الخمس
« « السادس	مصراتة
« « السابع	طرابلس
فرقة السباهيس(لحماية طريق قوافل العزيزية – غريان	
فرقة المهجانة	نالوت
البطارية الليبية الأولى	الخمس
« « الثانية	غريان
« « الثالثة	مصراتة
فرقة خربيش النظامية (في حاميات الجبل الغربي والشرقي من	

يفرن إلى جادو)

فرقة « بينسولانو » طرابلس

« الجريتلي (في طريق التشكيل) القصبات

وقد اختيرت الأماكن الآتية بصفة قواعد لتجمعات الجنود وقيامها :

مصراتة	ألاي	ميترتي
ترهونة	«	جراتزياني
غريان	«	ماريوتي
جادو	«	جالياني
نالوت	«	فولبيني

كان تجميع قوات الضباط « مالتا » و « جالياني » و « فولبيني » يتطلب اجراءات ذات صفة محلية لا غير . إذ كانت العناصر التي تتكون منها فيمعظمها موجودة في هذه الجهة .

لقد بدأ تحرك ألاي الشرق قبل بداية العمليات بوقت طويل .

وهكذا كان طابور السواري السادس الذي كنا نجده في أوائل ديسمبر في مصراتة قد رحل في ٣٠ أكتوبر بالطريق العادي من طرابلس إلى الخمس حيث وصل إليها في يوم ٢ نوفمبر ، ورحل عنها في يوم ١٢ ووصل إلى مصراتة في يوم ١٧ نوفمبر بحيث استطاع أيضاً الاشتراك في عملية استكشافية على بئر « تاجموت » ووادي « ميمون » قامت بها قوات تلك المنطقة من يوم ٢٨ نوفمبر حتى يوم ٢ ديسمبر .

أما طابور السواري الأول الذي كان في أوائل ديسمبر في طرابلس ، فإنه سافر منها في يوم ٦ لحراسة قافلة متجهة إلى مصراتة . وقد وقف في « الخمس »

نظراً لأنه كان مخصصاً ليكون جزءاً من ألاي « ماريوتي » . وقد حل محله في حراسة القافلة الطابور السواري الخامس الذي كان يجب أن يكون جزءاً من ألاي الشرق حسب توزيع القوات .

أما فصيلة « بيتسولاتو » فإنها انتقلت من القصبات إلى مصراتة في النصف الاول من شهر ديسمبر ، وأخذت في تطهير المنطقة كلها أثناء سيرها .

كذلك نقلت فصيلة « الجريتلي » إلى مصراتة بطريق البحر .

وقد تمّ ضم الكتيبة السادسة إلى من تبقى من ألاي « ميتزتي » أثناء الزحف .

وأما الحركات التي كانت ترمي إلى تجمع ألاي الجبل ، فإنها على العكس من ذلك كانت تتوقف على الموقف السياسي الذي كان آخذاً في التحسن في «ورفلة» . ولذلك لم يتم تنفيذها إلا في الأيام التي سبقت العمليات .

وهكذا كان الحال بالنسبة لألاي « خربيش » فإنه جاء من حاميات الجبل الشرقي والجبل الغربي حيث تركز في العزيزية في يوم ١٢ ديسمبر ووصل إلى ترهونة في يوم ١٤ .

وقد انتقلت البطارية الليبية الثانية وفصيلة م.ف.س.من « الميليشيا الفاشستية السردينية » في أيام ١٢ و ١٣ و ١٤ من « غريان » إلى « ترهونة » .

وفي نفس يوم ١٤ انتقلت إلى ترهونة فرق السباهيس الثلاث التي حل محلها ثلاث فرق من فرق الضبطية السواري كانت تعمل في حراسة طريق قوافل العزيزية — غريان .

كما سافرت الكتيبة الثامنة عشرة المختلطة والكتيبتان الليبيتان الثانية والخامسة المخصصتان للانضمام لألاي الجبل — من طرابلس في يوم ١٢ ووصلت في يوم ١٤ إلى ترهونة .

أما فصائل الكتيبة الثامنة عشرة التي سبق انتقالها إلى « مواجن دغمان » لحماية طريق القوافل، فقد حلت محلها فصيلة من فصائل الكتيبة التاسعة عشرة الأريترية .

وقد وصلت القافــــلة في مساء يوم ١٩ أيضاً إلى ترهونة بعد أن حملت من العزيزية تموينات الزحف الكافية للألاي بأكمله .

وفي يوم ١٠ ديسمبر أصدرت قيادة الجيش الأمر بالعمليات العسكرية . ونتيجة لذلك :

أ – **جيش الشرق** : نظراً للتعليمات الصادرة من قيادة الجيوش اقترح قائد جيش الشرق الالتفاف بحركة واسعة حول الأراضي التي كان يعسكر فيها الثوار . وبذلك وصل من الجنوب إلى قلب هذه الأراضى .

ولقد كان يرمي بذلك إلى الاندفاع إلى جنوب المخيمات الموجودة في جنوب « زمزم » ويدور حول وادي « نفذ » متجهاً نحو الجنوب .

ولقد كون هدا الجيش ثلاث ألايات تتألف على النحو التالي :

الألاي الأول : قيادة الجيش –

الكتيبة الأريترية الثامنة عشرة (بدون قسم المترااليوزات)

« « التاسعة

طوابير السواري الثاني والثالث والسادس .

فصيلة بيتسولاتي .

فصيلة « الجريتلي ».

محطة اللاسلكي .

الألاي الثاني : الكتيبة المختلطة السابعة عشرة .

البطارية الليبية الثالثة .

قسم المتراليوزات التابع للكتيبة الأريترية الثامنة .

محطة اللاسلكي .

الألاي الثالث : الكتيبة الليبية السادسة .

قوات السواري التابعة للطابور الخامس .

وكان يتحتم على الألاي الأول أن يسلك الطريق الآتي :

يوم ١٥	مصراتة – فندق الجبل	١٩	كيلومتراً
« ١٦	فندق الجبل – بيرتاجموت	٤٥	«
« ١٧	بئر تاجموت – الحشية	٤٠	«
« ١٨	الحشية – سانية مخاسر	٣٠	«
« ١٩	سانية مخاسر – بئر القداحية	١٢	«
« ٢٠	راحة		

وكان على الألاي الثاني أن يقوم في يوم ١٦ من مصراتة ويأخذ طريق فندق الجمل – تاورغاء حتى يصل في يوم ١٨ الى « سواني المشرك » ٦٠ كيلومتراً .

وكان يجب على الألاي الثاني أن يقوم في يوم ١٥ من « زليطن » ويأخذ طريق « رأس الأجرد – أم الجرفان – الجبيمي » ويجتمع يوم ١٨ في « سواني المشرك » بالألاي العائد (٩٠ كيلومتراً) . وكان عليه فضلاً عن ذلك أن ينشيء لنفسه في هذه الجهة مستودعاً أمامياً للمؤن ، يقوم بحراسة وبحماية خطوط مواصلات الجيش فصيلة من رجال المتراليوزات التابعة لفرقة م.ف.س.ن. الثانية

(فسبري) ، فضلاً عن فصيلة من فصائل الكتيبة الأريترية الثامنة .

وقد قام الألايان ، الثاني والثالث ، بعد أن استراحـا في « سواني المشرك » بالانتقال في يوم ٢٠ الى « عين النموة » . وفي يوم ٢١ إلى مشارف « نفين» حيث كان في هذه الأثناء قد انتقل إليها أيضاً الألاي الأول .

وبعد أن اجتمع الجيش كله على هذا النحـو ، كان عليه أن يقوم بالزحف في يوم ٢٢ على (نفد) ثم في يوم ٢٣ إلى (السدادة) وفي يوم ٢٤ الى قصر (ميمون) .

ومن بحث هذه التدابير يتضح ما يأتي :

١ ــ كان تقدم عدة ألايات وسيرها في طرق مختلفة يجعل العدو في شك من الاتجاه الذي قد يتخذه هجومنا ، فضلاً عن أن ألاي الليفتنانت كولونيل (ماريوتي) كان ينتقل في يوم ١٥ من الخمس نحو وادي (تويب).

٢ ــ كان على الألاي الأول أن يقطع الطريق الأطول ، وليس هذا فحسب ، بل كان يجب عليه أن يصل إلى بئر « الحشادية » في الوقت المناسب لمنع مرور الثوار والفارين الذين ساقهم هؤلاء الثوار معهم من الطريق الذي قد يحاولون سلوكه إلى سرت للتخلص من ضغط الألايين الآخرين. وكان هذا يقتضي وجود ألاي أكثر خفة وأقدر على القتال .

٣ ــ ضرورة دفع جزء من القوات إلى اتجاه واحد بمنتهى السرعة ، بحيث يقطع طرق الانسحاب على العدو ولإلغاء أو إضعاف قدرته على الحركة، ثم الهجوم عليه من اتجاهات لا يتوقعها .

٤ ــ الأهمية العظمى التي تختص بها آبار المياه لتحديد أماكن وقوف الجيوش ومدة سيرها .

وقد تمت العمليات كما كانت متوقعة .

كان التقدم السريع الذي قام به الألاي بقيـــادة الكولونيل « ميتزتي » المباشرة ، واتجاهه في الزحف ، وتقدم الألايات الأخرى في نفس الوقت ، كل هذا قد ألقى الرعب والذعر في معسكر الأعداء .

بعد أن شتت الألاي الخفيف شمل مؤخرة الحرس الذي تركه ابراهيم الشتيوي زعيم الثوار الشهير ، وصل في يوم ٢٢ إلى ساحة « السـدادة » حيث قام بزحف اضطراري جعلته عاصفة هوجاء ثلجية كانت منذ يومين تمزق وجوه العساكر من أشق الأمور . وتغلب على المقاومة الأخيرة التي أبداهـــا رجال الشتيوي المسلحون .

تم في « السدادة » الاستيـــلاء على ثلاث قطع من المدفعية ، وعلى مستودع صغير للمؤن والأقوات والمهمات من مختلف الأنواع ، وعدة آلاف من رؤوس الماشية .

وفي ٧ أيام قطعت جنود الكولونيل (ميتزتي) في طريق فندق الجمل — بئر تاجموت — الحشية — العوينات — بئر الفاطمية — بئر جربوعـة ما يزيد على ٣٠٠ كيلومتر معظمها في تتبع العدو الهارب أمامهم .

وفي يوم ٢٣ اجتمع كل جيش الشرق في منطقة « السدادة » .

ب — **جيش الجبل** : كانت حركات هذا الجيش كما سبق ذكره متوقفة على المسلك الذي يسلكه عبد النبي بو الخير .

ولقد كان وجود الجيوش في ترهونة وفي المناطق المتقدمة عنها نحو حدود « ورفلة » الشمالية يرمي إلى إجبار عبد النبي على أن يضع حداً لمماطلته التي يريد بها كسب الوقت .

ومن جهة أخرى فإنه لم يكن من الملائم التقدم في الحال نحو الحدود سالفة الذكر بسبب قلة المياه في هذه الجهة .

كان من اللازم تنظيم تحرك هذا الجيش نحو (بني وليـــد) لكي يستطيع الانسجام بعد احتلالها مع حركة جيش الشرق للقيام بتطويق هذه المنطقـــة تطويقاً تاماً .

لذلك فإن جزءاً واحداً منه في يوم ١٦ – وهو اليوم المحـدد للبدء لتحرك جيش الجبل – قد انتقل من ترهونة وانتقل ألاي « جالينا » الى « تنزيوة » .

وقد تركت الأيام التالية حتى يوم ٢٠ تمضي في انتظار معرفة المسلك الذي سوف يتخذه زعيم (ورفلة) . بينما كان ألاي « جالينا » يقوم في « تنزيوة » بحركات استطلاعية نحو الجنوب ونحو الشرق .

وأثناء إحدى هذه الاستطلاعات لوحظ ردم الخزان الكبير الموجـــود في « وشتاتة » ، وكان هذا الخزان هو السبب في اختيار هذا المكان للتوقف فيه كمرحلة من المراحل .

وقد جعلت هذه الملاحظة من اللازم زيادة كمية المياه التي تكفي الجنود لمدة يومين – كما أدت إلى تأخير موعد التحرك الذي كان محـــدداً له يوم ٢٠ مدة يوم آخر .

ولأسباب سياسية تأخرالتحرك لمدة يومين آخرين حتى يمكن وضوح مسلك عبد النبي بو الخير بما فيه الكفاية ، بعد تبادل هذين الخطابين :

إلى : عبد النبي بو الخير

أرسلت إليك خطاباً مني بواسطة الحاج مـــبروك ، مع خطاب من أحمد الفساطوي الموجود معي هنا ، وخطاباً آخر من حسونة باشا تعطيك ضمانـــاً وتأميناً كاملين . وفي حالة ما إذا كانت الخطابات المرسلة مع الحاج مبروك لم تصل إليك فإني أنقل إليك مع هذا نسخة من خطابي ومن خطاب أحمد بك الفساطوي .

وأرسل إليك فضلاً عن ذلك نسخة من منشور أذاعه على الأهالي سعادة الحاكم العام .

وبهذه المناسبة ألفت نظركم أن هذه هي أول مرة يذاع فيها منشور من قبل سعادة الحاكم العام . ومن ذلك تستطيعون أن تدركوا أهميته .

وإني أخطركم فضلاً عن ذلك بأن الجيوش قد تلقت أمراً بالتحرك في أي اتجاه في الأراضي للبحث عن الفارين وإعادتهم لبلادهم .

لذلك كان من الأنسب لكم ولأهـــالي بلدتكم أن تردوا عليّ في أقرب وقت ممكن .

١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣

الجنرال جراتزياني

●

الى الجنرال جراتزياني المحترم

بعد التحية .

قد تسلمت خطابكم وخطاب السيد حسونـة باشا . وكذلك خطاب احمد بك الفساطوي . وقد قرأت هذه الخطابات على زعماء البلاد الذين فهموا الغرض الحقيقي منها .

ولقد صرحوا جميعاً أنهم لم يتصوروا قط أن الحكومة ترمي إلى الذهاب الى « ورفلة » بالقوة . وذلك لأن « ورفلة » كانت منذ إبرام معاهدة الصلح حتى الآن قد بقيت محايدة . ولكن لما كانت القوات تتقدم دون تأخير ، فإن هذا يخالف ما تم الاتفاق عليه في الماضي .

أرجو أن تفضلوا بقبول احترامي وتحياتي ،

١٤ جماد الاول سنة ١٩٢٣

المخلص

عبد النبي بو الخير

●

لذلك تقرر الزحف يوم ٢٣ .

كان نشاط الطيران في تلك الأيام عظيماً ، في رحلات استكشافية فوق أراضي « ورفلة » رغماً عن رداءة الأحوال الجوية .

ولقد ألقيت أثناء هذه الرحلات الجوية منشورات عديدة للحكومة موجهة إلى الأهالي .

وقد أمكن بواسطة الاستطلاعات الجوية التأكد من وجود رجال مسلحين في بني وليد ، التي كانت مسرحاً للعمليات الحربية في الماضي .

كان الأهالي باقين في الوديان القريبة من بني وليد وفي بني وليد نفسها ، وهم منهمكون في أعمالهم الزراعية أو رعي المواشي . ولقد ثبت فيما بعد أن بقاءهم على هذا الشكل كان بأمر عبد النبي لغرض مزدوج ، وهو أن يعمل على خداعنا وتضليلنا عن مقاصده الحقيقية من جهة ، ومن جهة أخرى لكي يحصل من رجاله المسلحين – إذا ما وقع القتال – على أكبر نصيب من المقاومة للدفاع عن عائلاتهم وممتلكاتهم .

جـ – الاي « مريوني » : قام هذا الآلاي كما أشرت من قبل في يوم ١٥ من (الخمس) متجهاً إلى وادي تويب ، حيث بقي طول مدة العمليات يقوم باستطلاعات في دائرته .

د – الاي « ملتا » : انتقل في ١٦ ديسمبر من « غوريان » إلى « بئر غان » حيث بقي في موقف الانتظار .

ه – الاي « جاليانى » : تحرك يوم ١٨ من « جادو » عن طريق « قرارات سيدي رمضان – برقاية الخادم – بروج الميلاد – بئر تلاكشين – قرارات زميطة – رأس الحسن – الزنتان – جادو » .

وقد تبعه في يوم ٢٠ الرباينة المسلحون تحت إمرة اليوزباشي « دي بلوتي » . ووصل في يوم ٢٠ إلى « بئرتلاكشين » بعد أن ضرب كل الخطوط من بير علاق إلى بير الكلاب دون أن يجد أثراً للثوار . وعندئذ بدأ حركة الرجوع ، وعاد إلى « جادو » في يوم ٢٣ دون أن يقع أي حادث .

و – الاي « فولبيني » : تحرك من « نالوت » في يوم ١٨ عن طريق نالوت – سيلاس – سناون – طويل النوار – نالوت . تتبعه على مسافة مسيرة يوم فصيلة من رجال نالوت المسلحين بقيادة اليوزباشي « فيتالي » .

في يوم ٢٠ في « بئر حريز الوطي » بعد زحف ليلي سريع تم على خير الوجوه ، قامت به فصيلة « فيتالي » اتصلت الوحدتان وتقدمتا مجتمعتين نحو « سناون » ابتداء من « بئر حريز » يوم ٢١ في الساعة العاشرة مساء .

وفي « بير سيلاس » الذي وجد خالياً انفصلت عن الألاي فصيلة خفيفة وصلت في فجر يوم ٢٢ أمام « سناون » .

وقد استقبلها الثوار الذين كانوا متخذين لهم مراكز فوق المرتفعات المشرفة على واحة « عين علي » بوابل من الرصاص .

عندئذ نزل الهجانة الذين كانوا يعملون في طلائع الألاي عن جمالهم واشتبكوا مع العدو من الجهة الأمامية ، بينما قامت فصائل الألاي الأريترية بهجوم . كما قام الفرسان كلهم بتطويق واحتي « عين علي » و « سناون » من الجهة الجنوبية .

وبعد هذا الهجوم المزدوج ، تخلى الثوار عن المقاومة ولاذوا بالفرار تتبعهم نيران مدفعية الألاي والأريتريون وفرسان الألاي الذين قتلوا كل من استطاعوا اللحاق بهم .

وقد ابتعد جانب من الثوار المنهزمين نحو الجنوب . ويبدو أن جانباً منهم أيضاً قد لجأ إلى تونس .

تمت عمليات استطلاع حول الجهة ، امتدت إلى جنوب « سنـــاون » حتى « قصر الشاوية » ووجدت أن المنطقة خالية من الثوار .

وعندئذ أخذ الألاي طريق العودة ، ودخل « نالوت » في مساء يوم ٢٥

عملية الطابونية :

رؤي من الأنسب إيقاف هذه العملية مؤقتاً ، وعند هذه النقطة كان الموقف العسكري قد ازداد وضوحاً .

إذ انه بعد احتلال « السدادة » التي كانت سبباً في اختلال كل مقاومة من جانب الثوار في الشرق اختلالاً تاماً ، كانت مجاهرة عبد النبي لنا بالعداء تفرض عدم التمهل في الزحف على « بني وليد » واحتلال اقليم (ورفلة) .

كانت قد حانت اللحظة لتضييق الخناق على (بني وليد) : وذلك هو الحصار الذي كنا قد أعددنا له العدة .

لذلك صدر الأمر بأن تلتقل الألايات الخفيفة السريعة ، بمنتهى السرعة ، كما نصت على ذلك الخطة العسكرية – إلى « سوفجين » لقطع كل علاقاتها بالجنوب. وبعد ذلك تتحرك نحو « بني وليد » من الجهة الجنوبية الغربية . وفي الجهـــة الجنوبية وفي الجنوبية الشرقية ، وهي تقوم بتطهير المنطقـة ؛ على أن يقـوم في تلك الأثنـاء أكبر جانب من القوات بالاتجاه مباشرة نحو « بني وليد » بحيث

يصل إليها في نفس الوقت .

وكان يجب على هذه القوات ألا تهمل في أن تعمل في ذلك الميدان الضيق بالنسبة لجموعها الثقيلة على تطويق الجهة – ذلك التطويق الذي كان يسهله جزئياً زحف المجموعتين .

وكان يجب أن تتم هذه العملية بمنتهى السرعة للأسباب الآتية :

١ – عدم إعطاء الوقت لثوار « ورفلة » للانسحاب ، ولكن يجب إجبارهم على قبول الدخول في المعركة .

٢ – منع خروج الأهالي .

٣ – عدم إعطاء الدليل على أقل تردد من جانبنا .

٤ – عزل الزعيم عبد النبي ، الذي استطاع دون أن يزعجه أحد إبقاء سيطرته على « ورفلة » . إذ أنه إذا ما انهزم ، فمن المحتمل كثيراً ألا يتبعه معظم الأهالي .

فيما يختص بإمداد جيش الشرق بالمياه اللازمة ، كان من اللازم الوصول في أقرب وقت ممكن إلى آبار بني وليد ، إذ لا توجد بين « السدادة » و « بني وليد » أماكن أخرى يمكن أخذ هذه المادة الثمينة منها .

وكذلك ، فإنه رغماً من المساحات الواسعة التي كانت تحت أيدينا كان لا بد لنا أن نحتاج بعد بضعة أيام الأقوات والمؤن اللازمة لجيش الشرق . ولما كان هذا الجيش قد ابتعد كثيراً عن قواعده ، بينما كان منظوراً أن يكون في استطاعته الحصول على تمويناته بسهولة وبأقل جهد من « بني وليد » ، فقد كان من اللازم العمل على وصول قافلة المهمات وسيارات النقل – التي كانب موجودة من قبل في « ترهونة » في انتظار تعبئتها – إلى « بني وليد » .

لهذا السبب صدر الأمر بالتقدم بسرعة وبحزم نحو عاصمة « ورفلة » وبعدم إعارة أي اهتمام لوحدات الثوار الضئيلة التي قد تكون لا تزال في وادي « ميمون » .

وكانت الأوامر والتعليمات التي أعطيت كما يأتي :

١ – **إلى جيش الجبل** : يزحف إلى الامام في يوم ٢٣ ، ويواصل السير في يوم ٢٤ ، ويتجه في يومي ٢٥ و٢٦ الى « بني وليد » . وكان في استطاعته أن يستخدم أيضاً في حركة التطويق الكتيبة الليبية الأولى ، التي كانت قد انتقلت بكامل قوتها إلى « بئر غان » لحماية أراضي « غريان » مباشرة . وقد أرسلت بدلاً عنها من طرابلس فصيلة من الكتيبة الأريترية التاسعة عشرة ، بينما كان كافياً لتغطية تلك الأراضي رجال « المشاشى » الذين انتقلوا إلى « مزدة » .

٢ – **إلى جيش الشرق** : يقوم في يومي ٢٥ و٢٦ نحو « بني وليد » .

وكانت قيادة كلا الجيشين قد أسندت في منتصف ليلة ٢٤ إلى الجنرال جراتزياني .

وقد أعطيت التوصيات اللازمة بأن توسع الجيوش الزاحفة تدريجياً جبهتها نحو الجنوب ، وبأن تفصل في ذلك الاتجاه بعض فصائل خفيفة للقيام بمحاصرة أراضي « بني وليد » من الجهة الجنوبية ، وذلك لمنع فرار الرجال المسلحين وخروج السكان .

وقد تلت هذه التدابير والتعليمات تدابير أخرى للتنبيه إلى ضرورة عمل الحصار على نطاق واسع للتوصل لإكمال عزل إقليم « ورفلة » .

لذلك صدر الأمر الى الجانب الأكبر من القوات بفصل بعض الألايات الخفيفة للقيام بحركتها في أقل وقت ممكن للوصول إلى نتائج أكثر فائدة لنا ، على أن تكون هذه الحركات مستقلة عن الحركات التي سبقت الإشارة اليها .

تتجه فصيلة ألاي « ميتزتي » مباشرة نحو « سوفجين » و « بير فجني » و « الشميخ » لسد طرق القوافل المؤدية من بني وليد إلى الجنوب . بينما تقوم فصيلة من جيش الجبل بعد أن تلتف من ساحة « بير نافات » . وبعد ان تتصل بالفصيلة السابقة عند (الشميخ) لسد الطريق التي تؤدي من « بني وليد » نحو الجنوب الغربي .

ولم يكن هناك مجال للقلق أو الخوف من هجمات يحتمل أن تقوم بها قوات متفوقة في العدد على مثل تلك الألايات الخفيفة ، نظراً لان انسحاب الثوار تحت ضغط قواتنا الكبيرة قد لا يتم في اتجاه واحد ولا من طريق واحد .

ونتيجة لمثل هذه التدابير والتعليمات تركز جيش الجبل في يوم ٢٣ في (تنزيوة) وواصل سيره في يوم ٢٤ إلى (وشتاتة) . وكنا قد ألقينا من الطائرات في يوم ٢٣ منشوراً وخطابات تدعو الثوار إلى الاستسلام بحيث يستطيع الاهالي أيضاً الإحاطة علماً بها .

وهذا هو المنشور :

إلى جميع رؤساء وأهالي « ورفلة » !

لقد عرفتكم الحكومة بكل الطرق بواسطة عبد النبي نياتها السلمية نحو أهالي ورؤساء « ورفلة » ، وأعطت الجميع باسم الحاكم العام وبضمانة حسونة باشا وأحمد الفساطوي الأمان على حياتكم وأملاككم .

فإذا اضطررتم الاهالي بعد كل ذلك الى الحرب فإن الدم سيقع على رؤوسكم وتكونون قد ارتكبتم أكبر خطأ وأعظم خيانة نحو أهاليكم وعائلاتكم .

يا رؤساء وأهالي « ورفلة » !

لا تقاتلوا ؛ وتعالوا وأنتم واثقون بالحكومة التي سوف تفكر في منحكم كافة الوسائل للدفاع عن أراضيكم الواسعة ، وستمنح امتيازات خاصة لأهالي « ورفلة »

الذين سيجدون بهذه الطريقة الازدهار والنجاح .

اتركوا من يريدون جرّكم إلى الشر واستمعوا لأقوالي !

جنرال جراتزياني

●

ولقد تسلمت جميع القوات ، بما فيها ألاي « ميتزتي » ، أوامر مشددة بأنه في حالة ما إذا عاد هذا الزعيم إلى صوابه فلن ترتكب أعمال القسوة والأخذ بالثأر إلا إذا قضت الضرورة بذلك ، وهذا لعدم إلقاء الرعب في قلوب الأهالي .

وكذلك صدرت الأوامر المشددة إلى الطيران بعدم إلقاء القنابل على أراضي (ورفلة) إلا متى طلب ذلك منه القواد بواسطة الإشارات الخاصة « ادخلوا المعركة » .

ولقد شكل جيش « ميتزتي » فرقة خاصة سريعة بقيادة الليفتنانت كولونيل « مرجينوتي » لتطويق العدو من الجنوب .

لم يكن جيش الجبل في حاجة لتشكيل فصائل خاصة ، إذ كان في استطاعته استخدام فصيلة (مالتا) - التي كانت موجودة إذ ذاك في « بئر غان » تعززها قوة من المسلحين النظاميين لكي تلحق بقوة مؤلفة من ٢٠٠ فارس و ١٠٠٠ من المشاة تقريباً .

وسوف نتكلم عن هذه الفصيلة فيما بعد بالتفصيل .

فقد حددت لها قيادة جيش الجبل طريق « بئر غان » — « مقلب الماء » — « بئرتارسين » — « بئر تنيناي » — « الشميخ » (١٥٠ كيلومتراً تقريباً) . كان عليها أن تصل الى الشميخ في يوم ٢٨ ومنها تصعد إلى « بني وليد » بعد أن تتصل بقوات الألاي الخفيف الآتية من الشرق .

وفي يوم ٢٥ بدأت فصائل « مالتا » و «مرجينوتي » زحفها .

ومع كل ذلك – فإنه لتجنب ضغط قوات « ميتزتي» و « جراتزياني » – دفع أولئك المسلحين واولئك الاهالي الذين كانوا يريدون البقاء في اماكنهم الى الجنوب. كان من اللازم قبل ظهور هذا الضغط معرفة أثر عمل الألاي الخفيف في أراضي « بني وليد » .

ولما كانت هذه الألايات يتحتم عليها سلوك طرق طويلة جداً لا يمكن أن تسير فيها الجيوش الضخمة ، فإن تحركات هـــذه الجيوش الأخيرة تأخرت ٢٤ ساعة بحيث وصلت إلى « بني وليد » في يوم ٢٧ بدلاً من يوم ٢٦ .

ولما كانت المسافة بين « بني وليد » و « الشميخ » هي مرحلة (٤٠ كيلو متراً تقريباً) ، فإن الأهالي والجنود المتقهقرين من هذه الجهـــة كانوا يصلون الى مرتفعات المرحلة الثانية عندما تكون فصائلنا التي تقوم بالتطويق قد جاءت لتجد نفسها في حالة تسمح لها بسد طرق الانسحاب في وجوههم .

ومن الطبيعي أنه لم يكن المقصود هو عـدم قفل الطرق المؤدية من « بني وليد » الى الجنوب ، والجنـوب الشرقي والجنوب الغربي في وجوههم . ولكن هدفنا كان اشعار الثوار وأهالي ، « ورفلة » بأن كل طريق لفرارهم كان مغلقاً .

ورغبة في إذاعة مثل هذا الشعور أُلقيت في يوم ٢٦ منشورات من الطائرات تعلن وصول الجيوش الإيطالية من جميع الجهات .

ولقد نجحت مناورة التطويق نجاحاً تاماً ، وكانت لها نتائج باهرة . حتى انه رغماً من أهمية الدوافع التي كانت تقضي بسرعـة الزحف على بني وليد ، فقد رئي من الأفضل التوقف ٢٤ ساعة عن الزحف .

بقيت قوات « ميتزتي » يوم ٢٥ خلافاً للأوامر السالفة الذكر دون حركة في إقليم « السدادة » .

ووقفت قوات الجنرال (جراتزياني) في « قرارة دربوك » .

ورغبة في مواجهة استهلاك كميات كبيرة من الماء الذي كان يستلزمه وقوف هذه القوات مدة يوم ، رأى قائد هذه القوات ارجاع جانب من القافلة الى الوراء في الليل لإحضار كميات من الماء من آبار « تنزيوة » . كما أمر بأن تلحق به السيارات حاملات المياه التي كانت على استعداد في « ترهونة ».

وبعد أن قامت هذه السيارات بتزويد القوات بالماء، عادت من حيث أتت .

وقد استؤنف الزحف العام في يوم ٢٦ .

ونظراً لدقة الموقف ولإيجاد الانسجام بين جميع الألايات ، كان من اللازم فرض اتصالات مستمرة وتبادل الأخبار بين هذه الألايات . الأمر الذي لم يكن من الممكن عمله إلا بواسطة الطيارات نظراً لبعد المسافات في أراضٍ معادية ، وبسبب عدم وجود المواصلات ونقصها نقصاً تاماً .

ولذلك صدرت الأوامر إلى القوات الجوية بالمساهمة بكل الوسائل في هذا الاتصال .

كان أمام قائد قوات الجبل الذي كان يعسكر في « قرارة دربوك » طريق وادي « دينار » الذي كان يخترقه طريق السيارات في سنة ١٩١٥ – او طريق قصر « غلبون » الذي يتجه أولاً إلى الجهة الجنوبية الغربية، ثم ينحرف إلى الغرب، ومن ثم إلى مساكن « بني وليد » عن طريق وادي « مقراوة » .

وكان كلا الطرفين مجهولين ولم يكن في مقدور الخريطة الجغرافية البسيطة التي من مقاس ١ / ٤٠٠,٠٠٠ التي كانت هي الوحيدة الموجودة تحت تصرف المستعمرة – أن تعطي بأي حال من الأحوال فكرة تقريبية عن الأرض التي يجب السير فيها .

وكانت إحدى الصعوبات الكبرى التي اعترضت قائد الألاي الذي يزحف

على هدف معين هي اختيار الطريق عندمـــا لا يكون في استطاعة الخرائط الجغرافية الإرشاد .

وعلى ذلك فإن الإنسان بهذه الطريقة يسير نحو المجهول ، لأن أي خطـأ في اختيار الاتجاه قد يكون فيه ضرر كبير . ذلك لأن مضيقاً صعباً يسد الطريق الى مكان المياه ويحميه العدو الموجود في مواقـــع ملائمة قد يكون مؤدياً للهزيمة .

كما أن الألاي الذي يتحرك في المنطقة الصحراوية خاصة ، يصبح أشبه شيء بسفينة في أعالي البحار . وتتوقف حياته على تنظيمه الخاص وحـــده ، ذلك الذي يضمن له المؤن والأقوات والماء بصفة خاصة . وهذا عندما يعلم أنـــه لا يستطيـع العثور على آبار صالحة .

وبذلك يمكن القول بأن الدفاع عن الجيش يصبح هو الهدف الرئيسي .

وإن أية غلطة في تقرير قيمة الأرض ، أو في حساب المصادر المائية قد يكون معناها أن آلة من آلات الحرب الكثيرة قد تتفتت في لحظة واحدة .

لهذه الأسباب كان النجاح في عمليـــة استعمارية يتوقف قبل كل شيء على الاستعداد الكامل وعلى تنظيم المعدات والوسائل ، فضـلاً عن حسن اختيار اتجاه السير .

وعند ما يجهل الإنسان الأراضي التي يسير فيها، يجب عليه أن يبذل جهوده لمعرفة طبيعتها ، وذلك بسؤال الأهالي الذين سبق لهم أن ساروا فيهـــا ، أو يعرفونها ، لأنهم ولدوا فيها . وليس من السهل النجاح في ذلك . اذ يجب التقدم في السير حتى يصل الى تكوين فكرة تقريبية عنها . وعلى أساس هذه العناصر يكون من الواجب عليه اتخاذ القرار المناسب .

وفي كثير من المرات ، يقدم الوطنيون — عند سوآلهم — معلومات خاطئة للتضليل . فيحدث ذلك شكاً يزيد في عذاب الإنسان وارتباكه .

لذلك يجب الاحتراس من الوقوع في هذا الخطأ ، ويجب التفكير بحكمة في اختيار الرجال الذين يوثق بهم .

ومن أهم عوامل النجاح في الحروب الاستعمارية « المرشدون المأمونون» وإلا فإنهم إذا كانوا كاذبين يتسببون في الدمار التام .

وهناك عوامل أخرى من عوامل النجاح يجب اتباعها دائماً ، هي العمل على خداع العدو ومباغتته .

وهذه العوامل التي لها وزنها وأثرها في الحروب وفي العمليات الحربية عامة ، تساعد على أعظم درجة من درجات النجاح في العمليات الاستعمارية .

ولقد كان هناك ضمن حاشية قيادة جيش الجبل عبدالله بن قطنش ،وهو رجل متقدم في السن شديد الإخلاص من أهالي« ورفلة » . وكان « أمباشي » سابق في الكتيبة الليبية الثانية (من رجال « بريجنتي » الزرق) وكنا نتخذ منه مرشداً لنا .

ولقد اوضح للقائد كيف ان طريق وادي « دينار » ، الذي من الممكن أن يبدو أنه من أسهل الطرق ، كان على العكس من ذلك طريقاً خادعاً للغاية . لأنه من كلا الجانبين تحيط به النتوءات الوعرة التي قد يستعملها العدو على أحسن وجه لمباغتتنا وللدفاع عن نفسه .

وفضلاً عن ذلك فقد كان من المعلوم انه كان يقف على مدخل وادي دينار الألاي لمنعه من وضع يده على الآبار .

كان عبد النبي أبو الخير يريد أن يطلق على وادي « بني وليد » الذي يحمي مداخل البلدة اسم « دردنيل طرابلس الغرب ».

ولما كانت لديه قوة قوامها أربعة آلاف بندقية تقريباً ، فقد كان متأكداً كل التأكد من أنه يستطيع إنزال الهزيمة بجنود الحكومة بتجديد مأساة العطش التي كان ضحيتها رمضان الشتيوي .

لذلك كان اختيار طريق « قصر غلبون » الدائري قد يحدث مباغتة العدو وإجباره على تغيير مراكز تجمعاته .

ومع هذا فإنه لإيهام العدو بأننا نريد السير في طريق وادي «دينار» الصالح لسير السيارات الكبيرة ، أمرنا بجعل الوسائل الآلية تتقدم في مساء ٢٥ نحو مدخل هذا الوادي . ولما سمعتها جماعات العدو تأكدت أن الألاي سوف يسير في هذا الاتجاه .

ومع هذا فقد انتقل المعسكر فجأة في صباح يوم ٢٦ واتجه الألاي بزحف سريع نحو قصر « غلبون » فوصل إليه في المساء دون أن يقع أي حادث ، وعسكر على مقربة منه وعلى مسافة ١٢ كيلو متراً تقريباً من « بني وليد » .

وقد قضى الليلة بأكملها دون أن يزعجه أحد . ولم تستطع محطة اللاسلكي الخاصة بجيش الجبل ايجاد أي اتصال مباشر بمحطة جيش الشرق الذي كان من المعتقد أنه في قصر ميمون .

وفي الواقع فإن قوات «ميتزتي» ، بعد ان قامت في الساعة السادسة والنصف من « السدادة » اتجهت أولاً إلى جبل « قطار » ، ومن هناك نزلت بطريق « تمسكة » وطريق «ميمون» ثم اتجهت نحو طريق القوافل العامرية عن طريق قصر « ميمون » .

وكان الزحف غاية في الصعوبة وشاقاً بسبب طول الطريق ووعورة الأرض ، ولكن القوات بعد أن تغلبت على مقاومة عنيفة من جانب العدو وصلت بأكملها إلى قصر « ميمون » في المساء .

ولقد استسلم بعض الاهالي الوطنيين الذين لاقتهم هذه القوات وسلموا أسلحتهم .

ومع هذا فإن الكولونيل (ميتزتي) قائد هـــذه القوات رأى من الأنسب – سواء بسبب الأخبار المتتالية عن قوة الثوار المسلحين الموجودين حول بني وليد، أو لاعتبارات تتصل بمسألة المساكن –، أن يذهب إلى (بني وليد) بأعظم جانب من قواته – التي كانت قد اصبحت مقصورة على كتيبة كانت تركت لحماية القافلة في (السدادة) ؛ وأمر فصيلة (مرجينوتي) بأن تصل هي الأخرى إلى قصر « ميمون » عن طريق القواقل في (بئر تالة) .

ونزولاً على هذا الأمر ، انضم الليفتنانت كولونيل (مرجينوتي) بالقوات الرئيسية في نفس الليلة بعد ان اخترق ممر (القطار) الضيـــق الذي كان يحتله ثوار (زليطن) و (الزاوية) الذين كان من السهل أن تتغلب عليهم الكتيبــة الليبية السادسة وقوات (بيتسولاتو) (التي كانت ضمن الفصيلة) .

ولمحاولة الحصول على بعض الأخبار عن حالة العدو وموقفه الحقيقي ، أرسل قائد جيش الجبل في ليلة ٢٧ الى الأمام دورية استطلاعية بقيادة الأمباشي السابق عبدالله بن قطنش ، لم تعد بعد ذلك.

ولكن قطنش عندما وقع في الأسر أخذ إلى حيث يوجـد الزعيم عبد النبي واستطاع بمهارة ان يخفي عنه حقيقة اتجاهنا في الزحف .

وكان حقد عبد النبي على أسرة قطنش شديداً للغاية ، إذ ان عبد النبي كان في سنة ١٩١٨ قد قام بشنق القائمقام السابق عبد الهادي بن قطنش جد عبدالله الذي كان قد أرسلته حكومة ذلك العهـد إلى (ورفلة) لكي يقوم بدعايـة فيها لصالحنا .

ومع ذلك فان عبد النبي خاف من إغضاب تلك البلدة التي كانت تعطف على آل قطنش ، ولم يجرؤ على قتله ، بل اكتفى بأخذه أسيراً .

بهذه الطريقة لم تكن هناك وسيلة للحصول على أية أخبار عن العدو في صباح يوم ٢٧ ، عندما أخذ الجيش طريقه في الزحف على (بني وليد) .

وسرعان ما رفعت من بعيد ساريات المحطة اللاسلكية القديمة ، وهي نفسها التي كانت في سنة ١٩١٥ قـــد أذاعت الصرخة اليائسة الأخيرة التي أطلقها (بريجنتي) ،والذي لم يكن يريد الاستسلام رغماً من تسلمه أمراً قاطعاً بذلك .

كانت هذه المحطة ترشد الى وجهة سير الجيش .

وحوالي الساعة الثامنة أبلغ اثنان من الطيارين كانا قـــد طارا فوق القلمة إشارة بأن كل شيء هادىء في مكان العدو .

وكان الناس قد أقاموا الزينات إظهاراً للفرح والسرور ، وكانوا ينتظرون بغبطة وصول الجيوش .

وعند ما تلقى قائد الألاي هـــذه الإشارة ، أخطر بها الوجيهين اللذين كانا برفقته ، وهما خربيش المحارب وأحمد الفساطوي السياسي . وكان الأول يهرش في رأسه ولم يكن قد أبدى علامة قط على عدم التأكد مثل هذه المرة ، ويصرح بأنه لم يفهم ماذا حدث . أما الثاني فقد قال بدون تأثر وببساطة « اليوم ياسيدي يوم محاربة » .

كان يعرف حق المعرفة عبد النبي بو الخير . ذلك الغادر الحاذق الذي اشتهر بخيانة « مياني » عند ما رحل عن سرت إلى مشارف مقر بوهادي بحجة الإسراع للدفاع عن « ورفلة » ، بينما كان في الواقع يعلم أن رمضان الشتيوي قـــد يقوم بمهاجمة الجنود النظاميين .

وقد أراد بسياسته ذات الوجهين ، والتي عرفت عنه على مثال « بيلاتو » أن يتنصل من التبعة ويهرب من العقوبة أو يجـــد نفسه على استعداد للاستيلاء على « ورفلة » اذا كانت الظروف مواتية للشتيوي.وهذا ما حدث فعلاً . وهو اليوم يعيد لعبته مرة ثانية .

ولما كان يعلم أنه قد جعل الحكومة تشك في نياته ، فإنه كان يؤمل منـــذ

اللحظة الأخيرة أن يوقع الألاي وقائده في عمل من اعمال التهور والمجازفة .ولذلك أمر برفع الزينات والأعلام علامة على البهجة والسرور .

ولهذا كان موقف القائد دقيقاً للغاية ، إذ كان لديه أمر بعدم إثارة أو القيام بأي عمل من أعمال العدوان ، إلا متى قام العدو بالبدء بمثل هذه الأعمال .

هكذا سار الجيش إلى الأمام حتى الساعة الثامنة والربع دون أن يعلم اذا كان سيتحتم عليه القتال أو لا .

ولقد نجح دهاء زعيم (ورفلة) وخبثه ولكنه مع ذلك انخدع بانتظاره .

فقد كان الجيش يسير تحت رقابة مضاعفة ، لأنه كان يعرف أن امامه زعيماً غير مأمون الجانب وخرب الذمة .

وكان القائد مقتنعاً كل الاقتناع من أنه قد يقاتلنا ، وأن كل مناوراته السياسية ترمي إلى جعلنا نحتل (ورفلة) بفصيلة صغيرة ونعين فيها مندوباً يكونان تحت رحمته من لحظة لأخرى .

كان الألاي يتقدم عندئذ وهو مستعد للقتال ، وكان يخترق طريقاً غير متعرج ولكنه واسع في وادي « مقراوة » عندما خرجت النيران عليه من كل الجهات ونشبت المعركة عنيفة مع جانب من قوات الثوار قوامه ٣,٠٠٠ بندقية .

كان الجيش يسير متجمعاً في صفوف (الصف الأول تحت قيادة نائب القائد « جالينا » – الصف الثاني تحت قيادة نائب القائد « بيلاجاتي » ومدفعية وقافلة في وسطها عربة مؤن ، ثم قوة الفرسان في الخلف .

وقد بدأ الهجوم من الأمام على الصف الأول ، وكان أشده على الجانب الأيسر من الجيش . وقد تلقى نائب القائد « جالينا » الأمر بالزحف في الحال نحو « بني وليد » تسانده نيران البطارية التي كانت قد أخذت موقعها .

وكان يقع على كاهل نائب القائد « بيلا جاتي » في أول الأمر واجب مساندة

تحركات نائب القائد « جالينا » وأن يحمي جوانبه ، ويعنى بتأمين تجمع القافلة وعربات المؤن .

أما الكتيبة الأريترية الثانية التي كانت جزءاً من هذه القوات فقد قذف بها في الهجوم المضاد على « المحلات » التي كانت تضغط على الجناح الأيسر للجيش . بينما قذف بقوة الفرسان لمحاربتها ثم لمطاردتها .

في تلك الأثناء كان نائب القائد « جالينا » يصد أمامه مقاومة العدو ويتقدم نحو « بني وليد » بينما كانت الكتيبة الباقية من قوات « بيلا جاتي » (الكتيبة الخامسة) بالانضمام مع رجال السباهيس، تقوم بحركة واسعة نحو الجنوب والجنوب الشرقي ، وتقوم بحركة تطهير واسعة في المنطقة من الهاربين .

احتلال بني وليد ، ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ .

استمرت العملية حتى الساعة الثانية إلا ربعاً مساء ، وهي الساعة التي قام فيها الليبيون من رجال الكتيبة الثانية ورجال فرقة « بريجنتي » الزرق ، الذين كان لهم شرف العمل في الطلائع مع فرقة القمصان السوداء « مونتي فلينو » و « مرشدي سردينيا » ، بالاندفاع للهجوم على القلعة وتغلبوا على دفاع العدو ، وكانوا أول من رفع العلم المثلث الألوان .

وهكذا أشار علم جيش الجبل الى الانتصار والاستيلاء على البلاد باسم الملك مرة اخرى بعد « الجوش » و « نالوت » و « جادو » و « يفرن » و « غريان » و « ترهونة » .

وفي نفس الوقت الذي تحركت فيه قوات جيش الجبل تحركت قوات جيش الشرق . كما أن هذه الاخيرة ، بعد ان تركت في قصر « ميمون » قافلتها التي كانت تحرسها الكتيبة الثامنة الأريترية حتى لا تعيقها عن الزحف ، وصلت في الساعة العاشرة والنصف الى وادي « غبين » في اندفاع وحذر .

اما جماعات ثوار « ورفلة » فإنهم عندما عثر بهم رفعوا الأعـــلام البيضاء وأكدوا أن عبد النبي لن يبدي أية مقاومة .

ولكن بعد ذلك بقليل بينما كان الجيش منهمكاً بالمرور في الوادي ، بدأت بعض وحدات المشاة في إطـلاق النيران ، بينما أطلقت على جانبه الأيسر نيران حامية من الفرسان .

ولكن هذه النيران قد أوقفت في أسرع وقت وبنجاح باهر بواسطة هجوم مضاد قامت به فرق سواري الألاي ، تساندها إحدى الفصائل .

وقد حاول فرسان الثوار مهاجمـــة مؤخرة الألاي ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل بفضل رجال السواري الذين تلقوا الأمر بالعمل باستقلال عن بقية الألاي ، التي كان يجب عليها ان تصل بأسرع ما يمكن إلى « بني وليد » .

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر وصلت طلائــع الألاي على مرأى من قلعة « بني وليد » بعد أن لاقت مقاومة شديدة على الجوانب والمواقع التي تحميها . ولمهاجمة هذه المواقع قذف بالكتيبة الأريترية التاسعة عشرة تساندها نيران البطارية الليبية الثالثة .

وقد انهار الدفـــاع عن « بني وليد » بعد أن تم الضغط عليها من جميـع الجهات .

وقد هرب من الأسر قليلون من الثوار ومن بينهم عبد النبي .

وهنا تم عمل التحريات الآتية :

– ما هي الأسباب التي أدت بعبد النبي الى المقاومة ؟

– وما هي الآمال التي كانت لديه في الانتصار ؟

كان هناك سبب ذا صفة عامة يتركز في المسلك الذي سلكه اثنـاء الثورة كلها ، كما ثبت ذلك بوضوح من الوثائق التي وجدت في مسكنه ، بعد هربه .

كان عبد النبي مكاراً حاذقاً عندما أعلن ارتباطه واخلاصه للحكومة الإيطالية .

ومن الممكن القول بأنه كان روح الثورة والعصيان .

فقد كان يلجأ إليه الزعماء طلباً للمعونات واستماع نصائحه وإرشاداته وكانوا يطيعونه . وكان هو – إما بسبب دناءته الفريزية وصغر نفسه ، واما لكي يجد وسيلة للاستمرار في مسلكه وخداعه نحونا ، كان يحتفظ بحقوقه إزاء الزعماء الآخرين في عدم إرسال رجاله المسلحين خارج منطقة (ورفلة) .

لذلك كان موقفه بالنسبة لزعماء الثورة الآخرين مفهوماً . حتى أن تغييره لمسلكه قبل أن يستنفد كل الوسائل بما فيها القوة ، كان من الممكن أن يكلفه حياته .

وإننا إذا ما اقتصرنا في شرحنا وتحليلنا على الميدان الحربي ، يكون من الإنصاف مراعاة الاعتبارات الآتية :

كانت قواتنا الزاحفة على بني وليد صباح يوم ٢٧ تنقسم إلى وحدتين على مسافة متساوية من تلك الجهة .

وقد تركزت بين هاتين الوحدتين كل قوات عبد النبي التي كانت تسيطر سيطرة تامة على بني وليد التي هي الموضع الوحيد للمياه في هذا الإقليم (إذ لا توجد حولها على مسافة ٦٠ كيلومتراً مياه أخرى) .

كان عبد النبي يعلم الأهمية العظمى لوضع يدنا على الآبار . وإن تأخيرها ٢٤ ساعة دون غيرها معناه ايجاد أزمة بين قواتنا بسبب نقص المياه .

وكان من الممكن أن تؤدي هذه الأزمة على الأقل بالنسبة إلى بني وليد إلى إحداث إبطاء في تضييق خناق قواتنا عليها ، اذ أن هذه القوات كان لا بد لها أن تتراجع لكي تجد المياه اللازمة لها .

كان في استطاعته أن يرى أن هذا الواجب أمر سهل ، لأنه من السهل إجهاد الجيوش التي أنهكها العطش والتغلب عليها .

وربما يكون قد ساعد على تقوية هذا الأمل شكه – الذي كان يبرره انه لم يكن قد قاس قوته بقوتنا منذ سنة ١٩١٥ – في حين أن نجاحنا في حملة ١٩٢٢ و ١٩٢٣ يرجع قبل كل شيء لعدم كفاية الاستعدادات والتنظيمات لدى كتلة الثوار أكثر مما يرجع إلى كفاية وبطولة قواتنا وإلى الطرق الحديثة التي تستعملها .

ربما كان أيضاً في استطاعته أن يعتقد أن جيش الشرق في « السدادة » لم يكن قد اتجه إلى « بني وليد » ، ولم يكن في حالة تسمح له بالاشتراك في القتال في نفس الوقت الذي تقاتل فيه قوات الجنرال (جراتزياني) الذي كان يتقدم من الشمال .

ولكنه لما علم أن كل قواتنا تتقدم في زحف مركز نحو معسكر « محلاته » حاول وهو في الحيرة التي أحدثها موقفه الخطر إحراز النصر بدفعه أكبر جانب من قواته نحو جيش الجنرال « جراتزناني » – سواء لأنه كان ينتظر مهاجمته من هذا الاتجاه ، أو ربما لأن هذا الجيش كان يقوده جنرال . ولذلك اعتقد أنه جيش قوي – بينما حاول تأخير زحف قوات « ميتزتي » التي كانت قد وصلت الى وادي « غبين » وذلك بالعناصر التي كانت لا تزال تحت يده ، او التي كان يمكنه أن يجمعها على وجه السرعة .

وهكذا فان عبد النبي دون أن تكون لديه فكرة دقيقة – ومن المؤكد انه ليس لديه اي استعداد اولي ودون ان تكون له معرفة بابسط الفنون العسكرية – خرج بمشروع مناورة على الخطوط الداخلية ولكن هذا المشروع مات عند ولادته .

على ان الفشل الذي اصيب به عبد النبي لم يكن من شأنه إلا ان يثبت الخطر

والصعوبة التي كانت تخفيها مثل هذه المناورة في ذلك الميدان التكتيكي المحدود. وخاصة عندما يفتقر الزعيم إلى اي كفاءة ومقدرة على التفكير والتنفيذ .

ومع هذا فإن عزل بني وليد لم يتم إلا حوالي ظهر يوم ٢٨ ، عندما وصلت فصيلة (مالتا) إلى (الشميخ).

على ان ظهورها المفاجيء في هذه الجهة ، من اتجاه لم يخطر ببال أحد ، قد نتج عنه أسر عدد كبير من المسلحين وإيقاف عدد كبير من اللاجئين . كما أفاد في تعجيل فرار عبد النبي الذي كان يوجد على مسافة ليست بالبعيدة عن « الشميخ » لدى بعض اقاربه .

وعندما أحس باقتراب قواتنا استطاع الهرب يتبعه بعض اخصائه؛ بسرعة ليست بالكبيرة، حتى لا يترك في أيدينا مدفعاً من مدافع (سكودا) عيار ٧٥ في حالة جيدة جداً — مع دواب وذخائر وملحقات — وهذا المدفع كان في الماضي يوجه ضرباته إلينا.

ولقد بقي كذلك في أيدينا عدد من الرهائن . وهم من أقاربه .

اما أهمية احتلال (الشميخ) السريع بالنسبة لنا نتيجة لحركة الالتفاف التي سبق وصفها ، فقد ظهرت واضحة في الايام التالية عند ما تم إيقاف خروج الأهالي منذ بدايته على أثر حضورنا في هذه الجهة ، فإنهم تدفقوا زرافات ووحداناً لإظهار استسلامهم وتسليم اسلحتهم .

اما من وجهة النظر العسكرية فان احتلال (الشميخ) كان معناه قطع الطريق على كل امل لعبد النبي ، الذي فضلاً عن اضطراره إلى الفرار فيما بعد، فقد ايضاً حاشيته القليلة العدد التي كانت لا تزال باقية له في (ورفلة) .

ولما كانت الشميخ شبكة لطرق القوافل ومكاناً للمياه غاية في الأهمية فإننا لم نتركها، وتمت تقوية احتلالها نظراً لمركزها السياسي والاقتصادي .

وفي صباح يوم ٢٨ قامت قوة من الأسلحة الثلاثة بقيادة الليفتنانت كولونيل (بيللي) من بني وليد مباشرة قاصدة « الشميخ » لكي تساعد القوة التي يقودها قائد « مالتا » ، التي لم تكن لديها محطة لاسلكية والتي لم تستطع الطيارات بسبب رداءة الجو اكتشاف موقعها طوال مدة الزحف المضني المملوء بالمخاطر الذي تم بدقة تدعو الى الإعجاب .

وبعد احتلال (بني وليد) كان المطلوب هو حل مسألة عودة الأهالي وتسليم الأسلحة .

وقد علم من الأبحاث التي تمت أن أهالي (ورفلة) كانوا يمتلكون حوالي ٤٠٠٠ بندقية . ويجب أن يضاف الى هذه البنادق كل البنادق الأخرى المملوكة لمختلف جماعات الفارين من مصراتة وزليطن وغيرهما من البلاد الذين كانوا قد أقاموا مساكنهم حول عبد النبي بو الخير للاستفادة من جميع المزايا الناتجة حتى من ان زعيم (ورفلة) كان قد منح حق إرسال قوافل لإحضار مشتريات من طرابلس. وفعلاً عادوا جميعاً إلى بلادهم الأصلية في أسرع وقت بعد احتلال بني وليد.

وهناك لحظات في عمليات الغزو الاستعماري يجب فيها التخفيف من استعمال القوة لبلوغ اقصى الغايات المنشودة .

وكانت الجزاءات السريعة التي جرى توقيعها قد ادت الى خروج جميع الاهالي نحو الجنوب . وهكذا قد تكون لعبتنا هي لعبة الزعيم .

وان التخفيف من العمل القضائي او بالأحرى إيقافه في بادىء الأمر كان ضرورة اكثر من كل الأعمال التي رئي الالتجاء إليها عند الاستيلاء على الأراضي الأخرى .

لذلك بدلاً من إنشاء المحاكم العسكرية الخصوصية في بني وليد بدأ الجنرال « جراتزياني » ، الذي ضمت (ورفلة) إلى الأراضي التابعة له ، عملا من

اعمال الاجتذاب أدى تدريجياً إلى عودة جميع اهالي (ورفلة) تقريباً والى تسليم ما يقرب من ٣٦٥٢ بندقيــة ، باستثناء حوالي ٤٠٠ رجل مسلح ، هم الذين تبعوا عبد النبي بو الخير .

وهكذا فشلت اللعبة الشريرة التي حاكها هــذا الرجل ، والذي كان آخر اعماله هو إصداره الأمر بإطلاق الرصاص قبل خروجه من القلعة ببضعة دقائق تحت ضغط القوات العسكرية على ضابطين وجنديين كان قد أخذهم أسرى من بضعة اشهر ، وإعدامهما .

وكان يعتقد دون شك ان هذا العمل القاسي قد يدفع القائد للقيام بأخـــذ الثأر في الحال ، الأمر الذي لا بد ان يؤدي إلى خروج الأهالي ، وهـــذا ما كان يريد .

وإن عدم القيام بلعبة العدو هو قاعدة حسنة لا في ميدان القتال وحــده ، بل في المبارزات ذات الصفة السياسية ، وخاصة مع العناصر الوطنية .

ولقد كانت النتائج التي تم الحصول عليهــا تثبت صلاحية الطريقة التي استعملت .

وإن أكبر المسئولين عن الجرائم التي ترتكب ضد الدولة قد نفذ فيهم هم ايضاً الحكم الجنائي ، مع مر الزمن .

ولذلك فلم تكن المسألة مسألة إلغــاء الجزاء القضائي او استعمال طرق ضعيفة ، بل كان الأمر يقتضي إيجاد توازن بين جميع طرق العمل للحصول على أعظم النتائج في النطاق العام .

اعدام الضباط الايطاليين رمياً بالرصاص .

كان الرئيس « بيتسي » والرئيس « كولتّو » والملازم اول « تابوجا » والملازم أول « تاجي » وسائقان قد أسروا في يوم ٢٧ سبتمبر في « رأس فوليج » بين « العزيزية » و « بوغيلان » في الفترة التي قام فيها الثوار باستئناف هجومهم ، بينما كانت سيارات النقل تسير إلى « غريان » دون حراسة .

ولما حاصرت هؤلاء الضباط قوة مؤلفة من حوالي مائة من الثوار بين راكب وراجل حاولوا التراجع إلى الوراء ، ولكن خزان البنزين في سيارتهم أصابته طلقة نارية فخرمته .

ولذلك وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الدخول في معركة غير متعادلة جسماً لجسم ..

فسقط الرئيس (كولو) والملازم (تاجي) قتيلين . واما الرئيس « بيتسي » والملازم « تابوجا » والسائقان فقد وقعوا في الأسر . وسرعان ما أخذوا إلى « بني وليد » لدى عبد النبي بو الخير .

ولكن هذا الرجل لم يشأ استقبالهم ولم ينظر إليهم قط اثناء الشهرين اللذين قضوهما في اسرهم المؤلم . فقط كانوا محبوسين في غرفة ضيقة رطبة في القلعة القديمة ، ووضعت حراسة شديدة على الشهداء الأربعة .

وكان الزعيم يضارب عليهم بغموضه المعتاد ، وكان يوهم الناس في طرابلس بأنهم يعاملون احسن معاملة وتقدم لهم كل التسهيلات والعناية الواجبة بصفتهم من الضباط .

ولكن هذا محض افتراء . فقد وجدناهم قد استحالوا إلى هياكل رجال

ترتسم على وجوههم علامات الجوع والحرمان ، وكما كان يبدو ذلك أيضاً على اعضاء جسومهم الدامية .

وكان عبد النبي بو الخير يبقيهم في قيد الحياة ما دامت الجيوش الإيطالية لم تصل الى القلعة . وقد أمر بإعدامهم عندما رأى انه فقد كل شيء .

فاقتيدوا إلى وادٍ صغير ، وأعدموا بإطلاق الرصاص على ظهورهم بعد أن نزعت عنهم ملابسهم ، وبعد ان أهينوا وأذلوا كل إذلال .

وقد سلم من الموت باعجوبة الرئيس « تابوجا » الذي رأيناه مثخناً بالجراح ولكنه لا يزال حياً. وقد أخذ وعولج بعناية وحنان وهكذا انتزع من بين براثن الموت . وهكذا اصبح الشاهد والمدعي الذي يتولى الاتهام .

وفعلاً وقع في يد العدالة ، واحداً واحداً ، المجرمون الذين ارتكبوا هذه الجناية الدنيئة ، ودفعوا ثمن جريمتهم على المشنقة .

قسطنطين بريجنتي

استخراج بقايا جثته .

قامت روح قسطنطين بريجنتي في بني وليب تطلب الانتقام .

إذ سرعان ما وجدنا الجثة المبجلة في المقبرة الصغيرة التي ثوى فيها رفات الجنود الإيطاليين الذين ماتوا في الأسر .

كان « بريجنتي » رسولاً لكل إيمان ولكل فضيلة وطنية عسكرية .

ففي يوم ١٦ مايو سنة ١٩١٦ ، بعد سنة قضاها في عذاب وألم ، لما لم يستطع البقاء بدون قتال ، وبينما كانت ايطاليا تتجه بكل أبنائها ضد عدوها القديم ، وقد أذله طول البقاء في الأسر ، ولم يجد ما يعزيه عن الميتة البربرية التي لاقتها شريكة حياته التي أعلن الثوار بأعلى أصواتهم خبر وفاتها من أسفل جدران قلعة بني وليد قبل استسلامها — وانه لا يليق به ان يموت تدريجياً .

ولما لم يجد في نفسه القدرة على عمل أي شيء أزهق روحه بيده طوعاً

واختياراً ودون مبالاة .

وكانت برقيته الأخيرة التي أرسلها إلى طرابلس في يوم ٧ يوليو سنة ١٩١٥ عندما نزل على أوامر الحكومة الحازمة ، واستسلم . هي الآتي نصها :

« بعد بضعة ساعات ، أو في صباح الغد على الأكثر ستتوقف المحطة اللاسلكية عن العمل . وإني قبل أن أنتزعها وأنا في شدة الألم أرسل إلى سعادتكم تحياتي القلبية وتحيات جميع المدافعين عن بني وليد ، الذين شاء القدر المحتوم ان يجعل مقاومتهم تذهب أدراج الرياح .

وإني إذ أبعث من صميم قلبي إلى سعادتكم وإلى القوات التي تحارب في المستعمرة في سبيل استرداد شرف الوطن المقدس ، والى الجيوش من فوق جبال الألب تقاتل من أجل تحرير بلادنا بأعظم وأعز التمنيات بالنصر . أخبركم بأن كل قلوبنا هنا تفيض بالألم وليس لنا من عزاء إلا أن نتمنى السعادة للملك وللوطن ، والى حاميات طرابلس وسرت وغريان ومصراتة .

وقبل نزع المحطة اللاسلكية ، إذ لن تستطيع العمل من الغد ، يرسل المدافعون عن بني وليد إلى زملائهم في السلاح أعظم التمنيات بالنصر من أجل عظمة الوطن والملك » .

* * *

وهكذا أزيح الستار عن الحادث المحزن والمجيد الذي من أجله دفن « قسطنطين بريجنتي » الرائد العظيم والمثل الأعلى للتضحية .

أما أنا ، الذي عرفته وهو رئيس فرقتي في أريتريا ، فإن القدر قد شاء ان أستخرج جثته ، وان أقوم بتحيته وهي تأخذ طريقها تحت الأعلام والمجد من بني وليد إلى طرابلس .

لم تكن تسمع هناك أمام جثة « قسطنطين بريجنتي » اقوال ، ولكن إيمان

واقتراحات بالقيام بأعمال عظيمة وقوية » .

هكذا مررت أمامنا ايها المعلم وعرّفتنا أن الطريق لا تزال أمامنا طويلة وشاقة حتى يعود اسم إيطاليا المقدس الى مجده وعظمته .

إننا نتبع تعاليمك وارشاداتك .

واليوم يثوي جثمان قسطنطين بريجنتي – الذي استحق الميدالية الذهبية – في مدينة طرابلس ، أمام بحر الوطن ، وإلى القرب منه شريكة حياته التي استحقت هي الأخرى الميدالية الذهبية ، بعد ان استخرجت جثتها ودفنت على طقوس الإيطاليين .

وهكذا انكشف وجه هذا الشهيد الذي كان قد تحدث قبل وفاته طالباً عمل كل ما يمكن لضم عظامه إلى عظام زوجته العزيزة المحبوبة .

إن توابيت الأقوياء تنير الروح القوية للقيام بالأشياء الجليلة .

ولقد بدا وجه عبد النبي بو الخير النجس قبيحاً و كريهاً تتقزز منه النفوس من فوق بيته الذي يشبه عش الصقر .

وقد كان هذا الرجل أكبر زعماء السلالة العربية المراوغة الغامضة ، والخائن الحاذق الذي عرفناه في سنة ١٩١٥ ، والذي عمل كل شيء في سنة ١٩٢٣ لإيقاعنا في خطأ احتلال بني وليد بقوات قليلة لكي يضعنا فيما بعد تحت رحمته .

كان رجلاً ماهراً في الخداع والشعوذة ، قاسياً شريراً شرهاً لاخلاق له . نذلاً جباناً في القتال ، كما كان دنيئاً دساساً ومخادعاً غشاشاً .

ونظراً لحقده على معظم الزعماء وخاصة آل سيف النصر كان يخشى انتقامهم ويعيش قابعاً في الصحراء عيشة ملؤها الريبة والخوف .

ولقد حلّت النقمة الشديدة به ، كما حلت بغيره ، ولو انه كان في الماضي

لا يخشى الحوادث وينوي التراجع والذهاب إلى السّودان ، حيث كان قد أعد وسيلته للخروج .

الميليشيا المتطوعة .

لقد أتاح لي القدر في عمليات (ورفلة) الشرف العظيم لأن أجيء للمرة الأولى إلى خط النار بفصائل من الميليشيا المتطوعة التي نزلت إلى البر في سبتمبر سنة ١٩٢٣ في طرابلس مع الفرقة ١٢٣ (مونتي فولينو) من (افيتزانو) ، والفرقة ١٧١ (فيسيري) من(بالرمو)، والفرقة ١٧٦(قناصة سردينيا) من (جالياري).

وقد رأيت فصائل (فيلينو) و (سردينيا) فوجدت ان رجال هذه الفصائل أقوياء لا يشعرون بالتعب في الزحف الشاق ، ورأيتهم ثانية اثناء الاستيلاء على قلعة بني وليد ، وهم يتبارون مع الكتائب الطرابلسية في الهجوم وفي البسالة، وهم فخورون بهمتهم .

وهكذا كانوا يتلقون في أرض افريقيا « تعميدهم » على ضرب النار .

وكان معظم هؤلاء الرجال من قدامى مشاة فرقة (ساساري) و (افليتو) الذين اشتهروا بالبسالة والإقدام في الحرب العظمى ، والذين كانوا يحملون الآن إلى ليبيا بشائر الوطن وبشائر النصر الذي أحرزته الفاشستية وروح الشباب الإيطالي الجسور المقدام .

ملحوظة .

وبمناسبة ذكر فرقة قناصة سردينيا نقل المؤلف على الهامش مقالاً نشره ماريو جروسو في « المجلة الاستعمارية » وهذا نصه :

الميليشيا الليبية – يتطوع تطوعاً مزدوجاً .

« ... بينما تستعدون للسفر لكي تدافعوا في المستعمرات الإيطالية الإفريقية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط – عن هيبة ايطاليا وعن شرف الوطن ، أريد ان أبعث إليكم بتحيتي الأخوية . وإنني لواثق من أنكم سوف تعرفون كيف تقومون بواجبكم . كما اني متأكـــد من أنه سوف تتوثق بينكم وبين الجيش الإيطالي علاقات زمالة كاملة ، سوف تعمل على تقويتها الحيـــاة والآلام المشتركة . تذكروا أن اعلام القمصان السوداء يجب ان تحييهـــا الانتصارات ويشرفها النظام بفضل التضحية وبفضل تكريسكم كل شيء لإيطاليا » .

« من الدوتشي الى الفرق الفاشية
المسافرة إلى ليبيا – سبتمبر ١٩٢٣» .

سافر شباب القمصان السوداء وهم ينشدون أناشيدهم وإصرار « الدوتشي » نصب أعينهم .

وكان الغرض الرئيسي من استخدامهم هو ان يقوموا باحتلال الحاميـــات الساحلية وبعض النقط الداخلية ، وذلك للتخفيف عن الجيش في الأعمال القريبة التي ترمي إلى احتلال « ورفلة » .

وكانت العمليات تجري في ذلك الوقت لاسترداد البلاد استرداداً تاماً، الأمر الذي كان جزءاً من البرنامج الذي رسمته الحكومة الفاشستية لحاكمي المستعمرتين.

وسرعان ما اتصلت الفرق الباسلة بالعدو ، حتى أن التقارير اليومية الخاصة بنشاطها دلت على ما قدمه رجالها من المعاونة بدمائهم منذ اليوم الأول .

على أن القمصان السوداء المتحمسة لحرث رمال للصحراء صوناً للكرامـــة الإيطالية وتقوية للضمـــير الإيطالي ، بعد ان انبثت فيه الروح الفاشستية قد حاولت بالأحرى أن تتوسع في بسط نشاطها .

وقد قدم رؤساؤها وجنودها طلبات كثيرة ألحـــوا فيها على المشاركة في العمليات الجريئة .

وهكذا ، بينما كانت بعض فصائلها المنتشرة من حدود تونس الى حدود مصر تستمر في السهر على الدفاع عن الحاميات قام جانب باسل منها واندمج اندماجاً تاماً بالقوات العسكرية التي كانت على وشك القيام بعمليات جريئة واحراز امجاد وانتصارات جديدة ولاسترداد ميراث مقدس قد علا عليه النسيان منذ عهد بعيد .

وهكذا عندما سنحت الفرصة للمليشيا لتقديم خدماتها الجليلة بجدارتها المعنوية والمادية لم تتردد في أن تظهر أنها وسيلة فعالة من وسائل الهجوم .

ولقد أظهرت القمصان السوداء في أعمالها المتعددة في هذه المستعمرة كثيراً من الأعمال الدالة على حب الوطن ، وكثيراً من الإيمان الفاشستي . كما دللت على روح غريزية متأصلة لحب المغامرة وعلى قلوب جبابرة . ورغبةً في أن تخدم الوطن بأسلحتها بأية طريقة وفي أي مكان وإخلاص لا حدَّ له للملك وللدوتشي .

ولهذا قيل في ليبيا إن المليشيا الفاشستية متطوعة تطوعاً مزدوجاً، إذْ أنَّ رجالها قد تطوعوا أولاً باعتناق الإيمان الذي أمد الفاشستية بالحياة ، ثم تطوعوا بطلب الذهاب بوصفهم فاشستيين لتقديم عملهم في أراضي افريقيا .

وقد كلفت فصيلتان من الفاشست بالاشتراك في العمليات الحربية في أراضي (ورفلة) : إحداهما من (فرقة مرشدي قناصة سردينيا) ، التي انتقلت إلى طرابلس وأراضي الحدود ، وأما الثانية فقد أُخذت من فرقة (مونتي فيلينو) ، التي انتقلت إلى (الخمس) وضواحيها .

ومع هذا فلم يقل أحد قط شيئاً عن تلك المباراة النبيلة التي قامت بين ضباط المليشيا وجنودها في سبيل الاندماج في الفصائل التي وقع الاختيار عليها للاشتراك في العمليات ، وكم كان أولئك الذين شاء القدر أن ينخرطوا في هذه الفصائل موضع حسد الجميع .

وقد انضمتا الى الجيش الغربي الذي كان يقوده البطل الجنرال جراتزياني ، ذلك الجيش الذي كان بالتعاون مع الجيش الغربي (ميتزتي) ووحدات اخرى مكلفاً بالاستيلاء على (بني وليد) ، وكان الزعيم عبد النبي بو الخـير في ذلك الوقت قد سلك مسلكاً مراوغاً لكسب الوقت ، وقـام هو ومعظم رجاله بمقاومة ناجحة .

كان جيش جراتزياني مؤلفاً كله من الجنود الملونين ، ولذلك فقد كان رجال القمصان السود يغمزون بمشاركتهم في القتال الى جانب رجال امتازوا بالبسالة والإقدام وبخفة الحركة والسرعة .

وكان رجال المليشيا يريدون ان يثبتوا ان مواردهم المعنوية والجسمية تؤهلهم للصمود للمتاعب ولقطع المسافات الطويلة – سيراً على الأقدام – التي تتخللها المعارك الحامية في بلاد قد تكلف كل خطوة فيها إلى الأمـام مقابلة الأخطار وأكبر التضحيات . ولذلك كانوا يتبارون في البسالة مع القوات الاهليـة .

وقد امتاز من بين رجال هـذه الفصائل السنيور (فراو) الذي كانت له روح عالية منذ كان في (غريان) مع فرقـة (سردينيا) ؛ فإن الهجوم المؤقت الذي قامت به هذه الفرقة ، ومقدرته على تدريب هذه الفصائل قد أشادت بها قيادة الجبل .

وبعد أن انضمت فصيلة (سردينيا) وفصيلة (مونتي فيلينو) في (ترهونة) اللتين تولى قيادتهما في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٣ السنيور (فراو) فإنه قد هذب نفوس وأجسام رجالهما بعمله الأدبي ، وأعـدهم للدخول في مباراة من مباريات البطولة والمقاومة مع القوات الوطنية .

بقيت الفصيلتان قوة احتياطية في أول الأمر للجيش القائم بالعمليات ، ولكن بعد أن قامت كتائب طليعة الكولونيل (جاليتا) المقدام بالتغلب على

مقاومة الثوار التي ابدوها بعناد على جوانب الوديان العديدة ، وكانت على وشك الاقتراب في أواخر مقاومات العدو قبل أن تواجه مواقع « بني وليد » ، كانت القمصان السوداء تتوق إلى عدم التخلف عن القوات الاخرى التي اشتركت في القتال. ولذلك طلب رجال القمصان السوداء بالإجماع من الجنرال (جراتزياني) البطل ، بأن يكون لهم الشرف بالوقوف في الصف الاول .

وفعلا اتخذوا حسب الاوامر الصادرة – مواقعهم في صميم المعركة مع الكتيبة الليبية الثانية (الزرق) والبطارية الوطنية في الجهة التي كان الثوار يقومون فيها بأعنف مقاومة .

ولقد استدعى الجنرال (جراتزياني) قائد القمصان السوداء . وبعد أن أوضح له حقيقة الموقف امره بالتقدم دون تأخير لمهاجمة مساكن بني وليد وقلعتها مع العساكر الليبيين .

وبني وليد هذه هي حصن « ورفلة » المنيع ، ويتزعمها عبد النبي . وكان يتكون منها هدف سياسي وعسكري من الطراز الأول . كما كانت لها قيمة معنوية عظيمة . أي أنها لا تزال تحتفظ بذكرى خاتمة حاميتنا التعيسة ، التي بعد ان ابدت مقاومة عنيفة مستميتة في سنة ١٩١٥ ، ذاقت مرارة التسليم وإذلاله بعد ان سطرت ببطولتها وتضحيتها صفحات لا تنسى في تاريخنا الاستعماري. وكانت لا تزال باقية لدى سكان بني وليد وحدهم ذكرى مقاومة « مقبرة الأحياء » وشجاعة قائدها البطل المقدام .

وكان من دواعي شرفنا الوصول إلى هذه الجهة واحتلالها حيث كانت لا تزال ترفرف ارواح الصاغ « بريجنتي » وابطاله الجنود حتى الآن ، كما لو كانت تنادي ايطاليا بعد ان تجددت ونالت مطالبها .

وكان من العدل ان يحتفظ لنا الجنرال « جراتزياني » في الكتيبة الثانية الليبية ، اي في « رجال بريجنتي الزرق » ، بشرف الدخول في هذه الجبهة . وكان يريد ان يشترك في هذا الشرف محاربو إيطاليا الفاشستية الذين كانوا

يتوقون إلى الاستيلاء على هذا الإقليم،الذي اضطررنا في الماضي إلى تركه لظروف خاصة ، ولعدم ثبات الحكومة وليس بسبب عـــدم الاستعداد والمقدرة لدى فصائلنا الباسلة كما حلا للبعض ان يقول .

لقد شعرت القمصان السوداء بسمو الواجب الذي ألقاه قائـــد الجيش على كاهلهم ، وهو دخول قلعة بني وليد التي خلدتها ذكرى بطولة زملائنا القدامى الابطال ، وصورة القائـــد « بريجنتي » التي هي اشبه شيء بصورة ابطـــال الأساطير ، ورفع العلم المثلث الألوان عليها هذه المرة إلى الأبد . وكان رجال القمصان السوداء يعرفون انهم لا بد ملاقون في هذه البلدة مقاومة عنيفة ، وان الثوار لا يخضعون لضغط قواتنا إلا بثمن غال .

وبينما كان الدافع المعنوي للكتيبة الليبية الثانية على العمل هو امر قائـــد الكتيبة ، كان الذي يدفع القمصان السوداء ، هو الوفاء بالتعهد الذي تعهدوا به امام الملك وامام الوطن وامام الدوتشي ، وانهم يمثلون الإيمان الفاشستي .

وقد انقض السنيور « فراو » حسب التعليمات التي صدرت له بين محاربيه الأوفياء بكل همة ونشاط وإخلاص ، وسار بهم قُـدمـاً إلى الأمام بدون تردد لكي يثبت ان الثقة التي وضعت فيهم لم تكن في غير محلها .

وقد ارادت القمصان السوداء ان تشارك يميناً ويساراً عساكر الفرقة الليبية الثانية في التضحية والبطولة . وقد انبثت فيهم روح قائدهم الهمام ، وكانت إرادته وحماسته هما إرادة الجميع وحماستهم . وقد تحول حب النفس في رجاله إلى مباراة في الغيرة لبلوغ الهدف المعنوي والمـادي الذي كان يجب ان يكون خاتمة ذلك اليوم المشهود في تاريخنا الاستعماري .

ولم تكن القمصان السوداء تريد ، بل ولم تكن قط متأخرة أو في الحلقـة الثانية في سلسلة حلقات الهجوم .

وقد اندفع القمصان السوداء والليبيون إلى تلك القلعة التي عرفت جدرانها

تضحيات مجيدة سابقـــة وهم متحدون في مجهود حاسم وحيد ، بأرواحهـم وهممهم .

هيا ، هيا ، هيا

إلى الأمام أيتها القمصان السوداء .

إلى الأمام يا رجال كتيبة « بريجنتي » !

وقد ابتسم الجنرال « جراتزياني » الفاشستي لهذه الوثبة الحماسية .

وهكذا ظهرت تلك الرغبة في عمل مقدس يتصف بالشجاعة والإقدام .

وقد تقدم السنيور « فراو » ببسالة الجندي الفاشستي الذي يستهين بكل خطر على رأس جنوده الذين كانوا هم والعساكر الليبيون لا يعرفون العقبات . وقد أظهروا مرة اخرى للوطن وللعالم أجمع كثيراً من الفضائل العظمى،وأثبتوا مشاعر الجندي الإيطالي العجيبة .

وفي ظهر يوم ٢٧ ديسمبر بعد سنوات طويلة ارتفع ثانية العلم المثلث الألوان على أعلى قلعة « بني وليد » تحت تأثر القمصان السوداء وبكاء الليبيين .

وبينما كان الأهالي الباقون في البلدة يقفون أمام الجنرال جراتزياني ، كان هو أمام القوات المتجمعة يلقي نظرة فخورة نحو رمز الوطن الذي كان يرفرف فوق القلعة التي تم استردادها ، ويذكر الماضي المؤلم الذي كتبه القدر ، ويشيد بأعمال البطولة التي قام بها الجنود الشجعان الأوفياء الذين أعادوا في هذه الجهة بالذات ذلك الشرف العظيم وذلك الإخلاص الذي كان يتطلبه الوطن لإحياء ذكرى من ماتوا في سبيله ، والذين عرفوا كيف يدافعون عن هيبة بلادهم في ليبيا .

كان الهاربون من الثوار بعد أن يكتشفوا بين الكثبان الرملية يخرجون إلى العراء والجنود في أثرهم .

***

«في يوم ٢٧ سبتمبر الساعة الواحدة والأربعين دقيقة مساء تم احتلال قلعة بني وليد ، بعد معركة دامت ٦ ساعات . وقد تحمل العدو خسائر فادحة . وتم تطويقه على نطاق واسع . تحيا إيطاليا – الجنرال جرازياني » .

كان هذا هو البلاغ البسيط الذي وصل إلى حاكم طرابلس عن نتائج ذلك اليوم المشهود .

وقد استخرجت جثة الماجور « بريجنتي » سليمة .

وأراد الجنرال « جراتزياني » نقلها باحترام وعنـــاية ، فنقلت بحراً إلى طرابلس لضمها إلى رفات الأبطـال الآخرين الذي دفن في الوقت المناسب باحتفال مهيب .

وهكذا قام رجال القمصان السوداء بتـــأدية الواجب الملقى عليهم على أحسن وجه .

ولم يكن هذا الواجب سهلاً ولا هيناً . ذلك الواجب الذي ألقته عليهم ثقة الدوتشي بهم .

وقد تم تنفيذ إرادته على الوجه الأكمل في مباراة بسالة حقيقية مع القوات الوطنية . وقد أثبتت الميليشيا بصلابتها أن فرقة « مونتي فيلينو » عرفت كيف تقتدي بفرقة « ساردينيا » ، كما أثبتت انها ليست أقل منهـــا . وقد سطرت كلاهما في تاريخ القمصان السوداء صفحة مجيدة بسبب عاملين عظيمين ، هما حب الوطن الذي لا نظير له والإيمان الفاشستي ؛ وأنهما بفضل تحليهما بهاتين الفضيلتين قد جعلتا الجنرال « جراتزياني » البطل ينوه بهما عند الحاكم العام « فولبي » بعد الاستيلاء على « بني وليد » .

وذكر في رسالة بعث بها اليه ما أبدته هـــذه الجماعة من التضحية والبسالة والصبر ، وبأنه فخور بما قدمته للوطن ، إذ كان في أوائل من قاموا باحتلال بني

وليد ومن انتزعوها الى الأبد من غطرسة الثوار وقسوتهم .

ولا عجب في ذلك . فإنهم من سلالة رجال فرق جيوش روما القديمة الأبطال .

هذا وقد قامت القمصان السوداء في ظروف أخرى في المستعمرة بأعمال جليلة أثناء وجودهم بالحاميات . وليس هذا فحسب ، بل إنهم قاموا بعد ذلك بأجل الخدمات في أعمال التغلغل في داخل البلاد . وكان حب الوطن والإيمان يلازمانهم في العمليات الحربية . ولم يكن بلا جدوى قتالهم في « العزيزية » ، حتى انه في ٢١ ابريل سنة ١٩٢٨ تم الاحتفال امام صاحب الجلالة الملك بالنصب التذكاري « للفرق الفاشستية » .

وبعد ان اتمت واجبها الشاق في مدى ثمانية أشهر بوصفهم « متطوعين بين المتطوعين » بالتعاون مع القوات الاستعمارية ، عادوا إلى الوطن بفصائلهم الباسلة وهم فخورون بالواجب الصعب العنيد الذي قاموا بأدائه .

« ايتها القمصان السوداء .

إنني احمل إليك الشكر الجزيل من الطائفة الايطالية لكل ما قدمتموه من عمل . وعلى الأخص أول تحية من الدوتشي ، زعيم الفاشية ، الذي ينتظركم في روما أنتم واعلامكم المجيدة التي طالما رفرفت تحت لفحات ريح «منطقة القبائل» الهوجاء في « بني وليد » .

***

هذه كانت التحية الحارة التي وجهت الى الفصائل الفاشستية في نابولي في يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٢٤ من وزير الملك .

وتحت شمس الربيع الجميلة في المدينة الخالدة قامت القمصان السوداء الفخورة بالظهور أمام الزعيم بأكملها .

وفي دورة سبتمبر سنة ١٩٢٨ قام رئيس أركان حرب المليشيا بالاعتراف في المجلس الفاشستي الأعلى بعمل القمصان السوداء في المستعمرة بهذه العبارة :

« إنهم كانوا يعملون بتعاون كامل مع قوات المستعمرات القليلة، وشاركوا مشاركة شاملة في أعمال التغلغل والاستعمار، وصاروا في أقصر وقت وسيلة باسلة من وسائل الحرب .

وقد امتازوا في كل مكان بالشجاعة وبإجادة فن القتال والتضحية ، حتى استحقوا ثناء رؤسائهم والسلطات العسكرية ، كما استحقوا ايضاً المكافآت لجدارتهم الحربية ».

احتلال غدامس ، ١٥ فبراير ١٩٢٤ .

وبمجرد أن تم احتلال بني وليد ، قام قائد الجبل في منطقة «ورفلة» بإعادة تنظيم البلاد التي تم الاستيلاء عليها . كما ان الحكومة وقيادة الجيوش دون إضاعة شيء من الوقت ، أمرت بإعادة احتلال « سناون » و « غدامس ».

وكان ذلك فضلاً عن ضرورة احتلال تلك الواحات لسبب آخر وهو أن ننتزع من الفارين واللاجئين الوسيلة الوحيدة للحياة في الجهة الجنوبية الغربية ، وكان هناك أيضاً سبب دولي لاحتلال « غدامس » ، وهو الرغبة في مراقبة الحدود التونسية والجزائرية .

وقد نشطت أثناء شهر يناير الانصالات السياسية مع اهالي الواحة الذين كانوا بطبيعتهم غير محاربين ووادعين،وكانوا دائماً فريسة جشع الزعماء والمغيرين. وكانوا ينتظرون منذ احتلالنا لواحة « الجوش » وصول الحكومة لتحريرهم من المماكسات والمضايقات والاستغلال .

قامت قوات من الهجانة والسباهيس بضرب الأراضي الواقعة جنوب نالوت

على نطاق واسع ضرباً شديداً .

وكان الألاي الذي يقوم بهـذه العمليات قد تم تشكيله في « نالوت » بقيادة الصاغ « فولبيني » الذي كان يقوم منـذ سنتين بقيادة تشكيلات الهجانة حتى سنة ١٩٣٠ . وكان من الواجب عليه ان ينتقل الى «غدامس» ولكن منعه عن ذلك خليفة بن عسكر ، كما رأينا من قبل .

كان هذا الألاي يشتمل على :

- كتيبة أريترية .
- فرقة من الهجانة .
- قسم من المدفعية على ظهور الجمال .
- فرقة غير نظامية .

وقد احتل – دون أن يقع أي اعتداء عليـــه او يلقى أية مقاومة – بلدة « سناون » في ٧ فبراير وبلدة « درج » في يوم ١٢ بعد اصطدام قصير الأمد ، كما احتل بلدة « غدامس » في يوم ١٥ .

وقد وافق هذا الاحتلال تلك الزيارة التي قام بها لطرابلس الغرب وبرقة صاحب السعادة السنيور ، « فيدوزوني » وزير المستعمرات الهمـام ، الذي كان يشرف دون تعب أو ملـــل من روما بروح استعمارية وفاشستية على أعمال الاسترداد الشاقة والتي كانت ترمي إلى إعادة الاستيلاء على « ليبيا » بأكملها .

إيه يا غدامس !

أيتها اللؤلؤة الزرقاء ، الشاحبة الجاثمة وسط حوض من النحاس .. إنك تقفين في مركز يجعلك كمحطة للقوافل . إنك واحـة صامتة . تجمعين بين الحياة والأمل ، بما يسمع فيك من هدير اليام وخرير المياه التي يغترفهـــا العبيد من

مجاري سيولك الفياضة . إنك جنة يقصدك جماعات السود من اقاصي « فزان » و « كاوار » العجيبة .

إنك بسبب الأسوار العاليــة ، التي تخفي وجهـك ، تشبهين اللثام الذي يخفي وجوه « الطوارق » الهائمين على وجوههم . وإنك بسبب طرقاتك الغائرة ، التي يسير فيها سكان غدامس المكارون الثرثارون ، وبسبب بساتينك المثمرة الدافئة التي تغمرها مياه الجداول، ومن اجل زواياك السنوسية التي يتعبّد فيها الصالحون، وترتفع صلواتهم في غسق الليل، وبسبب اسطح بيوتك المتعرجة التي تغني فيها النساء على انغام الطبول، وترتفع اصواتهن في الظلام كأنهن النجوم المتساقطة .

إنني لا استطيع أن امنحك تراب الذهب الذي كان يمدك به « تامبولتو » او أرج العطور الممزوجة بالبخور التي تبعث به اليك « غات » ، ولا العاج وريش النعام اللذين كانا يصلان اليك بالقوافـــل من « السودان » ، ولا شباب العبيد الذي كانت أسواط تجـار الرقيق تجلبه إلى ابوابك ، وإلى اسواقك ، وفنادقك .

إيه يا غدامس !

ايتها المدينة المحتضرة التي تهاجمها المدنية والصحراء عاماً بعد عـام . وتجلو عنك بعد قليل .

إيه يا غدامس !

يا من اجتمعنا فيك بالأمس . إن اسمك يعيدك إلى ذاكرتنـا في كل يوم .

إيه يا غدامس !

ايتها الملكة المعزولة . ان آخر حنين لإفريقيا يشعر به السائح الروماني، إنما

هو الحنين إليك [1] .

هكذا كان يتغنى رافائللو كالتريني بأنشودة لؤلؤة الصحراء العجيبة الساحرة في اول رحلة بالسيارات قام بها من خلال كثبان « الباب » الرملية الوعرة حتى وصل إليها في فبراير سنة ١٩٢٥ . ورسم بذلك الطريق الذي يقطعه السائحون في مدى ثمانية ايام ذهاباً وإياباً من طرابلس في الوقت الحاضر في أمن وطمأنينة .

ويعيش البدو الرحل أولاد بوسيف والزنتان والمشاشى وغيرهم ممن هم اقل شأنها منهم في « منطقة القبائل» .

ولقد اشرت فيما سبق إلى العداوات القديمة والتنافس القائم بينهم ، والذي كان من المستطاع على اساسها قيام سياسة تفريقية لمصلحتنا .

وقد رأينا فعلاً كيف ان اولاد بوسيف والمشاشى قد عاونونا وساروا جنباً إلى جنب معنا أثناء إعادة احتلالنا للجبل . وقد قاتلوا ضد اهالي « الزنتان » الذين هم أعداء لهم وللحكومة .

وقد كان من اللازم الآن الاستفادة من هؤلاء للقيام بعمل تدريجي يرمي إلى التغلغل في «منطقة القبائل» ،في هذه المنطقة الشاسعة التي كانت دائماً في الماضي تعتبر « غرفة الانفجار » في طرابلس الغرب .

ولقد كان احتلال « مزدة » احتلالاً عسكرياً بسيطاً دون تقدم في الوقت ذاته بعمل سياسي للتأثير على البدو الرحل شيئاً قد يكون كثير الخطر ولا جدوى منه . وقد يمثل (كما حدث فعلاً في سنة ١٩١٤) « مهماز أخيل » بالنسبة لاحتلالنا .

---

١ – من كلمات رفائللو كالتريني – في كتابه (من لبدة إلى غدامس) عني بنشره اخوان تريفس . ميلانو .

ومن جهة أخرى ، فإنه على أثر احتلال « ورفلة » و « غدامس » قد انشئ في بلدتي « غريان »، في « الطابونية » وفي « طبقة »، مركز خطير لجمع كل أهالي « الزنتان » البدو الذين كانوا لا يزالون على استعـــداد للحرب والقتال . وقد اجتمع من حولهم عدد كبير من الفارين من الإقليم الشرقي ومن الجبل .

لذلك كان من اللازم استئصال هذه البيئة الموبوءة التي كانت لا بد ان تؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى الهجوم على الجبل والى قطع خطوط المواصلات مع « ورفلة » و « غدامس » .

ولم يكن من الواجب ان ننسى ان أراضي «منطقة القبائل» وخصوصاً أراضي « حمادة الحمراء » هي أراض غــــير مضيافة ، ومن الصعب القيام فيها بأعمال عسكرية بقوات نظامية ، حتى ولو كانت هذه القوات أهليــة . واننا كنا في سنة ١٩٢٤ ينقصنا التخصص الصحراوي والقوات الصحراوية التي هي وحدها على استعداد للعمل في اراض صحراوية .

لذلك كانت من أصعب الأمور المسألة التي يجب حلها والتي كانت مع ذلك بسبب أهميتها العاجلة تفرض حلها حلاً حاسماً .

ولقد كان الحاكم « فولبي » قد اهتم بالبدء بعمل رحلة من خــــلال افريقيا الشمالية الفرنسية ، وأوفد لذلك قائد منطقة الجبل في حدود اختصاصاته .

وكانت العملية التي تمت في هذه المرحلة تعطي مثلاً فريداً على الاستفادة من معاونة الوطنيين من الأهالي ، سواء في الحقل السياسي او الحقل العسكري . كانت لا تزال باقية في المستعمرة كلها ذكرى خيانة جماعات رمضان الشتيوي ، ولذلك كان من السهل استخدام الجنود غير النظاميين وتوقــع ما لها من نتائج خطــيرة .

ومــع هذا فإنه كان من الممكن القول بأن في كل حرب من حروب الغزو — سواء في الماضي او الحاضر — كان يؤلف من أهالي البلاد عنصر يعاون الغزاة

معاونة من الطراز الأول ؛ لدرجة أن النظرية الاستعمارية قد استطاعت اثبات أن وحدة عاملة في المستعمرة لا يمكن أن تكون كاملة إلا إذا انضمت اليها جماعة من الأعوان المناصرين ، الذين يكونون بعد ذلك الحلفاء الذين تحدث عنهم كثيراً كل من « ليفيو » و « وشيزاري» و«ساللستيو» و«تاشيتو » في حرب قرطاجنة وحرب الغال وجوجورتا والحرب الجرمانية .

وفضلاً عن ذلك فإن حملات سنوات ١٦ و ١٧ و ١٨ قد أظهرت فيما مضى هذه الحقيقة باستخدام جماعة حسين الجريتلي وجماعة خربيش البربرية المساعدة والحصول منها على أجل الفوائد ، إذ أن هذه الجماعات قد قدمت دليلاً ثابتاً على إخلاصها وبسالتها وتفانيها . وكان هذا لأن الزعيمين قد قدما ضمانة مطلقة لا حدّ لها بسبب أجناسهم الأصلية. (إذ ذاك أن الأول كان أصله من أهالي جزيرة كريت ، كما ان الثاني كان من البربر) وبسبب ماضيهما ولأنهما اختارا المحاربين معهما ممن يثقان بهم كل الثقة ومن أتباعهم .

وفي الحق ، إن السر في الحصول على تشكيلات غير نظامية موثوق بها ويؤمن جانبها هو قبل كل شيء في اختيار الزعماء الذين يجب أن يكونوا موثوقاً بهم كل الثقة ، ويكون لهم ماض سياسي يسمح بضمان عملهم الى جانب الحكومة . فإنه ساعد كثيراً على وقوع الاختيار على رجال لهم حسابات يجب عليهم دفعها ، أو يحركهم التنافس والعداوة الأصيلة مع أولئك الذين يقومون بمحاربتهم .

وقصارى القول ، إن كل منظمة سياسية أو عسكرية من الاهالي يجب أن تعتمد على عوامل واقعيـة مطلقة وليس على أساس التفاؤل او التشاؤم او على أوهام . إذ يجب أن تكون نتيجه ايجابيــة لحساب دقيق ، دون اي اهتمام بالعواطف .

هذا ويجب دائماً أن لا يغيب عن بالنا أن مهنة الصداقــة من جانب زعيم وطني لم تكن تخلو قط من التطلع لرعاية مصالحه الشخصية ، التي يضعها فوق كل اعتبار .

وأن السر في استخدام هؤلاء وللاستفادة منهم يتوقف على معرفة كيفية التوفيق بين المصلحة العامة ومصلحة من يقوم بتقديم خدماته والاحتفاظ بالمبادأة في العمل .

ومع هذا فإنه يجب الاحتراس بصفة خاصة من الرشوة التي يحاول الزعيم الوطني دائماً بفن غاية في المهارة تقديمها للموظف الايطالي التابع له . فإن كل الوسائل الموصلة لهذا الغرض ستكون صالحة له ويستطيع استخدامها سواء اكانت المرأة ، او المال ، او إثارة المطامع الشخصية .

وهناك محاولة اخرى لا يتردد الزعيم الوطني في القيام بها ، وهي اثارة الشقاق بين مختلف السلطات الإيطالية للاستفادة منه لمصلحته الخاصة . والويل كل الويل لمن يقع في هذه الشبكة . فإن سلطته وهيبته وأفكاره سرعان ما تضيع كلها دون شك ، فضلاً عن إنزال الضرر الفادح بعمل القيادة وبالعمل الحكومي .

اما الزعماء الذين اعتمد عليهم عملنا السياسي العسكري في الجبل وفي «منطقة القبائل» مثل يوسف خربيش من البربر – أحمد العياط من أولاد بوسيف – محمد بن الحاج حسن من المشاشي – محمد بن جلبان من الرياينة ، فقد اشتهروا بماضيهم من هذا السرد الذي سردناه ، وكانوا يجمعون كل الشروط اللازمة للقيام بقيادة الجماعات غير النظامية .

وكان الأهالي الذين يجب أن يتبعوهم كلهم أعداء ألداء لأهالي الزنتان – الرجبان . وكانت هذه العداوة متأصلة فيهم من عهد الآباء والأجداد ، وكان اهالي الزنتان – والرجبان هؤلاء هم نواة الثوار المركزية والتشكيلات الثورية في ترهونة .

لذلك كانت هناك عوامل إيجابية يعتمد عليها عملنا .

ومع هذا فقد كان من اللازم إيجاد رئيس صالح من عاصمة الدولة للإشراف

المباشر على العمليات التي كانت قيادة المنطقة قد أعدتها ونظمتها ، ولذلك وقع الاختيار على الصاغ (جالياني) قائد قطـــاع (يفرن) ، وهو رجل عمل بالمستعمرات منذ عهد بعيد ، وخبير بالرجال وبالموقف والأراضي التي كان قد قطعها على رأس فصائله الهجانة في سنة ١٩١٥ .

إن اختيار القائد الذي تسند إليه عملية دقيقة في المستعمرة له على الأقل ما يساوي ٥٠ ./. من النجاح .

وأمـــا الفن العسكري الاستعماري فهو تخصص مثل التخصص في حرب الجبـــال .

واذا كانت مبادىء الحرب العامة لها قيمتها دائماً وفي كل مكان لأنها غير قابلة للتغيير حتى ولو تغيرت الوسائل ، فإن قواعد العمل الخاصة تختلـــف حسب الظروف والملابسات وحسب الزمان والمكان .

وهكذا يخطىء كثيراً من يعتقد أن عملية تتم في المستعمرات يمكن إسنادها إلى قائد جديد ليس خبـــيراً ولا متمرناً على الأحوال الخاصة والبيئة والتنظيم الحربي الذي يجب أن يتولى الهيمنة عليه .

إن القائد الاستعماري لا يفاجأ بهذه القيادة ، ولكنه يتكون ببطء في مدرسة الصعوبات وينشأ على المسئوليات التي يفرضها العمل الاستعماري .

إن الواجب صعب دائماً . وقد يصبح أكثر صعوبة ومشقة عندما يجب على المرء العمل في أراضٍ صحراوية ، حيث تصبح غلطة واحدة في التنظيم أو أي عدم تبصر من أين نوع مدعاة للوقوع في خطر لا يمكن معالجته .

لذلك كانت الأخلاق يجب أن ترتفع على جميع المواهب الأخرى ، إذ يجب السيطرة على التعب الجسماني والأوهـــام الزائدة والخوف من تحمل مسئوليات مرهقة . ويجب أن يضع القائد نصب عينيه أنه لم تسند إليه حماية الجهاز الحربي وحده ، بل قبل كل شيء حماية هيبة الوطن البعيد ، التي تمثلهـــا وترمز إليها

بشكل محسوس الراية الوطنية .

وهكذا تصبح المستعمرة ملعباً للتمرن على خير الفضائل والخصال العسكرية الحميدة التي يجب على كل رئيس أن يحرزها والتي سوف تكون في كل مسرح حربي ضماناً لعمله في القيادة .

ويمكن الحال هكذا بالنسبة لمن تربوا وتعلموا في مدرسة افريقيا . فقد ولد في كل الأمم رؤساء عسكريون من الطراز الأول ، وقدموا في ميادين الحرب الأوروبية أدلة عظيمة على الخلق والجدارة .

ولقد كان الإشراف على سير العمليات في (حمادة) عملا من الأعمال التي تتطلب استعدادات خاصة ، سواء في تنظيم هذه العمليات أو في تنفيذها .

وقد يبدو للمراقبين السطحيين هذا الإشراف كأنه نزهة قصيرة لجماعات بربرية . ولكن له في الواقع تأثيراً عظيم الأهمية وواضحاً كل الوضوح في الميدان العسكري ، واكثر من ذلك في الميدان السياسي . إذ يشكل مثالاً فريداً للاستفادة من التنافس بين الوطنيين لصالح أغراضنا الحكومية العليا .

ولقد تم تطبيق نظرية (فرّقْ تَسُد) تطبيقاً تاماً وعلى احسن الوجوه . تلك النظرية التي كانت بسبب ظروف المكان والزمان والعمل عظيمة النفع ، ولذلك اتبعناها .

كانت هذه العملية جديرة بأن يجري التفكير فيها لأنها مليئة بتعليمات ذات طبائع مختلفة .

كان الألاي تبلغ قوته حوالي ١٠٠٠ بندقية ، بين مشاة وفرسان ، ويضم قسماً من المدفعية المحملة على الجمال . وقد تحرك من (جادو) في يوم ٤ مارس للانضمام إلى جماعات المشاشى في (وادي الخيل) (على مسافة ١٠٠ كيلو متر من جادو) ، وفيه توقف في هذه الجهة حتى صباح يوم ٨ ثم انتقل الى «الملاحة» . وكان يلتقي باستمرار بوحدات من الثوار كان ينزل بها خسائر فادحة .

وفي يوم ٩ استأنف زحفه نحو الجنوب . واستمر هذا الزحف ١٤ ساعـــة لكي يصل إلى معسكرات الثوار بين (الطابونية) و (النصرة) حيث التقى بجماعات الزنتان ودخل معها في معركة حامية .

ولقد سقط قتيلاً في هذه المعركة احمد العياط بينما كان يطلق الرصاص من فوق صهوة جواده وهو يتبع العدو الهارب . وكان موتـه خسارة كبيرة لنا . وكنا نعرف زعيم اولاد بوسيف هذا من السنوات السابقة على سنة ١٩١٩ ، وكان يناصر رمضان الشتيوي . ثم انحاز الى قضيتنا بكل مـــا فيه من قوة من سنة ١٩٢١ ، وهي السنة التي كان فيها الحاكم « ميراكاتيللي » قد عينه « متصرفاً » لإقليم فزان التي كان يجب عليه ان يسيطر عليها ويحكمهـا باسم الحكومة ، ولكنه لم يستطع ذلك . اذ هزمه في « الشويرف » (خليفة زاوية) الذي كان يحكم في ذلك الوقت مستقلاً هذا الإقليم .

وكان هذا الرجل صغير الجسم. ولهذا كان العرب يطلقون عليه اسم « نصف بوتسمين » — نصف صولدي — وكان شجـاعاً مقداماً يفرض نفسه على اولاد بوسيف بسبب قـوة شخصيته وتعاظمه وبسبب شجاعته الشخصية .ولو كان قد كتب له البقاء في قيد الحياة لكان قد ساعدنا كثيراً في حل مشكلة « منطقة القبائل » المضنية . ولقد انعم عليه بميدالية فضية في الميدان (لذكراه) .

لقد أحدثت خاتمته هذه أثراً سيئاً في (منطقة القبائل) كلها وفي (فزان) . وقد شاء القدر ان يسقط قتيلاً على يد اواخر من كانوا يمثلون قبيلة (زويلة) التي كان هو في حروب العصابات التي نشبت في السنوات السابقة قد هزمها ودمرها تدميراً.

وبعد أن أمضى الألاي ليلته في مكان « العمليـــات » وصل إلى (محلات الثوار) يوم ١٠ وإلى (وادي الخيل) يوم ١١ وبقي فيها حتى يوم ١٦ .

وفي الصباح قامت (محلة) كبيرة من الزنتان يشد أزرها عناصر أخرى من الثوار بقيادة الزعيم سالم عبد النبي الطاعن في السن ، بمهاجـمة معسكرنا بمنتهى

الشدة ، وتلت ذلك معركة عنيفة ولكن رجالنـــا تغلبوا على الخصم الذي ولى الأدبار إلى « الطابونية » .

ولقد سقط قتيلاً في ذلك اليوم بعد أن أظهر بطولة عظيمة (رونجوفاني) صول سلاح الكارابنييري ودفن في (حمـــادة) غير المضيافة ، لكي يكون نذيراً ولكي يلفت إليها الأنظار في مستقبل الأيام .

وهكذا كانت قوة أسلحتنا للمرة الأولى يسمع صداها في قلب بلدة (منطقة القبائل)وكانت نساء (الزنتان) اللاتي كن يحتقرن ويكرهن صفات البربر الحربية يغنين منذ ذلك اليوم في حزن وألم هذه الاغنية :

« وانت ايضاً يا حماده . أصبحت لا تساوين شيئـــاً ، اذ استطاع البربر أخيراً أن يتغلغلوا في قلبك » .

وبعد أن أدى الألاي واجبـه هكذا على الوجه الأكمل عاد الى جادو من طريق (بئر مرهان) و (وبئر تلاكشين) .

وكان النصر الذي أحرزناه في حمادة قد أحدث تأثيراً كبيراً في (منطقة القبائل) فأخذ كثير من الفارين طريق الغرب وانتقلوا إلى الجزائر بعد أن سلموا أسلحتهم إلى السلطات الفرنسية ، وآخرون عادوا الى بلادهم الأصليـــة . ولكن أكبر جانب من رجال (الزنتان) — رغمـــاً من تحمله خسائر فادحة — بقي في (الطابونية) .

لذلك بدا مما لا يستغنى عنه إعادة احتلال (مزدة) . ولذلك سرعان ما أرسل المارشال (مورو) مع ٣٠٠ من رجال (الأصابعة) غير النظامين بعـد ذلك ، وعلى وجه التحديد في يوم ١٠ مارس وصلت الى نفس هذا المكان الفرقة الصحراوية الأولى التي تم تشكيلها حديثاً بقيادة اليوزباشي « بياتي » .

ولكن كان من اللازم زيادة الإحساس بالقوة للحصول على تأثيرات ملموسة

في « الزنتان » . ولذلك قام الصاغ « جالياني » في ١٠ يونيو بالتحـــرك نحو « مزدة » مع قوة من الجنود النظاميين ، بينما أذيعت بمهارة إشاعة كانت تقول بأن المقصود هو احتلال « القريات » . وفي نفس ذلك الوقت قامت غارة قوية جريئة بالهجوم على « جاس » في « الطابونية » البعيدة .

وعلى أثر ذلك تم تشتيت شمل رجال « الزنتان » فقد هرع جانب منهم في الحال إلى « مزدة » وسلموا عدة مئات من الأسلحة ، بينما انتقل الجانب الآخر إلى الشاطىء الغربي البعيد .

وهكذا تحرر بهذه الطريقة خط الجبل من كل ضغط مباشر ، كما تم التخفيف عن خط بني وليد .

كانت قد حدثت في منطقة (ورفلة) الجنوبية في الواقع اثنـاء الستة الاشهر الأولى من عام ١٩٢٤ عمليات سطو مستمرة وشديدة قامت بها جماعات خفيفة من « سوفجين » ، بينما استطاع الليفتنانت كولونيل « جالينا » في شهر يوليو اختراق كل أراضي المنطقة التي كان يضع عليها يدهم بدو « الجماملة » المسلحون دون ان يتعرض أو يقوم بأي هجوم .

وكان الغرض من هذه العملية هو إعطاء البدو الإحساس بقوتنا ، والحصول على ثقتهم لتحقيق أنجع الوسائل لنزع اسلحتهم ، الذي تم القيام به فيما بعد .

أما في الصحراء – حيث يملي عامل الوقت قانونه الذي لا يرحم – فإن هذه الكمبيالات التي تستحق بعد مدد طويلة ، تجد ما يضمن لها السـداد في الوقت الملائم . ولا يجب الإسراع . فإن العجلة من الشيطان ، كما يقول المثل العربي .

وفي الواقع فإن كل عملية من عمليـات الغزو والاستيلاء الاستعماري هي دائماً نتيجة لتغلغل بطيء مرسوم ، لا يجب إفساده بأعمال هوجاء ، ولا يجب الإسراع والتهور في هذا الميدان بوجه خاص .

فإن احتلال « مزدة » الذي تم في صمت وهدوء ،وفي غير جلبة ، والذي لم ينشر عنه أي بلاغ رسمي ولم تشر إليه حتى ولا وكالة « ستيفاني » للأنباء ، فقد كان الخطوة الأولى في سبيل التغلغل في «منطقة القبائل» والاستيلاء عليها .

ولكن ما كان أصعب هذه العملية بسبب إرادة البدو السلبية العنيدة في الخضوع للحكومة خضوعاً كاملاً .

ولما كان البدو لا يخضعون لأي قاعدة من قواعد النظام والسلطة ، وقد تعودوا ان يذرعوا الأراضي الواسعة والصحراوية ، وأقوياء في خفة الحركة وسهولة تنقلاتهم ، ومتأثرين بسحر الاستقلال ، ودائماً على استعداد للحروب والغارات ، فإنهم كانوا دائماً يعملون ضد كل عمل من أعمال الحكومة .

ولذا فإن السلطة التركية ، عندما لم تستطع فرض إرادتها فرضاً تاماً عليهم ، اضطرت للالتجاء إلى عمل تسويات معهم تركت لهم بمقتضاها أسلحتهم وأعفتهم من الضرائب .

وكان أولاد يوسف قد حافظوا دائماً على استقلالهم بصفة خاصة بسبب ما لهم من سلطة روحية .

ولذلك كان يبدو من الصعب القيام بأي عمل إزاءهم ، حتى ولو بعد احتلال « مزدة » .

وكان من المستحيل مواجهتهم بقوة السلاح ، لأن الأحوال العامة في المستعمرة لم تكن تسمح بالقيام بمثل هذا المشروع ، ولم تكن لديها القوات الصالحة لتنفيذه .

وكان من الممكن أن يكون هذا العمل دون جدوى ، وإلا لاستوجب ذلك إقامة نقط مسلحة في قلب «منطقة القبائل» ، لأن البدو لا يمكن تقييدهم بالحصون وحدها .

لذلك كان يجب تقييـــدهم بالبطون لا بالسلاح ، وجذبهم أولاً إلى فلكنا الاقتصادي والتجاري لكي يكون ما يجدونه من الرفاهية والرخاء تدريجياً ، ويعودون إلى الأراضي الشمالية ويدمجهم تدريجياً ضمن تنظيماتنا الادارية لكي تقوم الحكومة بعمل إزاءهم متى سنحت الظروف الملائمة .

وهكذا تقرر التغلغل بينهم بالطرق السياسية والاقتصادية ومحاولة الاستفادة منهم واستغلالهم في الحقل العسكري لمعاونة خط الجبل .

أما أولاد بوسيف وعلى رأسهم الشيخ « أحمد قرزة » ، والمشاشى وعلى رأسهم محمد بن الحاج حسن ، فقد كانت لهم تنظيمات على هذه الأسس :

– الاحتفاظ بالأسلحة للدفاع عن انفسهم وللقيام بأعمال المراقبـة من الجهة الجنوبية .

– تشكيل وحدة مسلحة غير نظامية تدفع لأفرادها مرتبات تحت إشراف رؤسائهم المباشرين ، للغرض السالف الذكر .

– تعيين موظفين وطنيين من قبل الحكومة تدفع لهم مرتبات بما فيهم رئيس القبيلة .

– حرية الخروج إلى أسواق الساحل .

– منع الاتجار في اتجاه الجهات الجنوبية .

وهكذا تألفت كتلة من الحلفاء البدو تناصر الحكومة ، كما كانت قد تألفت في سنة ١٩٢٢ الكتلة البربرية في الجبل .

هذا ، وإن علاقات الصداقة وحسن الجوار المعروفة القائمة بين أولاد بوسيف والمشاشى من جهة ، والبربر من جهة أخرى ، قد سهلت على قيادة الجبل ذلك المسلك الذي أسماه البعض – على سبيل السخرية – بأنه « سياسة منطقة القبائل » .

وقد نظر بشيء كثير من عدم الثقة إلى هذه السياسة اولئك الذين كانوا — اعتماداً على العلاقـــات التي كانت في الظاهر شكلية وغير مستقرة — ينكرون اعتبار أهمية الهيبة التي كانت الحكومة الفاشية قد أرست قواعدها في كل مكان.

وفي الواقع ، إننا لا يجب أن ننسى أن السيطرة الأوروبية في المستعمرات عموماً تتقوى وتعتمد على عوامل أدبية قبل كل شيء .

انقضت هكذا سنة ١٩٢٤ التي كان يمكننا أن نسجل من بعض حصيلتهـا ما يأتي :

إقامة موقف مستقر بما فيه الكفاية في «منطقة القبائل» ، ولو مؤقتاً. وكان هذا الموقف يبشر بفوائد عظيمة وبخير كبـــير في مستقبل ليس ببعيد ، ويسمح بالسيطرة — بدون قوات نظامية تقريباً — على البلاد وعلى الأحداث التي كانت تجري .

ولسوف نبحث فيما بعد التطورات التي تمت في السنوات التالية والفوائـــد العظمى التي نتجت عنها .

اعادة احتلال سرت ، ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤.

في أثناء ذلك ، وعلى وجه التحديد في يوليه سنة ١٩٢٤ ، كان قد عـــين وزيراً للمستعمرات الأمير « لانسا دي سكاليا » الذي لم يبتعد قيد أنملة عن سياسة سلفه . واستمر في تعضيد عملية الاستيلاء على البلاد التي كانت سائرة في طريقها بنجاح تعضيداً أدبياً ومادياً .

ولقد كان ينقص إتمـــام هذا العمل الذي بـــدأ في ٢٢ يونيو سنة ١٩٢٢ — احتلال منطقة « سرت » حيث وجد فيها ملجأ ومستقراً على أثر تقدمنا الظافر جميع زعماء (ترهونة) و(ورفلة) و(مصراتة) و(منطقة القبائل) تقريباً ، باستثناء أولئك القلائل الذين هربوا الى (الجفارة) والى (مصر) .

ولقد سبقت العملية الحربية استعدادات سياسية حكيمة واعية. فمن جهة، كان يراد نفي الزعماء الذين يظهرون لنا العداء أكثر من غيرهم- بمراقبة نواياهم. ومن جهة أخرى كان اللازم ترغيب الأهالي الذين كانت غالبيتهم تحب الهدوء والعمل في وضع أنفسهم تحت حمايتنا بالهجرة إلى « مصراتة » .

هذا ما فعلته الحكومة ، وما فعلته بنجاح .

فقد انتقل فعلاً من سنة ١٩٢٤ الى (مصراتة) أكثر من ٣٠٠٠ نسمة من سكان (ورفلة) و ١٥٠٠ نسمة من اهالي (سرت) .

أما آل سيف النصر الذين كانوا يسيطرون مع إبراهيم الشتيوي - ابن الزعيم رمضان الشتيوي على (سرت) فإنهم حاولوا عبثاً معارضة مثل هذه الحركة والوقوف في سبيلها بارتكاب أعمال الأخذ بالثأر والانتقام من القبائل التي خضعت لنا .

وقد ارتكبت اعمال العنف الشديدة ضد الوجيه (بو بريك) الذي كان - رغماً من اقامته في (سرت)- قد عقد معنا علاقات ودية وتجارية وسياسية. فقد هاجمه رجال سيف النصر ورجال الشتيوي المسلحون حتى اضطر الى الالتجاء الى (مصراتة) .

وكان في هذه الاثناء قد وقع بين الشتيوي وسيف النصر خلاف وشقاق بسبب احدى الغارات . ولقد اشتد هذا الخلاف حتى أدى الى أن ابتعد عن آل سيف النصر الأهالي الذين وجدوا أنفسهم دون حماية ، والذين كانوا يخشون من جهة أخرى - على أثر الخلاف بين الزعماء ان يحل بهم الكثير من المعاكسات والبلايا ، وخرجوا جماعات الى اراضينا . وقد هاجر الى (مصراتة) اكثر من ٥٠٠٠ نسمة من بين سكان « سرت » البالغ عددهم سبعة آلاف .

ولم يبق في « سرت » سوى ابراهيم الشتيوي الذي اذ شعر بأنه اصبح

وحيداً دخل في مفاوضات مع حكومتنا ، وبالطبع لم تؤد تلك المفاوضات الى أية نتيجة .

كانت اللحظة مؤاتية . ولذلك أمرت الحكومة بتنفيـــذ العمليات دون تأخير .

وهكذا تألف تحت قيادة الكولونيل « ميتزتي » الاي خفيـف مكون من القوات التي تمّ نقلها في قطاع « مصراتة » الشرقي ، أي من الفصائل الآتية :

- ثلاث كتائب من القوات الملونة .
- ثلاثة طوابير سواري .
- قوة سواري من رجال الضبطية .
- بطارية .

ويبلغ مجموع رجاله الإجمالي ١٥٠ ضابطاً و ٣٢٠٠ جندي .

لم يكن هناك لزوم لأي إجراء تكميلي آخر ،لأن التنقلات التي كانت موجودة من قبل في قوات بني وليد الخفيفة (نحو الشميخ) وسوفجين (نحو وادي النوفلية) كان فيها الضمان مما قد يقع من مفاجآت لاحتلالنا لجنوب (ورفلة) . بينما كانت قوات (زمزم) الخفيفة التي انتقلت الى منطقة (بئر القداحية) كانت تحمي منطقة جنوب مصراتة ، وكانت تضمن بعملياتها الاستكشافية نحو الجنوب الجنـاح الأيمن للألاي الزاحف على « سرت » .

وفي الواقع انـــه كان من المعلوم أن سيف النصر ومعه ألف رجل مسلح يعسكر بين (بئر الفاطمية) و(أبو نجيم) ، ولذلك لم يكن من غير المحتمل أن يقع اتفاق مؤقت بين ابراهيم الشتيوي وسيف النصر أمـام عدو مشترك . إذ حاول سيف النصر مساعدة الشتيوي . وقـد هاجم مواقعنا التي تقفل طريق

(زمزم) وجنوب (ورفلة) ، وهـــدد الجناح الخارجي لقواتنا الزاحفة نحو « سرت » .

وفي يوم ٢٠ نوفمبر ركز الكولونيل (ميتزتي) قواته في بويرات الحسوم (كتيبتان وطابور سواري وفرقة سيارات)، وعند بئر عبد الرؤوف (كتيبة وطابوران من السواري وقوة من رجال الضبطة وبطارية).

ولقد كان الثوار – على ما روته الاستعلامات الموثوق بها – قد انتقل جانب منهم الى « ثمد حســان » و « أبو رتمة » و « سرت » . وجـانب آخر من المسلحين « معهم أربعة مترالبوزات ومدفع » الى قصر « بو هادي » .

وفي يوم ٢١ نوفمبر وصل الألاي الى « ثمد حســان » – على مسيرة ٤٠ كيلومتراً .

وفي يوم ٢٢ الى « أبورتمة » – على مسيرة ٤٠ كيلومتراً أخرى – وفي يوم ٢٣ دخـــل « سرت » حيث أسر ١٥ جندياً واستولى على كميات كبيرة من المهمات الحربية .

وفي اليوم نفسه ، دون أن يضيع الكولونيل « ميتزتي » وقتاً ، بارح سرت ووصل بعد زحف مجهد عند الغروب الى « قصر بوهادي » ، وانقض على معسكر الثوار . وكان هؤلاء مشغولين بإعداد طعامهـــم ، ونزل بهم الفزع من هول المباغتة . فهرع بعضهم إلى السلاح ، وسرعان ما تم قتلهم . أما الآخرون « ومن بينهم إبراهيم الشتيوي » فقد أرادوا النجاة بأنفسهم بالفرار .

وهكذا انتهت خاتمـــة أسرة الشتيوي « في قصر بوهادي » حيث كانت خيانة رمضان في سنة ١٩١٥ قد رسمت لنـــا سلسلة من الهزائم والإذلال التي انتقمنا لها في آخر الأمر .

اما الشاب ابراهيم الشتيوي الذي كان في صفاته الشخصية وفي حقده علينا

يشبه والده إلى حد كبير ، فقد تقهقر يتبعه عدد قليل من المسلحين الى حيث يوجد « سيف النصر » في « الجفرة » . ولكنه لما كان يريد ان يعيش فيها مع سيف النصر عيشة الند للند لا كضيف ، وقعت له بعض الأكدار اضطرته إلى الفرار إلى « فزان » يتبعه أخلص رجاله.

ولما لحق به رجال سيف النصر المسلحون في مضيق « بئر قرياس » غير المأمون ، وهو في طريقه إلى « جبل ودان » خر صريعاً أثناء القتال .

وهكذا انتهى آخر ممثل من اسرة الشتيوي . ولم يبق منها في مصر سوى أحمد ، وهو رجل غير محارب وأكبر أفراد الأسرة سناً ، وقد وجد في العاصمة الشرقية الكبيرة ما يهون عليه آلام النفي .

بسالة الأريتريين – معركة الحشادية ، ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ .

بينما كان ألاي « ميتزتي » يتقدم إلى الأمام - كما رأينا للاستيلاء على المركز الرئيسي في إقليم « سرت » كان هناك ألايان خفيفان تابعان لمنطقة « الجبل » يقومان بمراقبة جنوب «ورفلة » لمنع ما قد يحدث من تسرب الثوار إلى هذه الأراضي .

وكان ألاي « سوفجين » الخفيف المؤلف من الكتيبة الاريترية الثامنة عشرة ومن فصيلتين من الكتيبة الاريترية العشرين ومن جماعة من السباهيس تساندهم فرقة من السواري وقسم من المدفعية يدور حول ذلك الوادي الغامض وهو يضرب أماكن المياه ويترك فيها بعض قوات منفصلة لمراقبة الاماكن الاكثر خطراً .

اما ألاي « بني وليد » الخفيف المؤلف من فصيلتين من الكتيبة الاريترية العشرين ومن فرقتين من السباهيس وقسم من المدفعية فإنه كان على العكس من ذلك قد تركز في المركز الرئيسي في «ورفلة» ، وكان قد بقي بقوته حتى يستطيع الإسراع بمساندة الألاي الاول إذا لزم الامر .

وفي الاسبوع الواقع بين ١٠ و ١٦ نوفمبر كانت قوات ألاي « سوفجين» قد تنقلت على الوجه الآتي .

نصف فرقة من السباهيس مع فرقة من السواري في « السدادة »؛ فصيلتان من الكتيبة الاريترية العشرين وعشرون رجلا من السباهيس في « بئر الحشادية » ؛ والجانب الاكبر من الألاي في« بئر تالة ».

وفي يوم ١٩ أمرت قيادة « الجبل » بنقل هذا الاخير إلى « العلاّقية» وهي مكان واقع في وادي« نفد » بين « السدادة » وبئر « الحشادية » على بضعة كيلو مترات قليلة من هـذا المكان ، وذلك لمساندة حركات الألاي الشرقي على أحسن وجه .

ومن عجائب القدر ان الإشارة اللاسلكية المتضمنة الأمر الخاص بهذا النقل المرسلة من محطة اللاسلكي في « غريان » لم تتسلمها محطة اللاسلكي في « بني وليد » . ولذلك لم يتم القيام بهذه الحركة في الوقت المرسوم .
وكان من نتائج ذلك ما سنراه فيما بعد .

وفي الواقـع ، إن فصيلة « بئر الحشادية » هوجمت في صباح يوم ١٩ من الساعة السادسة وبقيت معزولة تماماً . وتوجد « بئر الحشادية » هذه في أراضي (ورفلة) على نحو ستين كيلومتراً جنوب شرقي « بني وليد » ، وتقع في حوض وادي « نفد » . ولهذا المكان أهمية ، لأن من يريد التوجه من « بونجيم » الى « بني وليد » يتحتم عليه أن يأخذ منه ما يلزمه من ماء .

وقـد بلغت قوة الفصيلتين التابعتين للكتيبة الأريترية العشرين اللتين كانتا تحتلان هـذه الجهة في مجموعها ثلاثة من الضباط و ٢٢٠ بين عساكر وصف ضباط من الأريتريين ، وكان معهم عشرون من السباهيس من الفرقة التي كان يقودها الملازم أول (ميترانو) الذي كان قد انفصل عنها مع بقية السباهيس إلى (السدادة) . وكان يقود الفصيلة بعد ان تألفت على هـذا النحو الرئيس

(جويدو فيولي) . وكانت القوات قد استقرت في موقع ملائم يشرف على الآبار ، وكان لها مراكز صغيرة على مسافة بضعة مئات الامتار من بقية القوات المعسكرة .

وفي أثناء ليلة ١٩ نوفمبر الحالكة الظلام قامت (محلة) الثوار المؤلفة من حوالي ٦٠٠ من رجال (ورفلة) وأولاد سليمان بقيادة زعيم الثوار المعروف (احمد سيف النصر) والتي أتت مسلحة بمدفعين رشاشين وبمدفع صغير من عيار ٣٧ مم ، واقتربت من مراكزها الصغيرة . وعند انبلاج الفجر قامت جماعات من العرب وانقضت على الكشافة وقتلتهم ، بينما قام رجال (المحلة) الآخرون وفتحوا نيرانهم الشديدة من بنادقهم ومدافعهم الرشاشة على خيام القوات .

كانت هذه المباغتة قصيرة الأمد . إذ أن جميع العساكر قاموا عند طلقات البنادق الأولى بأخذ مواقعهم استعداداً للمعركة . كما اندفع الرئيس (ديل جودتشي) ، قائد إحدى الفصيلتين ، على رأس قواته بهجوم مضاد . وسرعان ما نشبت المعركة والتحم الفريقان جسماً لجسم . وعند ما حوصر قتل ثلاثة من محاصريه بيده . عندئذ فك الثوار الحصار عنه ثم عادوا الى التجمع وهاجموه مرة ثانية في عدد متفوق . فلم يكن امام الفصيلة وقد قهرتها قوةالعدو وهزمتها كثرة عدده الا ان تتراجع .

على ان هذا الموقف لم يدم طويلا ، اذ استطاع الرئيس (ديل جودتشي) ايقاف فصيلته المتراجعة . وبعد ان شجع عساكره ببضعة كلمات ملائمة قاموا وهو على رأسهم بمهاجمة العدو .

أصيب هذا الرئيس الشجاع أولاً بجرح في كتفه . ولكنه لم يتوقف عن القتال ، بل انه رفض ما قدمه العساكر الذين كانوا قريبين منه من الإسعافات ، كما أبى ان يسنده احد منهم . على انه لم يلبث ان اصيب من جديد في رأسه ومات ميتة الأبطال .

وقد اشتعلت نار القتال من جديد حول جثة هذا البطل ، واستطاع العساكر بكل جهد نقل جثته الى مكان خلفي حيث كان الرئيس « فيولي » مع بقية العساكر القليلين من الفصيلة الأولى قد ركز مقاومته الأخيرة .

ولكن الثوار أحاطوا بهـذا الموقع وحاولوا بنيران حامية من بنادقهم ومترالبوزاتهم القضاء على هذه المقاومة الأخيرة . إلا أن جهود الثوار كانت دون جدوى ، لأن الرئيس « فيولي » والملازم أول « ياربا » - رغماً من إصابة أولهما بجرح في جنبه ، والثاني في ساقه اليسرى - لم يكفا عن حفزهما جنودهما وتشجيعهم على الاستماتة في المقاومة .

وعلى حين غفلة ، سمع الابطـال المدافعون صيحات تصدر من مكان بعيد يصحبها إطلاق نيران جديد من البنادق ، ثم تتزايد الصيحات والنيران ، وتبدو من بعيد كوكبات من الفرسان يرتدون البرانس الفضفاضة .

كان هؤلاء هم رجالنا السباهيس يقودهم الملازم أول « ميترانو » . وكان هذا الضابط قد سمع وهو في « السدادة » أصوات الطلقات النارية وتوقع بقريحته الوقادة ما هو حادث فعجل بحضوره هو ورجاله على صهوات جيادهم .

وهنا فوجىء الثوار من الخلف فاختل نظامهم ولاذوا بالفرار ، بينما أخـذ الأريتريون القلائل الذين لم يلحقهم أي سوء ينطلقون بكل مـا لديهم من همة واندفعوا هم والسباهيس في تتبع الفارين . وقد ترك الثوار في ساحة المعركة أكثر من ١٥٠ قتيلاً و٦٠ بندقية ومدفع ميتزاليوز وكمية كبيرة من الذخائر .

أما من جانبنا ، فإنه فضلاً عن فقد الرئيس « ديل جودتشي » الباسل ، فقد جرح اثنان من ضباطنا ومات ٤٨ عسكرياً ، كما جرح أيضاً خمسون عسكرياً .

ولقد كان مسلك ضباط وعساكر الكتيبة الاريترية العشرين مدهشاً للغاية . إذ كانت صلابتهم وشجاعتهم بالاضافة الى ما أبداه الملازم « ميترانو » ورجاله السباهيس من همة وبطولة هي عوامل النجاح في ذلك اليوم . كما أن ذلـك العمل الحربي الذي تم في « بئر الحشادية » يستحق أيضاً الخلود في تاريخ الحروب

الاستعمارية ، إذ بدت فيه مرة ثانية أهمية تعاون مختلف الاسلحة في الحرب . كما ظهر أيضاً بكل جلاء ذلك الاثر الحاسم الذى يحدثه تدخل قوات جديدة في ميدان المعركة في الوقت المناسب ، حتى ولو كانت هـــذه القوات ضئيلة . إذ أنها قد تكون سبب انتصار الفريق الذي كان على وشك الانهيار ، كما حدث في هذه الحالة .

وقد أقيمت اليوم لوحة تذكارية في الموقع الذي نشب حوله القتال مـع العدو بمنتهى البسالة بناء على رغبة الرؤساء الذين أرادوا تخليد بطولة الكتيبة الأريترية العشرين ، ونقرأ على هذه اللوحة ما يلي :

« لقد قاوم رجال الكتيبة ببطولة وبسالة نادرة مدة ست ساعات عـــدواً يزيد عدد رجاله على ضعفي عددهم ، وأوقعوا به هزيمة منكرة . وكان التعاون بين مشاتهم وفرسانهم يدعو إلى الإعجاب .

« وقد منحت ميدالية الجدارة العسكرية البرونزية للكتيبة الاريتريـــة العشرين التي قامت بالتعاون مع الفصيلتين الاولى والثانيـــة بعمل مشرف في المراكز الامامية ، وقاومت ما يقرب من ست ساعات هجوماً عنيفاً من جانب إحدى « محلات » الثوار تتفوق عليها مرتين في العدد والعدة ، وأظهرت بكل بطولة القوات الاريترية التي تحكي بطولة الاساطير . إذ أنها بعد ان قتل وجرح كل ضباطها وصف ضباطها تقريباً احتفظت ببطولة بعد صراع عنيف مع العدو جسماً لجسم بالمواقع التي أسند إليها الدفـاع عنها ، وأبدت أعمالاً لا تحصى من اعمـــال البطولة ، وبذلت تضحيات كثيرة من الدماء الغالية . وهكذا سهلت وصول الإمدادات في الوقت المناسب لضرب العدو وأثبتت مرة اخرى إخلاص الجنود الاريتريين الاكيد للراية الايطالية » .

« بئر الحشادية ، في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ »

وكانت النتيجة البارزة لهذه العملية الحربية الموفقـــة هي نزع سلاح بدو

« ورفلة » الرحّل الذى تم في قصر « تنيناي » حيث أمر بجمعه بطريقة سلمية .

بهذه الطريقة تم في مدى خمسة وثلاثين شهراً انقضت في عمليات حربية الاستيلاء مرة ثانية على طرابلس الغرب الشمالية كلها على أيدي أسلحتنا .

أما العناصر التي أسهمت في كتابة صفحة مجيدة في تاريخ إيطاليا العسكري الاستعماري فهي ملاءمة الأساليب السياسية وبعد النظر الأكيد والجرأة في التفكير ووضع الخطط والثبات في التصميم واخلاص وبسالة الجنود .

مشكلة الجنوب .

من المبادىء الاساسية في الغزو الاستعماري مبدأ يقول بأن عدم التقدم إلى الأمام معناه التقهقر الى الوراء . وأن السيطرة الحقيقية والمطلقة على بلد من البلاد لا تتم إلا باحتلال ومراقبة كل أراضيه احتلالاً مباشراً .

وان هذه التجربة المزدوجة التي تمت على نطاق واسع وكلفت روما نفقاتها قد قامت بعملها ثانية كل البلاد المستعمرة الحديثة .

فقد تمت بالنسبة لفرنسا في الجزائر باحتلال الشاطىء البربري (١٨٣٠)وبعد الاستيلاء على مدينة الجزائر . إذ كان من اللازم بعد ذلك الاستيلاء على « التل» ولو بعد مناوشات طويلة والاندفاع في آخر الأمر لاحتلال اقصى الأراضي الجنوبيـة .

وهكذا انقضت ست وسبعون سنة طويلة بين احتلال مدينة الجزائر واحتلال اقصى الواحات الجنوبية التي استخدمتها فرنسا لبسط نفوذها النهائي على جميع انحاء الجزائر .

وكانت هذه الفترة هي فترة معارك ومحاولات وقلق شديد تمّ خلالهـا

استخدام كافة الوسائل وجميع الأساليب وكل الإمكانيات بجلد وتضحية كانتا مثار دهشة العالم وإعجابه لقهر ارادة البدو الرحل التي لا تلين ، والعمل على إخضاعها لإرادتهم . أولئك البدو الذين لم يريدوا بأية حال من الأحوال وبأي ثمن الإذعان لتلك السيطرة على الإقليم ، حيث كانت الحرية الفردية المطلقة وغير المشروعة قانوناً وسحراً يبهر الأنظار .

وفي أوائل سنة ١٩٢٥ كانت مسألة التغلغل في طرابلس الغرب الجنوبية والاستيلاء عليها قد بدت في تعقيدها وفي جميع جوانبها المظلمة .

وكان من الواجب القيام بها في وقت واحد بعمل من اعمال التنظيم والتدعيم في البلاد التي تم اخضاعها .

وكانت الحملات التي قمنا بها والمعارك التي خضناها قد أدت الى خسائر فادحة في صفوف الثوار الذين أصيبوا أيضاً بخسائر جسيمة في الماشية التي هي مصدر حياتهم الرئيسي .

ولكن الأمر الذي يحسب له حساب اكثر من غيره كان عدد الأسلحة التي استولينا عليها ، والتي سلموها هم الينا من تلقاء انفسهم على اثر كل عملية حربية كان يحالفنا فيها النصر .

وكان عدد الاسلحة التي دخلت مخازننا في آخر سنة ١٩٢٤ كما يلي : ٢٥ مدفعاً — ٢٤٩٧٥ بندقية — ٥٥٣ مسدساً — ١١١ ميتراليوزاً .

وكان نزع السلاح الكامل من ايدي الأهالي الذين استسلموا اوضح دليل واكبر ضمانة لتثبيت دعائم سيطرتنا مرة ثانية .

ومع هذا فقد كان من اللازم زيادة تثبيتها بتنمية الأعمال المدنية وبتنظيم الإدارات والمصالح وبإنماء الاعمال الاقتصادية والزراعية إلى اقصى حد .

وكان قد تم في سني ١٩٢٢ — ٢٣ — ٢٤ اثناء عمليات احتلال البلاد كلها

احتلالاً عسكرياً – إنشاء المصالح المدنية في الساحل وفي سفح الجبل على اكمل وجه .

وكان من الواجب الآن العمل على تحقيق هـذا التنظيم المدني البحت في الخط الجبلي ، وتوجيه القيادة العسكرية على العكس من ذلك نحو مسائل الجنوب .

لهذه الاغراض صدر مرسوم مؤرخ في أول ينـاير ١٩٢٥ نص على إنشاء قيادة منطقة طرابلس الغرب الجنوبية تضم كل الاراضي التي كانت فيما مضى تابعة لمنطقة الجبل والاراضي الاخرى التي كان لنا نفوذ فيها وهي « الجفرة » و « فزان » و « منطقة القبائل » بأكملها ومتصرفيات « ترهونة » و «غريان» و « يفرن » المدينة .

ومع هذا فإن أمر إيجاد علاقات وثيقة بين البدو الرحل وأهالي الجبل قد أسند إلى قيادةمنطقة الجنوب،وهو من اختصاصات المفوضيات «المتصرفيات»، لحل جميع المسائل السياسية التي يمكن بأي حال من الاحوال أن تؤثر علىالموقف في منطقة جنوب الجبل بسبب اهميتها أو مضمونها بالنسبة للأهالي أو المحاربين.

وقد أدى هذا العمل الفعال إلى نتائج جوهرية ، إذ لوحظ فعلاً أنه كانت توجد علاقات بين هاتين المسألتين اللتين كانتا تتطلبـان على العكس من ذلك توحيداً في الاتجاه وفي البت .

ومع هذا فإن فصل السلطات المدنية عن السلطات العسكرية في الجبل استطاع في أقرب وقت الاستمرار والبقاء للمساعدة على إعادة بنـاء البلاد الاقتصادي والإداري .

وفي اوائل سنة ١٩٢٥ كانت طرابلس الغرب بعد إعادة الاستيلاء عليها تنقسم على النحو التالي :

– منطقة المفوضيات « المتصرفيات » المدنية على الساحل وسفح الجبل و « الجبل » « ترهونة وغريان ويفرن » .

– المنطقة الشرقية ، وتشمل أراضي «الزنتان » و «مصراتة » و «تاورغاء» و « سرت » « بقيادة الكولونيل ميتزيتي » .

– منطقة أراضي الجنوب ، وتشمل الأراضي الجنوبية الغربية من «نالوت» إلى « غدامس » وأراضي الجبل من « نالوت » إلى « ترهونة » « بسلطة عسكرية دون غيرها » وأراضي منطقة القبائل من حمادة إلى «بني وليد»؛واخيراً الاراضي التي لنا نفوذ قديم فيها وهي « الجفرة – فزان » « بقيادة الجنرال جراتزياني» .

وكان هذا العمل الذي كان من الممكن اعتباره أنموذجاً في التنظيمات،والذي يعتمد على فكرة لامركزية واسعة ، وعلى وحدة السلطات ، لا بد أن يؤدي في كافة الميادين الى أفضل النتائج تحت إرشادات الحاكم وتعليماته القيمة . وقد سار هذا العمل في سبيل الكمال في السنوات التالية ، وكان من ثمرته في أقرب وقت تحسن أوجه النشاط المدنية وزيادتها زيادة مدهشة . ذلك النشاط الذي جعل في مدى سنوات قليلة من طرابلس الغرب نموذجاً للمستعمرات الناشئة أعجب به الإخصائيون الاجانب الذين زاروها .

وهكذا كان الحال بالنسبة للحقل العسكري . فإن التنظيم قد تحسن تحسناً كبيراً بإنشاء شبكة من نقط الارتكاز السكنية سمحت بالتنقل فيما بينها للجيوش الخفيفة التي أسند اليها أصلاً واجب صيانة السيطرة على الإقليم . كما أن شبكة واسعة من الطرق ربطت في أقرب وقت بين المراكز الاقتصادية والعسكرية الرئيسية في المستعمرة . كما وضعت منذ سنة ١٩٢٤ – ذلك البرنامج الواسع الرامي الى انشاء المستعمرات الزراعية الذي كان يجب ان يصل في سنوات التنظيم اقصى مداه .

والى جانب هذا العمل الذي يهدف الى تثبيت دعائم الحكم في البلاد التي

سبق اخضاعها سار الى الامام أيضاً ذلك العمل الآخر الذي كان يرمي الى التغلغل السياسي في البلاد الجنوبية .

وفي شهر يوليو سنة ١٩٢٥ عـــاد صاحب السعادة السنيور « فولبي » إلى إيطاليا لكي يشغل منصب وزير المالية فيها .

ويمكن ان يقارن عمله في تاريخ الاستيلاء على طرابلس دون كذب او مبالغة بعمل الماريشال « بيجـــو » في الجزائر . فكلاهما قد استوليا في الواقع على البلاد . وفي سنوات قليلة وجهوها لحل جميع المسائـــل السياسية العسكرية والمدنية والاقتصادية . وان الفترة التي انقضت بين أغسطس ١٩٢١ وبين يونيه ١٩٢٥ والتي تشهد بنهضة طرابلس الغرب الواسعة النطاق قـــد تمثلت في شخص الكونت « جوزيبي فولبي » الرائد الأول ، وأول من بذر بذور الفاشية الأولى في المستعمرة .

الفصل السادس

بشائر التقدم الأخير

بشائر التقدم الأخير

خلف الحاكم العـــام السنيور « فولبي » على حكم المستعمرة صاحب السعادة السنيور « اميليو دي بونو » بطل « جرايا » ورابع الأربعة الذين قادوا الزحف على روما . وقد سار على النهج السياسي الذي اختطه سلفه .

وهكذا قدم مثالاً رائعاً على حسن الفهم وعلى النظام الفاشستي .

وكان الاهالي العرب يجدون أنفسهم للمرة الأولى أمام خطط وأغراض مستمرة ثابتة كانت بالنسبة لهم نذيراً واضحاً . وقـــد فهموا أكثر من ذي قبل أن الأسلوب قد تغير ، وأنهم يجب عليهم ان يعتبروا ان عهد المضاربات الماهرة في سبيل تغيير البرنامج بتغيير الأشخاص قـد انقضى الى الأبد ولم يبق له وجود ، ذلك التغيير الذي كان يحدث كثيراً في عهد الديمقراطية الحرة ذات الذكرى السيئـة .

أصبح البرنامج من الآن فصاعداً برنامجاً واحداً ، وهو برنامج التسليم بلا قيد ولا شرط ، والطاعة المطلقة للقوانين الفاشستية التي كان الناس يعبرون بمقتضاها بإخلاص عن ارادة الزعيم التي خطت طريقاً واحداً يجب السير فيه .

على أن عقلية العرب التي اعتادت ان تتشبع بالأوهام وتعلق كبار الآمال على

احتمال العودة الى الماضي، فقد نظرت بعين الحيرة والدهشة آخذة منها كل مأخذ الى هذا الأسلوب الجديد ، واقتنعت به منـــذ اليوم الأول من ايام حكم رابع الأربعة الذي تقمص الفكرة والقوة الفاشستية وعمل على تدعيمها .

لم تقع في سني ١٩٢٥ – ٢٦ – ٢٧ حوادث عسكرية هامة .

ومع هذا فقد نزلت قوة مشكلة من الأسلحة الثلاثـــة من جديد في أبريل ١٩٢٥ بقيادة الجنرال « جراتزياني » في جهـــة « زمزم »، وانتقلت منها إلى «قرزة » حيث لا تزال أطلال الأضرحة الرومانية تشهد بقوة رومـــا وسيطرتها .

البسالة الليبية ، بئر تارسين ٢٦ مايو ١٩٢٥ .

في يوم ٢٦ مايو قامت فصيلة من الكتيبة الليبيـــة الأولى ووقفت في بئر تارسين (على مسافة ١٠٠ كيلو متر جنوب غريان) لحمايـة محصول الشعير فيها فهاجمتها قوات تزيد عدداً على ضعف عددها، ولكنها قاومت ثلاث عشرة ساعة كاملة هجوم العدو العنيف واحتفظت بموقعها . وقد جرح من ضباطها الأربعـة ثلاثة أصيبوا بجراح المرة بعد المرة . وقد استمر الرئيس في المقاومة وعلى تولي زمام القيادة حتى النهاية رغم إصابته أربع مرات بجروح بالغـة . كما ان الملازم ثاني « فيرنزا » الذي حاز على ، مدالية ذهبية » لم يكف عن حفز همم الجنود وتشجيعهم على المقاومة رغماً من أنه كان قد فقد عينيه ؛ وقـــد وقع من بين رجال الفصيلة البالغ عددهم ١٥٠، بين قتيل وجريح، ١٢٠ رجلاً. وقد توجت هذا اليوم المشهود أعمال لا عد لها ولا حصر من أعمال البسالة الشخصية . وقـد كان الجنود الليبيون يقاتلون ببسالة وبطولة لا تقـل عن بطولة الجنود الأريتريين في « الحشادية » ، وتغلبوا مرة ثانية على التردد الذي ظهر على البعض بسبب ضعف إيمانهم ، فلم يتوقف واحد منهم عن القتال أو يتراجع ، بل قاتلوا جميعـاً قتال الأسود . ولا يزال هناك أيضاً حتى اليوم في « بئر تارسين » نصب تذكاري من

الرخام دليلاً على البسالة الليبية سوف يحكي للسلف عن عظم قدرة جنسنا وحسن استعداده لامتلاك نفوس رعايانا، حتى استطاع أن يتخذ منهم أداة حربية متينة لها إيمان وبسالة لا غبار عليها . وهذا نص ما هو مسطر على هذا النصب :

إن هذه الصخرة الجرداء تشهد وتروي أسطورة من أساطير البطولة ...
فإن حفنة من العساكر ، ذوي الأوشحة السوداء والبيضاء والحمراء ،
كانت في مباراة نبيلة من فجر يوم ٢٦ مايو ١٩٢٥ حتى غروبه ،
واستطاعت المحافظة على مواقعها بكل ما فيها من قوة ،
ولم تتراجع أمام قوة العدو ،
ولم تضعف أمام ريح « منطقة القبائل » الملتهبة ،
ولكن بعد ثلاث عشرة ساعة ،
انقضت في صراع مستميت ،
تراجعت جماعة الثوار الغادرة وهي لا تلوي على شيء .

* * *

إيه يا ملازم « فيورنزا » !
يا من فقدت كلتي عينيك ،
في أثناء المهاجمات المضادة العنيفة ،
وأنت تحتفظ بمنظر البطولة النابضة ،
يجب أن تؤمن بأن هؤلاء الأبطال ،
قد ضحوا بأنفسهم هنا لكي يكرسوا ،
لروما الخالدة ولأمبراطوريتها المقبلة ،
هذا الشاطىء الرابع .

* * *

وفي مقدور الجميع أن يغبطونا من أجل قواتنا الأريترية والليبية المدهشة التي قدمت الكثير من الأدلة في ميادين القتال في الحبشة وفي ليبيا على شجاعتها وإخلاصها اذ كانت تتألف منها أداة حربية غاية في الروعة .

وقــد عرفت قلوب الضباط الاستعماريين الايطاليين ونفوسهم ، كما عرف المثل الذي ضربوه بحب وبشغف ، كيف تخلق هــذه الاداة وتبلغ بها أقصى درجات الكمال .

ويشعر عساكرنا اليوم بأنهم ليسوا مجرد أداة من المرتزقة في أيدينا ولكنهم يحسون بأنهم جزء مكمل ، ذو ضمير واع للأم العظيمة ايطاليا ، ويهرعون عندما تدعوهم في وقت الحرب طواعية واختيــاراً وهم على استعداد للتضحية بالنفس والنفيس .

ولقد كانت الكتائب الليبية أثناء الاستيلاء على ليبيا وأثناء اعادة احتلالها تقاتل الى جانب الكتائب الاريترية ببسالة وغيرة جديرتين بكل اعجاب ، ولم يخل احد من افرادها بواجب الإخلاص والزمالة .

واننا لنفخر كل الفخر بأننا نستطيع ان ننظر الى قواتنــا الاستعماريـة المدهشة ونحن على يقين من ان في مقدورنا ان نسوقها دائمــاً وفي كل مكان الى النصر . ويجب على شباب الضباط ان يتولوا قيادتها وهم واثقون من انهم سوف يجدون فيها اخلاصاً لا حد له وبسالة وبطولة وروحاً حربية منقطعة النظير .

اول تغلغل في « منطقة القبائل » .

كان ادق قطاع من القطاعات في سنة ١٩٢٦ هو الجهة الجنوبية الغربية من « غدامس » حيث كان التنظيم الدفاعي فيمثلث «غدامس–درج – سناون » قد سار الى الامام وبمنتهى السرعة بإقامة ثلاث نقط ارتكاز لقوات القطاع الخفيفة . وكان رجال منطقة « الزنتان » القائمة على الشاطىء الغربي قد قاوموا في ابريل

واغسطس بهجماتهم بواسطة « محلة » قوامها ٣٠٠ رجل .

ومع ذلك فقد انهزموا وصدوا بعد أن تحملوا خسائر فادحة على أيـــدي الألاي الصحراوي الأول بقيـــادة الصاغ « جروتي » (في يوم ٩ ابريل في بئر العصمان ، وفي يوم ٥ أغسطس في « القطأر » على مسافة ستين كيلو متراً جنوب شرقي « غدامس » ، ولم يجرؤوا بعد ذلك على الاقتراب من خطوطنا .

ولقد انقضت سنة ١٩٢٧ دون أن يقع أي حادث حربي . كما أن أعمـــال السلب قد أصبحت صعبة بسبب الإجراءات التي اتخذت في كل مكان ، وبسبب استقرار الموقف السياسي في « منطقة القبائل » وتناقصت تناقصاً كبيراً .

ومع هذا فقد كان الجميع يشعرون في كل مكان في معسكرات الثوار وفي البلاد التي تم إخضاعها باقتراب نزولنا إلى الجنوب الذي كان منتظراً .

وفي آخر سنة ١٩٢٧ كان التنظيم العسكري في البلاد التي أعيد الاستيلاء عليها والتي انشئت فيها شبكة طرق كبيرة – من الممكن أن يقـــال عنه إنه تنظيم كامل .

وكانت القوات التي تم تدريبها على أحسن وجه وبواسطة الجنرال «مالادرا» والجنرال « تشيكونتي » اللذين تواليـا على القيـادة بعد الجنرال « تارانتو » – لا تنتظر إلا صدور الأمر إليها لاستئناف تحركاتها.

كانت قد نضجت في تلك الأثناء بعض أحداث سياسية هامة قد عملت على توضيح موقفنا الخارجي أكثر من ذي قبل .

وكانت قيادة منطقة الجنوب منذ سنة ١٩٢٥ قد عقدت اتصـــالات في « مرزق » البعيدة « بخليفة زاوية» : [هنا كتب المؤلف في الهامش ملحوظة تضمنت ما يأتي] :

« ولد « خليفة زاوية » في بـــلدة الزاوية عام ١٨٨٩ والتحق بالمدرسة

العسكرية في طرابلس ثم المدرسة العسكرية بالقسطنطينية . ولكن نظراً لعدم كفاءته في تخطي الاختبارات التي تؤهله لأن يصبح ضابطاً انخرط في الجيش التركي برتبة ضابط تحت الاختبار ، وألحق بالفيلق السابع في اليمن حيث بقي فيها في سني ١٩١١-١٢-١٣-١٤ .ولذلك لم يشترك في الحرب الإيطالية التركية .

وفي سنة ١٩١٥ نزل في مدينة الاسكندرية بمصر ووصل منها الى « مصراتة » عن طريق البر ، ولم يلبث أن توجه بعد ذلك ضمن قوات الصاغ التركي « صاحب بك » إلى « فزان » . ونظراً لتولي الصاغ المذكور حكم « فزان » باسم الحكومة التركية بقي « خليفة » إلى جانبه يعمل كسكرتير له حتى شهر نوفمبر من عام ١٩١٨ . أي حتى استدعت الحكومة التركية ضابطها وطلبت منه العودة إلى وطنه . وكان على أثر ذلك أن بقي « خليفة » بمفرده وحكم « فزان » كحاكم عسكري لها في مبدأ الأمر ثم كمتصرف لكافة انحاء الإقليم .

وكان « خليفة » — سواء أثناء وجود الحاكم التركي « صاحب بك » في « فزان » أو بعد سفره — قد حارب حرباً حالفه فيها النصر ضد مبعوثي السنوسية بادىء ذي بدء ، ثم ضد الزعماء المحليين الذين كانوا يتآمرون ليحلوا محله في حكم الاقليم .

وفي سنة ١٩١٨ بعث « خليفة » — بصفته متصرفاً لمدينة « فزان » — مندوباً الى طرابلس (« أحمد العياط » زعيم أولاد بوسيف) ليسلم الى صاحب السعادة الحاكم العام السنيور « ميركاتيللي » بعض خطابات صرح فيها أنه يظهر لولاء والخضوع للحكومة الإيطالية . ثم استمر على اتصال بالحكومة الإيطالية عن طريق المراسلة بواسطة قيادات هذا الإقليم .

الا انه — نظراً لمعارضته في امداد زعماء الثوار من جديد بالاسلحة والمؤن — وقع في نزاع معهم ونجح في ان ضرب اولاً « عبد النبي بالخير » ثم « عبد الجليل

سيف النصر » . على ان الحظ لم يبتسم له طويلاً عندما جمع الزعيمان المذكوران آنفاً « محلاتهما » واصطدما معه في « الزيتونة » ونجحا في ضرب « خليفة » الذي ما كان منه وقد اصيب بالهزيمة إلا أن انسحب الى « مرزق »، حيث بقي محصوراً فيها مدى ثمانية أشهر . ولذلك تحتم عليه بسبب نفاد الأقوات لديه أن يرضخ لإرادة الزعيمين « عبد الجليل سيف النصر » و « عبد النبي بالخير » اللذين بعد أن أصبحا منتصرين عملا على تحطيم « خليفة » والتخلص منه ، فعهدا به أولاً الى « أحمد السني » ثم الى « سالم بن عبد النبي » .

بيد ان « خليفة » استطاع الفرار من بين يدي هـذا الأخير وتوجه الى « الطابونية » (١٩٢٦) حيث لاقى شعـوراً عدائياً ، سواءً من جانب زعماء « أولاد بوسيف » أو من مدير المشاشي وقتئذ : « محمد بن حاج حسن » .

على أن زعماء أولاد بوسيف تذرعوا بحجة إصلاح الأضرار التي أحدثها من قبل رجال « خليفة » المسلحون ، واستطاعوا بذلك ان ينتزعوا منه ما كان قد بقي في حوزته من ثروة بما في ذلك جواده وخادمه وبندقيته وجمله .

أما محمد بن حاج حسن فقد أبقاه سجيناً حتى لا يستطيع مراسلة الحكومة الإيطالية .

لكن « خليفة زاوية » ، وقد وجد نفسه في هذا الضيق الشديـد ، انتهز فرصة حديث تبادله مع الشيخ « احمد قرزة » وتمكن من الابتعاد عن مدينـة « الطابونية » وان يجد له موئلاً في « مزدة » ، حيث قدم نفسه إلى سلطاتنا ومن ثم وصل الى « غريان » واستقبل فيها باحترام بالغ . وسرعان ما انخرط في صفوفنا .

إنه رجل يتحلى بالإخلاص والشجاعة النادرة ، ويتمتع بقـوة الشخصية وله تأثير كبير على جنوده ، وبوجه عام على كل العرب في « فزان » و « منطقة القبائل » ، كما أدى خدمات جليلة بصفته قائداً للقوات المسلحـة . ولسوف

يكون في مقدوره ان يؤدي خدمات أخرى طالما أنه يضمر كثيراً من الحقد والكراهية لكافة المتحدثين بلسان الثوار وزعمائهم الذين أصلوه كل نوع من أنواع الضيق والعذاب » .

* * *

ولقد كان « خليفة » يحكم « فزان » في ذلك الوقت حكماً مستقلاً ، كما كان يعلن أمام كل زعماء الثورة الآخرين ميله إلى الاستناد الى الحكومة الايطاليـة ، ثقةً منه في أننا سننزل في « فزان » بأسرع وقت ممكن ، وكان هـو من غير شك سيعمل على تسهيل هذا النزول وشد أزره . وكانت قد عقـدت في ذلك الوقت علاقات وثيقة مع «أبي بكر القوي » زعيم « غات » الذي تم تعيينه قائمقاماً واعترفنا به ممثلاً وطنياً لنا في تلك الواحة النائية التي لم نقم بعد بإعـادة احتلالها .

كان الموقف في « منطقة القبائل » على العكس من ذلك في نهاية ١٩٢٥ يزداد تأزماً وغموضاً ، ويدعو الى التردد وعدم الثقة . إذ اختلط المـوالون لنا بجماعة الثوار ، مما أدى إلى صعوبة القيام بعمل كبير يهدف إلى تهدئـة البدو الرحل وتركيزهم .

ورغبة في تصفية الموقف قام الجنرال « جراتزياني » قائد مناطق الجنوب بصحبة جميع أعيـان (أولاد بوسيف) الذين كانوا قد جاءوا الى طرابلس في شهر أغسطس لإظهار ولائهـم واحترامهم للحكومة الإيطالية مـع مدير جماعة « المشاشى » محمد بن حاج حسن ويوسف خربيش. ثم انتقل فجأة إلى « القريات الشرقية » عن طريق « بني وليد » و « الشميخ » و « طاطرت » و « المـرّة » و « زطار » . ثم وصـل بعد ذلـك إلى « القريات » و « تويجية » ليعقد علاقات ودية مـع « احمد البدوي » زعيم « الزنتان » الذي أنزلت بعض العناصر المغرضة الخوف في قلبه منا فآثر التوجه إلى « فزان » .

قام الجنرال « جراتزياني » بعد ذلك بالزحف شمالاً تجاه « مزدة »، وكانت

قواته تعمل على نزع السلاح من جميع اهالي « الزنتان » الذين كانوا لا يزالـون يقيمون فيما بين هذه الواحة و « القريات » ، وأجبرتهم على العودة إلى « الجبل » .

ولما كان الغرض من هذه التحركات كلها غرضاً سلمياً بحتاً فإن قوات الجنرال « جراتزياني » لم تلجأ إلى استخدام أعمال العنف والقوة ضد أي فرد من الأهالي ، كما لم تقع أية اشتباكات عسكرية .

وكان من شأن التحركات التي استمرت من يوم ٨ الى ٣١ اغسطس ، أي في الحقبة التي تبلغ فيها درجة الحرارة أقصاها ، أن كانت أول إنـذار للبدو الرحل في (منطقة القبائل) الذين وجدوا – والدهشة آخذة منهم كل مأخذ – أن استحالة الدخول الى (منطقة القبائل) كانت امراً لا معنى له ، حتى ولو كان ذلك في فصل الصيف ازاء تنظيماتنا الكاملة التي كانت قد اصبحت من الآن فصاعداً قادرة على التغلب على اية صعوبة من الصعوبات .

كذلك كانت النتـائج التي حصلنا عليها في الحقل السياسي عظيمة الأهمية ، لأنها أوضحت اتجاهات الرجال والمحاربين بجـلاء . إذ كشفت فيما كشفت عن نيات الزعماء الوطنيين الذين كان يعتمد عليهم عملنا السياسي في « الجبـل » و « منطقة القبائل » .

كان « يوسف خربيش » يحبذ هذا العمل كثيراً لكي يستفيد منه لمصلحته الشخصية إذا ما أدى الى بعض العمليات الحربية ، وكان يأمل أن ينال من ذلك كثيراً من المغانم التي حرم من الحصول عليها مما بدد كل ما كان يعقده من الآمال .

كان يأمل ايضاً أن تتغير السياسة في « منطقة القبائل » نتيجة لهذه العملية العسكرية التي كانت تجعل وجوده في « الجبل » أمراً ضرورياً لا مناص منه .

ولما كان يشعر بغيرة شديدة من « محمد بن حاج حسن » ويحسده على نفوذه المتزايد فإن ذلك قد ساعد على زيادة المخاوف التي كان يشعر بها بسبب اخطائه

التي ارتكبها في سنة ١٩١٥ ، كما ساعد على تشجيعه على ما ارتكب بعد ذلك من خيانة .

ولما كانت مصلحة « يوسف خربيش» الشخصية وأطماعه قد أعمت بصيرته ، فإنه قد طمس ماضيه بيديه ، وهذا مثل واضح على ما يحدثه جشـــع الزعماء الوطنيين من أثر على نفوسهم .

ومع هذا فقد كان من اللازم اقصاؤه عن « الجبل » حيث كان من الممكن أن يكون من الآن فصاعداً سبباً في الضرر، ولو أنه لم تكن قد نسيت الخدمات الكبيرة التي أداها . وبعد فترة عزل طويلة عن العمل السياسي اضطر في سنة ١٩٢٦ لتقديم استقالته من قيـادة الجيش المساعد والى الانسحـاب إلى طرابلس بعيداً عن كل نشاط سياسي وعسكري .

تمرد « محمد بن حاج حسن » مدير « المشاشي » .

في نفس ذلك الوقت وقعت خيانة من « محمد بن حاج حسن » الذي لم يتقدم الى سلطاتنا بعد العملية الحربية ضد « القريات » ؛ فقد أرسل بعد ذلك بقليل الخطاب التالي ، وهو وثيقة ناطقة تصور نفسية الرجل البدوي . اذ صرح في هذا الخطاب بتمرده وعصيانه . وهذا هو نصه :

إلى السنيور الجنرال « جرانزياني » ، قائد القوات الايطالية .
بعـد مزيد الاحترام .

أخبر سيادتكم بأنني تسلمت خطابكم المؤرخ في ٢٣ ديسمبر عام ١٩٢٦ الذي قرأته من أوله إلى آخره . إنكم تقولون إنني أخطأت بتعيين « محمدبنعامر» مدير « المقارحة » ، وهذا أمر لا أفهمه ؛لأنني أعرف أنه ليس من حقي أن اعين احداً في اية وظيفة في المنطقة الواقعة بين « مزدة » و « غريان » ولكني اعرف ايضاً انه لا أحد يستطيع ان يمنعني من ان اعمل ما أريد في المنطقة الممتدة من «مزدة»

إلى الجنوب ، اي تعيين « ابن عامر » او اي شخص آخر يعجبني اكثر من غـيره .

وانـكم تستطيعون ان تقولوا لي انني أخطأت ، وذلك فقط غندما يقوم أحد رجالي بالإضرار بأحد ممن استسلموا للحكومة .

إنـكم تقولون لي انني وددت معاقبة « سالم بن نصر » لأنه تقدم الى سيادتـكم . فإذا كنتم قد علمتم ذلك منه فإنني أقـرر لـكم بأنه كاذب ، ولـكنه على كل حال سوف ينال العقـاب الذي يستحقه ، لأنه لا يعمل للمصلحة العامة ، ولـكن لأغراضه السيئة دون غيرها . وهذا ما سترونه في المستقبل .

وإني أعتقد انه لم يكن من المناسب ان تقوموا انتم والحكومة بإعطاء مثل هذه الاهمية الكبيرة لشخص لم تقوموا بتجربته بعد ، وهذا مـا يدل على انـكم تبحثون عن إحداث الشقاق بين الناس وخرابهم .

أما فيما يتعلق بما توجهونه إليّ من لوم وتقريع لأنني ارسلت وفداً الى اهالي الشرق دون ان اطلب تصريحكم مقدماً : فإني اصرح بأنني فعلت ذلك لان كل ما يختص بمصالحنا واملاكنا نعرفه نحن حق المعرفة أكثر من غيرنا .

اننا لم نعمل في الماضي شيئاً مخالفاً لآراء الحكومة ومصالحها . انـكم تقولون إنه ليس في مقدور احد ان يمنع الحكومة من التقدم الى الامام نحو « منطقة القبائل » عند ما تريد ذلك . وهذه امور من العبث ان تقولوها لي . فإن سيادتـكم تعرفون أكـثر من أي انسان آخر اذا كانت الحكومة تستطيع أو لا تستطيع التقدم الى الامام . وكل ما أعرفه ان الحكومة قد تقدمت في الماضي عدة مرات في «منطقة القبائل» ولـكنها كانت في كل مرة تضطر الى الانسحاب منها . انـكم تقولون انني ضيق الصدر ، وان لساني لا يستطيع الكلام : وانه يهمني بهذا الشأن أن أخـبركم بأنني أود اسداء بعض النصائح للحكومـة ، ولـكنني

أعرف ايضاً ان الحكومة لا تستطيع قبولها ، ولو ان الحكومة لا تجهل أنها في محلها .

وانكم عندما تتقدمون سوف تبين لكم الاحوال وحدها اذا كان الحق معكم أو معي ، والزمن وحده هو الكفيل بإظهار ذلك .

انكم تقولون انني قد أوجدت المصاعب التي قد تعترض زحفكم نحو « منطقة القبائل » لإخافة الحكومة ؛ وهذا ليس صحيحاً، لانني قلت ذلك فقط من باب اسداء النصيحة للحكومة .

إنكم تقولون ان الحكومة تعرف كيف تتغلب على جميع المصاعب كما عرفت ذلك في سنة ١٩٢٥ في قلب فصل الصيف ، عندما سار الضباط الإيطاليون على الأقدام ورؤوسهم عارية ، بينما كنا نحن المولودون في «منطقة القبائل» نسير والمظلات في أيدينا. واني يهمني أن أحيطكم علماً أن أسود «منطقة القبائل» كانوا في ذلك الوقت ، هم وأتباعهم ، تحت سلطة الحكومة كما هو معلوم لدى سيادتكم حق العلم. انكم اذا أردتم أن تعرفوا من هو «صاحب الشمسية» فاسأل عن الكولونيل « جالياني » عندما قمت بمرافقته في حملته على (الحمادة)(وفي وادي الخيل)» ولسوف يعرف مرة ثانية اذا ما أبقاني الله في قيد الحياة .

انكم تقولون ان نصائحي في هذا الشأن لا جدوى منها ، وهذا ما أعرفه أنا وما تعرفونه أنتم ؛ وان كل ما أطلبه هو ان تصل خطاباتي الى صاحب السعادة الحاكم العام وأن يعرف ما فيها ، والى السكرتير العام ، والى قيادة الجيش حتى يكون هؤلاء في المستقبل شهوداً بيني وبينكم .

أما فيما يختص بما تقولونه من أن الحكومة سوف تعينني في منصب «قائمقام» المشاشى فإني أخبركم بأن المنصب الذي أشغله سواء في الماضي أو في المستقبل هو أهم بكثير في نظر الأهالي من منصب « قائمقام ». واني لا اطلب منكم توليتي في هذا المنصب ، لأن الامر كله بيد الله ، لانه وحده هو الذي يستطيع ان

يعز من يشاء ويذل من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء .

واما فيما يتعلق بما تطلبونه مني من عـــدم التدخل في المسائــل الخاصة (بالمقارحة) وغــيرهم فإني أؤكد لكم بأن (المقارحة) وغيرهم من الاهالي هم جميعاً على السواء تحت إمرتي ، ولا يجب عليكم ان تنخدعـــوا بما يقوله لكم اشخاص لا اهمية لهم بالمرة .

ثم انه فيما يختص بما تقولونه من انكم لا تقصدون تقسيم القيادة، فإني اخبركم بأنكم على حق اذا كان هذا يتعلق بالمناطق الشمالية ، طالمـــا كنا على وفاق ، ولكن اذا كان هذا يختص على العكس من ذلك(بمنطقة القبائل) فإنكم لستم محقين بأي شكل فيما كتبتموه اليّ . وانكم اذا لم تتركونا مطمئنين فإننا سوف نقوم بتقسيم منطقة (الجبل) ايضاً ، ما في ذلك شك . وفضلاً عن ذلك فإنكم اذا اردتم تحريم المراعي على ماشيتنا والاسواق على الاهالي فإن ذلك يدل على انكم تريدون فصم عرى كل علاقة بيننا ، وهو الامر الذي يبدو جلياً من انكم لا تريدون ارسال المرتبات إلى رجالي الذين سوف يجدون الوسيلة التي تكفل لهم الحصول على ما يعيشون منه بأيديهم ، ما فى ذلك شك ، وسوف يتجهون الى سوق اخرى .

ولما كنتم قد أصدرتم أمركم في خطابكم بأن أنتقــل من المنطقة المحتلة فإني سأتجه إلى مكان آخر في انتظار معرفة تحركاتكم ومقاصدكم .

ولقد علمت فضلاً عن ذلك بما تقولونه عني في « غريان » بالتفصيل ، وهو ما استطعت أن أتبينه من خطابكم ، وما اتضح لي من اتفاقكم مع « سالم بن نصر » .

تحريراً في ١٥ يناير ١٩٢٧

المخلص

« محمد بن الحاج حسن »

وفي يوم ٢٠ يناير أعلن الجنرال « جراتزياني » في « مزدة » عصيان المدير السابق « محمد بن حاج حسن » ، وتجريده من جميع الوظائف العامة. وكان هذا الرجل هو الآخر مثلاً على العقلية العربية الثائرة غير المستقرة والمتبجحة .

وبعد أن تم تطهير «الجبل» و«منطقة القبائل» على هذا النحو ، كان من اللازم القيام بعمل سريع من أعمال التنظيم حتى لا يكون لاختفاء الزعيمين الرئيسيين اللذين كان يعتمد عليهما عمل قائد مناطق الجنوب — أي تأثير على النـــاس ، وخاصة البدو الرحل ، ولا يؤدي بهم الى خيانتنا .

ولقد نجحنا فعلاً وخاصة بفضل «الشيخ أحمد قرزة» الذي عين وكيلاً لنا في « منطقة القبائل » ، في ابقاء جميع البدو الرحل ، وفي جعلهم يشعرون ان تغيير الزعـيم لا يعني تغيير خطة الحكومة .

وهكذا انسحب « محمد بن حاج حسن » الذي كان يأمل أن يسوق في معيته كل آل المشاشي — بمفرده ، بعد أن انهزم شر هزيمة في الميدان السياسي وفي « الشويرف » ، حيث بقي فيها طوال سنة ١٩٢٧ بعد ان حاول عبثاً في رحلة قام بها الى منطقة الشاطىء الحصول على تأييد زعمـــاء الثوار الذين كانوا لاجئين فيه . .

وفي أثناء ذلك كانت عملية السيطرة المباشرة على «الجبل» تزداد تركيزاً بعد إبعاد «خربيش» ، وبقي تحالف البدو الرحل في (منطقة القبائل) سليماً دون أن يعتوره أي نقص . وكان من شأن هذا الموقف — كما سنرى — أنه كان له في سنة ١٩٢٨ أثر غاية في الأهمية في حلقة العمليات التي تمت في المنطقة الواقعة على خط طول ٢٩ ° ، في ذلك الوقت .

وأثناء سنة ١٩٢٦ وقع حادث مشهود ، وهو مجيء «الدوتشي» الى طرابلس في يوم ١١ ابريل على أثر محاولة « الكامبيدوليو » ، تلك المحاولة التي امتدت بها بعض الايدي الاثيمة الاجنبية بتهديد حياة رجل هي أثمن ما تكون وألزم شيء

لإيطاليا . وكان الجرح الذي لم يكن قد اندمل بعد يخلع على صورة الرجل صرامة وقوة بارزة . وكان نزوله في أرض طرابلس أشبه شيء بتعميد جديد لمستقبلنا في البحر الابيض المتوسط ، الذي اصطبغ بلون ذلك الدم سال في « الكامبيدوليو » . وبهذا ان اسطورة الجنس الإيطالي قد بعثت من جديد لتعمل على عظمته المستقبلة .

كان الاهالي العرب يرتعبون منه ، وخلعوا عليه بسبب ما في الإنسان من ميل طبيعي للتشبيه اسم « اسد اوربا ». وقد حدثهم « الدوتشي » وهو ممتطٍ صهوة جواده في ميدان القلعة المواجه لبحرنا « بحر ايطاليا » قائلاً :

« ان عاهلنا القوي العظيم ، صاحب الجلالة الملك « فيكتور عمانوئيل » الثالث ، الذي يحميه الله العلي العظيم والذي يحبه الشعب جميعه حباً جماً ، قد تفضل بإيفادي الى هذه الارض التي أصبحت ايطالية نهائياً .

« انني اعرف انكم تحترمون قانون عاهلي ومليكي العظيم ، وسوف يكون هذا ، الآن وغداً والى الأبد ؛ وانكم اذا ما اطعتم اوامر عاهل ايطاليا العظيم فلسوف تحميكم قوانينه العادلة .

« ان صاحب الجلالة الملك والحكومة الإيطالية التي أتشرف بأن أكون على رأسها ، يريد ان تعود هذه الارض التي لا تزال آثار روما خالدة في ربوعها — الى ازدهارها وسعادتها وثرائها .

« إني اطلب من الله العلي العظيم ، الذي بيده أمر الحرب والسلم ان يكلأكم برعايته .

« ليحي الملك . ليحي الملك . ليحي الملك » .

* * *

ولقد نزل الملك الظافر في طرابلس بعد ذلك إجابة للدعوات التي تلقاها

في ١٨ ابريل ١٩٢٨ ، وفي يوم عيد « ميلاد روما » منــــح الميداليات لأبطال « بئرتاقرفت » .

كان وصول العاهل العظيم في نظر الأهالي المستبشرين حدثاً مشهوداً ، كما كان بالنسبة للمستوطنين الإيطاليين يوم فرح عظيم ، لأن الجميع قد فهموا اخيراً ان المستعمرات شأنها شأن الوطن الإيطالي ، سواء بسواء .

الفصل السابع

عمليات المنطقة الواقعة على خط طول ٢٩°

عمليات المنطقة الواقعة على خط طول ٢٩°

كانت ضرورة دفع قواتنا لاحتلال المنـاطق الجنوبية تفرض علينا أن نجد قبل كل شيء حلاً لمسألة المناطق الشرقية الممتدة بين « سرت » و «جدابية » . فقد كانت تسكن فيها عشائر « المغاربة » التي لم تخضع قط لحكمنا منذ سنة ١٩١١ حتى الآن ، والتي كانت على العكس من ذلك قد أنزلت بنا أضراراً في حوادث مؤلمة وغارات بقيت دون أن ينتقم لها أحد .

ولقد كان زعيمها الرئيسي هو « صالح الأطيوش » ، الذي كان مع ذلك لا يخضع له خضوعاً تاماً إلا فرع « الرعيضات » دون غيره ، وهو الفرع الراجح في المنطقة الممتدة نحو« النوفلية » . أما فرع « الشماخ » فإنه كان يستند على العكس من ذلك على برقة « العقيلة – جدابية » .

كان صاحب السعادة السنيور « فيدارزوني » ، الذي تولى مهـام وزارة المستعمرات منذ ديسمبر ١٩٢٦ ، قد عرض للبحث على مجـلس الوزراء مشروع

---

١ – إنني أطرق في هذا البحث – بصورة أساسية – الجانب الخاص بطرابلس الغرب ،وأشير إشارة عابرة إلى الجانب الخاص بإقليم برقة ; كما أحيل الباحث الذي يرغب في الحصول على معلومات مستفيضة إلى كتاب « اودوريكورالز » المعروف باسم عمليات المنطقة الشمالية الواقعة على خط طول ٢٩ » .

القيام بحلقة من عمليات حربية تتم في وقت واحد على أيدي قوات المستعمرتين الليبيتين ترمي إلى احتـلال جميع الأراضي الشمالية الواقعة على خط طول ٢٩° احتلالاً نهائياً . وكان الهدف من هذه العمليات هو :

حافة أراضي طرابلس الغرب وبرقـــة الساحلية عن طريق « النوفلية » و « العقيلة » و « جدابية » وإعـادة احتلال جميع الواحات الجنوبية (العقيلة وجالو ومرادة وزلة وودان وهون وسوكنة) ، والعمل على إخضاع عشـــائر المغاربة أو الاستيلاء على بلادهم .

بدأت هذه العمليات في يناير سنة ١٩٢٨ بعد الانتهاء من عملية التطهير التي تمت في جبل برقة في صيف عام ١٩٢٧ ، وبعد احتـــلال « الفتاقي » والعقيـلة الذي تم بمعاونة عشائر المغاربة و « الشماخ » في الخريف التالي. ولقد قسمت هذه العمليات على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : تتم على « النوفلية – مردومة » بواسطة قوات الألايين ثم احتلال « بونجيم » من جانب قوات طرابلس الغرب وتطهـــير وادي « فرج » بواسطة قوات برقة (من اول يناير الى ٥ فبراير) .

المرحلة الثانية : احتلال واحتي (الجفرة) و (زلة) عن طريق طرابلس الغرب ثم احتلال (اوجلة) و (جالو) و (مرادة) عن طريق برقة (من ٢٨ يناير الى ١٨ مارس) .

المرحلة الثالثة : تطهير منطقة « سرت » بأكملهـا بين «النوفلية» و « زلة » و (مرادة) و(العقيلة) وبين (سرت) و (أبونجيم) و (ودان) مع احتلال آبار (تاقرفت) احتلالاً نهائياً (من ٤ إلى ٣٠ مايو) .

ولقد كان الموقف في طرابلس الغرب في نهاية سنة ١٩٢٧ كما يلي :

في الغرب ، كان البدو الرحل في (منطقة القبائل) المتحالفون معنا والذين

كانوا على جانب كبير من القوة – يقدمون أكبر ضمان لمؤازرتنا ، مما يضمن سلامة الجناح الأيمن للقوات التي تقوم بالعمليات الموجهة الى « بونجيم – سوكنة » في الشرق ، بين « سرت » و «النوفلية » ، كان هناك « صالح الاطيوش » مع جميع عشائر «مغاربة الرعيضات» مع بعض وحدات الفارين التي قام بتجنيدها هؤلاء (القذاذفة وحسون واهالي ورفلة) ، وكان مسلكهم غامضاً ومشكوكاً فيه .

ولقد كان زعيم المغاربة في الواقع على اتصال بقائد المنطقة الشرقية الجنرال « ميتزتي » ، منذ الشهور الأولى من عام ١٩٢٧ . وكانت قد بذلت كل محاولة لحمله على التقدم إلى الحكومة ، ولكي يقوم بهذه الطريقة بإعلان استسلامه . وكانت أسواق « سرت » مفتوحة أمامه وأمام رجاله منذ عدة أشهر . ولكن كل هذا كان لا جدوى منه أمام عقليته التي لا تلين وغطرسته بوصفه زعيماً متعصباً متعجرفاً . وكان يهدف إلى الحصول على إنابتـه عن الحكومة في حكم منطقة « سرت » بأسرها مع تخويله كافة السلطات .

وكان برنامجه هذا الذي وضعه هو لنفسه قد أوضحه بكل دقة أثناء اتصالاته التي تمت بعد ذلك مع الجنرال « جراتزياني » من شهر يوليو ١٩٢٨ الى ديسمبر من تلك السنة . أي حتى بدء العمليات الحربية التي كان قد اعتقد أنه لم يكن من الواجب توجيهها نحو الشرق بل من باب أولى نحو الجنوب ، كما دلت على ذلك تكتلات القوات حول « ثمد حسان » وهي رأس «بونجيم – سوكنة» تلك التكتلات التي أرادتها قيادة قوات طرابلس الغرب بعد مشاورة وتفكير بقصد المباغتة . وقد ذاعت الشائعات حول هذا الأمر على أوسع نطاق. وأجاب «صالح الاطيوش » في آخر خطاب له كان رداً على عرض تقدمت به الحكومة بعمل تسوية معه على غرار تلك التسوية التي تمت لبدو «منطقة القبائل» الرحل بأن طلب تأليف كتيبة تحت إمرته . وقد قدم عن هذه الكتيبة بياناً بطريقة تشكيلها وعدد قواتها ونظامها ... (قوامها ألف بندقية) .

وقد وصل هذا الخطاب إلى « سرت » في يوم ٨ يناير بعد أن كانت القوات

قد قامت في يوم ٣ يناير من « ثمد حسان » وكانت قد بدأت ضغطها على « النوفلية » . وكان هذا هو الجواب المقنع السديد الذي كان من الممكن الرد به على غطرسة ذلك الزعيم وعدم فهمه وجشعه .

أما موقف المحاربين الثوار الآخرين في آخر سنة ١٩٢٧ فقد كان كما يلي :

اولاد سليمان مع « القذاذفة » . وأهالي « ورفلة » وبعض الفارين الآخرين في أراضي « الجفرة » و « زلة » و « تاقرفت » « حوالي ١٥٠٠ » .

وفي الشاطىء الشرقي وحدات من أولاد « أبي سيف » و « الجعافرة » و « العواتى » المنشقون .

وفي الشاطىء الغربي « الزنتان » و «الرجبان» و« الطوارق » و « المشاشي » المنشقون وغيرهم من الفارين من « الجبل » .

عمليات المرحلة الأولى .

تألفت ثلاثة فيالق :

الفيلق (أ) : « بقيادة الجنرال جراتزياني » يتألف على هذا النحو :

أربع كتائب « الكتيبتان ، الأولى والرابعة الليبيتان ، والكتيبتان الاريترتيان العشرون والخامسة والعشرون) .

وحدتان من وحدات الصحراء « الثالثة والرابعة » .

طابوران من الخيالة « السباهيس » بقيادة من السواري .

وحدة غير نظامية من « الجفرة » « خليفة زاوية » .

بطارية ليبية .

قافلة من حوالي ٢٩٠٠ جمل .

خدمات .

كان هذا الفيلق مخصصاً للقيام بالعمليات الحربية في منطقة «سرت» الشرقية الموجهة ضد «مغاربة الرعيضات» وغيرهم من المحاربين بالتعاون مع ألاي قوات برقة القادم من « العقيلة » .

وكان هذا الفيلق مقسماً على النحو التالي :

قوة بقيادة الكولونيل « جالينا » مؤلفة من الكتيبتين الخامسة والعشرين الأريترية والأولى الليبية .

قوة بقيادة الكولونيل « ماريوتي » مؤلفة من الكتيبة الليبية الرابعة والكتيبة العشرين الأريترية والبطارية الليبية الثالثة .

القوة الخفيفة بقيادة دوق « بوليي » المؤلفة من الوحدتين الصحراويتين الثالثة والرابعة ، وطوابير الخيالة « السباهيس » وقوات « الجفرة » غير النظامية والقافلة .

الفيلق (ب) : (بقيادة الكولونيل بنتور) ويتألف من :

ثلاث كتائب (السادسة الليبية والسابعة عشرة والتاسعة عشرة الاريتريتين) .

طابور من السواري (الخامس) .

طابور من الخيالة « السباهيس » .

بطارية ليبية .

والقافلة .

وكان هذا الفيلق مخصصاً للقيام بالعمليات الحربية الموجهة الى « سوكنة » بحيث لا تتجاوز منطقة « بونجيم – الفاطمية » .

الفيلق (جـ) : (احتياطي بقيادة الليفتنانت كولونيل لافيولا) ويتألف من : الكتيبة السادسة والعشرين الاريترية .

والطابورين الرابع والسابع السواري .

أما قائد الفرقـــة الجنرال « لويجي تشيكونتي » الملحق بقوات طرابلس الغرب فقد أسندت إليه قيادة وتنظيم قوات طرابلس الغرب وقوات برقة التي تقوم بالعمليات الحربية في اتجاه « مردومة » .

وفي يوم ٣ يناير بدأ الفيلق (أ) تحركه من قاعـدة « ثمـد حسان » متجهاً الى « بئر مطراو » .

احتلال بونجيم والزحف على « النوفلية » .

وفي يوم ٤ يناير انتقل الفيلق (ب) من « بئر الوشكة » إلى بئر « الزيدن » ثم تقدم بعد ذلك نحو « بونجيم » ووصل إلى الواحـــة في يوم ٦ دون إطلاق رصاصة واحدة .

وهكذا تم احتلال الواحة حيث تثوي عظام الضباط الأبطـال الذين قتلوا دون أن ينتقم لهم أحد ؛ أولئك الضباط الذين ماتوا ميتة مجيدة في فبراير سنة ١٩١٥ وهم اليوزباشي « دي مانداتو » والمـلازم أول « براندي » والملازم أول « بروكوبيو » . وقد استمر زحف الفيلق (أ) أيام ٤ و ٥ و ٦ و ٧ عن طريق خط آبار « سرت » الجنوبي (بئر الربيعية وبئر النقدية وبئر القرين) .

وفي يومي ٦ و ٧ تم تطهير « وادي هراوة » بمناورة سريعة وعلى حين غفلة. وبعد ذلك تم نزع سلاح أهـالي « ورفلة » و « الحسون » الذين كانوا يقيمون في تلك المنطقة ، والذين كانوا على اتصال بطريق المراسلة مع سلطات «سرت » من وقت بعيد ، بينما كانوا يعملون كطلائع لزعيم المغاربة الذي كانوا في الواقـــع يخضعون له ويطيعون أوامره .

ومن صباح اليوم السابع حتى مسائه كان هذا الزعيم على علم بتحركاتنا . وكانت كل مفاجأة من جانبنا لا جدوى منها . وكل ما كان باقياً لنا هو الأمل في أن يكون « صالح الأطيوش » على جهل بحركة العمليات التي تقوم بهـا قوات برقة المتعاونة معنا ، فيقبل الاشتباك في المعركة ويتجه بكل قواته نحونا .

في مثل هذا الموقف لم يكن لنا بد من الإسراع في الزحف بأقصى جهد على « النوفلية ». ثم استؤنف الزحف في صباح اليوم الثامن ، وكان الهـدف هو بئر « أم الدوّاي » .

وقد أمكن من الأخبار التي لم تكن دقيقة كل الدقـة ، والتي تسلمها الفيلق أثناء الزحف ، أن يستنتج أن هناك بدءاً في حركة تنقلات في مخيمات المغـاربة المنتشرة على نطاق واسع في الوديان الممتدة بين « النوفلية » و« مردومة » .

ولذلك فإن القائد ، بعد أن وصل إلى آبار « ام الدوّاي » في ساعة متأخرة من بعد ظهر يوم ٨ ، قرر الاستمرار في الزحف بعد أن يستريح بضعة ساعات لا أكثر ، وأن يترك القافلة المتأخرة لكي يزحف بأقصى سرعة .

وقد تألف لهـــذا الغرض فيلق تحت إمرة الجنرال « جراتزياني » مباشرة (قوامه ثلاث كتائب وبطارية وطوابير صحراوية ومن الخيـالة « السباهيس » تحمل مؤونة ثلاثة أيام) . وكان قائد المشاة هو الكولونيل جالينا كما كان يقود القوات الراكبة دوق (بوليي) . وبقيت القـافلة في (ام الدوّاي) تقوم على حراستها القوات المتبقية (الكتيبة الليبية الرابعة وقسم من المدفعية ونصف طابور السباهيس) بقيادة الكولونيل « ماريوتي » .

وقد صدر إليها الأمر بالوصول إلى « النوفلية » بمجرد أن تتلقى خبراً من المحطة اللاسلكية أو من الطيارين بأنه قد تم احتلالها .

وقد بدأ الفيلق الخفيف زحفـــه دون أن يعوقه أي عائق حوالي الساعة الثانية من صباح يوم ٩ ، وساعده على هذا الزحف نور القمر الساطع .

وفي تمام الساعة الثامنة اصطدمت دورية الخيالة (السباهيس) بقيادة الصول (جودتشي) ببعض فرسان العدو ، وبدا أنه قد اقتربت اللحظة التي ينتظرها الجميع ويشتاقون اليها .

ولكن في الساعة ٨ والدقيقة ٣٥ أبلغت إحدى الطائرات أن خيام العـدو التي كانت قائمة في ضواحي « النوفلية » قد انتزعت من أماكنها ، وأن جميع الأراضي المحيطة بها كانت تبدو خالية . وكانت المسألة إذن مسألة مناوشات من قبل مؤخرة العدو .

احتلال زاوية « النوفلية » (٩ يناير ١٩٢٨) .

وفي الساعة التاسعة بدأ الصول «جودتشي» فعلاً باحتلال « زاوية النوفلية » دون أن يلاقي أية مقاومة . ولما اندفع مع رجاله السباهيس لتعقب العدو استطاع أن يدركهم وينقض عليهم بعد وقت طويل وبذل دمه في سبيل هذا الاحتلال الجديد .

وهكذا رفض العدو قبول الدخول في المعركة وتقهقر نحو الجنوب والجنوب الشرقي في أقصر وقت ممكن .

ولقد ثبت فعلاً أن « صالح الأطيوش » ، بعد أن تلقى خبراً في ليلة ٨ عن وصولنا إلى وادي « هراوة » ، سرعان ما أصدر أمره إلى مخيماته بالانسحاب في اتجاه « جيفة » . ولم تلق الدعوة التي وجهت إلى الأهالي آذاناً صاغية ، وذهبت ادراج الرياح تلك الدعوة التي وجهها الطيارون في منشورات ألقوا بها في صباح يوم ٨ على وجه التحديد ، وتم احتلال « زاوية النوفلية » .

ولما كان العدو الذي شاهده الطيارون على مسافة عشرين كيلو متراً في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي قد سنحت له الفرصة للانسحاب ، لذلك لم يبق لنا إلا أن نتعقبه بالطائرات والفرسان . ولقد تم ذلك بالفعل بكل شدة بواسطة

جميع الطيارين القادمين من « سرت » ومن جانب قوات الخيالة « السباهيس » التي استطاعت بقيادة اليوزباشي « ايموني » الاتصال بمؤخرة العدو والاستيلاء على كثير من الخيام والماشية وعلى حوالي مائة بندقية . وقد كان الأسف كبيراً لخلاص جموع الثوار المسلحين من هذا المأزق .

ولما كان (صالح الأطيوش) متأكداً من أننا سوف نفعل كما فعلنا في سنة ١٩١٨ ولن نتقدم نحو الشرق، ولكننا سنتجه من (ثمد حسان) إلى (سوكنة)، فقد أغفل إصدار الأمر بجمع شتات المسلحين المذكورين الذين كانوا قد تفرقوا على خط يبلغ طوله حوالي سبعين كيلو متراً بين (النوفلية) و (مردومة) . وإذا ما اضيف إلى ذلك ضرورة إخلاء المخيمات بأسرع ما يمكن فإنه يمكننا أن نستنتج أن قرار زعيم الثوار بإصداره أمره بانسحاب رجاله في الوقت المناسب كان قراراً حكيماً . وبدون هذه الظروف فإنه كان لا بد له من الدخول في معركة لإنقاذ هيبته ومقامه بوصفه زعيماً كبيراً ذا سلطة واسعة ، بعد أن تزعزعت هذه الهيبة في نظر الناس الذين فقدوا كل أغنامهم تقريباً (حوالي ٢٠٠٠٠ رأس) وعدداً كبيراً من جمالهم وتحملوا خسائر فادحة انزلتها بهم الطائرات .

لم يكن من الممكن ان تكون عمليات القوات الحربية على العكس من ذلك أسرع ولا أدق مما كانت ؛ وفضلاً عن ذلك فإن ترك القافلة في المؤخرة تحت حراسة قوية خلع على العملية الحربية صفة الجرأة والشجاعة التي كانت تفرضها الظروف .

وفي الحق ، إنه من أخطر الأمور فصل المهمات الثقيلة عن القوات الحربية . فقد حدثت كوارث ليست قليلة بسبب ذلك في الحملات الاستعمارية .

ولقد أشرت في مكان آخر من هذا الكتاب إلى أهمية وجود القافلة في ذيل الألايات التي تقوم بالعمليات الحربية لأنها أعظم من أن تنفصل عن نقط ارتكازها . إذ أنه لا يمكن للقوات الزاحفة أن تعيش على الموارد

المحلية وحدها ، كما يحدث غالباً في الحروب الاستعمارية ، ولا يمكن إيجاد طريقة أخرى لتموينها . ثم إنه إذا كان السير في طريق خال من الماء فانه لضرورة ضمان الكمية الاحتياطية في مؤخرة القوات يبدو انه ليس من المبالغة القول بأن : عملية حربية استعمارية على نطاق واسع تصبح مجرد حراسة لقافلة تموينها ، أي لصيانة تنظيم تحركاتها . فاذا ما تضعضعت هذه التنظيمات فإن القوة التي تقوم بهذه العمليات لا بد أن يقضى عليها ، ما في ذلك شك ، ويكون شأنها شأن سفينة خرجت في أعالي البحار انخرق قاعها واندفعت المياه في داخلها .

لذلك كان من الحكم الرئيسية في الحروب الاستعمارية عامة وفي الحروب في المناطق الصحراوية بصفة خاصة ، أن الألاي يمثل قبل كل شيء ضمانة تنظيم أتباعه وسلامتهم .

وهكذا فإن العمل على سلامة قافلة المهمات التي تسير خلف القوات الزاحفة هو ألد أعداء كل عملية حربية ، وينتهي به الأمر إلى أن يملي قوانينه الصارمة ؛ الأمر الذي يرجح على كل عمل آخر ذي صفة استراتيجية وتكتيكية .

وفعلاً كان من الواجب بعد احتلال (النوفلية) على الفيلق بأكمله -قبل أن يتقدم للقيام بحركة جديدة - أن ينتظر وصول القافلة التي تأخر زحفها بسبب مختلف المصاعب التي لاقتها أثناء ليلة ٩ التي كانت ليلة ممطرة حالكة الظلام ولم تصل إلا في ظهر يوم ١٠ .

وفي مساء يوم ٩ ، أي عند وصول الأسرى الذين اقتادهم جنود الخيالة (السباهيس) ، وصلت أخبار بأن (صالح الأطيوش) انسحب في اتجاه الجنوب الشرقي صوب (جيفة) .

لذلك كان من اللازم دفع الجنود لتعقب الثوار في تلك الجهة رغبة في عدم إعطاء مهلة للهاربين ، ولإنزال أعظم جانب من الضرر بهم ، ولتدعيم العملية التي

يقوم بها ألاي (ماليتي)الذي كان يجب عليـــه أن يزحف من (برقة) على (مردومة) .

لهذا الغرض ، ولعدم إضاعة الوقت الثمين ، قام الجنرال (جراتزياني) بحل المسألة بأن شكل أحد الألايات الخفيفة من الخيالة (السباهيس) والطابورين الصحراويين الثالث والرابع والكتيبـة الليبية الأولى التي امتطى أفرادها إبل القافلة العامة ، وقد أسندت قيادة هذا الألاي الخفيف إلى «اللفتنانت كولونيل» « ماليتي » .

تحرك ألاي « ماليتي » الخفيف من « النوفلية » في الساعة الثانية من يوم ١٠ وقام بزحف مستمر دون توقف . وكان على اتصال دائم بمؤخرة قوات « صالح الأطيوش » ، واصطدم بها صدمات متكررة ، ووصـــل الى « مردومة » في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم ١٠ ، أي بعد مسيرة ١٥ ساعـة مستمرة دون توقف تمت في أسوأ الحالات الجوية . وقد اتصل اللفتانت كولونيل « ماليتي » في « مردومة » بألاي برقة واستخدم على التوالي الطابور الرابع الصحراوي في العمل الى جانب عملية تعقب العدو التي استمرت حتى « جيفـــة » بواسطة السيارات المصفحة التي كان يقودهـــا بمهـارة الصاغ « لورنزيني » ، في ايام ١١ و ١٢ و ١٣ .

في تلك الاثناء كان الجنرال « جراتزياني » يجهل في صباح يوم ١٠ ما حدث في « مردومة » ، ولم يستطع أن يتلقى أية أخبار من الطيارين الذين لم يكن في مقدورهم الطيران بسبب رداءة الجو. ولذلك قرر التحرك لمساندةألاي «ماليتي» بالكتيبتين الأريترتيتين العشرين والخامسة والعشرين وبالبطارية الليبية الثالثة ، وبنصف طابور من الخيالة « السباهيس » .

وبعد أن بارح « النوفلية » في السـاعـة الثانية من بعـد ظهر يوم ١٠ في جو عاصف اختلط فيه الماء بالهـــواء ، وصل في الساعة الرابعـة من يوم ١٢ إلى « مردومة » .

أما اللفتنانت كولونيل «ماليتي» ، الذي كان قد بدأ منذ يوم ١١ بالسيارات المصفحة تعقب الثوار المنسحبين إلى « جيفة » ، فإنه أنزل بهم الذعر وأصابهم بخسائر فادحة ودخل « مردومة » في مساء يوم ١٣ .

وفي يومي ١٤ و ١٥ استأنفت قوات المستعمرتين زحفها بعد أن انضمت ببعضها وعملت يداً واحدة ، ثم سارت إحداهما إلى « النوفلية » والأخرى إلى « العقيلة » .

اما قوات طرابلس الغرب التي وصلت إلى «النوفلية» في يوم ١٦ فإنها في يوم ١٨ قد انقسمت بدورها إلى فيلقين : الفيلق الشرقي (كولونيل ماريوتي) ويتألف من الكتيبة الليبية الرابعة والبطارية الليبية الثالثة وطابور من الخيالة « السباهيس » ، والفيلق الجنوبي (الجنرال جراتزياني) ، ويتألف من الكتيبتين الأريترتين العشرين والخامسة والعشرين ، والأولى الليبية والثالثة والرابعة الصحراويتين وخيالة « السباهيس » وجماعات « الجفرة » غير النظامية .

بقي الفيلق الشرقي في « النوفلية » تحت تصرف قيادة القوات القائمة بالعمليات التي كان مقرها في « سرت » .

أما فيلق الجنوب فإنه في أيام ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ اتجه نحو « بئر ام الدواي — بئر القرين — بئر الهمالية » ، وانتقل من « النوفيلية » إلى «قصر بوهادي » لكي يعيد تنظيم قواته فيها .

وبينما كانت تقع هذه الأحداث في القطاع الشرقي كانت قوات الفيلق (ب) تقوم بتطهير الأراضي المجاورة « لبونجيم » ، وبعض فصائل من الفرسان التي كانت تقوم باصطدام موفق مع بعض عناصر الثوار في « بئر الفاطمية » (٧ يناير) .

كان الكولونيل « بينتور » يقدم مساعدة عاجلة للتنظيم الدفاعي عن الواحة الذي كان يجب أن تتألف منه نقطة ارتكاز هامة للخط الذي سوف يقام في المستقبل كمرحلة في الطريق إلى « الجفرة » . أما الفيلق (جـ) الذي

يتألف من الكتيبة الأريترية ٢٦ وطابور من الخيالة « السواري » ، فإنه في سبيل تطهير المنطقة الممتدة بين الطريق الذي يقطعـــه فيلق « جراتزياني » والساحل زحف في ٨ من « سرت » على (بئر القرضابية) .

وفي يوم ٩ ، بعد أن تم تطهير منطقة الساحل في شرق (سرت) ، انتقل من (بئر القرضابية) إلى (بئر النويجية) ، ومنهـا استأنف زحفـه في يوم ١٠ إلى (بئر الأحمر) وبلغت مكاناً مسلحـــاً من أمكنة الثوار على مقربـة من (السلطان) .

وفي يوم ١١ ، بعد أن قام بتطهير منطقة الساحل ، انتقل من (بئر الأحمر) إلى (مرسى العويجة) على مسافة عشرين كيلومتراً شمالي (زاوية النوفلية) .

وقد امتازت عمليات المرحلة الأولى بفرار العدو تحت ضغط الألايات المشتركة في العمليات من الغرب ومن الشرق ، الأمر الذي يسهل حدوثه في الحملات الاستعمارية عامة ، والذي قضي بتجربته في جميع الحمـلات التي تمت لإعادة الاحتلال .

وفي مثل هذه الأحوال كان يتلو الانسحاب الابتدائي خضوع الأهـــالي وتسليمهم أسلحتهم . كما شاهدنا ذلك في أجزاء أخرى من هـذا الكتاب ، أو خروج الأهالي إلى أراضٍ بعيدة بصفة نهائية .

وفي الواقع ، إن طبيعة هذا الزعيم الذي كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالسنوسية ، والذي كان رجلا طموحاً دعياً — كما رأينا ذلك — يطمع في إنشاء حكومة شبه مستقلة في (سرت) ، والذي كان يخشى أن ينال جزاءه بسبب تمرده وعصيانه في سنة ١٩١٤ ، قد كان لهذه الطبيعة هذه الظاهرة الثانية ولم يكن للدعوات التي وجهت إليه بطلب الخضوع والاستسلام أية جدوى ، تلك الدعوات التي سرعان ما أرسلت إليه على يد ابن أخيه (عبد القادر الأطيوش) الذي حمل إلينا خطاباً من عمه وبقي لدينا بصفة رهينة في (سرت) .

أما المغاربة ، فإنهم بعد أن تم تعقبهم حتى (جيفة) ، فرغماً من إصابتهم بخسائر فادحـــة في الرجال والماشية بقوا في تلك المنطقة وقاموا بإعادة تنظيم أنفسهم ، ثم اتصلوا بأولاد (سليمان) الذين كانوا موجودين في منطقة « تاقرفت » حيث قامت قواتنا بالالتحام بهم في يوم مشهود .

كان من اللازم أن ينبثق تعقب آخر للعدو من حلقة هذه العمليات ويكون تكملة لعملية تعقب الثوار حتى النهاية ، إذ لم يكن هناك بـد من مراعاة ذلك المبدأ الذي هو من المبادىء الأساسية في فن الحرب .

ففي هذه الحالة الخاصة تم السير على هذا المبدأ بقدر المستطاع بمنتهى الحزم والشدة من جانب قوات طرابلس الغرب . كما أن قوات (برقـــة) قد طبقته بطريقة أفضل من تطبيق قوات طرابلس الغرب له ، وذلك بسبب الوسائل الصالحة التي كانت في متناول ايديها .

ولقد ظهر في مناسبات أخرى أن السيارات المصفحة كانت هي أنجع الوسائل الحربية وأكثرها فائدة في جبل برقة .

وما دمنا نتحدث عن مسألة تعقب العدو فإنه من المجدي أن نذكر كيف أن السرعة في تنظيمه تقدم خير الأدلة على كفاية القائد وعلى مقدرته وجدارته وعلى قوة إرادته .

وإن تعقب العدو معناه التغلب على الإحساس بالتعب المادي والمعنوي الذي يلي كل عملية حربية ، والذي بسببه يضطر الجميع إلى التوقف والراحـــة والاقتناع بأول نجاح حصلوا عليه . وهذه طبيعة من طبائع البشر تقضي بها الإنسانية والرحمة .

لهذا السبب ، كثيراً ما كانت تبوء بالفشل نتائج عملية من العمليات وخاصة في المستعمرات حيث يكون تعقب العدو من ألزم الأمور لحل الموقف والتحكم في التحرك في كل اتجاه . وهذا يعادل البقاء في السيطرة على الأراضي وسيادتها .

لذلك يجب تعقب العدو دائماً وبمنتهى الحزم . وليس هـــذا عندما ينسحب العدو بدون قتال للعمل على الدخول معه في معركة فحسب ، بل يجب تعقبه والإمعان في تعقبه عندما ينهزم .

ومع هذا فقد أتاحت لنا العمليـــات التي تمت في المرحلة الأولى السيطرة الكاملة على الساحل الشرقي حتى (مردومة) . فقد استمرت قوات طرابلس الغرب في أماكنها ، وعلى إبقاء اتصالاتها بقوات (برقة) . وكان لذلك أسوأ الضرر بعشائر المغاربة عامـــة و (صالح الاطيوش) بصفة خاصة ، فضلاً عن الحط من قيمة هذا الأخير ومن هيبته في نظر رجاله .

وبينما كانت قيادة قوات طرابلس الغرب تعمل بسرعة على تنظيم الدفاع عن (النوفلية) و (بونجيم) اللتين أصبحتا قاعدتين هامتين للتحركات المستقبلة نحو الجنوب ، كانت قوات برقـــة تقوم بين يومي ٢٥ يناير و ٥ فبراير بتطهير (وادي فرج) الذي أدى إلى نزع السلاح من (مغاربة الشماخ) ، الذين كانوا قد عقدوا منذ مدة علاقات سليمة مع تلك السلطات . كما أدى إلى هزيمـــة كل التشكيلات المسلحة سواء كانوا من السنوسيين أو من الثوار أو الحوارج الذين كانوا يقيمون في تلك المنطقة .

عمليات المرحلة الثانية .

انتقلت قوات الفيلق (أ) في ٢١ يناير إلى منطقة قصر « بوهادي » وبقيت فيها حتى يوم ٣٠ ، وقامت بمنتهى السرعة بإعادة تنظيم نفسها .

وفي يوم ٣١ — طبقاً لمشروع العمليات التي تقررت والذي كان يقضي بضم الفيلقين (أ و ب) في تشكيلة موحدة بقيادة الجنرال « جراتزياني » — انتقـل الفيلقان إلى « بونجيم » التي وصلا إليها في ٤ فبراير عن طريـــق « روبياية »

و « زكيرية » و « الزيدن » و « سانية بن عيسى » .

وقد تألفت مجموعة القوات التي تقوم بالعمليات على هذا النحو :

- القائد العام الجنرال (جراتزياني) .
- الفيلق (أ) بقيادة الكولونيل (جالينا) .
- الكتيبة الليبية الأولى .
- الكتيبة الأريترية الخامسة والعشرون .
- الفيلق (ب) بقيادة الكولونيل (بيننتور) .
- الكتيبة الليبية السادسة .
- الكتيبة الأريترية السابعة عشرة .

فيلق البطاريات ويتألف من :

- البطارية الليبية الثانية .
- البطارية الصحراوية .

الفيلق الخفيف الراكب بقيادة (دوق بوليي) ويتألف من :

- الكتيبتين الثالثة والرابعة الصحراويتين .
- طابور من الخيالة « السباهيس » .
- طابور الخيالة « السواري » الخامس .
- جماعة « الجفرة » غير النظامية .

المهمات : أقوات كافية لمدة عشرين يوماً للرجال والدواب ، وكميات من الماء تكفي للرجال والدواب ستة أيام .

ولم تكن هناك أية سيارة نظراً للأخبـــار غير الأكيدة التي وصلتنـــا عن

صلاحية الطرق لسير السيارات. بل كانت هناك قافلة مكونة من ٣٥٢٤ جملاً . وكان الواجب الملقى على كاهل هذه القوات هو تشتيت شمل الثوار المسلحين الذين قد يكونون قد انتقلوا إلى واحات « الجفرة » و « سوكنة » و «هون » و « ودان » واحتلال هذه الواحات .

ولقد بدأ الزحف في يوم ٩ وتقدم بسرعة وبحزم وتصميم حتى يوم ١٤ عن طريق « خرمة المحلة » . و « أبو أثلة » و « وادي زمـــام » و « بئر طار » و « سوكنة » و « هون » و « ودان » .

وكان يوما ١٠ و ١١ يومين من الأيام العصيبة بسبب الأمطار المستمرة والرياح الغربية العاتية . وكان الطريق الذي سلكته القوات حتى « الحمام » يخلو خلواً تاماً من الماء . حتى إنه قد وجدت « أبو أثلة » و « بئر طار » جافتين تمامـاً . وكانت هذه الآبار معقد الآمال إلى حد ما .

وهكذا بقيت القوات في يوم ١٢ وليس لديها من الماء الاحتياطي إلا مـــا يكفيها لمدة يومين . ولكنها لم يكن أمامها سوى مرحلة واحدة قبل الوصول إلى « سوكنة » .

وفي ليلة ١٣ وصل إلى (بئر طار) أربعة من كشافة جماعة (الجفرة) غير النظامية الذين قاموا من (أبو أثلة) في مساء يوم ١٠ واستطاعوا الدخول في (سوكنة) وأسروا منها أحد الأهالي . وقد أخـبرونا بأن (سوكنة) كانت خالية ، وبأن (عبد الجليل سيف النصر) كان موجوداً في (هون) مع جماعة من المسلحين . وحتى يوم ١٢ كان (سيف النصر) يجهل تحركاتنا لأنه لم يكن قد تلقى أخباراً عنها من دوريات حراسته التي لم تكن قد تحركت من أماكنها بسبب رداءة الأحوال الجوية . ولم تكن أيضاً قد أبصرت طيارينا وهم يحلقون في الجو ، أولئك الطيارين الذين لم يكن لهم عمل في بعض الحالات إلا الإخطار بوصول القوات التي تقوم بالعمليات .

وكان كل الأهـالي في (هون) و (ودان) ثابتين في أماكنهم وأسلحتهم في أيـديهم .

وعلى أثر وصول هذه الأخبار استأنف الجنرال (جراتزياني) في صبيحة يوم ١٣ الزحف على (الحمام) بقصد الاندفاع منها بعـــد ذلك بمنتهى السرعة الى « سوكنة » و « هون » و« ودان » . وقد وصل الى الحمـــام في الساعة الثالثة والدقيقة الخمسين من بعد ظهر ذلك اليوم ولكنه وجدها خاوية على عروشها ، وقد أكد أربعة رجال تم أسرهم ما جاء به كشافونا من الأخبار .

احتلال « سوكنة » و « هون » و « ودان » ، (١٣ و١٤ فبراير ١٩٢٨) .

انتقل الفيلق (ب) بقيادة الكولونيل «بينتور»مع البطارية الثانية والطابور الخيالة « السواري » الخامس إلى «سوكنة»، واحتلها في الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر وقطع اتصالاتها في الحال مع « هون » .

أما الفيلق (أ) والفيلق الراكب اللذان كانا تحت قيادة الجنرال «جراتزياني» فانهما اندفعا نحو « هون » في زحف ليلي ، وقاما بمحاصرتها في الساعة الثانية من يوم ١٤ ومنعا خروج الأهالي الذين تضاءل عددهم إلى حد كبير ، والذين سلموا أسلحتهم في الحال .

ولما وصلت اخبار بأن « عبد الجليل سيف النصر » عندما علم في الساعـــة السابعة من مساء يوم ١٣ بوصولنا الى « الحمام » من إحدى دوريات حراسته التي كان قد تركها في «سوكنة» انسحب إلى «ودان» — لما وصلت تلك الأخبار ، أمر الجنرال « جراتزياني » صاحب السمو الملكي « دوق بوليي » بالاتجـــاه بسرعة صوب تلك الواحة والاستيلاء عليها ، وبأن يحاول اللحاق بزعيم الثوار اثناء تقهقره . وكان على جماعة « الجفرة» غير النظامية بقيادة « خليفة زاوية » المخلص أن تساند الحركة من الجهة الجنوبية الشرقية . وقد لحق صاحب السمو

الملكي « دوق بوليي » – بعد زحف سريع – بمؤخرة الثـوار في « ودان » وتغلب عليها واستولى بعد قتال باهر على الواحة حيث قـام الأهالي المذعورون بتسليم ما لديهم من أسلحة بين يدي الأمير الجليل .

أما جماعة « الجفرة » غير النظامية فانها بدورها قد تعقبت طوال يوم ١٥ رجال « عبد الجليل سيف النصر » المسلحين وأنزلت بهم خسائر فادحـــة في الرجال والدواب والأسلحة .

وهكذا بدأ « خليفة زاوية » انتقامه من منافسه في حكم « فزان »، وسوف يستمر على القتال إلى جانبنا دون انقطاع بشرف وإخلاص . وبهـــذه الطريقة تكون القوات المسلحة التي قامت في يوم ٩ من «بونجيم» قد حققت جميع الأهداف التي كان عليها بلوغها في مدى خمسة ايام ، وهي تسير مدة أربعة أيام في طريق خالية من الآبار وفي أحوال جوية سيئة ، ومعها قافلة في مؤخرتهـــا تتألف من حوالي أربعة آلاف من الدواب ودون أن يقع لها حادث أو يصيب روح رجالها المعنوية العالية أي انتكاس . وقد توصلت بسرعة الزحف الذي كان يساعدعليه الجو إلى أن بقيت محتجبة حتى مساء يوم ١٢ . ومنعت بزحفها السريـع خروج الأهالي من الواحات ، حتى ان الزعيم استطاع الهرب دون أن يتبعه سوى حرسه الخاص الذي تبلغ عدته حوالي ٢٠٠ بندقية .

الزحف على « زلة » .

انقضت ايام ١٥ و١٦ و١٧ في التوقف بين «سوكنة» و «هون» و(ودان) ، وذلك حتى تقوم القوات بالاستعداد للحركات المقبلة وللزحف على (زلة)، ولكي تقوم قيادة قطاع الأعمـــال المستعجلة بتنظيم الأراضي المحتلة تنظيماً عسكرياً وسياسياً ومدنياً .

وفي يوم ١٨ أصدرت قيادة القوات الخفيفة من « سوكنة » أمرها بالقيـــام

بعمليات خاصة باحتلال «زلة» . وفي نفس ذلك اليوم تم تجميع القوات والقوافل التي يتألف منهـــا الألاي . وفي نفس ذاك المساء تولى الجنرال جراتزياني بنفسه قيادتها المباشرة .

تشكيل الألاي .

القائد : الجنرال الكومينداتور « رودولفو جراتزياني » .

اللفتنانت كولونيل : الكافالير « اوجوتابليني » ملحق .

الكولونيل « جالينا » .

الكتيبة الليبية الأولى .

الكتيبة الليبية السادسة (ما عدا الأسلحـــة وعربات نقل المهمات الخاصة بفصيـــلة المتراليوزات التي بقيت في هون حسب أوامر العمليات) .

الكتيبة الأريترية ٢٥ .

صاحب السمو الملكي دوق « بولي » .

الطابور الصحراوي الثالث .

الطابور الصحراوي الرابع .

طابور الخيالة « السباهيس » الأول (مع قيادة الخيالة «السواري»)

احتياطي تكتيكي للقائد :

جماعة « الجفرة » غير النظامية .

سيارتا نقل مسلحتان (لاستكشاف طريق هون ــ زلة) .

بطارية صحراوية (القسمان الثالث والرابع من الطابور الصحراوي).

روعي في المهمات أن تسمح بمواجهة الضرورات التي تقضي بها حركة الصعود نحو الشمال . وأن تترك ما يكفي لحامية « زلة » .

أما فيما يتعلق بالماء ، فقد روعي أنه قد لا يكون هناك أي بئر في الطريق بين « ودان » و « زلة » الذي يستغرق قطعه مسيرة أربعة أيام على الأقل .

ولقد كان موقف الخصم يتلخص فيما يأتي :

كان « مغاربة الرعيضات » (بقيادة صالح الأطيوش) وأولاد سليمان موجودين بين « جيفة » و « زلة » .

كما كان في نفس تلك المنطقة جميع إخوة « سيف النصر » باستثناء أحمد الذي كان في طريق العودة من « فزان » حيث كان قد أرسل إليها في إحدى المهمات .

وقد أكد لنا أحد أهالي « هون » – وكان قادماً في يوم ١٨ من « تاقرفت - جيفة » – أنه قد اجتمع في تلك المنطقة على وجه التحديد ما يقرب من ١٥٠٠ مسلح وهم يهمون بالتحرك نحو الشمال لمهاجمة « النوفلية » .

وقد بدا أن هذا الخبر قد يشير إلى تنقلات للثوار سابقة على احتلالنا لواحة « الجفرة » ، أو إلى شائعات مضللة يراد منها جعلنا غير واثقين من تحركاتنا .

وعلى كل حال فإن أخبار هذا الرجل كانت تقدم لنا عنصراً ملموساً جديراً بالتقدير ، وهو أنه توجد في شمال خط احتلالنا قوات كبيرة من قوات العدو تتركز في أماكن رئيسية منيعة ، سواء بالنسبة لخط الاحتلال في طرابلس الغرب ، أو بالنسبة لخطوط الاحتلال في « برقة » .

وقد تأكدت هذه الأخبار في « ودان » في يوم ١٨ .

وفي يوم ١٩ بدأ الزحف من « ودان » في الساعة الخامسة صباحاً ، وسار إلى الأمام دون أن يلاقي أية عقبات حتى الساعة الخامسة مساء . ولم يتأثر من

هذا السير سوى إبل القافلة التي نفق منها عدد كبير من أثر التعب، وذلك نتيجة للمجهود الذي قامت به مما اضطرنا إلى تركها ونقل حمولتهـــا على متون الإبل الاحتياطية .

ولقد تكرر هذا الأمر وبدرجة أكبر في الأيام التالية .

ولكن لما كان ذلك متوقعاً فإننا لم نقلق أو ينشغل لنا بال . ولم تتأثر بسببه كفاية مهمات الألاي الذي كان قد حمل معه كميات احتياطية كبيرة من المـؤن والذخائر .

ولقد كان من شأن الاستعلامات التي توصلنا إلى جمعهـا أن جعلت القائد يعمل على النحو التالي :

١) تعجيل الزحف بأسرع ما يمكن بحيث يستطيع احتلال واحة « زلة » في صباح اليوم الرابع (يوم ٢٢) لكي يكون في مقـدوره تكريس اليوم كله للعمليات العسكرية إذا ما حاولت جموع العـدو منع دخول الألاي في الواحة لوضعه في أزمة مائية .

٢) توقع ضرورة استمرار الزحف في الحال نحو الشمال لمقاتلة جموع العدو إذا ما بقيت على قوتها في المنطقة الواقعة بين « تاقرفت » و « جيفة » لتهديد مؤخرة خط احتلالنا الجديد ، ولكي يتسنى لقائد الألاي حل مشكلة المهمات بوجه عام التي كانت تفرض الإسراع إلى المنطقة الأمامية وذلك للأسباب الآتية :

أ – تموين حامية « زلة » بقدر المستطاع .

ب – استيراد تموينات جديدة من « النوفلية » وذلك بواسطة بقية القوات حتى لا يثقل على قاعدة « هون » الجديـــدة التي لم تكن قد بلغت بعد كفايتها من المؤن الضرورية .

كانت هذه الاعتبارات سبباً في إثارة اقتراحات مناسبة لدى قيادة القوات الخفيفة (الجنرال تشيكونتي) من جانب القائد .

وفي عصر يوم ٢٠ لم يكن قد تم إعداد المعسكر للمبيت وذلك لوجود النية في استئناف الزحف في منتصف الليل كسباً للوقت .

إلا أنه ما إنْ بدأ تحرك الألاي في الساعة الثانية عشرة من مساء يوم ١٩ حتى سمعت طلقات رصاص البنادق من الأمام ومن جهة اليسار أولاً ، ثم من الخلف ، وبعد ذلك من الجهة اليمنى .

وهنا ساورنا الشك بادىء ذي بدء في أن يكون من جانب قواتنا التي تسير بمحاذاتنا ، ثم قيل بعد ذلك إن الطلقات الآتية من الخلف ما هي إلا بعض الخراطيش التي وقعت في النيران التي كان الجنود قد أوقدوها أثناء راحتهم ، ولم يعرف أحد كيف يؤول مسألة الطلقات التي سمعت في الجهة اليمنى .

ومن التحريات التي قام بها الضباط ثبت استبعاد إطلاق الرصاص من جانب قواتنا التي تسير بمحاذاتنا . وكان الليل حالك السواد ولم يكن القمر قد بزغ بعد .

على أنه لكي تبقى القوات في غاية الهدوء عمل جميع القواد بالإجماع على الاحتفاظ بنظمها وترابطها . وكان قائد الألاي هادئاً رابط الجأش من هذه الجهة . .

ومع ذلك فقد بدا أنه من الحزم عدم مواصلة الزحف وانتظار طلوع الفجر لاستئناف المسير . ولذلك توقف الألاي وأفراده متجمعون في شكل مربع ، وبقيت عربات الأثاث بحمولتها وأقيمت حركة مراقبة يقظة على أوسع نطاق . وانقضت بقية الليل دون أن يزعج هذا الألاي أي مزعج .

وعند انبلاج الفجر استؤنف الزحف واستمر حتى الغروب دون أن يلاقي

الزاحفون أية عقبة .

وقد أكد المرشدون أن الألاي كان إذ ذاك في منتصف الطريق بين « زلة » و « ودان » ، ثم تم في بحر النهار قطع مسافة تبلغ ٥٥ كيلو متراً تقريباً ، رغماً من أن رجاله لم يذوقوا طعماً للنوم ولم يستريحوا . بل قضوا ليلتهم مضطجعين ضباطاً وجنوداً .

ولقد وجدت في النهار آثار أقدام رجال قلائل وجلين اتجهوا أولاً نحو الشرق ثم بعد ذلك نحو الجنوب الشرقي .

وقد ساورنا الشك في أول الأمر في أن تكون هذه الآثار هي آثار دورية من دوريات العدو تقوم بعملية الاستكشاف . ومن ثم اعتقدنا أن العدو قد عرف بأمر تحركاتنا . ولكن الأحداث التي وقعت فيما بعد أثبتت عكس ذلك كما سنرى .

وربما كانت هذه الآثار هي آثار جماعة صغيرة من الأهالي الذين كانوا متجهين لشأن من شئونهم الخاصة نحو الجهة الجنوبية الشرقية دون أن يهتموا بإبلاغ « زلة » بأمر زحفنا .

وفي يوم ٢٠ أبلغ قائد القوات الخفيفة المقيم في « هون » موافقة سعادة الحاكم العام على اقتراحات الجنرال « جراتزياني » وبأن ألاي « ماريوتي » الذي كان على أهبة التحرك من « النوفلية » ، قد وضع تحت إمرته وقيادته المباشرة .

وفي يوم ٢١ استؤنف الزحف في الساعة الخامسة واستمر حتى الغروب حيث أقيم المعسكر في جهة « أم اللبن » التي تبعد حوالي مسيرة عشر ساعات من «زلة» على حد قول المرشدين .

لم تصل بعد ذلك أية اخبار عن موقف العدو . ولكن كانت توجد هناك في كل مكان آثار قوافل عديدة وماشية قادمة من الجهة الشمالية الشرقية ومتجهة نحو

الجنوب الشرقي . ولم نقم بأسر أحد من الناس .

ومن اللازم أن نوضح وان نضيفَ إلى ما ذكر أنـــه لم يكن من الممكن أن تصلنا اية أخبار بواسطة الطيران ، وذلك لأن قائد الألاي كان بعد المشاورة قد رفض معونة هذا السلاح للاحتفاظ بسر زحفه على قدر المستطاع منذ تحركه من « ودان » ، وذلك لأن وجود الطيارين – على ما اكده لنـــا كثير من الشهود أثناء حلقة هـــذه العمليات الحربية كلها – كثيراً ما كان يكشف اتجاهنا في الزحف . وكان زعماء الثوار يعتمدون عليه في تنظيم تنقلاتهم . وذلك للتخلص من الالتقاء بالالاياتنا .

ولما كنا نريد القيام بعملية مفاجئة كان من المفيد التنازل عن جميع الخدمات التي كان في استطاعة الطيران تقديمها لنا .

وكان مما يقوي تصميمنا هذا المثل الذي قدمه لنا الزحف الذي قمنا به على (بونجيم – سوكنة - هون – ودان) ، ذلك الزحف الذي لم يشترك فيه سلاح الطيران بسبب رداءة الجو والذي تم فيه وصول الألايات في مفاجأة تامة دون أن يشعر الثوار بقدومها .

ومن المعلوم أنه من السهل على الأهالي ان يستقوا استنتاجاتهم وبأية طريقة خاصة فيما يتعلق بالشئون الحربية من تجارب الماضي .

وهكذا فإنهم كانوا يقتنعون بأنه إذا قطع أحد الألايات طريقاً معيناً منذ عشر سنوات للتوجه إلى مكان ما لا بد من سلوك هذا الطريق في المستقبل للقيام بعمليات مماثلة .

ويستنتج من ذلك أننا إذا ما تخلينا عن مشاركة الطيران أصبح من السهل علينا تضليل العدو وخداعه حتى لايعرف تحركاتنا . وقد أكدت الأمثلة السابقة والحاضرة هذا القول .

لهذا طلب القائد أن تكون عمليات الطريق مقصورة في يوم ٢٢ على وصول

طائرة واحدة حوالي الساعة الرابعة مساء لنتأكد من وصول الألاي إلى (زلة). وأضاف انه من اللازم القيام بأية غارة في منطقـة (تاقرفت) وان نتبع طريق (هون - زلة) وحده دون اقتراب من الواحة أكثر مما يجب .

ولقد انقضت ليلة ٢٢ على أهـدأ ما يكون ، ودون أن تستطيع عناصر الاستكشاف الارضية المندفعة على أوسع نطاق ، رؤية أية مخيمات للعدو أو العثور باشخاص منعزلين لاستقاء أخبار منهم .

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي استؤنف الزحف بالنظام المعتاد .

وحوالي الساعة التاسعة التقت طلائع القوات الراكبة ببعض القوافل الضخمة المنسحبة من الجهة الشمالية الشرقية في اتجاه الجهـة الجنوبية الشرقية صوب جبال (هروج) .

وسرعان ما تلقت القوات الراكبة التي كان يقودها صاحب السمو الملـكي دوق (بوليي) - الاوامر بالعمل ، والتحمت معها في قتال وأسرت منهـا ١٥٠ جملا واستولت على كثير من المؤن ، فضلا عن اسر ثلاثين من الثوار بعـد ان قتلت مثلهم وغنمت ١٥ بندقية ومدفعاً رشاشاً (ميتراليوز) .

ولما علمنا من الاسرى ان عبد الجليل سيف النصر لايزال موجوداً في الواحة مع حرسه الخاص البالغ حوالي ٢٠٠ رجل ، وان جميع الاهالي لا يزالون باقين في البلدة ولا يعلمون حتى هذه الساعة شيئاً عن تقدمنا ، تمّ التعجيل بالزحف باسرع ما يمكن .

وحوالي الساعة الواحدة بعد الظهر وصلنا على مرأى من واحة (زلة) ،تلك الواحة المنيعة التي لم ينتهك حرمتها احد ، ولا يمكن انتهاك حرمتهـا في نظر زعماء السنوسية الذين - رغبة منهم في إثارة تعصب الاهالي وجعلهم يعملون كل جهدهم لمنعنا من الاستيلاء عليها - كانوا قـد اعلنوا ان الكفار لن يستطيعوا ابداً احتلال هذه الواحة المقدسة عند السنوسية .

احتلال « زلة » ، ٢٢ فبراير ١٩٢٨ .

تم حصار الواحة وتطهيرها على وجه السرعة بمناورة وبحركة التفاف قام بها من الجهة الجنوبية الشرقيـة الألاي الراكب بقيادة صاحب السمو الملكي دوق « بوليي » . ومن الجهة الشمالية الشرقية ألاي الكولونيـل « جالينا » . وقد تم الاستيلاء منها على حوالي ٢٠٠ بندقية ومدفع من عيار ٣٧ تركه « عبد الجليل سيف النصر » ، الذي أكد الأهالي أنه قـد لاذ بالفرار بعد أن ترك غذاءه على النار قبل ذلك بساعتين ، أي عندما سمع طلقات نيران بنادقنا .

وفي الحق إن حركتنا كانت قد بقيت مجهولة تماماً حتى اللحظة التي وصلنا فيها إلى مشارف « زلة » .

وهكذا وقعت المفاجأة مرة أخرى . وكان من ثمراتها استسلام الأهالي في الحال الذين كانوا باقين جميعاً في الواحة ، فضلاً عن قيامنا باحتلالها دون ان يصل خبر وصولنا بأية طريقة في الوقت المناسب إلى جموع الثوار الذين كانوا مجتمعين في « تاقرفت » .

وفي أثناء ذلك ، وعلى وجه التحديد في الساعة الواحدة والدقيقة خمسين مساء ، اشتبك طابور الهجانة الذي كان يسير بمحاذاة جناحنا الأيمن بحوالي مائتين من المسلحين كان يتكون منهم حرس « عبد الجليل سيف النصر » الذي كان قد فرّ كما سبق القول إلى جبال « هروج » .

وقد قام هذا الطابور بمساعدة بعض عناصر الكتيبة الصحراوية الرابعـة ورجال الخيالة « السباهيس » بكل شجاعة بأول اصطدام ، واستمر يقاتل حتى وصلت بقية فرقة الهجانة بقيـادة الصاغ « سالفوني » ، الذي جاء إلى مكان العمليات بأمر من صاحب السمو الملكي دوق « بوليي » . وسرعان ما لحق به بسريتين من الكتيبة الليبية السادسة اللتين أرسلتا على سبيل النجدة .

وعندئذ قام الأمير الجليل بإدارة عمليات المعركة بنفسه ، وأخذ يتعقب الثوار حتى منحدرات جبال « هروج » على مسافة تقرب من ٢٥ كيلومتراً من « زلة » وأثبت بذلك أهليته وكفاءته للقيادة .

دخلت القوات في الواحة في منتصف ليلة ٢٢ بعد أن كبدت العدو خسائر فادحة ، وبعد أن استولت على عشر بنادق وأسرت رجلين أحدهما قائد حرس « عبد الجليل » ، وهو رجل كريتلى من أهالي كانديا عاصمة جزيرة كريت ، قدم من « برقة » حيث كان يقاتل ضدنا من سنة ١٩٢٣ ، ثم انتقل بعد ذلك الى صفوف المقاتلين في يوم معركة « بئر تاقرفت » . وكانت جماعة « الجفرة » غير النظامية (بقيادة خليفة زاوية) منذ الحادية عشرة صباحاً قد أرسلت مباشرة إلى « ام الغزلان » لقطع المواصلات مع « زلة » ، أولإبقاء الأهالي الذين يوجدون بها فيها ، ولمنع وصول خبر احتلالنا أو إذاعته في الجهات الشمالية بقدر المستطاع.

وقد أدت جماعة « الجفرة » واجبها على أحسن وجه ، ثم انضمت إلى الألاي في يوم ٢٣ في « عين مد وين » .

أما فيما يتعلق بالاقتراحات التي قدمها الجنرال « جراتزياني » ووافق عليها سعادة الحاكم العام ، فإنه سرعان ما اتخذت كل الاجراءات اللازمة لاستئناف الزحف في صبيحة يوم ٢٣ ، وكان من المتوقع أن يكون في الإمكان التحرك في الساعة السابعة .

ولكن كان من نتيجة تأخر عودة القوات التي اشتركت في القتال إلى المعسكر ، وضرورة القيام بسقي الجمال التي لم تكن قد رأت الماء منذ خمسة أيام بناء على طلب صاحب السمو الملكي دوق « بوليي » الذي كان له كل الحق فيه ، تأجل القيام بالزحف إلى الساعة ١٢ من يوم ٢٣ . وقد أسندت قيادة « زلة » إلى اللفتنانت كولونيل « ماليتي » ، ووضعت تحت تصرفه الفصائل الآتية فضلاً عن الخدمات والمهمات :

- الكتيبة الليبية الأولى .
- ٥٠ رجلا من الخيالة « السباهيس » .
- فصيلة صحراوية (قوامها ٦٥ هجاناً) .
- سيارتا نقل مسلحتان .
- محطة راديو (تليفونكن) .
- خدمات مائية .
- قسم صحي .
- ٣٠٠ صندوق من المؤن (مقاس ٩١) .
- ألف قذيفة مدفع (عيار ٦٥) .
- مهمات مختلفة زائدة عن حاجة الألاي .
- أقوات كافية حتى يوم ١٣ مارس (أي لمدة ١٩ يوماً) .
- ستة أيام علف للدواب .
- كاليات للضباط .
- خيمتان كبيرتان للقيادة .

قد تصرح لليفتنانت كولونيل « ماليتي » بطلب كميات من البلح من السكان لزيادة أقوات الجنود ولضم كل الشعير والقمح الذي في دور النضوج من الواحة لاستعمالها كمراع للدواب .

ورغبة في جعل الحامية في حالة طيبة ، لم يتردد القائد في تخفيض حاجات الألاي في الحركة القادمة إلى أقل حد ممكن ، وذلك لأن واجبه في تلك اللحظة البالغة الأهمية لإنهاء حلقة العمليات على أحسن وجه ، كان مساعدة

القوات الخفيفة والتعاون معها . إذ كانت هذه القوات الخفيفة تواجه مشكلة إنشاء القواعد وإعادة تموين « زلة » ، التي كان من الواجب الإسراع بالقيــام بتأمينها ، وهو أمر ليس باليسير .

ولما كان مشغولاً بهذا الأمر ، ربما يكون قد تجـاوز الحدود بإهماله مصلحة القوات الخفيفة التي يتحتم عليها ان تقطع طريقاً يستغرق ما لا يقل عن مسيرة خمسة أيام ، ذلك دون احتساب ما قد يطرأ من تأخير قبل أن تستطيع الاستناد على قاعدة جديدة .

هذا فضلاً عن أن هذا الطريق كان يمر بمنطقة مجهولة كل الجهل . وليس فيها موارد ماء مضمونة . وكان من المؤكد انه سوف يلتقي بالعدو في ظروف أحسن من ظروفنا .

على أن التعاون في الحرب هو أول واجب أدبي يجب على القائد مراعاتـــه ويعلق عليه كل أهمية خاصة .

ولقد أثبتت الحوادث التالية ما يبرر قلق القائد وانشغال باله ، ومقدار ما وجب أن تتحمله القوات من تضحيات في سبيل الوصول إلى الهدف . ولو أنهـا قد عملت على مضاعفة مدة بقاء الأقوات ، وذلك بتخفيض الحصص المقـــررة للجنود وباستهلاكه لحم الجمال أيضاً مع اللحوم الأخرى .

بعد ظهر يوم ٢٢ وصباح يوم ٢٣ تم القيام بأعمال سريعة وباستعدادات من جانب الألاي الزاحف الذي قام فعلاً من « زلة » نحو « عين مدوين » . وقدكان هذا الألاي مؤلفاً على النحو التالي :

- فيلق كتائب المشاة بقيادة الكولونيل « جالينا » .
- الكتيبة الخامسة والعشرون الأريترية بقيادة الصاغ « اوصولي » .
- الفيلق الراكب بقيادة صاحب السمو الملكي « دوق بوليي » .

– الكتيبة الصحراوية الثالثة بقيادة الرئيس « كامبيتي » .

– طابور من الخيالة « السباهيس » عدد رجاله خمسون ، بقيادة الرئيس « ايموني كات » .

– قسم من البطارية المدفعية الصحراوية بقيادة الرئيس « كياريني » والملازم أول « بالميني » .

– قوات « الجفرة » غير النظامية بقيادة « خليفة زاوية » .

– القافلة بقيادة الليفتنانت كولونيل « كارا » .

– أقوات وعلف تكفي لمدة ستة أيام .

– مياه تكفي الرجال والدواب لمدة ستة أيام .

– محطة لاسلكية تحت إشراف الرئيس « مانتليني » .

– خدمات مائية بقيادة الملازم أول « بلليجريني » .

– خدمات صحية بإشراف الرئيس « ساسكارو » .

أما انقاص القوات الذين أشير اليه فيا سبق ، فقد قضت به ضرورة حماية جميع الحاميات التي تم ايجادها في « الجفرة » بعد إعادة احتلالها بهذه القوات وإعداد خط المرحلة الى « بونجيم » .

ولم يكن أحد من قبل قد سلك طريق « زلة – النوفلية » ، حتى ولا الكشافة الاوروبيون .

والبيانات الوحيدة التي أمكن الحصول عليها كانت عبارة عن خريطة وضعتها قيادة قطاع « سرت » قبل العمليات على أساس معلومات الأهالي. وقد أمكن بواسطتها أن نستنتج أن القافلة تستغرق في قطع الطريق بين « زلة »

و « النوفلية » ستة أيام على وجه التقريب . وأنه توجد في « تاقرفت » بعض الآبار . ولكن اختلفت الآراء على كفاية بعض هذه الآبار .

ولذلك كان من اللازم حمل كميات هائلة من المياه تكفي لمدة ستة أيام للرجال « بما فيهم أكثر من الف هجان » وللخيل .

الموقف في يوم ٢٣ .

ثبت من المعلومات التي استقيناها كما أشرنا إلى ذلك من قبـــل انه تم انتقــال :

من الشمال « صالح الأطيوش » مع جميع مغاربــة « الرعيضات » ، ومن الجنوب عمر ومحمد وأحمد سيف النصر مع أولاد سلـيمان . فضلا عن عدد كبير من المحاربين الفارين عند زحفنا على « النوفلية – مردومة » وهم من أهالي « ورفلة » و « القذاذفة » و « الحسون » .

أما عبد الجليل سيف النصر الذي كان هارباً من « هون » في وقت احتلالنا ثم فوجىء بعد ذلك مرة أخرى في « زلة » بزحفنا الخاطف ، فإنه كان بلا شك في طريق الانسحاب الى جبال « هروج » .

أما أخوه « أحمد » فإنه كان لا يزال موجوداً في « فزان » .

ولقد تأكد لنا من مختلف المصادر أنه لا يوجـد نوع من التضامن بين « آل سيف النصر » و « الأطيوش » بسبب المنافسة على الزعامة المعلومة لنا ولذلك كان من الممكن اعتبار هذين الزعيمين منفصلين عن بعضهما .

وكان هناك بين الأمور المتعارضة التي وصلت الينا أمرٌ واحدٌ مؤكد ، وهو أننا كنا نسير في آخر مرحلة من طريق « سرت » نحو آخر ملجأ للثوار .وأننا سوف نجد أنفسنا بكل تأكيد أمام زعماء من ذوي السلطة والقوة ، مثل إخوة

سيف النصر الذين قد يقبلون الدخول معنا في معركة للمحافظة على هيبتهم ومكانتهم وعلى التقاليد الحربية المعروفة عن أسرتهم ، التي كانت تحكم « سرت » وتسيطر عليها منذ أجيال . ولتأكيد ما لهم من الشهرة في الحروب ، وبأنهم محاربون لم يقهرهم أحد من قبل ولم يخضعوا لأية حكومة .

أما فيما يتعلق بالقوات التي كانت تحت تصرفهم فقد علم من الوثائق الحكومية أن لديهم ألفاً وخمسمائة بندقية مع كميات كبيرة من المؤن والذخائر .

وإننا إذا راعينا أن عبد الجليل كانت له حاشية من أتباعه يبلغ عددها مائة رجل مسلح كحرس شخصي له – وأن هناك مائة رجل مسلح آخرين في « فزان » يعملون كحاشية لأخيه أحمد ، فإنه يتبقى على وجه التحديد ألف وثلاثمائة بندقية كان يجب أن يضاف إليهم كثيرون غيرهم من حلفائهم من أولاد سليمان .

ولذلك فإننا إذا استثنينا المغاربة (ومع ذلك فإنه قد ثبت فيما بعد ذلك اشتراك بعضهم في المعركة) يمكن اعتبار عدد قواتهم حوالي الف وخمسمائة بندقية . وذلك استناداً إلى مصادر أكيدة .

لهذا كان في مقدورنا أن نتوقع عند وجودنا إزاءها أننا نصبح مضطرين للاشتباك ضد قوات تكاد تعادل قواتنا . مع وجود بعض الفارق ، وهو أننا كان يثقل كاهلنا وجود قافلة كبيرة يجب علينا العمل على حمايتها بأي ثمن – لأن حياتنا نفسها كانت تتوقف عليها .

ولم يكن هناك شيء سوى الانتصار الذي كان للقائد والجنود ثقة كبيرة في الحصول عليه . ومع هذا فان هذه الثقة كانت ترتبط بخيط رفيع قد يكون في مقدور الحوادث تقطيعه .

وفي هذا الموقف الذي توضحت معالمه كل الإيضاح أرجو أن يسمح لي القارىء بالتحدث عن شخصي ، حتى يستطيع كل انسان تقدير خطورة الواجب الملقى

على عاتقنا ويعرف أنه كان يتوقف علينا مصير الحملة بأسرها.

تحرك الألاي من « زلة » الى « عين مدوين » في الساعة الثانية عشرة من يوم ٢٣ . وكان قد أضناه التعب بعد ان قطع مسافة ألف وثلاثمائة كيلومتر منذ يوم ٣ يناير ، وهو تاريخ القيام « ثمد حسان » ، ولكن كانت نفوس رجاله تتوق للبحث عن العدو في كل مكان وبأي ثمن للقضاء عليه .

ولقد استفاد من سير عدد كبير من الجمـــال دون حمولة نظراً لترك بعض التموينات في « زلة » ، فأركب على متونها عساكر الكتيبتين أثناء الزحف الذي استمر يومي ٢٣ و ٢٤ ، وكان لذلك فائدته العظمى في استعادة قوة الجنـــود الجسمانية .

وبعد أن أمضى الألاي ليلة ٢٣ في واحة (عين مدوين) (على مسافة ٣٥ ك.م. شمال زلة) عسكر على مسافة تقرب ١٥ ك.م. من آبار (تاقرفت) التي كانت تشاهد عن بعد في آخر الوادي المحاط بدروب ومسالك وعـــرة للغاية ، خلعت عليه آخر أضواء الغروب منظراً حزيناً .

ولقد كانت دوريتنا قد أسرت على مسافة بضعة كيلو مترات من المرحلة قطيعاً من الأغنام . ولكن رعاته كانوا قد استطاعوا الإفلات والهرب .

ومع ذلك فلم تكن هناك أية معلومات اخرى غير هذه تشير الى أي أثر للحياة أثناء اليومين اللذين استمر فيهما الزحف .

ولما كانت قد نفدت كمية المياه الكافية لمدة يومين من مجموع الكمية المخزونة التي تكفي لمدة ٦ أيام فقد بدأت مشكلة المياه تشغل البال .

وفي ساعة قيامنا من « زلة » ، وكذلك أثناء الزحف الذي استمر يومـين ، كانوا قد اكدوا لنا أن (آبار تاقرفت) تعطي مياهاً وفيرة ، ولكنها مياه رديئة وقذرة ، بحيث لا يمكن الإفادة منها إلا لسقي الدواب ، وان البئر الوحيـــدة

الصالحة للشرب كانت قد ردمت منذ عهد بعيد .

ومهما كانت هذه التأكيدات وغرابتها ، إلا أنها جعلتنـــا نشك كثيراً في عدم استطاعتنا التزود بالمياه اللازمة .

ولكن من أين يا ترى كانت كل الخلائق المتجمعة في تلك الناحية تغترف المياه ؟

ترى هل كانت هذه الأخبار كاذبة؟ وأذيعت عمداًوبمهارة لمنعنا من الوصول إلى (تاقرفت) خشية ألا نجد فيها مياهاً للشرب ؟

هذا ما يجب ان استنتجه الآن بعد ان وجدنا ستة من الآبار صالحة للشرب، كما وجدنا تلك البئر التي قيل عنها انها مردومة منذ عهد بعيد ، تعطي مياهـــاً طيبة للغاية لا مثيل لها .

ثم إنه كان من الممكن سقي الدواب وإعطاء مياه وفيرة للرجال وملء جميع الفناطيس وتخزين المياه الاحتياطية .

ورغبة مني فيمعرفة طبيعة الأرض ومن قد يكون فيها من الأعداء ، سرعان ما اصدرت أمري إلى الرئيس (أيموني – كات) بأن ينتقل فوراً هو وعساكر الخيالة (السباهيس) البالغ عددهم ٥٠ وقوات (الجفرة) غير النظامية (٣٠٠ بندقية) نحو آبار (تاقرفت) بأية طريقة بمجرد طلوع القمر ، بعد أن يصله مني تأكيد بذلك .

ولكن بمجرد طلوع القمر ، شوهدت ناران صغيرتان في وقت واحـــد . وكان اللذان شاهداهمـــا هما صاحب السمو الملكي دوق « بوليي » والرئيس خليفة خالد .

وسرعان ما أوقفت زحف الرئيس « إيموني » واستدعيت الضباط إلى اجتماع كبير وأوضحت لهم الموقف في جميع تفصيلاته . وعبرت لهم عن اقتناعي بأن

العدو يركز قواته في الجهات القريبة منا ، وأننا في الصباح الباكر قد نشتبك في معركة .

أمرت بأن لا يقوم أحد بدق الخيام،وبأن يسهر جميع الضباط بالمناوبة، وأن يخطر جميع صف الضباط والجنود بحقيقة الموقف .

وقد قررت وضع خدمة للرقابة بواسطة دوريات خفيفة تتحرك في جميع الجهات على نطاق واسع حول المعسكر .

وقد مضت الليلة في هدوء .

ولكن بدا أن البعض قد سمع على مسافة بعيدة طلقات رصاص من بنادق .

وأثناء الزحف من « هون » إلى « زلة » أردت منع قيام القوات الجوية بأي عمل .

ولكن في ليلة ٢٥ في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين ، على أثر ما شوهد من الدلائل ، طلبت في يومي ٢٥ و ٢٦ من القوات الجوية القيام بعمل استكشافات عن اتجاهاتي في الزحف .

ولقد كانت معاونة القوات الجويةفي حدود الإمكان . أما المساعدة الوحيدة التي كان في استطاعتي أن أطلبها فيما يتعلق بغير ذلك ، فإني كنت أعتمد على قواتي دون غيرها .

ولكي أتقدم في سرد الحوادث بتفصيلاتها أرى لزاماً عليّ أن أقول مقدماً بأنني ، رغبة مني في الحصول على تعاون وثيق في الحقل التكتيكي ، لم يكن في استطاعتي أن أخصص أي عمل لألاي « ديوتي » الذي وضعته قيادة القوات الخفيفة تحت تصرفي « كما لم يحصل هذا بالفعل » بسبب المسافة البعيدة التي كانت تفصل بيني وبينه ، وذلك لأنني كنت قد كلفته بالتحرك لمناوشة « المغاربة » الذين اتضح وجودهم ناحية « جيفة » ، ولمنعهم من الزحف على قواتي لمساعدة

تشكيلات « تاقرفت » .

ولقد تم هذا العمل على خير وجه . وكنت قد أصدرت أمري إلى الكولونيل « ماريوتي » بالتحرك في يوم ٢٣ بالذات من « النوفلية » ، بينما كنت أنا أقوم من « زلة » حتى نمنع انضمام قوتي الثوار إلى بعضهما ونضغط عليهما في وقت واحد من الشمال ومن الجنوب .

ولقد تقدم ألاي الشمال فعلاً في يوم ٢٥ على وجه التحديد نحو « الجفرة » واشتبك مع بعض عناصر « المغاربة » ؛ بينما وجه ألاي الجنوب عملياته الحاسمة نحو « تاقرفت » .

ومع هذا فقد تقرر أن يبقى الألاي الذي أقوم بقيادته في الميدان التكتيكي منعزلاً تمام الانعزال ، ودون أن يكون لديه أمل في الحصول على معونة مباشرة من أية جهة .

معركة بئر تاقرفت ، ٢٥ فبراير ١٩٢٨ .

في فجر يوم ٢٥ (في الساعة السادسة) أخذ الألاي طريق الزحف نحو الشمال . وكانت تتقدم أمامه وعلى جانبيه قوات صحراوية في مختلف الاتجاهات .

وكان الألاي يسير في إثر فصيلة من الكتيبة الليبية السادسة ، وكان رجالها يسيرون على مسافات بعيدة بين كل رجل والآخر كطليعة لكتيبتي المشاة (الكتيبة الليبية السادسة والكتيبة الأريترية الخامسة والعشرين) التي كان يحاذيهما طابور مزدوج من الخيالة على جبهة واسعة . وكانت هذه القوات تتقدم كلها قريبة من بعضها .

وكان يساند الألاي بطريق مباشر قسم من المدفعية . كما كانت توجد على

جانبي القوات الصحراوية قافلة هائلة تزيد على ٣,٠٠٠ جمل ، منها جمال القافلة العامة وجمال نقل المهمات .

وكان في مؤخرة القوات الزاحفة جماعات « الجفرة » غير النظامية ورجال الخيالة « السباهيس » (قوامها جميعاً خمسون حصاناً) للحراسة .

وكان موضع القيادة خلف الكتائب وأمام المدفعية .

ولقد كان الجو جميلاً غاية في الصفاء. كما كان الهدوء الشامل الذي يسيطر على هذا الجو مما ساعد على الزحف في اللحظات الأولى . وقد استمر لحسن الحظ طوال النهار .

تقدم الزحف إلى الأمام دون أن يقع أي حادث ، وكان في الساعة الأولى تقريباً يجري على أراض متموجة ، ولكن كان السير فيها من أسهل الأمور .

ولكن سرعان ما واجه الزاحفون مرتفعاً هائلاً من الأرض على شكل نصف دائرة يشرف على منخفض حوالي ٢٠٠ متر يقع فيه مرج تاقرفت «حطيّة تاقرفت» . وهو عبارة عن غابة موحشة وعرة تحيط بها من جميع الجهات أبراج متهدمة ، وكانت تبدو من بعيد كأنها محاطة بسياج آخر يشرف على الآبار. وفي نهايتها كثبان رملية تنتشر فوقها أعشاب وخمائل من جميع الجهات .

ويبلغ اتساع هذا المرج نحو ٨ ك . م. تقريباً .

وكان هناك طريق واحد فوق هذا الانحدار يسمح بالهبوط إليها ، على أن القافلة كانت مضطرة لتسيير الجمال ، جملا بعد جمل .

وقد ذكرت الدوريات الكشافة التي قامت بعمليات الاستطلاع حولها أن المنطقة خالية .

وبعد إبطاء السير وضم صفوف الألاي إلى الطليعة واستكمال عمليات الاستطلاع واتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لسلامة الجنود من الجانبين ومن

الخلف ، بدأ النزول إلى الواحة . وقــد استمر هذا النزول نحو ساعة من الزمان .

وحوالي الساعة السابعة والنصف كان الألاي بأجمعه قد وصل إلى أسفل .

وقد وضعت الترتيبات الآتية للزحف التالي :

– يقوم الكولونيل « جالينا » ومعه الكتيبة الاريترية الخامسة والعشرون وقسم المدفعية والخمسون خيالاً من « السباهيس » ، تسبقه دائماً من الأمام ومن الجانبين الدوريات الصحراوية وفصيلة الكتيبة الليبية السادسة بصفة طليعة – بالسير في مقدمة الألاي ، كقوة خفيفة متقدمة ، ويتجه نحو آبار « تاقرفت » .

– أما بقية الكتيبة الليبية فإنهــا تحيط بالقافلة التي تتبع الألاي على مسافة قصيرة .

– وكان الاحتياطي الذي تحت تصرفي هو القوقان الصحراويتان الثالثــة والرابعة وجماعة « الجفرة » .

– وكان موقع القيادة على رأس قوات الفرسان أمام القافلة .

بدأ زحف القوات الخفيفة المتقدمة حوالي الساعـــة الثامنة ، وكان يسبقه الكشافة عن بعد .

وحوالي الساعة الثامنة والربع ، تقدم طابور الخيالة السواري الثاني .

وقد ظهر ان العدو قد اختفى ، وكان يساعده على هذا الاختفاء وجـــود الكثبان الرملية والخمائل والأحراج التي يتكون منهـــا أحسن ملجأ للاختباء وللاحتجاب عن الأنظار .

ولقد ترك العدو رجالنا يزحفون في طمأنينة في تلك الساحة الرملية .

والآن ، وقد كان خلفنا ذلك المرتفع الشاهق ، فإن العدو كان يعلم حـــق

العلم أن فشلنا سوف يصير – بسبب هذا العائق الذي سوف يسد علينا كل طريق للهرب – هزيمة كاملة .

ولما تأكد من نزولنا لاحت له الفرصة المؤاتية لإيقافنا على أكبر مسافة ممكنة من الآبار لكي يمنعنا من وضع أيدينا عليها .

ولقد قامت الدوريات الصحراوية الموجودة في المقدمة وعلى الجانبين باكتشاف الأراضي وهي ممتطية خيولها ، على مسافة من الطلائع والقوات الخفيفة المتقدمة التي كانت تتقدم في حرص وحيطة في مجاهل الكثبان الرملية والأحراج .

وحوالي الساعة الثامنة كانت قد اشتبكت مع وحدات العدو الأولى .

ثم نشبت المعركة بسرعة البرق ، واستمرت حامية الوطيس حتى الساعة الرابعة بعد الظهر .

واخيراً تم الاستيلاء على الابراج الجبلية الوعرة التي تشرف على الآبار الموجودة في الجهة الشمالية .

وقد وقعت المعركة على ثلاث مراحل جوهرية :

المرحلة الاولى .

في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والخمسين اصطدمت الدورية الصحراوية المنوّبة بقيادة الملازم « بوركلير » بعناصر الخصم الأولى ثم ترجلت عن متون جمالها . وساعدتها في الحال وحدات أخرى من وحدات الكشافة الخفيفة بقيادة الملازم (بيلليزاري) ، ودوريات الطليعة (السرية الثانية من الكتيبة الليبية السادسة) بقيادة الرئيس « فابري » .

وسرعان ما جرح الرئيسان « بوركلير » و « بيلليزاري ». ومع ذلك فقد استمرا في القتال طوال النهار .

بعد ذلك بقليل قامت السرية بأكملها بهجمة شديدة وحاسمة ، واستولت على خط الكثبان الرملية الذي كانت تحتله وحـدات العدو وسيطرت على الأراضي الكائنة عند الشمال .

وقد وقع أثناء هذا الهجوم الرئيس « فابري » بعد أن أظهر بطولة عظيمة ، وقد أصيب في جبينه إصابة قاتلة .

واما اقدم الملازمين الذي حل محله في القيادة فقد نفذت رصاصة في قبعته بين الشارة والشريط .

كان الكولونيل (جالينا) قـد وقف في الأسفل بفيلق قواته الخفيفة الأمامية .

وقد تتبعته أنا ببقية رجال الألاي على مسافة مناسبة . ولكن العدو سرعان ما أظهر نواياه بهجمات خفيفة قام بهـا على الجبهة ، مع محاولة تطويق جناحي القوات المتقدمة ومؤخرة الألاي بأكمله .

ولقد أحسست في الحال بذلك وشاهدتـه بطريق مباشر ، لأنني عندمـا وصلت إلى البرج الكبير الأول كنت في حالة تسمح لي بالسيطرة على ميدان العمليات بأجمعها .

وبينما كنت أنتظر أخبـاراً من قائد القوات الخفيفـة المتقدمة قررت ما يأتي :

أولاً – أن أقوم بمناورة على البرج الكبـير الأول وأتخذ منـه سنداً للجناح الأيمن والمؤخرة ؛ فضلاً عن أنْ أتخذ منه سنداً لتجمع الألاي بأكمله لمواجهة ما قد يطرأ ، اذ كنت اتوقـع نشوب معركة عنيفـة في اقرب وقت .

ثانياً – أن أساند الجناح الأيمن للقوات الخفيفة المتقدمة التي كانت قد وصلت

بأجمعها إلى منطقة الكثبان الرملية وكان من الممكن ان تتلقى تهديدات على ميمنتها .

لذلك أسرعت بجمع قسم من المتراليوزات الصحراوية على قمة البرج مع السرية الأولى من الكتيبة السادسة .

وهكذا عملت على تأمين الاستيلاء على هذه النقطة الدقيقة منذ بدء العملية .

وبعد أن قامت هذه العناصر بأداء واجبها بقيت بعد ذلك في المواقع التي تم احتلالها لحماية مؤخرة الألاي حتى آخر مراحل العمليات . وقـــد قام بقيادتها اليوزباشي قائد السرية الأولى (جولياني) الذي أدى واجبه بكل هدوء وبكل رباطة جأش ، وحتى عندما بقي منعزلاً في المرحلة الثانية .

ثالثاً – تأمين سلامة القافلة ؛ بأن وضعت تحت تصرف قائدها (الليفتننانت كولونيل كراره) للدفاع عنها جماعة « الجفرة » غير النظاميـة ، فضلاً عن السائقين المسلحين الذين كانوا تحت تصرف ضباط القافلة .

رابعاً – استعادة رجال سرية الكتيبة الليبية السادسة في الحال لإمكان استخدامها في أسرع وقت .

خامساً – وضع الفيالق الصحراوية في الاحتياطي .

وبينما كنت أقوم باتخاذ هذه التدابير كانت عمليات رجال المتراليوزات من فيلق القوات الخفيفة المتقدمة قائمة على قدم وساق. وقد لاحظت من أول مركز من مراكز القيادة المراحل الابتدائية بمنتهى الدقة .

ولقد تدخلت في هذه العمليات قوة المدفعية .

أما العدو الذي كان كثير العدد فسرعان ما عرفت عدد رجاله من الأسرى الذين أكدوا لنا أن قواته تبلغ حوالي ١٥٠٠ بندقية . وكان رجاله يخرجون في أسراب كانت تظهر وتختفي بين الكثبان الرملية والخمائل والأحراج ، وتحاول

تطويق جناحي الكتيبة الاريترية الخامسة والعشرين والعناصر الأخرى المتقدمة التي كانت قد انضمت اليها .

وقد لاحظت تناوب القتال الذي كان بطبيعة الحال يتجزأ ويقع في كل موقع من المواقع حسب أوامر الكولونيل (جالينا) وقائد الكتيبة الأريترية الخامسة والعشرين الصاغ « اوسالي » .

كذلك لاحظت أيضاً أن العدو يزداد عدداً ويهاجم بكل عنف .

ومع هذا فإنه مهما بدت لي شدة هذا الموقف العصيب فإني كنت أعتبره موقفاً عادياً .

وتذكرت أنه توجد على خط القتال حوالي ٨٠٠ بندقية من بنادقنا وجميع مترليوزات الكتيبة الأريترية الخامسة والعشرين، كما أنه كان هناك أيضاً قطعتان من المدفعية التي حرمت نفسي منها مع شديد الألم لكي أقدمها لمساعدة القوات الخفيفة المتقدمة فضلاً عن الخمسين خيالاً من « السباهيس» بقيادة قائد السواري .

ولقد اعتقدت أن الجناح الأيمن من القوات المتقدمة أكثر أمناً واطمئناناً مما كان يعتقد قائد الفيلق ، وذلك نظراً للتدابير التي قمت باتخاذها ، والتي كنت على وشك إبلاغها إليه .

ولقد اعتقدت أخيراً أن لدي نقطة ارتكاز قوية أستطيع أن أجمع فيها في كل لحظة قواتي لاستئناف المبادأة بالعمل إذا ما فقدت هذه المبادأة بسبب ظروف القتال وأحواله .

اتجهت بعد ذلك نحو اليسار الذي قام منه هجوم العدو المزدوج فانه :

أ ـ قذف ببعض قواته على الكتيبة الأريترية الخامسة والعشرين .

ب ـ اتجه ببعض قواته على نطاق واسع نحو مؤخرة الألاي ونحو القافلة .

وكذلك لم يسلم البرج الكبير الأول الذي تقع القيادة على انحداره من طلقات

نارية عنيفة من رماة قريبين منه ، ولكن لا يستطيع أحد رؤيتهم .

وعلى مسافة أبعد من هـــذه المسافة قامت أسراب من العدو بهجمات في غاية العنف .

لذلك كان عملي في القيادة يجب أن يتجـــه نحو اليسار ؛ وقمت بالاستعداد باتخاذ التدابير التي يقتضيها الموقف .

ولقد وصلتني في هذه اللحظة أول اشارة من قائد فيلق القوات المتقدمة .

وتقول هذه الاشارة ببساطة ما يأتي « تلزمنا إمدادات » .

وعندئذ لم يساورني القلق ، وأجبت بقولي « ليس في استطاعتي أن اعطيك اية إمدادات » . واوضحت له فكرتي في القتال قائلا: سأقوم بمناورة على البرج، وسأقوم بالقوات المشتبكة من جنود القوات المتقدمة بعملية على الجبهة ، وأنا اعمل على صيانة الجناح الأيمن واهجم نحو الجبهة اليسرى بالقوات المتأخرة لصد هجوم العدو الذي يخترق خط القتال . ومن المنتظر ان العمليـــة ستكون في بدايتها .

بلغت الساعة التاسعة .

قمت باتخاذ التدابير اللازمة في الحال : أن يقوم الليفتنانت كولونيـــل « أماتو » بسريتين من الكتيبة الليبية السادسة بهجوم مضاد بعـد أن ينتقل إلى ميسرة الكتيبة الخامسة والعشرين الأريترية.وان يقوم طابور صحراوي (بقيادة الملازم سكيتيني) بتطويق العدو بدوره على نطـاق واسع ، وان يقوم في هذه اللحظة نفسها الخيالة« السباهيس » الذين أرسلهم قائد القوات الخفيفة لمثـل هذا الغرض – بإطلاق النيران على الجهة اليسرى .

أما قوات البرج الخيالة – حيث كنت أنا وإلى جانبي صاحب السمو الملكي دوق (بوليي) وجميع رجال القيادة وأحد مترالیوزات الكتيبة السادسة (إذ

كان المتراليوز الثاني مع قائد الكتيبة والمتراليوزات الأخرى بناحية هون) – فإنها كانت تساند بنيرانها الفعالة زحف الكتيبة الليبية السادسة ، بينما كان الليفتننانت كولونيل (كرارا) في مؤخرة القافلة ، يقف في وجه هجوم العدو الذي انتقل بكل شجاعة وجرأة حتى اصبح على مقربة من جمال القافلة .

ولقد صدرت جميع الأوامر بمنتهى السرعة ، وقمت أنا بنفسي بإصدارها من فوق صهوة جوادي بين دوي طلقات بنادق قوات اللفتننانت كولونيل (تابلليني) وبقية ضباط القيادة الآخرين ، وتم تنفيذها في الحال بوساطة من تلقوها في مباراة من مباريات التعاون العجيبة .

ولقد وصلتني مرة أخرى من قائد فيلق القوات الخفيفة إشارة تطلب الإمدادات ، وهذا نصها :

« تلزمنا إمدادات على وجه السرعة . إنني أشتبك في قتال عنيف » .

وقد أجبت مرة أخرى بأنني لا أستطيع أن أرسل إمدادات ، وبأن القتال الذي بدىء به هو على أشده في الجبهة اليسرى . وقلت له فيما قلت ما يأتي :

« انتبه كل الانتباه لجناحك الأيمن ، واتصل بميسرتك بالكتيبة الليبية السادسة التي تزحف إلى الأمام » .

ولقد قاوم العدو ضغط رجالنا في الجهة اليسرى ، ثم أخذ يترنح ثم تقهقر بمنتهى السرعة .

أما في الجهة اليمنى فإن الحرب كانت سجالاً .

غير أن الكتيبة الأريترية الخامسة والعشرين قد صمدت للعدو ولم يستطع الثوار التغلب عليها أو زحزحتها . وقد انهزم الثوار في القتال الذي نشب بنيران طلقات البنادق والمتراليوزات المصوبة من البرج الكبير الذي فشل الثوار في احتلاله .

أصبح العدو في أزمة كبيرة واضحة .

وفي هذه الأثناء بدت في سمائنا طائرة من طراز « روميو » فأشرنا لها على العدو . وكان من شأن تدخل الطائرة الذي لم يكن متوقعاً وجـاء في أوانه أن أضعف معنويات العدو، اذ ضعفت نيرانه التي كان يطلقها علينا. وللتأكد من ذلك أمرت بإيقاف نيراننا . وعندئذ لم نسمع سوى طلقات نادرة من جانب العـدو بين حين وآخر .

وقد قامت الطائرة بعملية استطلاع سريعة وذكرت لنا « ان العدو يتقهقر نحو الشمال والشمال الشرقي » . ولكنها لم تطلق عليه قنابلها وهبطت على الأرض بمنتهى الشجاعة . ثم عاودت الرحيل .

ولقد أرسلت معها أول رسالة من رسائلي .

وبعد ذلك بقليل استأنف العدو إطلاق نيرانه التي مـا لبثت أن ازدادت شدة تدريجياً بسبب عودة رجاله الذين كانوا قد تشتتوا - إلى خط النار .

وعندئذ استعرت نار المعركة مرة ثانية . ومع ذلك فقد كان هـــذا على الجبهة وحدها .

المرحلة الثانية .

أثناء التقدم في المرحلة الأولى كنت قد نبهت قائد الألاي المتقدم إلى عـدم ملاءمة زحف الكتيبة الأريترية الخامسة والعشرين إلى مسافة بعيدة إلى الأمام . وكان قد أصدر أمره إليها بالتخفيف من سرعة سيرها، والقيام بأعمال وقتية على الخط الذي تم احتلاله .

ولقد كان من شأن اندفـاع الأريتريين الطبيعي وصعوبة الأرض وعلامات تقهقر العدو التي دلت على أن العملية قد تمت ، كان من شأن ذلك كله أن جعلنا

ندفع إلى الأمام بقواتنا التي أخذت تدق إسفيناً من السهل الهجـــوم منه من الجانبين .

ولذلك كنت مضطراً إلى ان أختار احد أمرين :

أولاً – إما أن ازحف في الحال إلى الأمام وأستفيد من ازمة العدو .

ثانياً – أو انقل الكتيبـة الخامسة والعشرين الأريترية على خط الكتيبة السادسة واعيد التجمع التام ثم اتقدم للهجوم في الوقت المناسب .

وقد قررت الأمر الثاني. ولو ان ذلك من أصعب الأمور على القائد واشقها واكثرها إيلاماً للقوات بسبب ما له من تأثير مادي ومعنوي.

ومع هذا فقد كان من الواجب عليّ ان اهتم بما يأتي :

طول المسافة بين الهدف (الآبار) التي لا تزال على مسافة ٨ كيلو مترات ، وبين القافلة التي يجب ان تبقى متأخرة تأخيراً يعرضها للخطر .

كما كنت أخشى من أنه إذا ما اندفعت القوات إلى الأمـام تخرج من يدي وتجعلني أفقد الإشراف المباشر والسريع – بوصفي قائداً – على الخط .

ولذلك قررت أن ترتد الكتيبة الأريترية الخامسة والعشرون إلى الوراء . وأن تعود إلى المواقع التي قامت منها ، أي إلى خط الكتيبة السادسة التي كانت قد وقفت فيه بناء على أوامري . ولو أنها قد استخدمت بعد ذلك بقليل في الجهة اليمنى في تلك الحركة السعيدة التي قام بها قائد الألاي الخفيف الزاحف لصـد محاولة أخيرة قام بها العدو من تلك الجهة أثناء هذه المرحلة الأولى من مراحل القتـــال .

وما إنْ رأيت الحركة السديدة التي قامت بهـــا الكتيبة الأريترية الخامسة والعشرون حتى نقلت مركز قيادتي فوق أحد الكثبان الرملية حيث كان يوجد الكولونيل (جالينا) .

وأمرت بسير القافلة وتركت فوق البرج سرية الكتيبة السادسة وسرية المتراليوزات الصحراوية لحماية المؤخرة .

وقد أمرت حضرة صاحب السمو الملكي دوق « بوليي » بأن يعيد تأليف طابور الملازم (شتيني) والخيالة « السباهيس » وأن يجعل كل عناصره الراكبة تعمل في الوقت المناسب .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف وجدت نفسي في مكان القيادة الجديد .

المرحلة الثالثة .

وبعد أن تبادلت الآراء ووجهات النظر مع الكولونيل (جالينا) أمرته بأن ينتقل في الحال إلى خط الكتيبة ، وأن يستعد للهجوم بكل ما معه وما تحت تصرفه من القوات المجتمعة بمجرد أن يتلقى أوامري .

وقد استبقيت – كقوة احتياطية لي – السرية التي كانت تعمل كطليعة . والسرية الثانية من سريات الكتيبة الليبية السادسة (بقيادة الملازم أول «لامي») وأربعة متراليوزات تابعة للكتيبة الأريترية الخامسة والعشرين .

ولقد أوضحت للكولونيل « جالينا » ضرورة حل الأزمة حلاً تاماً بالحركة التي تقررت وإلى النهاية حتى يصل إلى الآبار ، ثم يصل بعد ذلك إلى البرج الذي يسد الطريق إلى الجنوب .

وبين الساعة الحادية عشرة والنصف والثانية عشرة أصدرت أوامر مباشرة بمعاونة صادقة من جميع ضباط وصف ضباط القيادة والضباط الأطباء وضباط القافلة – بالعمل على تحسين الموقف الدفاعي على الجانب الأيمن الذي كان العدو مستمراً في تهديده ، كما أرسلت الليفتنانت كولونيل «تابيلليني» بالذات لنصب مدافع المتراليوز التي كان محتفظاً بها ضمن القوة الاحتياطية وبإعادة تنظيم من رفعوا

أربطة جراحهم من الجنود الموجودين في مكان المعالجة وبنقل جميع الجرحى على جمال القافلة .

وفي الساعة الثانية عشرة تماماً أرسلت إلى الكولونيل « جالينا » أمراً كتابياً بالتحرك .

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف كررت عليه هذا الأمر .

ولما وجدت الكتائب وهي على تمام الإستعداد للانطلاق بدأت أنا شخصياً بالتحرك مع القيادة ومع العناصر الاحتياطية تتبعني القافلة .

وكان صاحب السمو الملكي دوق « بولي » يتقدم قواته تحت وابل منهمر من رصاص العدو ، الذي كان يعرفه من طول قامته ، وما كان أجمله وأعظم بسالته واستهانته بالخطر !

لقد كان كأنه الفنار الذي تتجه من فوقه باسم إيطاليا وباسم بيت «سافويا» إرادتي في النصر وقوة تصميمي .

لقد كان هذا الأمير كأنه العلم المرفرف فوق أحد المتاريس الذي يشير للجميع إلى طريق الشرف .

إلى الأمام إذن جميعاً من أجل إيطاليا ، ومن أجل اسم «سافويا » .

كانت الطبول تدق إلى جانبي ، وموسيقى القرب الملكية من الأمام والجميع يهرعون إلى الهجوم .

ولقد كانت هذه الطبول هي نفس الطبول التي كانت تبلغ أوامر قيادتي في زحف قطع ١٣٠٠ كيلومتر ، تلك الأوامر التي كانت تطاع دائماً .

ولسوف يسمع جيداً دقات هذه الطبول رجالي الذين لا يمكن كبح جماحهم ،

والذين منذ ٧ سنوات يسمعونها ويتبعونها وهم منتصرون على الدوام .

إلى الأمام إذن .

وانطلق الجميع دفعة واحدة حتى دواب القافلة التي كانت تسير على مهل .

إلى الأمام . وكان أمامنا مرج نزعت منه حشائشه وأصبح عارياً .

وكان العدو يعتقد أنه لا يمكن تخطيه، ولكن جنودنا تخطوه وعبروه جرياً وبمنتهى السرعة وهم يطلقون صيحات الحرب .

ثم توقفت القوات لإعادة تنظيم نفسها .

وعندئذ لحقوا بالكولونيل (جالينا) .

وكانت الكلمة التي نقولها هي كلمة واحدة لا تتغير : « إلى الأمام — إلى الآبار » .

ولقد تمت الهجمة الثانية .

وهنا أمكننا أن نرى بوضوح البرج الذي يسد الطريق ، ذلك الحصن الوعر الذي يصعب الدخول فيه .

لذلك كان من اللازم تطويقه .

فأمرت صاحب السمو الملكي بأن يسبقني ويتقدم بالفيلقين : أحدهما إلى اليمين (بقيادة الرئيس « كابيني » ، والآخر إلى اليسار « بقيادة الصاغ سالفوني ») .

وسرعان ما انقض رجال الفيلق الصحرواي كالسهام على قوات العدو . وتوقف قليلاً الهجوم على القلب لكي تتاح الفرصة لتقدم الجناحين .

ولقد طلب مني قائد الألاي الخفيف الزاحف أن أدعم قواته بالمدفعية قائلاً:

« إن قطع المدفعية التي تم سحبها باستمرار منذ الصباح لا تستطيع العمل والقيام بوظائفها بسبب الرمال » .

فأجبته بقولي « تقدموا بالحراب » .

ولقد تحرك القائد المقدام .

وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر إلا وكانت الآبار تحت سيطرتنا .

ولقد أصبح الدفاع اليائس الذي قام به العدو مقصوراً على ذلك الحصن الصخري الذي كان يسيطر علينا .

ولكنه سرعان ما سقط بسرعة بفضل عملية التطويق التي قام بها رجال الدوق الصحراويون، وبفضل الهجوم الأخير الذي قامت به الكتائب الزاحفة.

وفي الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر سقطت أيضاً المواقع الأخيرة ، وأخذ العدو يضرب وهو يولي الأدبار نحو الشمال ، وقد أصيب في الصميم بآخر طلقة من طلقات المدافع .

وقد أخذ الباقون من الخيالة « السباهيس » يتعقبونه حتى أرخى الليل سدوله . وكان هؤلاء السباهيس قد أضناهم التعب .

واستراح الجنود في المواقع التي تم الاستيلاء عليها دون أن يسمع الجميع صوت أية طلقة من طلقات البنادق .

إنها علامة النصر الكامل .

وفي أثناء الليل ، قامت دورياتنا الراكبة بتطهير المناطق المتقدمة وفي جميع الاتجاهات ، ولكنها لم تجد أحداً من رجال الأعداء .

وهنا تقدم الجميع بمنتهى السرعة دون أن يزعجهم احد ، وفي غير هوادة، إلى حيث ارتوت بالماء كل دواب القافلة وجمالها ، وتم تنظيم الموارد المائية وأخذ

كمية المياه الاحتياطية .

بدىء في معالجـــة الجرحى بمنتهى العناية . وقد نقل المصابون منهم بجراح بالغة فوق نقالات حملت فوق أكتاف الرجال إلى (ورفلة) ، كانقلت جثث خمسة من الضباط القتلى بعد أن جرى لفها بأعلام كتائب كل منهم لـكي تحمل بأية وسيلة من الوسائل كالجرحى إلى « النوفلية » ومن ثم إلى (طرابلس) . وقد استحق القتلى الاحتفال بهم بمنتهى الإجلال والتعظيم .

وفي مساء يوم ٢٦ ذاتـــه طلبت من قائد القوات الخفيفة ان يعمل على أن يرسل لي بعض الطائرات في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي لكي تنقل قبل سفرها الضباط المصابين بجراح بالغة ولمعرفة اتجاهي في الزحف .

وفي الساعة المحددة شوهدت من بعيد في ساحة « تاقرفت » طائرة من طراز (روميو) أولاً ، ثم طائرتان من طراز (كابروني) بعد ذلك على مسافة قريبة .

هبطت الطائرة التي من طراز «روميو» وأبدت إشارة بالدخان للإشارة على الميدان للطائرتين اللتين من طراز «كابروني» . ولكن هاتين الطائرتين لم تلاحظا هـــذه الإشارة ومرتا فوقها على مسافة قليلة ، ثم تابعتا الطيران نحو الجنوب متجهتين نحو « زلة » دون أن تلاحظا وجودنا أو تشاهدنا .

ولقد أرسلت بواسطة الطائرة التي من طراز « روميو » تقريراً عن عمليات اليوم السابق ، بعد أن عبرت عن رأيي في الطلب الشفوي الذي تقدم بـــه إليّ باسم قيادة فيلق القوات الخفيفة الضابط المراقب فيما يجب أن يعمله بعد هزيمـــة العدو الساحقة . هـــل يجب الاستفادة من ذلك لإرسال سيارات التموين إلى (زلة) التي لا تزال على أهبة الاستعداد في (هون) أم لا .

وحوالي الساعة التاسعة تقريباً استأنف الألاي زحفـــه نحو الشمال تسبقه عربات الأمتعة الخاصة بالضباط الموتى والجرحى الذين نقلوا فوق نقالات على أكتاف الجنود .

وقد قامت الطائرة « ١٧ طراز روميو » التي يقودها الملازم « كامبي » ، والتي رافقت الألاي في جميع المعارك بكل إخلاص (وهي بنفسها الطائرة التي كانت قد هبطت في «تاقرفت» أثناء المعركة قبل عودتها الى «هون») ، قامت بعمليات استطلاعية واسعة النطاق في طريق زحفنا . وأبلغ قائدها ما يأتي :

الساعة الحادية عشرة . على مسافة ٤٠ ك . م في الجهة الشمالية والشمالية الشرقية لاحظت تجمع حوالي ٣,٠٠٠ أو ٤,٠٠٠ جمل فوق ساحة تبلغ بين ١٠ و ١٥ ك . م . وقد أطلقت قنابلي عليها وبعد ذلك لاحظت وجود نحو مائة جمل في المرعى ونحو ٢٠ خيمة . ولم ألاحظ أي أثر لألاي (ماريوتي)—ملازم الطائرة .

كان من السهل ان نستنتج من تلك الأخبار أنه لا بد من وجود بعض « المغاربة » المتقهقرين تحت ضغط ألاي الشمال « الكولونيل ماريوتي »، ولكن البحث الراجح الدقيق للموقف أقنعني بألا أشغل بالي بذلك ، وبأن اتابع البرنامج الذي رسمته من قبل دون التنحي قيد أنملة عن النتيجة التي يجب الوصول إليها ، وذلك لكي لا يزداد الموقف حرجاً بعد أن صار سيئاً .

ولذلك قررت الاستمرار في الخطة المقررة ودعوت جميع ضباطي إلى اجتماع كبير ، وشرحت لهم الموقف بحذافيره . وقد أجمعوا على ما يأتي : « التنازل عن تعقب « المغاربة » والبقاء على أحسن حالة لكي نستطيع ضربهم وهزيمتهم إذا ما قاموا بمهاجمتنا » .

وحوالي الغروب أقيم المعسكر في « وادي بشّوك » .

وقد تعرقل الزحف بسبب هبوب ريح رملية عاتية استمرت حتى وصولنا إلى «النوفلية»؛ وكان الزحف يسير ببطء بسبب نقل الجرحى فوق النقالات .

وقد انقضت ليلة ٢٧ دون أي إزعاج .

وفي فجر يوم ٢٧ استؤنف الزحف الذي تقدم بطيئاً وبصعوبة حتى ساعة الغروب .

وقد أقيم المعسكر فيوديان وعرة في «دور المويلح» في جهة ليست مطمئنة ولو أنها كانت خير المناطق التي كانت أمامنا وليست صالحة للدفاع المناسب في حالة وقوع أي هجوم من جانب العدو .

وقد أبلغت إحدى دورياتنا بأنها قد شاهدت جموعاً كبيرة من الجمال متجهة نحو المكان الذي توقفنا فيه ، وذلك في اللحظة التي كنا نقوم فيهـا في أحوال سيئة بإقامة المعسكر بسبب حلول الليل .

كان كل شيء يجعلنا نفترض إمكان حدوث قتال مع «المغاربة» .

على أن هذا الخبر سرعان ما اتضح كذبه فيما بعد ، وربما يكون الأعـداء – عندما شاهدونا ولاحظوا وجودنا في هذه الجهة – قد غيروا اتجاههم .

لم يتم الاتصال المادي بالآلاي (ماريوتي) ، ولكننا تلقينا أثناء الليل إشارة من محطته اللاسلكية تعلن وجوده في الجهة الشرقية مـن مواقعنا وعلى مسافة مثلها من الجنوب . ولذلك فإن وجوده كانت فيه فائدة لحماية جناحنا الأيمن ومؤخرتنا .

وقد انقضى الليل دون أن يحـدث أي شيء يعكر صفوه ، ودون أن يقع اي حادث غير ملائم .

اما فيما يتعلق بعدد الأيام اللازمـــة للوصول الى الساحل ، وهو عدد كبير نظراً للظروف والأحوال التي اجتازها الألاي ، فإن مسألة الأقوات والمؤن اخذت تقلق بالنا .

ولم يتم اي اتصال بنا من جانب السلاح الجوي اثناء يوم ٢٧ .

وفي يوم ٢٨ امتد الزحف من الفجر حتى الغروب وقطعنا حوالي ٣٠ ك . م . شمالي « دور المويلح » ، وتوقفنا في منطقة حددها لنا المرشدون انفسهم . وكان الجو رديئاً والرياح في غاية العنف والشدة .

ومع هذا فإن الطائرة (١٧ روميو) بقيادة الملازم (كامبي) ، تلك الطائرة الوفية ، استطاعت الهبوط ونقل أحد الضباط الجرحى . وقد سلم القائد لربان الطائرة رسالة موجهة إلى حضرة صاحب السعادة الحاكم العام أكد فيها عزمه على السير بجنوده إلى البحر مهما كلفه ذلك من ثمن ، وفي مقدمتهم الموتى .

ولقد مرت طائرة أخرى من طراز (كابروني) فوق القافلة دون أن تلاحظ وجودنا .

وفي أثناء ذلك ، توقف اهتمامنا بمسألة المؤن والأقوات إذ تم أسر عدد من الماشية الصغيرة استفدنا منها لإطعام الأريتريين ووزع لحم الجمال على الليبيين وعلى الجمالة .

وفي أثناء عمليات التطهير الـــتي تمت في أيام ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ وقع في أيدينا نحو ٥٠ من الوطنيين الفارين من معركة « تاقرفت » ، كما تم الاستيلاء على نحو ٥٠٠ جمل محملة ، فضلاً عـــن أسر كثير من النساء والأطفال الذين وضعوا تحت الحراسة عند قائد جماعة « الجفرة » « خليفة زاوية » ، وصدر الأمر بألا توجه إليهم معاملة سيئة أو أية إهانة .

ولقد تم الاستيلاء أيضاً على ٤٥ بندقية ،التي بإضافتها إلى الـ ٥٥ بندقية التي أخذت في المعركة ، تصل بعدد الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها أثناء الزحف نحو الساحل وفي معركة يوم « تاقرفت » إلى ١٠١ قطعة من السلاح .

وفي يوم ٢٩ كان الجو معاكساً للغاية ، فمنع عنا كل مساعدة مـــن جانب السلاح الجوي . وقد امتد الزحف بجهد وبكل مشقة من الساعة الخامسة صباحاً حتى الساعة الخامسة مساء متجهاً إلى الجهة الشمالية والشماليـــة الشرقية صوب جهة « حلـّوق » التي تظهر في الخريطة التي من مقياس ١ : ١٫٥٠٠٫٠٠٠ .

دخـــل الألاي منذ الصباح في منطقة الوديان المزروعة بالشعير والخضر . ولذلك أصبح من الممكن اعتبار مسألة أزمة لوازم الجنود والدواب في حكم

المنتهية ، إذ أن الدواب قد أخذت ترعى في هذه الوديان .

وقد سار الزحف بكل نظام ودون أن يلاقي أية عقبة أو يقع له أي حادث ولو أنه كان يمر بصعوبات من كل نوع ، ورغماً من أن التعب قد بدأ يتسرب إلى الرجال والدواب .

وانقضى الليل في غاية الهدوء .

وفي يوم ١ ، من الفجر حتى الغروب كان الزحف متعباً للغاية بسبب شدة الريح الرملية وعنفها .

وكانت تسمع أصوات محركات الطائرات فوق الجنود في السماء الداكنة ، وكانت هذه الطائرات تبذل مجهودات لكي تقدم لنا المساعدة بأعمالها. على أن الطيارين لم يستطيعوا أن يلحظوا وجودنا .

وفي المساء لم يكن من الممكن إقامة المحطة اللاسلكية بسبب تعب الموظفين، ذلك التعب الذي كان يتجاوز طاقتهم الجثمانية ومقدرتهم على المقاومة .

وقد انقضت هذه الليلة أيضاً في غاية الهدوء .

وفي يوم ٢ استمر الزحف مدة ١٢ ساعة من الساعة الخامسة صباحاً حتى الساعة السابعة مساء (هكذا في الأصل) ، وكان الجنود يلاقون عنتاً من الرياح الشديدة . وقد أكد المرشدون أنهم أقاموا المعسكر في وادي (تالويت) على مسافة ١٥ ك . م . من « النوفلية » .

وقد قررت ألا أقيم المحطة اللاسلكية ، وأرسلت إلى « النوفلية » دورية من الخيالة« السباهيس » ومعها الرسالة التالية « الساعة ١١/٣٥،قيادة حامية « النوفلية » – إنني أقيم المعسكر في هذه اللحظة في حوض وادي (تالويت) ، وأظن انه على مسافة ١٥ ك . م . تقريباً من « النوفلية » . وقد سرت امس واليوم بمعدل ١٠ ساعات في اليوم تحت ريح رملية عاتية ومؤلمة كانت السبب في تأخير سيري .

إنني أستهلك اليوم آخر كمية من الماء . لست في حاجة إلى شيء . سأتحرك في صباح الغد في الساعة السادسة . أرجو إعطاء أخبار بواسطة المحطة اللاسلكية إلى (سرت) و (هون) وإلى صاحب السعادة الحاكم العام والجنرال (شيكونيتي) إذا لم يكونا هناك . لن أقيم المحطة اللاسلكية بسبب تعب الموظفين الزائد عن الحد ، إذ أنهم في الليالي السابقة قد تحملوا متاعب استنفدت كل قواهم .

« الجنرال جراتزياني »

ومع هذا ، فإنني في الساعة الأولى من يوم ٣ ، رغبة مني في التأكد تماماً من موقفي تجاه « النوفلية » التي كانت تشاهد أنوارها الكهربائية الكاشفة ، قمت بإعداد المحطة اللاسلكية وأرسلت منها البرقية التالية :

« قيادة حامية « النوفلية » رقم ٨٤١ — في الساعة الخامسة والدقيقة ٣٥ أقمت المعسكر في مكان يقول عنه المرشدون إنه يقع شرقي تالوت . وحوالي الغروب لاحظت وجود أضواء كهربائية كاشفة . ثم انقطعت بعد ذلك . ولطمأنتي ينبغي أن تحددوا لي في أسرع وقت إذا كانت دورية الخيالة « السباهيس » قد وصلت ، وكم ساعة قد استغرق سيرها . وبمجرد أن يتلقى رئيس المحطة اللاسلكية هذه البرقية يجب أن يتوجه بهذه الإشارة شخصياً إلى قائد الحامية ، ويجب أن يجيب في الحال .

الجنرال جراتزياني

وقد تسلمنا منه الرد الآتي :

« الجنرال جراتزياني — رقم ٢٩ . بالإشارة إلى برقية سيادتكم رقم ٨٤١ . نخبركم بأن دورية الخيالة « السباهيس » قد وصلت إلى « النوفلية » في الساعة السابعة مساء . وقد ابلغت إشارتكم إلى « سرت » للعلم .

اليوزباشي جامبروفيش » .

وفي الساعة الثالثة من يوم ٣ ، دخل الألاي في واحة « النوفلية » واقام معسكره فيها،بعد ان قطع مسافة ٢٠٠٠ك.م. وكان من الواجب أن يستجمع قواه بعد هذه المجهودات الكبيرة التي لم يبذل أحد مثلها في الحملات الاستعمارية ، وقد تم قطع هذه المسافة بفضل قوة استعداداتنا وتنظيمنا . فضلاً عما أظهره القواد والجنود من المهارة التي بدت على خير الوجوه ، مما يجعلنا فخورين بما قمنا به من عمل ، ونحن متأكدون كل التأكد من أننا سوف نستطيع من ان يكون في مقدورنا في المستقبل القيام بمهمات ومشروعات أكثر صعوبة ومشقة .

طويت الأعلام المنتصرة أمام صاحب السعادة « دي بونو » ، كما تمت تأدية التحية لجثث الضباط التي تابعت سيرها الى مدينة طرابلس ، ثم نقلت منها الى « روما » حيث تلقت تحيات التكريم أمام صاحب الجلالة الملك وبحضور « الدوتشي » .

ورغبة في تقدير عمل الجميع – ضباطاً وجنوداً – على خير الوجوه وإظهار أهمية العمليات الحربية التي تم القيام بها، أرى من المناسب بعد هذا السرد الذي عرضته فيما سبق أن أزيح الستار عن النقط الجوهرية التي تبين جهود القوات العسكرية ، والنتائج التي اسفرت عنها حلقة العمليات العسكرية كلها وهي :

استغرق الزحف من « تاقرفت » الى « النوفلية » ستة أيام سيراً تتخلله المناورات ، وكان هذا الزحف متعباً للغاية نظراً لوعورة الأرض المليئة بالمخاطر ، إذ كان من اللازم السير فيها ونحن نتلفت الى كل جهة من الجهات . ولقد كنا نسير كل هذه الأيام السبعة في أرض ليس بها ماء . ولذلك كان لزاماً علينا أن نخفض من كمية حصص الماء اللازمة للرجال والدواب إلى أقصى حد .

ولما كنا قد رحلنا عن « زلة » وليس بها سوى أقوات تكفي لمدة ستة أيام ، أصبحنا مضطرين أيضاً لإنقاص كمية حصص الطعام .

ولقد كان الجو الرديء الذي صاحب زحفنا وما يملأ الجو من رياح رملية

عاتية الذي كان سبباً في تأخير سرعة سيرنا ، قد منع السلاح الجوي من أن يحمل الينا أية معونة ، رغماً من أنه قد قام بالطيران بجرأة خارقة للعادة ، وحاول اللحاق بنا في الأيام التي بلغت فيها الأزمة أشدها .

ولقد سرنا باستمرار بمعدل عشر ساعات في اليوم الواحد ، ونحن نقوم بتطهير الأراضي المحيطة بنا .

هذا ولم يتصل آلاي الشمال بألاي الجنوب الذي لم يكن من الممكن التخفيف عنه بأية حال أو إمداده بمساعدة مباشرة ، لأنه لما كان قد اتبع طريقاً أقرب إلى الجهة الشرقية ، سار يوماً كاملاً نحو الجنوب ، ، ثم اتخذ سيراً محاذياً أثناء العودة إلى الشمال .

هذا ولم يستسلم أي رجل للتعب ، بل بقي الجميع محافظين على الروح المعنوية العالية حتى وصلنا إلى الهدف ، رغماً من أن التحرك قد تم في الأيام الاخيرة بمساعدة « البوصلة » وحدها ، إذ أن المرشدين قد ضلوا الاتجاه إلى الطريق السوي بسبب عنف العاصفة التي كانت تمنع الرؤية منعاً تاماً .

وقد وصل الألاي إلى « النوفلية » بعد ان استنفد في الليلة السابقة لليلة الأخيرة كل ما كان يحمل من حصص الطعام والماء ، وكان الجنود قد أضناهم التعب وتهلهلت ثيابهم، بعد أن قطعوا مسافة تبلغ ١٥٠٠ كلم في صحراء «سرت»، التي لم يتمكن إنسان من قهرها . وبعد ان أعاد احتلال واحات « الجفرة » الثلاث واحتل « زلة » للمرة الاولى ، وبعد ان انتصر ونزع سلاح الاهالي الحضر الذين فوجئوا بسرعة الزحف الكبيرة ولم يجدوا من الوقت ما يساعدهم على النجاة بأنفسهم بالهرب .

وقد انهزم في يوم مشهود رجال البدو من أهالي طرابلس الغرب في ملجأهم البعيد الذي كانوا يعتقدون أنه ليس في مقدور احد قهره ، والتغلب عليه أو انتهاك حرماته ، ودخل الألاي قاعدة «النوفلية» بعد ان قطع طريقاً لم يسلكه

الاوربيون قط . وقد علمنا من التحريات التي قمنا بها ان هذا الطريق غير صالح للسير ، بما جعل « السيد الرضا » يؤكد لأهالي « زلة » ان الكفار لن يستطيعوا أبداً انتهاك حرمة « السنوسية » .

ولقد كان من نتيجة انتصار « بئر تاقرفت » والزحف من « زلة » إلى « النوفلية » ما يأتي :

أولاً – إبعاد البدو الرحل من أولاد سليمان مع جميع زعمائهم الرئيسيين إبعاداً تاماً عن أراضي سرت الشرقية وتقهقرهم الى جبال « هروج » على مسافة خمسة أيام من « زلة » ، ومعهم المحاربون الفارون الآخرون الذين انضموا اليهم في الدفاع اليائس الذي قاموا به ، فضلاً عن المغاربة « الرعيضات » الذين كانوا قد توقفوا مع صالح الأطيوش حتى هذه اللحظة على مقربة من « جيفة » .

ثانياً – التخفيف السريع عن خط الاحتلال الجديد (زلة – ودان – هون – سوكنة) . وإلا لكان قد جرى تهديده من الخلف ومن طرق مواصلاته .

ثالثاً – حل مسألة التموينات والمهمات والمساكن .

ولقد كان ليوم معركة « بئر تاقرفت » بالنسبة لحملة « سرت – الجفرة » تأثير جوهري حاسم ، وكانت له نتائج سريعة جزئياً ، كما كان له أثر تمهيدي من جانب آخر ، كما سيتضح ذلك من سرد الأحداث التالية .

ولقد كان من الممكن أن يكون له على العكس من ذلك تأثير جوهري حاسم إذا كان هذا اليوم قد انتهى بدلاً من النصر الكامل بفشل تكتيكي . وفعلاً كان لا بد للفشل من أن يحدث أثراً أدبياً ، وأن تكون له أهميته عند

العدو . فضلاً عن تدمير الألاي تدميراً كاملاً ، مما يعرض الموقف العام لصعوبات خطيرة .

ولقد كان مرد هذا الانتصار الى روح التصميم والعزم ، ولإرادة الضباط والقوات الذين كان لهم شرف قيادتها .

وليست شهوة البلاغة هي التي جعلتني ألقي ضوءاً على هذه الأحـــداث ، ولكن رغبتي الشديدة في الإشارة الى جميـع الأبطال الذين ساروا خلفي ، بإيمان لا حد له وبطولة متواضعة ، ولكنها مليئة بالعـــزم والتصميم ، حتى ليعرفهم الوطن الذي استحقوا الانتساب إليه عن جدارة . واليوم يقوم نصب تذكاري صغير في ذلك الموقع – الذي كلفنـــا ثمناً غالياً – الذكرى ، وقد كتبت عليه العبارة التالية :

٢٥ فبراير ١٩٢٨

هنا مات ميتة الأبطال .

في سبيل مجد ايطاليا وشرفها .

الضباط :

« أندريا رابزاردا » .

« مارينو فابري » .

« فرانشسكو برياتيكر » .

« الدو جارديا » .

« سيجفرد رواكرينل » .

و ٧٨ من صف الضبـــاط من القوات العسكرية والعساكر الأريتريين والليبيين .

ان تضحيتهم الكريمة المشرفة تلفت أنظارنا كل يوم وتدعونا إلى تـــأدية الواجبات المقدسة التي ستواجهنا في الغد .

وقد وضع الحاكم العام ايميلو دي بونو :

للذكرى الدائمــــة

هذا النصب التذكاري .

* * *

وفي نفس يوم ٣ مارس دخل للمرة الثانية من « النوفاية » ألاي « ماريوتي » الذي كان قد تم وضعه – كما رأينا من قبل – تحت تصرف الجنرال جراتزياني في يوم ٢٠ فبراير للمعاونة في الجهة الشمالية .

ولقد عمل هذا الألاي وهو مشكل على النحو التالي :

القائد : الكولونيل الكافالييري أودستو ماريوتي .

الكتيبة الليبية الرابعة .

الكتيبة الأريترية السادسة والعشرون .

طابور الخيالة « السواري » الرابع .

قسم من المدفعية .

الخدمات .

ولقد كان الواجب الذي أسند الى هذا الألاي هو مناوشة المغاربة المنتقلين الى « جيفة » ، والعمل على سحقهم إذا أمكن ذلك لمنعهم من التجمع مع أولاد سليمان ، وللعمل ضد ألاي الجنوب .

ولقد تحرك الكولونيل ماريوتي مدفوعاً بروح التعاون الأخوي الذي لا حد

له في يوم ٢٣ من « النوفلية » . وبزحف سريع وصل الى جيفة في يوم ٢٥ ، واصطدم للمرة الأولى بالمغاربة ، وبالرغم من كميات المياه الاحتياطية الضئيلة تابع سيره بعد ذلك في يوم ٢٦ نحو الجنوب في أحوال جويـــة معاكسة وهو يداوم الضغط على رجال صالح الاطيوش ، الذين كانوا لا يزالون باقين في تلك المنطقة ، بعد تعقب آثارهم في جيفة ، والذين انهزموا وطوردوا من الشمال وتم تهديدهم من الجهة الجنوبيـة بعد معركة « تاقرفت » ورجالنـــا يتعقبونهم إلى « مرادة » على جبال هروج .

وفي يوم ٢٧ و٢٨ التاليين استمر ألاي « ماريوتي » في السير بمحاذاة الألاي القادم من الجنوب .

وهكذا كان الحال في أثناء طول مدة السير في طريق العودة إلى البحر ، بعد ان قطع في تسعة ايام دون وقوع اي حادث مسافة تبلغ ٣٦٠ ك . م . تقريباً ، واثبت بأوضح برهان كفاية قائده وضباط الجيش الملكي وجنوده .

وبينما كانت تقع هذه الاحداث في طرابلس الغرب ، كانت قوات برقة تحتل بدورها واحات « اوجلة » في يوم ٢٤ فبراير وواحة « جـــالو » في يوم ٢٥ ، وتستمر في اعمال التطهير والسيطرة على أراضي « مرادة » في يوم ١٨ مارس .

وهكذا انتهت حلقة العمليـــات الحربية التي أجبرت بمعركة « تاقرفت » الحاسمة جميع بدو « سرت » الرحل على إخلاء الاراضي الواقعة بين الشاطىء والواحات الواقعة على خط طول ٢٩° ، وعلى الانسحاب من الجهة الجنوبية ، فضلاً عن سلسلة جبال « هروج » في عدة أيام من أيام احتلالنا .

ولم يبق إلا بعض تغلغلات من جانب الثـــوار الذين كانوا يبحثون عن مستودعات الغلال المخبأة التي تركوها أثناء انسحابهم ، ويحاولون جمع الشعير المنزرع في الوديان .

عمليات يوم ٣ سبتمبر .

كان الغرض من هذة العمليات تطهير تلك التغلغلات التي قام بهـا الثوار في الأراضي الواقعة شمال الواحات.

وقد تمت هذه العمليات بمعاونـــة قوات كلتا المستعمرتين ، بقيادة الجنرال « ميتزتي » .

ولقد اشتركت فيها الفيالق الآتية :

أ — ألاي « جارتي » ، الذي تحرك من قاعدة وادي « العقيلة » . وكان يتألف من الكتيبة الليبية السادسة ومن أربع سريات وأربع فرق من فرق المتراليوزات وخمسين من القمصان السوداء على ظهور السيارات.

ب — ألاي « مورامار كو »،الذي تحرك من واحات «مرادة».ويتألف من الكتيبة الأريترية التاسعة ومن ثلاث سريات وثـلاث فرق من فرق المتراليوزات،فضلاًعن سريتين ليبيتين معهافرقتان من فرق المتراليوزات.

جـ — ألاي « لورنزيني »، وقد تحرك هذا الألاي أيضاً من واحات مرادة ، ويتألف من فرقة من المصفحات وبطارية وفرقة من الحرس على ظهور السيارات .

د — ألاي « سيموني » ، وقد تحرك من « النوفلية » ، ويتألف من الكتيبة الأريترية التاسعة عشرة،فضلاً عن سرية من فرقة الخيالة «السواري» الرابعة على ٥٠ حصاناً ، وقسم من المدفعية وعشرين سيـــارة نقل للتموينات .

هـ — ألاي « مالتا » وقد تحرك من واحات « زلة » ، ويتألف من الكتيبة الليبية الأولى والفرقتين الثالثة والرابعـــة الصحراويتين وقسم من المدفعية .

وقد قطعت هذه الفيالق من يوم ٤ حتى يوم ١٦ مايو الأراضي الواقعة بين « النوفلية » إلى « العقيلة » ومرادة وزلة في كل اتجـــاه دون أن تلاقي مقاومة تذكر .

ومن يوم ١٧ حتى يوم ٢٤ قامت قوات طرابلس الغرب بتطهير المنطقـــة الواقعة بين « مردان » و « بئر قرياس » و « بونجيم » و « سرت » ومن يوم ٢٨ حتى يوم ٣٠ مايو تقدمت لاحتلال بئر « تاقرفت » الذي كان قد تقرر من قبل وهو نقطة الارتكاز في جميع اراضي سرت — الجفرة .

الفصل الثامن

التنظيم الدفاعي وأعمال التسوية

التنظيم الدفاعي وأعمال التسوية

أثناء العمليات التي تمت في المنطقة الواقعة على خط طول ٢٩° بقي حلفاؤنا بدو « منطقة القبائل » متضامنين مع الحكومة ، وكان لنا في ذلك فائدة كبرى ، لأنهم قد ضمنوا لنا بولائهم سلامـة جناحنا الأيمن في طريق زحفنا من « بونجيم إلى « هون » .

ولقد كان محمد بن الحاج حسن قـد توجه بعد عزله - كما سبق القول - إلى الشاطىء بقصد أن يبحث له فيه عن حلفـاء . وكانت تسبقه الطبول والزمور وتتبعه قافلة مؤلفة من عشرة جمال ومعه مؤن وذخائر ، وقد أعلن الجهـاد ضد الحكومة .

أما أحمد سيف النصر وعبد النبي بالخير فقد سخرا منه وأفهماه أنهما الآن فقط يستطيعان أن يحملاه محل الاعتبار والتبجيل ، إذا ما استطاع إثارة أهالي « منطقة القبائل » ، وحاول نشر الثورة في الجبل .

عندئذ عاد إلى « الشويرف » . ولما سمع أن الحكومة كانت تستعد للنزول إلى القريات بمساعدة حلفائها من البدو بدأ بعمله النشيط المعادي ، وقام بتأليف (محلة) من حوالي ٦٠٠ بندقية كما قام بتجنيد عناصر الغوغاء في منطقة القبائل وحصل على تأييد جانب من (المشاشى) .

ولقد فرض علينا هذا الموقف احتلال (القريات) ، ذلك الاحتلال الذي أصبح أمراً ضرورياً لمنع دخول الثوار المتزايد في (مزدة) ، والذين كانوا قد تجمعوا في مكان بين (غدامس) و (سوكنة) بعد احتلال الواحات الواقعة على خط طول ٢٩° .

وكان من الممكن زيادة الرقابة من القريات على البدو المخالفين لنا .

ولذلك فإنه بعد أن تقررت العمليات في آخر مايو تم تأليف قوة عسكرية متحركة من الأسلحة الثلاثة ، كان عليها أن تنقض على القريات عن طريق (مازوزة) و (الجعفر) وجبل (مرسيط) .

ولقد أسندت القيادة المباشرة لهذه القوة إلى الكولونيل (بولي) ، قائد منطقة الجنوب، وكان من الواجب أيضاً أن يرافق هذه القوة الجنرال جراتزياني، الذي أصبح من الآن فصاعداً ملحقاً بقيادة القوات ، إذ أنه يستطيع أكثر من غيره التأثير في الموقف السياسي .

ولقد كان الطريق الذي يجب السير فيه طريقاً مجدباً يفتقر إلى المياه، ولكن للتغلب على هذه الصعوبة الخطيرة قد تم الحصول على كميات احتياطية كبيرة من المياه وحملها مع القافلة .

ولقد كان هذا الزحف يعيد إلى الذاكرة ذكرى الكارثة التي أصابت زحف الكولونيل (جانينازي) ، الذي انهزم شر هزيمة في سنة ١٩١٥ في جبل (مرسيط) ، واضطر إلى التقهقر إلى (مزدة) بعد أن فقد عدداً كبيراً من رجاله وأسلحته وذخائره .

بدأ التحرك في يوم ١٠ يونيه .

ولكن في عصر ذلك اليوم هبت الريح القبلية هبوباً عنيفاً رفع درجة الحرارة إلى ٥٠° في الظل .

وفي المساء نقصت مياه الشرب التي كانت موجودة في البراميل إلى الثلث ،

بسبب التبخر الشديد . أما الكمية الباقية التي كانت ساخنة إلى حد كبير فقد استعصى شربها على الرجال والدواب.

في مثل تلك الاحوال كان من التهور الشديد وعدم الحزم التقدم الى الأمام . وإذا صح أنه ليس من الواجب في الحروب التصميم على خطة بذاتها ، إذا ما كانت هذه الخطة لا تتفق مع ظروف الساعة ، فإن هذا المبدأ كان يفرض نفسه بدرجة كبيرة في الحروب الاستعمارية حيث تستطيع ظروف الواقع تغيير الخطط بسهولة ومن آن لآخر .

ولذلك يجب أن يتحمل القائد مسئولية القرارات التي يراها أنسب من غيرها ، لأنه في ميدان القتال يصبح القاضي الواثق من حكمه ، بينما لا يستطيع من هو بعيد إلا أن يرى الأشياء من خلال قناع يغير أشكالها وملامحها .

فيهذه الظروف قرر الجنرال جرتزاياني –الذي كان يعرف الأثر السيىءالذي تحدثه الريح القبلية– في مساء يوم ١٠، أن يجعل الآلاي يدخل «مزدة» وتأجيل القيام بالعمليات إلى وقت أنسب .

ولقد تشجع محمد بن الحاج حسن، كما كان ذلك طبيعياً – عندما رأى الآلاي يعود ثانية إلى قاعدته ، لأن كل هذه الظروف ستكون في صالحه .

وكان هذا لا يخلو من ألم له ، لأنه هو وأعوانه قد رأوا ان فرصة سانحة قد افلتت من بين ايديهم ، لأنه كان في استطاعته في هذه الاحوال الجوية السيئة ان ينزل ضربة شديدة بقوات الحكومة إذا ما نشبت بينه وبينها المعركة .

ولقد عاد هؤلاء إلى مقرهم الطبيعي بينما كانت إحدى الكتائب (الكتيبة الليبية الثانية) قد بقيت في خرمة بوغرة ، وهي ممر كثير الوعورة وذلك لضمان المواصلات – بين مزدة وغريان – وكانت قد انضمت إليها جماعات « خليفة زاوية » غير النظامية .

وقد حدث فعلا ان قام محمد بن حاج حسن بالانقضاض على «مزدة»، وقد

قام بهجومه هذا في الحال على أثر تقهقرنا .

وفي يوم ٣٠ يونيه هوجم ٢٥٠ رجلاً من الجماعات غير النظاميـــة بقيادة الرئيس الوطني « خليفة خالد » في وادي « لـَلا » بواسطة لفيف من رجـــال (محلات) العدو الذي كان يحاول الهجوم على مؤخرة معسكر (مزدة) .

ولكن على أثر تدخل سرية من القوات الأريترية لاذ الثوار بالفرار نحــو الجنوب .

لذلك كان الموقف يفرض العمل دون إبطاء لإبعاد ضغط الثوار الذي كان من هذه اللحظة يتزايد بين مزدة وغريان .

ومع هــذا ، فإن الأحوال الجويـــة التي كانت دائماً معاكسة جعلت من الصعب تحرك الفصائل النظامية بقوتها الكاملة .

ولذلك تقرر ان يجتمع في بئر (تارسين) قوات غير نظامية من الف رجل تحت إمرة الرئيس « خليفة خالد » مع الاعيـــان الوطنيين عاكف مسيك من غريان و « خليفـــة زاوية » . وكان هؤلاء الرجال الثلاثة من ذوي الإيمان الصادق . وقد قدموا كثيراً من الأدلة على إخلاصهم ووفائهم وبطولتهم .

ولقد رافق الكتمان التام هذا الاجتماع بين هؤلاء العسكريين ، وكانوا هم انفسهم يجهلون الغرض منه .

وكان الهدف المقصود منه هو ان يهجموا من بئر تارسين على محلات الثوار ، وان يبحثوا عنها في كل مكان للقضاء عليها ، ثم للاندفاع الى الأمام حتى واحات القريات ، وذلك بالانقضاض على المخيمات وعلى العوائق والمتاريس التي اقامها العدو .

ولقد تم الاجتماع وتسليح القوات التي تألفت لهذا الغرض وتم نقلها من غريان بمنتهى السرعة .

وفي الأسبوع الأول من شهر يوليه ، في يوم ٩ منه ، كانت تلـك القوات على تمام الاستعداد للتحرك من بئر تارسين للمحافظة على الكتمان التام ثم الانقضاض على العدو ومفاجأته . كذلك كانت قيادات غريان ومنطقة « مزدة ».

زحفت القوات غير النظامية للبحث عن « محلات » العدو بعزيمة صادقة نحو الجنوب في أيام ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ ، وانقضت في صباح يوم ١٥ على واحات القريات الشرقية ، حيث كانت فيها مخيمات للثوار الذين تم أسرهم أو تحطيمهم أو إجبارهم على الفرار .

ولقد صدر الأمر في الحال إلى الرئيس (خليفـــة خالد) الذي كان السلاح الجوي في تلك الأثناء قد أخطره بمعركة خرمة «بوغرة » بأن يبقى في القريات ، وبأن يتقوى وبألا يمهل العدو المتقهقر وأن يتعقبه في غير هوادة .

ولما علم محمد بن الحاج حسن باحتلال القريات تقهقر بمنتهى السرعة نحو الجنوب للدفاع عن المخيمات ، واتجه نحو الطابونية . ويروى أنه قال على أثر هزيمته إن «القربة قد تم خرقها في الصميم »، وهذا لكي يدلل على انه لم تبق له أية حيلة، ولا يستطيع عمل اي شيء .

لذلك كان من الواجب الإفادة من النجاح الذي تم إحرازه وإبقاء احتلال القريات وجعله احتلالاً نهائياً ،وإقامة حامية فيها على مقربة من الحصن الروماني لضمان سلامتها .

ولقد كانت طرق المراحل غير المأمونة توحي لنا بأنه لا ينبغي المغـــامرة بتسيير فصائل صغيرة من القوات العسكرية .

لذلك اسندت مهمة النقل للطيران . ولقد كان يتولى قيادته من ايام قليلة الكولونيل (رانسا) .

ولم تكن الطائرات التي جرى استخدامها بكثرة أثناء العمليات الحربية في منطقة خط طول ٢٩° في حالة جيدة .

ومع هذا ، فإنها قـــد استمرت في اثناء كل هذه العمليات تقدم معاونتها الصادقة في جميع العمليات .

ومما تجدر الإشارة إليه عمليـــات إلقاء القنابل والضرب بالمتراليوزات ضد « محلات » محمد بن الحاج حسن ومخيمات الثوار ، في منطقة بئر جعفر الوعرة وفي جنوب القريات الشرقية .

وأثناء إحدى هذه العمليات أصبنا بفقـد إحدى هذه الطـائرات من طراز (ك – ٧٣) التي كانت يقودها الرئيس « متزيتي » ، الذي اضطر الى تركها بعد أن هبط هبوطاً اضطرارياً في « بئر جعفر » بعد أن اصيب محركها بعطب شديد من جراء رصاصة من بندقية اخترقته .

أما الطائرة الأخرى من طراز (ك – ٧٣) التي كان يتولى قيادتهـا الملازم ثان « ماروتا » ، التي كانت تقوم بالدورية هي والطائرة الأخرى فإنها هبطت في الحال .

ورغماً من نيران وحـدات الثوار الحامية التي كانت تصوب إليهـا من كل جهة استطاعت أن تنقل على ظهرهـا جميع رجال الطائرة الأخرى المعطوبـــة وتعود بهم بعد ذلك .

وهذا مثال عظيم على التضامن والتضحية والفداء! وفضلاً عن قيام الطائرات بإلقاء القنابل والضرب بالمتراليوزات فإنها كانت تقوم بالطيران لنقـــل الجنود والمهمات الحربية والأسلحة والمؤن ، كما يتضح من الأرقام الآتية :

ساعات الطيران	عدد ٤٥ ساعة
عمليات الاستكشاف	عدد ١٤٠ عملية
عمليات قذف القنابل	عدد ٣٥ عملية
إلقاء المتفجرات	١٥٠٠٠ كجم
خراطيش المتراليوزات التي صوبتها	عدد ٣٥٠٠ خرطوشة

عمليات نقل الجنود	عدد ١٨ عملية
الضباط والجنود والرجال الذين نقتلهم	عدد ٢٢٠
عمليات نقل الأغذية والمهات	عدد ٢٨٠ عملية
كمية المهات والأغذية التي نقلتها	٢٥٠٠٠ كجم
الجرحى والمرضى الذين نقلتهم	٢٨ .

وهذه القائمة تتحدث بأفصح بيان لكي تظهر مقدار المساعدة الهائلة والمتعددة التي قدمتها القوات الجوية لعمليات الاحتلال ، وعلى الأخص في عمليات الاحتفاظ بواحة القريات .

وكان يتحتم إرسال كميات كبيرة من الأغذية عن طريق القوافل التي كان يقودها بدو المشاشى الرحل بأنفسهم .

ولقد أسندت هذه المهمة إلى الشيخ عمار ، من أعيان المشاشى المتقدمين في السن ، وهو رجل كان يثق به الجنرال جراتزياني ثقة مطلقة . ولم يشأ هذا الرجل أن يدل الجنرال جراتزياني على الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه ، ولكنه استطاع أن يقود القافلة إلى القريات دون أن يقع له أي حادث .

وكان هذا التحفظ في اخفاء الطريق من جانب أحد الوطنيين له دلالته ، كما كان مثالاً يحتذى .

في تلك الأثناء كان محمد بن الحاج حسن الذي كان يستقر في « الطابونية » يجمع المشتتين من رجاله .

وكان من اللازم إجباره على التقهقر الى « فزان » ؛ وكانت اللحظة مواتية لوضعه امام خربيش وجهاً لوجه ، الذي كان ينتظر الوقت المناسب لرد اعتباره. فإنه لما أرسل إلى القريات على رأس فصيلة من قوات « الجبل » غير النظامية ، اصطدم بأمر من الليفتنانت كولونيل « برايدا » هو وقوات (خليفة زاوية)

في الطابونية بزعيم المشاشى الذي بعـــد أن انهزم هزيمة ساحقة تقهقر نحو الشاطىء .

وهكذا فإن تغير الأسلوب جعل من الوطنيين آلة فعالة في أيدينـا بسبب تنافسهم وأطماعهم .

ولقد دفع « خربيش » ضريبة الإيمان . وبعد أن استوفى حساباته استأنف في طرابلس حياته الخاصة .

وبهذه الطريقة فشلت فشلاً ذريعاً أول محاولة للثورة في منطقة القبائل ، تلك الثورة التي أثارها محمد بن الحاج حسن ، الذي كان قد وضع خطة كبيرة ترمي إلى قلب موقف البدو المحالفين لنا على أثر نجاح حربي يحاول إحرازه في خرمـة « بو غرة » ، وبذلك يضاعف قواته ويزيد عددها ، كما ترمي إلى عزل « مزدة » والاتجاه إلى « يفرن » لكي يشعل نيران الثورة في « الجبل » .

وهذه فكرة واسعة النطـاق ، ولكن دون وجود الوسائل التي تتناسب معها ، وتعتمد على الأخص على الاستهانة باستعداداتنا الحربيـة . وهذه استهانة عجيبة من جانب زعيم كان قد شاهد أيضاً بنفسه في الأعوام السابقـة بطولة الجنود ، والنجاح الذي أحرزوه في كل مكان . فقـد كان يريد أن يعتمد على التهديد الذي تضمنه خطابه الذي أرسله إلى الجنرال « جراتزياني » ، والذي كان يطلب منه فيه أن يشاطره القيادة في المنطقة الواقعة شمال « مزدة » .

ومع هذا فإن هـــذا الزعيم لم يتخل عن خططه وآماله . ولسوف نرى المحاولات التالية التي يقوم بها .

وهكذا اندفع احتلالنا في شهر يوليه ١٩٢٨ حتى القريات الشرقية ، وأبعد ولو جزئياً عودة الثوار إلى سوكنة – غدامس - مزدة .

ولما كان العدو قد اختفى فعلاً اختفاءً تاماً كان من اللازم الاتجـاه إلى

الشويرف على مرتفع (أم الخيل) الذي كان قد بقي مركزاً لجمع تشكيلات الثوار من أولاد ويف .

ولقد اختتمت حلقة العمليات هذه بمناورة سريعة وبالإفادة في أقرب وقت من النجاح الباهر الذي تعلمنا منه دروساً مفيدة ، التي منها :

١ - قيمة البسالة والكتمان العظيمة .

٢ - معاونة الطيران في الحرب الاستعمارية معاونة صادقة .

٣ - الفوائد العظيمة التي يمكن الحصول عليها من التشكيلات غير النظاميه عندما تتألف حسب المقاييس التي سبقت الإشارة إليها ، والتي تم تطبقيها في هذه الحالة بمنتهى الدقة والحذر .

* * *

ولقد كان الرئيس (خليفة خالد) رجلاً مأمون الجانب للغاية ومعروفاً بإخلاصه وبسالته .

وهو من أصل تركي ، وكان جده ضابطاً برتبة رئيس في الجيش العثماني ، وأرسل بهذه الصفة إلى طرابلس الغرب للعمل فيها .

ولقد قاتل خليفة خالد في سنة ١٩١١ في صفوف القوات التركية برتبة ملازم ثان في المشاة ، بعد أن كان قد أتم دراسته في المدرسة الحربية العليا بالقسطنطينية .

وقد استسلم بعد معركة « الأصابعة » للجنرال « لكويو » في بلدة « يفرن » . وقد عمل بعد ذلك هو وبعض الضباط الطرابلسيين في صفوف القوات الوطنية برتبة ملازم أول .

وبعد أن أصيب بجرح وأنعم عليه بوسام في عمليه الانسحاب من « ترهونة »

بقي مخلصاً كل الإخلاص لقضيتنا حتى في سنوات الإذلال الكبير الذي لاقيناه في هذه البلاد .

وفي عام ١٩٢٢ انتقل للاشتراك في صفوف قوات جلالة الملك التي كانت تعمل تحت ادارة الكولونيل «جرتزياني»، وسار خلفه في جميع الحملات العسكرية بإخلاص ووفاء لا حدّ لهما .

وقد نال عمله التقدير بوصفه مستشاراً ، وذلك بسبب معرفته الدقيقة بالعناصر الوطنية ، سواء في الحقل السياسي او في الحقل العسكري، وكان يقدم أجل المساعدات دائماً في هذا الميدان .

بعد ذلك رقي إلى رتبة « الرئيس » لكفاءته الحربية على أثر حملة « الجبل » ثم احرز الميدالية الفضية في « بئر تاقرفت » وبسبب ما اظهر من البسالة في احتلال القريات الذي قامت به القوات غير النظامية .

ولسوف يؤدي في المستقبل خدمات عظيمة تستحق التقدير وذلك بسبب ذكائه وسمو أخلاقه ، وهو بعيد عن الميول الشريرة التي كان يضمرها الزعماء المحليون ، ولقد افاد كثيراً من الوجهة الخلقية بسبب اتصاله الدائم بنا .

وكذلك يمكننا ان نقول هذا بالنسبة للضابط « عاكف مسيك » الذي يعمل تحت إمرته، والذي يشغل وظيفة سكرتير للشئون الوطنية في «غريان» .

ولقد اشتهر هذا الرجل أيضاً بالدور الذي لعبه في إعادة احتلال هذه البلدة ، وكذلك الحال بالنسبة للجنود ، فإنهم مأمونون للغاية، اذ حافظوا على شروط العمل معنا بكل دقة .

وبعد مرور أربعين يوماً من تجنيدهم عادوا حسب الاتفاق إلى « غريان » ، وقدموا أسلحتهم إلى قيادة المنطقة .

وإن إخلاص هؤلاء الناس ووفاءهم المطلق لقضيتنا هو أنصع دليل على مقدار ما للحكومة الفاشستية من هيبة في المستعمرة .

رد الفعل المعادي في المنطقة الجنوبية الشرقية .
معركة بئر العافيـــة ، ٣١ اكتوبر ١٩٢٨ .

بينما كانت تقع هذه الأحداث الهامة في المنطقة الجنوبية الغربية كان العمل التنظيمي يتقدم بمنتهى السرعة في المنطقة الجنوبية الشرقية ، فضلاً عن أعمـال تمهيد الطرق والدفاع في الأراضي الشاسعة غير المضيافة الممتدة بين « النوفلية » و « تاقرفت » و« زلة » و« هون » و« بونجيم » و « بويرات ».

هذا ، وقد تم – بين صعوبات الطبيعة ومشاق غارات العـــدو – القيام بالأعمال الآتية :

أولاً – إنشاء طرق صالحة لسير سيارات النقل بين « القداحية » و«بونجيم» – « هون »، ويبلغ طولها ٢٣٨ ك . م . ولم يمكن افتتاحها للمرور إلا في ديسمبر ١٩٢٨ .

ثانياً – إنشاء نقط ارتكاز في « النوفلية » « تاقرفت » « زلة » « هون » « بونجيم » .

ثالثاً – تنظيم الدفاع في خط المرحلة .

في تلك الأثنـــاء كان عبد الجليل سيف النصر ، بعـــد ان انسحب إلى بلده « واو » ، يستعد للقيام بمحاولة انتقامية كان هدفها « هون » ، في الوقت الذي تمت فيه محاولة محمد بن حاج حسن في منطقة القبائل .

وكانت بالفعل قد وصلت اخبار من مدة عن هجوم قام به العدو على «زلة»،

ولكن من الواضح انها كانت إشاعات كاذبة اذيعت عمداً لكي تبعد الأنظار عن الهدف الحقيقي الذي يقصده ذلك الزعيم الوطني .

وفي الحق إن « زلة » تمثل موقعاً من المواقع الحصينة بطبيعتها ، حتى انه كان من الممكن اعتبارها منيعة ولا يمكن ان يدخلها خصم ليست لديه مدفعية قوية .

لذلك كان من الممكن ان نستنتج ان الهجوم لا بد من القيام به على هون ، او على خط مرحلة « بونجم » الذي لا يزال في طريق التنظيم .

بهذه الاعتبارات ، كون قائد القوات العسكرية فكرته عن العمليات التي تتلخص فيما يلي :

أولاً - الاحتفاظ بنقط ارتكاز بقوات قليلة تقيها المنشآت التي تم تشييدها او التي في طريق البناء .

ثانياً : إنشاء فيلق « الجفرة » الخفيف الحركة الذي يجب عليه القيام بعمليات هجومية في مثلث «زلة» و « تاقرفت » و « هون » الدفاعي.

ولقد تم تأليف فيلق « الجفرة » الخفيف الحركة على النحو التالي :

- الكتيبة الليبية السادسة .
- الفيلق الصحراوي الثاني .
- قسم من المدفعية التي تحملها الجمال .
- وحدات « ورفلة » غير النظامية .
- أقسام من الخدمات المختلفة .

ولقد أسندت قيادة هذا الفيلق إلى الليفتنانت كولونيل « لويجي آماتو »

قائد منطقة « هون » ، وهو ضابط عظيم ذو كفاءة غير عادية ، كانت القيادة العليا تستطيع الاعتماد عليه والثقة به .

ثالثاً – إنشاء فيلق « سرت » الخفيف الحركة ، الذي ينتقل جزء منه إلى « سرت » والجزء الباقي إلى « بونجيم » ، وذلك للعمل فيه حيثما تدعو الظروف ؛ وهو يتبع فيلق « الجفرة » مباشرة ، أو للعمل ضد القوات المعادية التي قد تكون مختبئة في أراضي منطقة « سرت » الشاسعة.

وإن استخدام هذا الفيلق في الحدود الخارجية أو في جنوبها لا بد أن يستغرق فترة من الزمن ، أي حوالي عشرة أيام ، لا يمكن أثناءها – نظراً للتدابير التي تم اتخاذها – إيجاد موقف خطير لمصلحة العدو ، حتى في حالة الهجوم بقوات كبيرة .

ومن جهة أخرى ، فإن ضرورة عدم إرهاق الحاميات المتقدمة وإشغالها بمسائل التموين والسكن منعت نقل أية قوات إلى جنوب « بونجيم » .

رابعاً – زيادة تدفق الأغذية والأقوات ومختلف المهمات الحربية من قاعدة « بويرات » إلى الحاميات الخارجية في المنطة الجنوبية الشرقية لإعطائها نصيباً كبيراً من الاستقلال، وذلك لكي تستطيع مواجهة ما قد يقوم به العدو ضدها من اعمال عدائية ، ولتستطيع الصمود امام حصار طويل الأمد من جانب الثوار. وهذا يقتضي حركة مرور السيارات وما تتطلبه من إجراءات لتأمين نقل الجنود على خط مرحلة « بونجيم » – « هون » وهو خط ليس بقصير .

* * *

وفي يوم ٩ اغسطس وقعت دورية مؤلفة من ١٦ رجلاً من الخيالة «السباهيس» كانت مرسلة للقيام بعمليات استطلاعية من بونجيم الى « بئر الرشيدية » في

« رواوص » — وقعت في كمين نصبته لها وحدات قوية من الثوار لا يقل عدد رجالها عن حوالي مائة من المسلحين .

ولقد ساعد الكمين عدم وجود خدمات لتأمين السير لحماية الدورية اثناء مرورها في مضيق وعر مما ساعد على مفاجأتها وتطويقها تطويقاً تاماً .

إن هذا الحادث ، ولو انه قليل الأهمية ، إلا انه نبه القيادة إلى نيات العدو الذي يحاول القيام ببعض الاعتداءات على خط بويرات — هون مستفيداً من إمكانه الاندفاع إلى الأراضي الواقعة بين (الجفرة) و (منطقة القبائل)، وباستخدام الطرق المتجهة من وديان رواوص وبي الكبير .

ولقد كان وجود الثوار في منطقة الوديان السالفة الذكر يدل على مدى قيام الثوار بعمليات حربية ، بقصد منع تدفق الأغذية والمهمات الحربية إلى حامية هون ، وذلك لتسهيل القيام بعملية حربية ضد هذه الجهة في هذا الوقت او في لحظة تالية .

وفي ليلة ٢ سبتمبر تقدم نحو عشرين رجلا من الثوار إلى بئر (بغلة) وهاجمت بلوك الفرسان المنعزل بها والذي دافع عن نفسه بهمة عظيمة مما اضطر المهاجمين الى الانسحاب في الفجر .

وترجع النتيجة الحسنة التي أسفر عنها هذا الحادث قبل كل شيء إلى وجود منشآت دفاعية صغيرة .

وكان قد أنشىء في هذه الجهة على خط مرحلة « بونجيم » منذ أيام مبنى خاص بأعمال الطرق بين « بونجيم » و« هون » ، ووضعت فيه فصيلة من رجال المتراليوزات ومعها بلوك من الجنود المسلحين بالبنادق ، وكلاهما تابع للكتيبة التاسعة عشرة الأريترية ، وذلك لحماية المبنى السالف الذكر ولخدمات تأمين مرور سيارات نقل الجنود .

وفي فجر يوم ٢٨ سبتمبر قامت قوات من الثوار يقدر عددها بنحو مائة من المسلحين بمهاجمة موقعنا مفاجأة .

وبعد نجاح مبدئي أحرزه العدو ، قامت قواتنا بمهاجمة مضادة في غاية الشدة على أحد جناحيه وأجبرته بعدئذٍ على التقهقر .

وكانت خسائرنا أحد الأومباشية وجنديان ممتازان وعشرة من العساكر ملي وجندي ممتاز وأحد عشر عسكرياً جرحى من قوة يبلغ مجموعها أكثر من خمسين رجلاً بقليل . وهذا ما يثبت عنف القتال .

ولقد كان من شأن هذه المعركة والمعارك السابقة ان أوضحت نية العدو واعتداءاته هذه وفي إزعاج وإيقاف عمليات التنظيم على خط « بويرات » « بونجيم » « هون » وبقصد الاستيلاء على الأسلحة والمؤن . او كان ذلك ايضاً للاستعداد ، كما ذكرنا من قبل ، للقيام بعمليات حربية ضد حاميات الأمن الموجودة في الحدود الخارجية .

وفي يوم ٢ اكتوبر قامت دورية راكبة بالاستطلاع في جنوب « زلة » فاصطدمت بوحدة من وحدات الثوار . وسرعان ما بلغ هذا الخبر قيادة منطقة «زلة» . ولذلك أمرت في الحال بقيام قوة كبيرة بعملية استطلاعية استطاعت على اثرها ان تتأكد من ان عناصر الثوار قد شوهدت جنوب « زلة » ويبلغ عددها اكثر من ٧٠ رجلاً مسلحاً .

وفي تلك الأثناء تدخلت القوات العسكرية في الحال ، وامرت على سبيل التجربة أيضاً باستدعاء فيلق « الجفرة » الى « هون » .

وهكذا اشترك هذا الفيلق للمرة الأولى في العمليات الحربية .

وقد أسند إلى هذا الفيلق واجب البقاء حتى صدور اوامر جديدة في مثلث (هون) (زلة) (تاقرفت) ، والتكتل في اول الامر بين (تاقرفت) و (هون) .

وفي ليلة ٦ من اكتوبر ، قامت وحدة الثوار التي شوهدت جنوبي « زلة » بغارة سريعة على واحة خط مدوين الصغيرة ، حيث استطاعت التزود

بكميات من الماء والملح .

ولما علم فيلق « الجفرة » ، الذي كان على اهبة الرحيل ، بهذا الخبر ، تحرك دون تأخير في صبيحة يوم ٦ اكتوبر من « هون » متجهاً الى خط « مدوين » – عن طريق شلك – وكان واجبه المبدئي الذي اخذه على عاتقه الليفتنانت كولونيل « اماتو » هو مساعدة قوات (زلة) وحماية (تاقرفت) مما قد تتعرض له . ومن باب الاحتياط القيام بعد ذلك بالانتقال مع الفيلق من «شلك» إلى خط انسحاب الثوار . خط مدوين – جبال هروج .

ولو كان الثوار قد تأخروا في التقهقر واختاروا الطريق الواقع غربي« زلة » للتقهقر منه لكان فيلق « الجفرة » قد وجد نفسه في احسن الظروف للعمل ، بالتعاون مع قوات « زلة » ضد العدو .

ولكن العدو نجا بنفسه بالانسحاب في اليوم التالي .

هذا ، وإن التدابير التي اتخذها الليفتنانت كولونيل « اماتو » قد وافقت عليها بأكملها قيادة المنطقة ، كما أنها كانت تدخل في نطاق خطط قيادة القوات العسكرية ، وكانت مثالاً فريداً ينطق بأفصح لسان عما يستطيع أن يحدثه التعاون الصادق بين مختلف القوات في المناطق المترامية الأطراف من أراضي المستعمرة .

في تلك الأثناء نظراً لاقتراب فصل الخريف ، ولتأكد القيادة من أنها لا بد من أن تواجه هجوماً خطيراً من جانب الثوار ، أصدرت برقية وزعتها عن طريق اللاسلكي إلى القواد التابعين لها تضمنت الإجراءات الآتية :

– العمل على كفاية قوة الفيالق الخفيفة للمحافظة على المبادأة بالقتال ، والتحرك الى مختلف الجهات ، كل في منطقته .

– تنفيذ جميع الاجراءات الوقائية بمنتهى الدقة في جميع تفصيلاتها في مختلف حاميات الأمن .

– العمل ضد نشاط عمليات السطو في جميع المناطق ، وبين كل قطاع وآخر من القطاعات الجانبية ، لتطهير الأراضي من الأعداء .

– وضع أقوى رقابة من عناصر متحركة في مراكز مؤقتة ، في كل مكان وبأية طريقة بالتفكير بإقامة أسوار حجرية دفاعية ، في الأماكن التي يتحتم التوقف فيها ولو لمدة ليلة واحدة .

وقد أصرت القيادة قبل كل شيء على أن يكون القواد والضباط والجنود متوثبين ويقظين ، وأن يعملوا بعزم وشدة .

* * *

وفي يوم ٢٢ عاد فيلق الجفرة إلى هون ، لكي يتمون منهـــا ولقضاء فترة قصيرة للراحة .

وفي تلك الأثناء أمر قائد المنطقة الجنوبية الشرقية طبقاً لتعليمات « الجفرة » في مثلث الجفرة الدفاعي والاعتماد في مبدأ الامر على (شلاك) (وهي مكان نظراً لموارده المائية ولموقعه الهام يصلح أكثر من غيره لتأمين السيطرة على الجهات الخارجية في الأراضي الواقعة بين « هون » و « زلة » (ثم العمل بعـد ذلك على الخط الغربي للمثلث وذلك لمعاينة منطقته الواقعة بين آبار (بئر قطيفه) و(بئر العافية) و(زاخم الفقار) .

بهذه التدابير المنطقية والمناسبة أمكننا أن نحـــدد موقعنا الذي أصبحت بمقتضاه تحت رقابتنا الموارد المائية في المنطقة الواقعة جنوبي (سوكنة)مباشرة، والتي من المحتمل أن تكون موضع هجوم العدو ، ونستطيع أن نجعل أية قوات للعدو تصل إلى هذه الجهة للقتال للحصول على الماء في أسوأ حالة .

وفي يوم ٢٥ اكتوبر أبلغتنا قيادة منطقة أراضي الجنوب بوصول أخبـار تقول بأن (محلة) للعدو قوامها ما يقرب من ٨٠٠ رجل مسلح ، قام بتشكيلها

سيف النصر وقوات اخرى اقل من هذه المحلة تابعة لزعماء آخرين ، تزحف كلها من جهات متعددة نحو « الجفرة » .

وفي يوم ٢٩ وصل احد رجال الاستعلامات من « مزدة » لأنه لم يستطع العودة الى « هون » التي تقوم بمراقبتها عناصر مختلفة من الثوار . واكدت الأخبار التي سبقت الإشارة إليها .

وفي تلك الأثناء ارسلت في يوم ٢٦ دورية من الهجانة للقيام بعملية استطلاعية في بئر « قطيفة » ، « جنوب غربي هون » فأطلقت عليها نيران البنادق من جانب وحدات الثوار التابعين لعشائر « القذاذفة » المقيمين في التلال المشرفة على الآبار .

ولما وصل هذا الخبر الى « هون » في ليلة ٢٧ تحرك في صباح اليوم التالي فيلق « الجفرة » دون تأخير في اتجاه بئر « قطيفة » .

ولقد وجدت هذه الجهة خالية ، ولكن شوهدت على مقربة منها آثار آقدام ٣٠ رجلا و ١٥ جملا .

ومن الواضح ان الأمر كان يتعلق بأناس جاءوا للتزود بالمياه من الآبار لغيرهم من المسلحين الموجودين في المرتفعات الواقعة جنوبي البئر . وعاد الفيلق بعد ذلك الى هون .

. ولكن حدث في صبيحة يوم ٢٩ اكتوبر ان اصطدمت دورية من الهجانة على مسيرة ساعتين ونصف جنوبي شرقي البلدة ، بوحدة من وحدات الثوار يقدر عدد رجالها بنو مائة من المسلحين. وسرعان ما تدخلت في المعركة سرية من الكتيبة الليبية السادسة والفيلق الصحراوي الذي كان يقوم بحراسة الجمال التي كانت في المرعى ، واضطرت هذه القوات «محلة» الثوار للتقهقر .

وقد تم تعقب الثوار حتى المساء ، ولم يتوقف إلا عندما استطاع الثوار الوصول إلى أول مرتفعات جبل (السوداء) .

ومنذ ذلك الوقت أصبح وجود العدو بقوات كبيرة في جنوب « هون » أمراً مؤكداً .

وقد كان فيلق « الجفرة » قادراً ، ولديه جميع الوسائل الكافية للقيام بتلك العملية العسكرية التي طالما كان الجميع يتوقون اليها ويأملون في الانتصار فيها . ذلك الانتصار الذي كان من شأنه أن يجعل « الجفرة » كلها وأراضي « زلة » تتنفس الصعداء .

ولما كان الليفتنانت كولونيل (أماتو) يؤمن كل الإيمان بهذه الضرورة ، فانه بعد ان تزود بكل ما يلزمه من مؤن وذخائر تحرك من جديد بعد ظهر يوم ٣٠ في اتجاه المواقع التي انسحب اليها العدو في مساء اليوم السابق .

ولقد كان الغرض ايضاً من هذا الزحف تأكيد رغبتنا الصادقة للعدو في مهاجمته ، الأمر الذي له مغزى أدبي ليس بقليل الأهمية .

ولقد كان فيلق (الجفرة) المتحرك يتألف من القوات التالية :

– الكتيبة الليبية السادسة – ٦٤٥ بندقية – ٦ مترالیوزات .

– الفرقة الصحراوية الثانية – ٢١٣ بندقية ٣ مترالیوزات .

– القسم الثالث من المدفعية الليبية التي تحملها الجمال: ٣٤ بندقية كبيرة– مدفعان .

– جماعة ورفلة غير النظامية – ١٨٦ بندقية .

وتبلغ في مجموعها ١٠٧٨ بندقية و٩ مترالیوزات وقطعتين من المدفعية .

وفي بداية المساء أكدت العناصر المرسلة للاستطلاع ودوريات الهجانة وجود العدو بقوات كبيرة على المرتفعات الواقعة شمال بئر « العافية » مباشرة ، بينما كان الفيلق بأكمله يصل إلى سفوح أحد التلال ، وهو منعزل تمام الانعزال وسط سهل يمتد شمال المرتفعات المحيطة بالبئر .

وقد عمل قائد الفيلق ، نظراً لاقتراب الليل، على احتلال التل ، وفي الوقت ذاته – رغبة منه في معرفة قوات العدو – أرسل قوات ورفلة غير النظاميـة لمهاجمة المرتفعات التي أشار اليها .

ومع هذا ، فإن جماعات ورفلة – بعد ان تخطت التل السالف الذكر بقليل – قوبلت بنيران حاميـــة من البنادق ، الأمر الذي أكد لقائد الفيلق وجود العدو بقواته .

لذلك استدعيت جماعة « ورفلة » غير النظامية ، وقام القائد الذي أحس بقرب هجوم العـــدو بتنظيم الدفاع في المراكز المحتلة في الساعات الأولى من الليل .

وقد كانت ساحة المعركة في مظهرها العام تتمثل في تل صخري منعزل تمام الانعزال لا يمكن التغلغل فيه ، ومن اصعب الامور السير على طول جانبيـــه الشمالي والغربي اللذين يتكونان من جدران صخرية تتكسر بين مسافة وأخرى – وعلى انحدار بسيط . على عكس الجانب الذي يتدرج إلى السهل الذي يصل إلى اول سفوح جبل السودة .

اما الجانب الشرقي من التل فلا توجد به صعوبات تذكر ، ولكنه مشقوق من اسفله إلى قمته تقريباً بطريق يقسم التل من هذه الناحية إلى صخرتين كبيرتين تتجه إحداهما نحو الجنوب الغربي والاخرى نحو الجنوب الشرقي ، وله حافتان اشبه بالشاطئين نطلق على احدهمـــا اسم الشاطىء الشمالي وعلى الثاني اسم الشاطىء الجنوبي .

ويمكن تقسيم المعركة التي ابتدأت الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى – انتهز العدو فرصة الظلام وبدأ في النزول من المرتفعات التي كان يشاهد فيها للاقتراب الى المواقع التي يحتلها فيلق الجفرة .

وسرعان ما أدركت خدمة الأمن الكاملة – التي أوجدها قائد الفيلق – هذه

الحركة ، وهكذا أفسدت المفاجأة التي كان ينوي العدو القيام بهـا . وكانت طلقة من احدى البنادق علامة الهجوم الذي بدأ بكل عنف عند فتحة الطريق التى كانت قد وضعت فيها كل المدافع .

ولكن نيران المتراليوزات التى كانت قد نقلت الى هـذه الجهة صوبت الى المهـاجمين .

ورغماً من اصابة الثوار بخسائر فادحـة ، الا انهم اصروا على الاستمرار في محاولتهم ، واقتربوا من المواقع التي وضعهـا الفيلق . على ان نيران المتراليوزات اوقفتهم في أماكنهم نهائياً في ساحة القتال .

ولما كان قائد الفيلق يرغب في صد هجوم العدو والتأكد من النجاح في ذلك ، فإنه أمر بأن تشتبك السرية الثانية التي كان يتألف منها الاحتياطي التكتيكي مع العدو دون تأخير .

المرحلة الثانية : عندما اندفع العدو مرة ثانية بمنتهى الشدة انهالت عليـه بـدون انقطاع نيران المتراليوزات . ولذلك تراجع إلى الجـانبين واتجه الجانب الرئيسي مـن قوته الى الجنوب لكي يعيد الهجوم ثانيـة بعنف جديـد ، بمحاولات الهجوم في اتجاه الجانبـين ، الجنوبي والغربي ، بمساعدة نيران عناصر أخرى تتجه نحو شمال التل .

ولقد استفاد من طبيعة الأرض التي تشتمل على مناطق كثيرة تحتجب عن الأنظار ، وانتقل الى مسافة بعيدة عن مكان الهجوم ووضع أرجله بقوة فوق هاتين الصخرتين ، بينما تسلقت بعض وحداته على طول جدران التل الغربيـة ووصلت إلى القمة .

وسرعان ما أطلقت النيران على هؤلاء الفارين لمنع تقدمهـم بأي ثمن نحو جوانب الطريق العليا ، التي كانت تحافظ عليها فصائل الكتيبة السادسة الليبية والفرقة الثانية الصحراوية .

في تلك الأثناء تلقت فرقتا المتراليوزات الثقيلة أمراً بالانتقال من مكانها الاول ،كلا في شاطىء من الشاطئين ، بحيث تستطيعان إطلاق النيران بنجاح على طول الصخرتين اللتين جرى الهجوم عليهما .

ورغماً من العملية الناجحة التي قام بها فيلق « الجفرة » استطاع العدو أن يضع أقدامه في بعض النقط من مواقعنا ، بل إنه استطاع التغلغل في خط دفاعنا. وكان هؤلاء الذين تغلغلوا قليلين من المتصبين الذين سرعان ما أخرجناهم من ميدان المعركة .

المرحلة الثالثة : كانت جهود العدو تتجه بصفة خاصة إلى التقدم على طول الصخرة الجنوبية لمحاولة الاستيلاء على الشاطىء الرئيسي ، الذي يعتبر المفتاح الحقيقي للموقع بأكمله .

ولما كان قائد الفيلق مقتنعاً من أنه إذا ما استمر في موقفه الدفاعي البحت – نظراً لعنف العدو الهائل وتعصبه – فقد تكون نهايته الهزيمة ، لذلك قرر القيام بهجوم مضاد .

وقد سهل نور الفجر القيام بهذه العملية التي تمت في الساعة الخامسة والنصف بنجاح عظيم ، بواسطة جميع القوات التي كانت موجودة على الشاطىء الرئيسي ، تعززها القوات التي كانت باقية من الخلف (السرية الثانية من الكتيبة الليبية السادسة وجماعات « ورفلة » غير النظامية) ، تتبعها عن قرب الفرقة الصحراوية الثانية .

لم يستطع العدو الصمود . بل إنه قد ترنح في أول الأمر ، ثم ما لبث أن ولى الأدبار ، يتعقبه عن كثب جميع أفراد فيلق « الجفرة » ، بينما كان قسم المدفعية يضرب وحدات الثوار البعيدة ويتم تشتيتها .

ولقد كان تعب الجنود الذي أحسوا بشدته ، ووجود وحدات أخرى من الثوار فوق المرتفعات المشرفة على بئر « العافية » التي كان الهاربون يستطيعون

تحت حمايتها الاستيلاء على هذه المرتفعات – مما دعا قائد الفيلق إلى عـــدم الاستمرار في تعقب الفارين .

ولقد كانت خسائرنا في الضباط والجنود فادحة للغاية ، بالنسبة لعدد رجال القوات التي تم استخدامها في هذه العملية ، ومع هذا فقد كانت خسائر العدو أكثر فداحة .

ولقد أرسلت الوسائل الجوية القليلة التي كانت في متناول أيدينا عندئذ إلى «هون» في اليوم التالي للتأكد من المواقع التي اتخذها العدو .

وقد شاهدت هذه الطائرات الأعداء يخيمون على مقربة من « بئر العافية »، وهم مشغولون بدفن الموتى وعلاج الجرحى .

وفي يوم ٢ نوفمبر انتقل العدو إلى مسافة تبلغ حوالي عشرة كيلومترات نحو الجنوب .

وفي يوم ٣ وصل الى بئر « قطيفة » وبدأ في الانقسام الى جماعات صغيرة ، انتشرت على جبهة واسعة يبلغ طولها عشرة كيلومترات .

وفي يوم ٤ وصل إلى « أم العبيد » جنوبي جبل « السودة » ، ولقد كانت قوات الطيران في كل هذه الأيام تعمل بدون كلل على إتمام النجاح الذي أحرزه فيلق « الجفرة » وذلك بإلقاء القنابل بنجاح على العدو وهو في طريق الانسحاب.

وهكذا أكملت هزيمته التامة الدامية .

وبعد أيام قليلة من هذه المعركة اكتشفت في « هون » مؤامرة تم تدبيرهـــا للإضرار بنا ، بالتفاهم منذ الصيف الماضي مع زعمـــاء الثوار . وكانت هذه المؤامرة ترمي إلى إثارة أهالي « هون » للانضمام اليهم بعد نجاح المهاجمين والعمل ضد قواتنا .

وسرعان ما تم تنفيذ أحكام بالإعدام في كبار المسئولين ، كما تم نقل جميـــع

الأهالي إلى الساحل الشرقي .

هذا ، ومن الممكن اعتبار معركة « بئر العافية » تكملة طبيعية لمعركة بئر « تاقرفت » . وهي جديرة بتتويج كل العمل التنظيمي الذي تم لتثبيت دعائم احتلال الحاميات الخارجية ، وعلى الأخص تلك الحاميات التي أعيد احتلالها في سنة ١٩٢٨ .

ولقد كانت هذه المعركة نتيجة بمجموع عمليات وتدابير ذات صفة هجومية ، كان مقصوداً بها أن نفرض على العدو إرادتنا في تقهقره .

وبعد العمليات الظافرة التي تمت في الأشهر الأولى من سنة ١٩٢٨ ، وبعد عمليات « منطقة القبائل » ، وأخيراً بعد عمليات الصيف في (الجفرة) كان من اللازم أيضاً إنزال ضربة قاضية بعدونا العنيد الذي ازداد تعصبه ضدنا بسبب تهييج زعماء الثوار وعجرفتهم . ولم تتأخر هذه الضربة وقد وصل أثرها – كما تأكد ذلك لنا – حتى أقاليم شاطىء (فزان) النائية . وقد سهل ذلك العمل الذي كان ملائماً لنا إلى حد كبير ، وهو تشتيت شمل قوات العدو التي كانت دائماً مسلحة ومعادية للحكومة .

ولقد كانت معركة (بئر العافية) من الناحية التكتيكية تمثل أنموذجاً يحتذى من نماذج المعارك الدفاعية الاستعمارية ، وكانت فيها القيم الفكرية (كفاية الضباط) والقيم الادبية (روح الوفاء والإخلاص في الجنود الليبيين) ، ثم اخيراً القيم المادية (الوسائل الحربية وحسن استعمالها) ، متناسقة تمام التناسق للوصول الى النصر .

وهكذا تضعضعت أمام مهارة الرؤساء وبسالة الضباط والجنود العظيمة هذه المحاولة الاخيرة التي أراد بها العدو تدمير وافساد جهازنا الدفاعي .

الموقف في بداية عام ١٩٢٩ .

على أثر الانتصارات التي أحرزناها في كل مكان في سنة ١٩٢٨ ، تلك السنة التي كانت مليئة بالأحداث الحربية ، استقر بقايا الثوار للحصول على الموارد المعيشية وللدفاع عن أنفسهم على خط يبتدىء من مدينة « واو » ويسير في منخفض الشاطىء الشرقي والغربي حتى يصل إلى الرملة (جنوب غربي غدامس). ويقع هذا الخط في منطقة شاسعة من الرمال بينها وبين جنوب الجزائر مسيرة أيام وأيام .

ويزيد طول هذا الخط على ١٠٠٠ كيلومتر ويوازي حدود احتلالنا بين « غدامس » و « زلة » .

ولهذا الرقم مغزاه لتقدير الجهود التي تلزم للاحتفاظ بأراض شاسعة إلى هذا القدر ، حيث يمكن تغلغل العدو فيها من كل مكان .

وقد تبدو هذه الصعوبة بشكل كبير وواضح إذا أخذنا في اعتبارنا المسافات الآتية :

من طرابلس إلى زلة	٨٠٠ كم
من طرابلس إلى الشويرف	٥٠٠ كم
من طرابلس إلى غدامس	٧٠٠ كم

لذلك ليس من السهل على خبير عسكري فحسب ، بل وايضاً على أي مدني تكوين فكرة على أساس هذه البيانات البسيطة عن التضحيات الهائلة التي من اللازم طلبها باستمرار من الضباط والجنود لحماية سلامة الأراضي التي تحت سيطرتهم المباشرة ، وذلك لرفع هيبة الحكومة الإيطالية في نظر

الأهالي السالفي الذكر .

وكان مختلف المحاربين من الثوار المغاربة وأولاد سليمان وأهالي ورفلة وأولاد ويف والزنتان الخ .. قد استقروا على طول الخط الهائل المشار اليه فيما سبق مع رؤسائهم ، واتخذوا لأنفسهم مساكن ثابتة وقاموا بإعادة تنظيمهم الحربي .

وكان من الممكن منطقياً الاعتقاد بأن هذه قد تكون رغبة الزعماء وحدهم أكثر مما هي رغبة الآخرين بعد الهزائم التي أصيبوا بها في « منطقة القبائل » وفي « الجفرة » .

وقد كانت الأخبار تتوارد من وقت إلى آخر من الجنوب عن استحالة قيامهم بأي هجوم جدي .

على أن القيادة كان لديها ما يجعلها ترى العكس من ذلك . وذلك نظراً لأنه تأكد للثوار أننا سوف ننزل في القريب العاجل في المناطق الجنوبية بحيث نقطع لديهم كل أمل يجعلهم يقومون بمحاولات يائسة لإحراز أي انتصار يضر بموقفنا السياسي والعسكري .

ولذلك قامت القيادة باتخاذ تدابير ترمي إلى التقدم إلى الأمام بجميع القوات ، وإنشاء قوات خفيفة تكون على أهبة الاستعداد للعمل عند أول اشارة ، سواء بمفردها أو متجمعة ، في المناطق الحربية الثلاث التي كانت تنقسم الأراضي الأمامية إليها وهي :

- المنطقة الجنوبية الغربية .
- منطقة أراضي الجنوب .
- والمنطقة الجنوبية الشرقية .

وفي أشهر الشتاء كان يتم باستمرار تدريب الجنود . وكان كل شيء قد تم الإعداد له للعمل في اللحظة اللازمة ، دون الاضطرار الى مواجهة مفاجآت خطيرة .

وكان الضباط من أكبرهم رتبة إلى أصغرهم يحيطون كل الاحاطة بالموقف السياسي والعسكري . ولذلك كان يستنكرون ذلك الامتياز الغريب الذي كان يتسرب في كل مكان لبعض العناصر المعروفة لقواد المناطق .

وهكذا أصبح الأمر في يد الرؤساء المجربين الذين كانوا على أتم استعداد للتحرك والعمل من جديد .

ولم تجعلهم الأحداث بالفعل ينتظرون كثيراً من الوقت .

ففي منتصف شهر يناير سنة ١٩٢٩ ترك منصب الحاكم العام في طرابلس صاحب السعادة السنيور « دي بونو » ، ذلك الرجل الذي لا يكل ولايتعب ، والذي كان ينفث روحه القوية أثناء العمليات العسكرية وهو ممتطٍ جواده أو راكب سيارته أو إحدي الطائرات ، وكان له تأثير كبير بوصفه « رابع الأربعة » الذين قادوا الزحف إلى روما .

ومن الممكن مقارنة عمله في الحكم بعمل الماريشال (راندون) في الاستيلاء على الجزائر . فقد أتم عمل التنظيم المدني والعسكري في الاقاليم التي سبق الاستيلاء عليها ، وساعد كثيراً في عملية التعمير الزراعي ، وأوجد حلا لمسألة التغلغل والسيطرة على الأقاليم الجنوبية ، وعمل ما عمله الماريشال الفرنسي في الاستيلاء على « منطقة القبائل » الذي عمل على تنمية وتطوير البلاد التي كانت خاضعة من قبل وعلى امتداد الجزائر نحو الجنوب .

الفصل التاسع

نحو تهدئة المستعمرة واحتلالها الكامل

نحو تهدئة المستعمرة واحتلالها الكامل

وفي شهر يناير سنة ١٩٢٩ عـــين حاكماً لمستعمرة ليبيا بأكملها صاحب السعادة الماريشال (بادوليو) .

وسرعان ما وضع اتجـــاهات واضحة ومحددة للعمل في كل مسألة من لمسائـــل .

المسائل السياسية :

إن الهدف الذي يجب علينا أن نضع نصب أعيننا الوصول إليه هو تهدئـة البلاد بأكملها ، حتى تتقـدم وتعود بالفائدة كل الإجراءات الرامية إلى استثمار موارد البلاد كلها .

ومن بين هذه الإجراءات ، إجراء له أهمية استثنائية سواء بالنسبة للوطن أو بالنسبة للمستعمرة ، وهو العمل على زيادة عـدد العمال الزراعيين الإيطاليين الذين يجب أن نبحث عنهم وندمجهم إدماجاً كاملاً بأهالي البلاد الوطنيين .

وفي سبيل تهدئة المستعمرة من اللازم قبل كل شيء احتلال البلاد بأكملها .

ومن اللازم التوقف هنيهة عند هذه النقطة ، وذلك لأن هناك أصواتاً غير

قليلة من الأصوات المخالفة قد ارتفعت ، ولا تزال ترتفع ولسوف ترتفع بكل تأكيد في المستقبل ضد فكرة احتلال المستعمرة بأكملها .

وان الحجج التي تم الاستناد اليها كانت هي الآتية : جدب الجزء الداخلي من المستعمرة - وصعوبة الاحتفاظ باحتلال مناطــق على مسافة بعيدة من الساحل - ثم ضعف خطوط المواصلات .. إلى غير ذلك .

وإنني لا أنكر الآن هذه الصعوبات. بل إنني أؤكد أنها يجب أن تدفعنا إلى التغلب عليهـا بطرق واجراءات مناسبة ، ولا يجب ان تبدو لنا مطلقـاً في شكل صعوبات لا يمكن التغلب عليهـا ، ولا ان توقف عملنـا في النقطة التي وصل إليها .

ويجب ان نضع نصب أعيننا في هذه المسألة بعض النقاط الجوهرية ، وهي:

أولاً - إن أي جزء من المستعمرة لا نقوم بالسيطرة عليه سوف يكون بيئة لثورة مستمرة ضدنا .

ثانياً - إن كرامتنا بصفتنا أمة مستعمرة تمنعنـا من الاحتفاظ بمستعمرة تكون حدود امتلاكنا لها مرسومة على الخريطة وحدهـا ، بينما يكون الامتلاك والسيطرة الفعلية على جزء يقل كثيراً عن ذلك .

ثالثاً - إننا لا نستطيع مطالبة الدول المجاورة للمستعمرة بوضع رقابة او فرض الهدوء والطمأنينة على حدودنا ، بينما لا نستطيع نحن أنفسنا ان نؤمن من الداخل هذه الحدود .

رابعاً - وإننا اخيراً لا نستطيع في المحافل الاوروبية رفع أصواتنا بطلب انتدابات استعمارية جديدة اذا لم نظهر اننا اكفاء للسيطرة على كل المستعمرة التي تم الاعتراف لنا بملكيتها بمقتضى معاهدات دوليـة أو لإدخال التحسين عليها واصلاحها .

لذلك كانت مسألة الاحتلال الاجمالي للمستعمرة مسألة وجود هذا الاحتلال أو عدم وجوده .

ولقد تركزت وحدات الخوارج في منطقة الشاطىء وفي (فزان) بمعنى الكلمة .

وقبل البدء بالعمليات العسكرية من المناسب اذا ما اريد ايقاع الهزيمة ببيئات الثوار العمل على تشتيت شمل رجالها والتفريق بينهم بعمل سياسي.

وعند هذه النقطة الرئيسية أرى لِزاماً عليّ أن أتوقف هنيهة .

يجب ان نجعل الأهالي الوطنيين يُحسون احساساً جلياً بأن كل من يخضع لنا مهما كان أمره لن يقع عليه أي اعتداء ؛ وليس هذا فحسب بل ولكنه سوف يعيش عيشة حرة وهادئة ، كما يعيش غيره من العرب الذين يعيشون معنا من وقت بعيد .

وإن على من يخضع لنا – سواء أكان فرداً أو قبيلة – ان يعلم ان الماضي هو شيء مضى وانقضى الى غير رجعة ، وان الحكومة لا تطلب منه الا الطاعة والخضوع للقوانين ، وبأن لا تكون له علاقة خفية مع من يوجدون من الخوارج والمنشقين .

وقد ذاعت إشاعة – كما حاولت ان اقوم انا بإذاعتها – وهي ان (بادوليو) ماريشال إيطاليا يعد وعداً صريحاً كل من يتقدم سواء أكان كبيراً او صغيراً او فرداً او قبيلة الى الحكومة بالعفو التام عن ماضيه ، وبأن يعيش عيشة هادئة اذا ما استوفى الشروط التي سبقت الإشارة اليها .

ولقد كان من اللازم لكي يكون هذا العمل الإقناعي فعالاً ابداء الشيء الكثير من الحكمة .

وقد حدث في مرات كثيرة أن قامت بعض عناصر وطنية ممن يشغلون بعض الوظائف أو يطلبون إشغالها رغبة في الحصول لأنفسهم أو لقبائلهم ببعض

المزايا والفوائد بالعمل بمهارة وبخـــداع على إلصاق التهم بأناس آخرين أو قبائل أخرى .

وإن الكذب القديم هو دائماً جديد في نظر من يقوم كثيراً بعمل المرشد صاحب الذمة وغير المتحيز أو الرئيس صاحب السلطة ؛ وإني ألفت الى هذه المسألة جميع الأنظار ، وذلك لأن عدم التحيز والعدل هما مفتاح التحول في كل سياسة استعمارية .

وإن النتيجة التي يحصل عليها كل رئيس دائرة مدنية أو قائد منطقة كبيرة أو منطقة فرعية في هـــذا الحقل سوف تكون في نظري عنصراً جوهرياً لتقدير عمله .

فإذا ما تمت عملية تشتيت جماعات الثوار ، أو وصلت الى تلك النقطة التي أراها كافية ، سوف يتم القيام بالعمليات العسكرية وذلك لمحو أثر الثورة محواً تاماً وبسط السيطرة على المستعمرة بأسرها .

هذا ، وإن سوابقي ومركزي - بوصفي رئيساً لجميع قوات ايطـــاليا المسلحة - تؤهلني لأن أقوم قبل كل شيء بتوجيه نداء أدعو فيه للسلام والتهدئة قبل الالتجاء الى السلاح ، بدون أن تفسر هـــذه الخطوة على أنها نوع من الضعف .

ولقد ذاعت أيضاً اشاعة بأن (بادوليو) مارشال ايطاليا مقتنع كل الاقتناع بأن الحرب معناها الدمار ، وبأن هذه البلاد قد تحطمت من زمن بعيد مثل هذا الخراب ، وأنه يجب -لخير البلاد ورفاهيتها- أن يسودها السلام والهدوء والعمل .

ولقد عرفنا جميع الأهالي بأن الحاكم ليس هو الذي يريـــد الحرب ، بل انه راغب في الرحمة وفي السلام .

فإذا لم يكن هذا مفهوماً فليعلم الأهالي الوطنيون ان المسئولية كلها تقع على رأس ذوي النيات السيئة ، أي على الثوار .

ولكننا نعرف جميعاً أن الحرب اذا ما اصبحتُ انا مضطراً اليها فسوف اخوض غمارها ، ولن تكون لها حدود ، وستكون حرباً لم تخطر ببال احد في المستعمرة .

هذه كانت الاتجاهات العامة للسياسة التي كان يجب السير عليها .

ولكن لما كنت أعرف أن الأشياء الصغيرة كثيراً مـــا تعكر الجو في أول الأمر ثم لا تلبث أن تتلف الأشياء العظيمة ، فإنني أُتبع هذه الاتجاهات العامة باتجاهات أقل قيمة ، ولكنها على كل حال لها أهميتها .

ورغبة في أن تبقى هيبتنا هنا دائماً عالية وفي مكانها اللائق يستلزم الأمر وضع سلسلة من الخطط في معاملة الأهالي العرب .

وإنّ من لم يتعمق في بحث هذه المسألة أو مَنْ ليس لديه المقدرة على بحثها ، قد يرى أن هذه الخطة تتمثل في عبارة واحدة ، وهي : إظهار القوة دائماً .

وإن هذه الطريقة البسيطة في حل هـــذه المسألة من السهل أن تؤدي إلى نتيجة واحدة ، وهي أنه لإظهار القوة يجب القيام بأعمال الجبروت . وفي بعض الأحيان أيضاً يجب المغالاة إلى حد استعمال القسوة والعنف .

إن المسألة أكثر تعقيداً من ذلك ، وإن حلّها يعتمد على اكثر من عامل واحد :

القوة — على ان تقوم دائماً على العدالة النزيهة .

القوة — على ان تلازمها وسائل كريمة متحضرة ، لأن المطلوب هو الوصول الى الغرض وليس ايقاع الأذى .

القوة — ولكن على ان تهذبها خشونة الحياة ، لأن ضرب المثل هو بالنسبة للكائنات البشرية العنصر الفعال .

ولقد اشار الماريشال « بادوليو » ايضاً الى هذه النقط الأساسية الاخرى في العمل الإداري :

ا – الضرورة المطلقة لوضع خطة واحدة وثابتة لحكم الشعب .

ب – من اللازم ان يكون لكل دائرة – سواء أكان المشرف عليها هو قوميسير « مأمور » إقليمي ، أو تكون تحت سلطة احد الضباط – اتجاه واضح ومحدد في كل شيء من جانب السلطات التي تعينها فيها الحكومة ، مما يشمل التالي :

١ – الاحترام بل التبجيل للقوانين المكتوبة .

٢ – يجب تطبيق القانون على الجميع وعلى اكمل وجه دون تمييز من اي نوع .

٣ – وضع جهاز لاغبار عليه ولا يمكن الاستغناء عنه حتى تبقى للموظف هيبته ونفوذه .

٤ – الاستمرار في مراقبة عمل الموظفين المرؤوسين دون كلل ، وخاصة الموظفين الوطنيين .

٥ – عدم الثقة بما يجيء به مرشد واحد من اخبار دون غيره .

٦ – منع كل توسع في الاختصاصات بمنتهى الحزم منذ بدء ظهوره او الإغارة على اختصاصات الغير .

٧ – استخدام جهاز تعيين الأشخاص واستئجار الدواب في الأعمال بمنتهى الحرص ، وبشيء كثير من عدم التحيز .

٨ – لا يجب فرض اية غرامة او ضريبة على الاهالي الا حسب نصوص القانون – وبعد تصريح من الحاكم العام .

٩ – الاقتصار في مصاريف التجميل والتحسين ، والبقاء دائماً في حدود الميزانية .

١٠ – يجب أن تتدخل السلطات عند القبض على الثوار أو مصادرة أملاكهم في الحال لاجتناب أي عمل من أعمال الجبروت .

١١ – إن كلمات « محب العرب » أو « عدو العرب » أو « طريق الشدة » أو « طريق اللين والتوفيق » أو « تعاون العناصر » هي عبارات ليس لها معنى ويجب إلغاؤها إلى الأبد .

إننا هنا الأمة المسيطرة التي طردت من هذه البلاد حاكمها « التركي » العاجز ، وحلت محله لكي تقوم فيها بتأدية رسالة سامية من رسالات الحضارة .

إن العربي أو بالأحرى كل الأهالي الوطنيين يجب أن يقتنعوا كل الاقتناع بأننا هنا ، وبأننا سوف نبقى هنا إلى الأبد ونحن هنا لا للاستغلال ولكن لتحسين حالة هذه البلاد في جميع مجالات النشاط الإنساني – ونحن لا بد لنا من أداء هذا الواجب بأي ثمن .

وبعد أن نضع هذا المبدأ الأوّلي يجب علينا أن نستفيد منه النتائج التالية :

لا يجب علينا ان نحتل بلداً لإصلاح موارده او استغلاله .

لقد وضعنا تحت سيطرة حكومتنا شعباً يجب علينا معالجته ، والعناية به ، وتحسين أحواله وتوجيهه الى طريقة من طرق الحياة أكثر تحضراً .

ومن الواضح ان هذا الغرض لن نبلغه قط اذا لم يشعر هذا الشعب بفائدته الأدبية والمادية وبرغبته في البقاء معنا ، واذا لم يخضع طوعاً واختياراً لعاداتنا ولقوانيننا .

أما اذا لم يحصل هذا ، فإننا سوف نكون في صراع مستمر لا بد ان يزيد مجهودنا مشقة بعد ان كان شاقاً من قبل . واذا لم يحدث هذا فلسوف نعيش دائماً فوق مخزن بارود سريع الانفجار . واخيراً ، إذا لم يحدث هذا فلسوف نستطيع بحكم الصراع تدمير الشعب الوطني كله وأن نصل الى السلام ، ولكنه سلام المقابر .

ان المقابر هي مكان الذكريات الأليمة ، وليست مكان الأعمال الجازمة المفيدة .

لذلك نبقى دائماً فوق درجة سلم أعلى ، ولكننا نبقى فوقها بصعوبة .

ولسوف نجعلهم يحسون بتفوقنا الفكري ولكن بالاعمال لا بالاقوال ، وبالأحرى ، لا بالاقوال النابية .

يجب ان نكون عادلين – وعادلين الى اقصى حد – وان تكون عدالتنا نزيهة للغاية ، ويجب ألا ننسى انه يوجد تحت عباءة الفلاح القذرة كما يوجد تحت عباءة الرجل الغني الانيقة قلب قادر على الحب وعلى الكراهية – ولا يجب قط بذر الحقد الذى يؤتي ثمرات ملتوية .

ويجب العناية برفاهية الاهالي الوطنيين بكل الطرق التي يسمح بها القانون ، ولا يجب مصادرة الشعور الديني او مشاعر الاسرة .

وبجمل القول اني اقصد : ان يكون عندي موظفون يقومون بعملهم بضمير حي ومعرفة تامة وشعور صادق وبإحساس بمسئوليتهم كلها . واذا ما قلت مسئوليتهم فإني اقصد اختصاصاتهم التي خولها لهم القانون واللوائح .

واريد ان يتبع الجميع في علاقتهم مع الاهالي الوطنيين سياسة العزة والكرامة الوطنية التي تغذيها العدالة والاهتمام المستمر ، ونبل السلوك والمعاملة الحسنة .

لقد قام المغامرون باكتشاف اراض جديدة ، ولكنهم لم يكونوا مستعمرين ، وقد كانت تنقصهم الفضائل الرئيسية .

ان الاستعمار ليس معناه الاستيلاء وحده ، بل معناه بصفة خاصة التنظيم او السيطرة بأسلوب ، وبعدالة ، وبسمو ادبي ومادي .

هذا هو واجبنا .

واننا نقوم بتأديته باسم الملك وباسم الدوتشي .

المسائل العسكرية .

إن من يبحث بروح هادئة تطور جميع عملياتنا الحربية تقريباً في المستعمرة ، يجـــد أنها كانت في أغلب الأحيان تقوم على تقــدير مبالغ فيه بالنسبة لقوات العدو .

وكانت هذه المغالاة لا تقتصر على العدد فحسب ، فقد كان العـدد في أغلب الأحيان يتضاعف ، ولكنها كانت تشير أيضاً إلى خفة حركة العدو ومقدرته التكتيكية العالية .

من هذا التقدير الخاطىء كثيراً ما كانت تظهر هذه النتيجة الضارة بعينها .

لقد عملنا على زيادة قوة آلياتنا زيادة تفوق كل حد . ولذلك كان يتأخـر البدء في الزحف والتحرك ، وكان من شأن هـــذه الزيادة أيضاً أن تجعل قواتنا أقل سرعة وتتمتع بدرجة قليلة من الاستقلال في العمل .

كما أن الرغبة في تجنب الاصطدام أو الدخول في معركة غير حاسمة كان من نتيجتها إيجاد تلك الحالة التعسة .

ولكن يجب أخذ هذه الفكرة في حـــدود معقولة ، وإلاّ لأمكن تجنب الاصطدام دون الحصول على أية نتيجة إيجابية .

ونحن نعترف بحكم تجاربنا الطويلة أن «محلات» العدو من الصعب أن تجتمع كلها سوياً في صعيد واحد – وذلك بسبب صعوبة التموين وإيجاد مستلزماتها . ونعرف أنه متى كانت « المحلة » كبيرة العدد لا يصل عددها إلا الى ٥٠٠ رجل.

لذلك كانت قوة أقل من قوة كتيبة من كتائبنا .

أما فيما يتعلق بخفة الحركة التكتيكية ، فإننا نعرف أن هؤلاء الناس لهم تموريناتهم التي تضمنها لهم الجمال . وان سرعة هذه الجمال معروفة لنا .

أما فيما يختص بما يدّعونه لأنفسهم من التفوق التكتيكي فإنني أستبعد ذلك استبعاداً مطلقاً .

ومع ذلك فإننا نعرف أننا من الصعب أن نتقابـــل معهم في معركة — فإنهم يهاجمون دائماً معسكرنا في ساعات الصباح الأولى ، أو نهاجمهم نحن .

وفي كلتا الحالتـــين يكون لدى القواد الوقت الكافي للاستعداد لاستعمال ذلك السلاح الفظيع ألا وهو المدفع الرشاش « المتراليوز » .

وهذا السلاح هو السلاح الذي يعطينا — أكثر مـــن المدفعية — التفوق في المعركة على هذا العدو .

والمدفع الرشاش « المتراليوز » هذا هو السلاح الذي يسمح بالمحافظة بقوات قليـلة على الجبهات الدفاعية ، ويعطي بالتالي القدرة على الاحتفاظ بالاحتياطي للقتال. وان من وسائل تفوقنا أيضاً السلاح الجوي .

إنني أتحدث إلى ضباط مجربين ولهم إلمام تام بالشئون الحربية . ولذلك فإنني متأكد أن ملاحظاتي هذه سوف تكون موضوع تفكير هادىء رزين .

والمسألة في جوهرها تتعلق ببحث دقيق للمعلومات المختلفة التي يجب أن تؤدي إلى بحث الموقف بحثاً موضوعياً .

ومن الواضح أن من هذا العمل الذي تسهله معرفة الموقف العام، لا يجب أن تتوتر الأعصاب .

وبعد القيام بهذا البحث والوصول إلى النتيجة باتخاذ القرارات مع ملاحظة أن خير الطرق لوقاية أنفسنا هي دائماً الهجوم . أي الهجوم بروح التصميم والعزم وبالإيمان بتفوقنا وبالتأكد من الفوز .

وإزاء هذه الحالة النفسية سوف يتولد فينا جو من الثقة . ولـــن أرى بعد ذلك طلبات الإمدادات من هذا الفيلق أو ذلك عندما تهب أية عاصفة .

ويجب أن تضعوا نصب أعينكم أنني سوف أحكم حكـــماً قاسياً على أي

عجز أو تقصير في الأمور الفنيـــة ، كما يضطرني ذلـك المنصب السامي الذي أشغله – على أني سوف أقدر كل التقدير كل عمل من أعمال الشجاعة الصحيحة حتى ولو لم يتوج بنتيجة باهرة .

بعد ذلك أصدر الماريشال منشوراً أوحت به روح السلام والرحمة والكرم . وقد تم نشره وإذاعته في كل مـكان بوساطة طيارينا ، ووصل حتى الشاطىء وإلى ما بعده بواسطة الخيول .

ولقد استقبله الأهالي الذين كانوا لا يزالون آلة عمياء في أيدي الزعماء بسرور وبهجـــة ، ولكن كل هؤلاء الذين كانوا لا يريدون الاستسلام تقريبـاً فرضوا أنفسهم بالقوة الوحشية ومنعوا الأهـالي وأخطروهم بأنهم إذا ما خرجوا مـن سلطتهم يستطيعون التدفق في الأراضي التي في شمال بلادهم الأصلية .

وليس هذا فحسب ، ولكن سرعان ما قام أحمد سيف النصر – الذي كان يعتبره الجميع من الآن فصاعداً أوسع زعماء الثورة سلطة ونفوذاً – بالاتفاق مع محمد بن الحاج حسن والشيخ محمد الفكيني المتقدم في السن وزعماء آخرين أقـــل أهمية في اجتماعين انعقدا في فبراير في « محروقة » و « برغـن » « على الشاطىء الغربي » – وأخذ يعمل الاستعدادات لحملة جديدة يقوم بها نحو الشمال .

كانت الخطة واسعة النطاق ، وبمقتضاها كانت هناك « حملتان » : إحداهما بقيادته المباشرة ، والأخرى تحت قيادة محمد بن الحاج حسن ، وكلتا الحملتان لا يقل عدد رجال الواحدة منهما في أول الأمر عن ٤٠٠ رجل . وكان على هاتين الحملتين أن تصلا إلى « الشويرف » في الجهة الشرقية وإلى « حمادة » غرباً . وكان غرضها السياسي هو تحويل موقف البـدو الرحل الموالين لنا . وهكذا يضاعف هؤلاء الثوار عدد قواتهم ثم يهاجمون القريات ويستولون عليها ويثيرون بـــلاد « منطقة القبائل » كلها وينقلون الثورة إلى قلب « الجبل » .

وقصارى القول إن الخطة التي حاول تنفيذها محمـد بن الحاج حسن في سنة

١٩٢٨ يتم تنفيذها على نطاق واسع بمعاونة أوسع زعماء الثورة شهرة واكبرهم نفوذاً .

ومع هذا فقد قيل إن أحمد سيف النصر في اللحظة التي تحرك فيها نحـو الشمال ، كان قد طلب نجدات من أخيه عبد الجليل سيف النصر . ولكن هذا رفض إجابة طلبه وأوضح له عدم جدوى جهوده ، وأوضح له أنه لم يستطع في سنة ١٩٢٨ ضرب قوات الحكومة برجاله الذين كان عددهم يبلغ ألف رجل .

ولما غضب أحمد من أخيه كتب إلى والدته العجوز يقول إنـــه قد حانت الساعة بالنسبة لآل سيف النصر لكي يتركوا أسلحتهم لنسائهم اللاتي قد يستطعن حماية شرف الأسرة .

ولسوف يدفع ثمن هذه العبارات غالياً فيما بعد .

ويجب التفكير طويلاً لفهم روح الطموح والكرامة هذه ، إذ أن آل سيف النصر قد حكموا سرت ، الابن بعـد الأب ، منذ سنة ١٦٠٠ ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ولقد كان الشيخ سيف النصر المتقدم في السن والد الإخوة الستة الحاليين ، قـــد جرى اعتقاله مفاجأة على أيدينـا في سنة ١٩١٤ في وقت نزول آلاي « مياني » في « فزّان » بسبب تغييرات سياستنا ، وكان لذلك أثره البالغ في الوطنيين . وان ثقة الوطنيين لا يمكن إحرازها ولا تبقى الا بالمثـابرة ومواصلة العمل .

وعندما أطلق سراحه وترك له سلاحه أخذ طريق الصحراء – حيث عاش حتى بلغ سن الثمانين – وكان دائم الثورة والتمرد على كل حكومة .

ولما كان قد أقسم على الانتقام للإهانة التي لحقت به فإن الوالد وأولاده قـد أصبحوا أعداءنا الألداء .

وفي فترة إعـادة الاستيلاء على المستعمرة لم يكن أكبر أولاده أحمـد في الحقيقة سعيد الحظ لأنه قد انهزم في « بئر الحشادية » أولاً ثم في « بئر تالة » هزيمة منكرة على أيدي قواتنا وبواسطة جماعات « ورفلة » غير النظاميين .

ولم يكن حاضراً في معركة « تاقرفت » ولم يشترك فيها لأنه كان في مهمـة « فـزّان » . وكان ذلك من حسن حظنا ؛ إذ أنه لو لم يكن في هـذه المهمة لكانت المعركة أشد وطأة وعنفاً .

أمـا عبد الجليل ، ثاني أولاده ، فإنه كان رجلاً يقل كفاءة ومقـدرة في الشئون الحربية ، وكان يهرب دائماً تحت وطأة هجومنا وتعقبنا له أثناء جميـع العمليات التي تمت في المنطقة الواقعة على خط طول ٢٩° .

وفي « هون » كان بزوغ القمر الذي هدى القوات إلى تطويق الواحة قـد أوحى لزعيم الثوار بالقيام بذلك السير الأليم نحو « زلة » وهكذا سمح له بالفرار بأعجوبة من الاسر .

ولقد كان وصولنا المفاجىء الى « زلة » نفسها خاطفاً اضطره الى ترك غذائه الذي كان يستعد لتناوله ، وللفرار بأقصى سرعة .

ومع ذلك فلم يكن فراره الى « تاقرفت » لتولي قيادة الثوار فيها ، ولكنه لاذ بالفرار الى مجاهل جبال « هروج » ، واتخذ له فيها ملجأً أميناً .

وقد أراد بالحملة التي قام بها على « هون » والتي منيت بالفشل انقاذ شرفـه واستعادة هيبته في نظر رجاله . أمـا الآن فليست لديه أية نية في مشاطرة أخيه في المغامرات التي يقوم بها .

لذلك قام أحمد بمفرده وكانت لديه مشروعات عظيمة .

وفي منتصف شهر مـارس كانت القيادة قد أعدت كل العناصر اللازمـة لتنفيذ خطتها التي كان من اللازم تغييرها رأساً على عقب لمنعه مـن الاتصال

بالزعيم محمد بن حاج حسن الذي كان قادماً من الجهة الغربية ، وهو يعتقد أنه سوف يكون في استطاعة البدو الموالين لنا من أولاد ويف والجارحة التحول عنا والانضمام إلى قضيته ومناصرته ، ثم ضربه في الوقت المناسب وفي أحسن الظروف المواتية لنا .

ولذلك فإنه طبقاً للتدابير التي سبق اتخاذها منذ شهر ديسمبر لمواجهة مثل هذا التهديد تم تجهيز وإعداد الفيالق الخفيفة التالية :

في بونجيم	(فيلق سرت)
في مزدة	(فيلق الجبل)
في درق	(فيلق غدامس)
في سرت	(الفيلق الاحتياطي)
في هون	(فيلق الجفرة)
في بني وليد	(فيلق ورفلة)

هذا وقدتم فضلا عن ذلك في غريان انشاء جماعة غير نظامية بقيادة خليفة خالد ، التي كان يجب عليها التعاون مع القوات النظامية في « منطقة القبائل » (فيلق القريات) .

ولقد كانت أراضي «منطقة القبائل » بالتنظيم الذي تم فيها تعطي كل امكانيات الدفاع عن كل خطوط المداخل ، وتساعد على الهجوم في كل الاتجاهات .

وكان انتشار قواتنا يؤثر فضلا عن ذلك تأثيراً كبيراً على الاهالي البدو والرحل الموالين لنا ، الذين كانوا يمثلون الثقل الذي كان في استطاعته ترجيح كفة الثوار .

وفي ٥ أبريل تم تجمع القوات واستعدادها .

وفي يوم ٧ كان من اللازم التحرك من بونجيم ومن القريات نحو «الشويرف» للبحث عن « محلة » سيف النصر التي كان الجميع يجهلون كل الجهل تنقلاتها على وجه التحديد .

وفي يوم ٦ قامت كل الطائرات بعمليات استطلاعية دقيقة في جميع الوديان التي تخترق المنطقة الشاسعة ، ولكن النتيجة كانت سلبية تماماً .

عندئذ كان من الممكن أن نستنتج أن سيف النصر ، لما علم بتكتلاتنا وتجمعنا ، انسحب نحو الشاطىء ، للفرار إلى ذلك المضيق الذي قد يكون في استطاعة القوات العسكرية إغلاقه .

وعلى كل حال فقد تقرر الانتظار برهة من الزمن ، بقصد عدم القيام بحركات لا جدوى منها .

ولم تكن لدينا في تلك الأثناء أية معلومات دقيقة عن « محلة » محمد بن حاج حسن التي اتضح أنها رحلت فعلاً عن الشاطىء في اتجاه الجهة الشمالية الغربية .

ولكن سرعان ما ظهرت فجأة في منطقة احتلالنا ، إذ أنها في يوم ٩ قامت بالهجوم فجأة على مراكزنا الأمامية من بئر العلاقية (على مسافة ١٠٠ ك.م .من جنوب جادو) . وكانت هذه المحلة تتألف من ٥٠ فارساً بقيادة الأومباشي البربري « عمر بيالة » . وبعد دفاع باسل وعنيف انهزمت الفصيلة الصغيرة وتم سحقها .

وهكذا أصبح الموقف واضحاً وانجلى تماماً في الجهة الغربية ، بينما أكد لنا الشيخ «أحمد قرزة» في الحال أن محلة سيف النصر كانت لا تزال في «الشويرف» تختفي في ثنايا الوديان بقصد الاحتجاب عن أعين طيارينا .

في أثناء ذلك بدأ تحول جانب من الأهالي البدو الذين كانوا قد وجدوا حتى هذه اللحظة أن من المفيد لهم كل الفائدة البقاء في ظل الحصانة الممنوحة

لهم عن طريق تلك الحماية التي كان يشملهم بها « قرزة » وكيلنا الأمين ومحل ثقتنا .

أما جميع عشائر الجارحة وأولاد ويف والمشاشى فقد استمروا على وفائهم ، كما كانوا، وقد شمل الجنرال جراتزياني زعماءهم الذين استدعاهم جميعاً إلى «مزدة» بعطفه ، وأظهر لهم ثقته الكاملة بهم .

وفي مثل هذه الاحوال يحدث دائماً أن يبقى الاردأ دائماً متردداً ويسبح في بحار الشك. وإن الاتصالات التى استمرت مدى ثمانية أعوام بينهم وبين الجنرال جراتزياني كانت قد خلقت جواً من الثقة المتبادلة ، وإن المحن التي أصابت الموالين لنا في الماضي جعلتنا نثق تمام الثقة من أنهم لا بد أن يتحملوا هذه المحنة الكبيرة أيضاً .

وقد كملت عمليات الثوار بظهور محلة ثالثة تتألف من المغاربة ، وقد نزلت من جبال هروج واتجهت إلى أراضي سرت الشرقية بين النوفلية والعقيلة .

وكان يكفي لإيقاف هذا التهديد عند حده الفيلق المتحرك الذي كان باقياً في سرت ، ولذلك فإن ظهور هذه المحلة لم يثر أي شيء من القلق .

ولم يكن هناك في سرت مواقف سياسية غير محددة ، كان يستطيع الزعماء التأثير عليها ، وقد كان جميع الاهالي موجودين فيما وراء سرت ، وكانت الاراضي التي في شرقها خالية تماماً من المخيمات .

ولذلك كانت العمليات العسكرية سهلة ، وقد أصبحت في غاية السهولة في هذا القطاع .

وكانت قد وقعت منذ أول مارس بعض مناوشات حول «النوفلية» ،حيث اصطدم طابور الفرسان « السواري» السابع في يوم ١٤ بحوالي مائة من الثوار الذين لاذوا بالفرار بعد أن تحملوا خسائر فادحة .

وانا اذا أردنا ان نبحث عن ارتباط منطقي بين عمليات مختلف (الحملات) من الممكن آن نقول بأن المحلة الشرقية كان عليها ان تؤدي واجب القيام بمظاهرة بقصد العمل على تقدم جموع قوات سرت نحو (النوفلية)، بينما تتجه تهديدات سيف النصر الى بونجيم عن طريق وادي (رواوص) .

ولكن الكولونيل (كوريدو) قائد المنطقة الجنوبية الشرقية ، لم يقع في الشرك ولم تنطل عليه الحيلة وقسم قواته الى اقسام متناسبة وانقض في الحال على بو نجيم .

وبعد أن أسندت القيادة إلى قوات سرت واجب القيام بأعمال المراقبة في القطاع الساحلي الشرقي انتقلت في يوم ١٢ أبريل إلى مزدة ، وقامت بإدارة جميع العمليات في المنطقة الجنوبية الغربية .

وكان الموقف الحسن الذي أتاحه بعد المسافة التي كانت تفصل بين كل محلة من المحلتين والأخرى قد ساعد كثيراً على القيام بمناورة على الخطوط الداخلية ، ولذلك قامت فكرة العمليات على هذا الأساس ، وهو البحث عن محلة محمد بن حسن وضربها قبل ان تتصل بمحلة احمد بسيف النصر ، والعمل بعد ذلك ضد المحلة الأخيرة وحماية « الجبل » من أي غارة من غارات الثوار .

ولقد اشرت فيما سبق ، في جزء آخر من هذا الكتاب ، إلى المميزات الصحراوية الخاصة التي تمتاز بها منطقة « حمادة الحمراء » ، إذ يتكون منها ما يشبه رقعة الشطرنج فوق مائدة ، وبسبب افتقارها افتقاراً تاماً إلى الماء لايمكن الوصول إلى جوانبها. إذ تحدها من الجهة الشمالية الغربية آبار المياه في « النصرة » و « الملاحة » ، ومن الجهة الشمالية خط آبار « الأبيار » ، ومن الجهة الشرقية ابار جعفر و كرب ورأس زمزم .

في هذه الجهة كان من اللازم البحث عن العدو .

ولقد قمنا بالتقدم في هذه المنطقة :

أولاً – بعملية موفقة من جانب فيلق « غدامس » ، الذي قام بناء على اقتراح الليفتنانت كولونيل « مورامار كو » في يوم ١١ من (درج) متعقباً آثار (المحلة) ، كما قامت جماعة الرئيس خليفة خالد غير النظامية بالتحرك من (جادو) إلى بير (علاق) .

وعبثاً حاولت القوتان العثور على تشكيلات العدو في منطقة الملاحة ، وعادتا إلى القاعدة التي قامتا منها بسبب نفاد ما كان معهما من مؤونة .

ثانياً – بعملية قامت بها في نفس الوقت قوات عاكف غير النظامية في بير (جعفر) بقصد تطهير أطراف حمادة الشرقية .

كان فيلق الجبل في هذه الأثناء على أهبة الاستعـــداد للتحرك من مزدة في اللحظة المناسبة ، بينما كانت جماعة خليفة زاوية غير النظامية يجب عليهـا أن تعمل بدورها من القريات وتتجه الى (القور) التي هي مكان المياه الوحيد في الطرف الجنوبي الشرقي .

وأرى لزاماً عليَّ إرضاءً لضميري أن أذكر مرة أخرى كيف أن مكان المياه يملي قوانينه في كل عملية من العمليات الاستعمارية ، وذلك لأن مشكلة المياه لهـا أهمية رئيسية على الدوام .

فكل معركة من المعارك تقع حول بئر من آبار الميـاه ، وكل طريق يتبع خط الآبار ، وكل تنظيم من تنظيمات التموينات يجب ان يضع في المقام الأول ضرورة اختزان الاحتياطي من كميات المياه مع حاشيته ، وتحتسب كميات المياه هذه على أساس عملية حسابية ببيان عدد القوات وطاقة الآبار التي يجب الاعتماد عليها .

وإذا لم تحسب مثل هذا الحساب فأية اهمية تكون بعد ذلك لمعرفة الارض بوجه عام ؟؟.

إن أهم شيء يجب أن نعرفه هو مكان آبار المياه ، إذ أن ألد الأعـــداء في الصحراء ليسوا هم الرجال ، ولكن العطش والفضاء والمسافات الطويلة .

وقد حدثت أشد الكوارث دائماً بسبب نقص هذا العنصر الثمين .

وبعد أن تركت محلة محمد بن حاج حسن طرف « حمادة » سارت كما شاء لها القدر نحو آبار زمزم .

وقد اتفقت خدمات الاستكشافات الجوية ورجال الاستخبارات على هذا الافتراض .

ولذلك أمرت قيادة القوات العسكرية بأن تنتقل في يوم ١٧ قوة من فيلق « الجبل » بقيادة الليفتنانت كولونيل « جالياني » الى « القريات » لكي تنضم هناك إلى القوات غير النظامية ، وتبقى فيها بكامل قوتها على أتم الاستعـــداد للتحرك والزحف على « المحلة » حيثما تتضح وجودها .

وفي نفس ذلك اليوم اتجه سيف النصر نحو شرق القريات ، وهاجم قوات « خليفة زاوية » في موقع (كاف المتكية) لحماية إحدى القوافل .

وقد امتدت المعركة الدامية والعنيفة طول النهـــار ، وانتهت لمصلحتنا في آخر الأمر واستطاعت القافلة الوصول إلى القريات في نفس ذلك المساء .

ومع ذلك فقد قام فيلق الجبل بالزحف بمنتهى السرعة واستطاع اللحاق بها بعد ظهر يوم ١٨ في موقع « تاقجة » الذي يمكن التوجه منه إلى « القريات » أو عن طريق « كاف المتكية » أو عن طريق « كاف أم الجداري » .

وقد أكدت الاستخبارات أن محلة محمد بن حاج حسن قد اتجهت إلى زمزم العليا تجاه آبار « أم ملاح » .

لذلك أمرت القيادة جماعات عاكف غيرالنظامية ، التي كانت تقوم بالزحف على « القريات » ، بأن تتراجع إلى « كاف أم الجداري » لكي تنقض فيالوقت

المناسب مع فيلق الجبل على العدو الذي انتقل الى زمزم العليا .

وفي أيام ١٩ و ٢٠ و ٢١ تحركت جميع عناصر الاستخبارات من قوات الطيران ، والمرشدين الموثوق بهم ، والدوريات الكاشفة للتحقق من موقع المحلة ومعرفته على وجه الدقة ، وقد علم في مساء يوم ٢١ سواء من رجال الطيران أو من المرشدين من رجال الزنتان الذين وصلوا إلى قيادة الفيلق ، أو من الأخبار التي بعث بها الموظفون من رجال المشاشي أن المحلة تستقر في جهة « أم ملاح » .

وفي صباح يوم ٢٢ هاجم اللفتنانت كولونيل « جالياني » بمساعدة عجيبة من جانب رجال الطيران تشكيلات الثوار هجوماً صادقاً ، وقام بتطويقها بين صخور الوادي ودمرها تدميراً . وبكل جهد استطاع محمد بن حاج حسن وقليل من رجاله الفرار .

ونظراً لاستحالة عودتهم إلى « فزان » بسبب نقص وسائل النقل اختبأوا في خيام (نزلة) المشاشى المنشقين الذين كانوا مستقرين في « وادي الخيل » على هامش حمادة الشمالي .

في تلك الأثناء دخل فيلق غدامس في « نقوتة » للتزود بالمؤن ، وكان قد استأنف زحفه من النصرة الى الملاحة .

وفي يوم ٩ مايو اصطدم بالرجال المسلحين التابعين للنزالي التي سبقت الإشارة إليها . وبعد ان ضربهم وهزمهم بعد معركة قصيرة حامية الوطيس أسر قافلتهم كلها بما كانت تحمل من نساء وأطفال .

في هذه المرة أيضاً كان الذي أنقذ محمد بن حاج حسن هو فراره المشين بعد ان اصيب للمرة الثالثة بهزيمة منكرة في قلب « منطقة القبائل » و « حمادة » التي كان يعتقد أنه سيدها المسيطر عليها ، على أيدي أولئك القواد والجنود الذين كان قد أبدى بخطابه الشيء الكثير من الاستهانة بهم . وقد استأنف

طريقه نحو الشاطىء وهو مكتئب حزين يتبعه قليل من الرجال وبدون قافلة . ولا يحمل معه سوى قليل من قرب المياه التي ملأها بالمياه من بير « الكور » .

ولما كانت قيادة القوات قد رأت التجمع في تلك الأثنـــاء مع كل الفرق الصحراوية ، في الشويرف للعمل ضد سيف النصر فإنها سرعان ما أمرت اللفتنانت كولونيل « مورامار كو » بتعقبه من خلال جبال « حمادة » في اتجاه الكور — الطابونية ، للاعتماد على القريات والبقاء دائماً بكامل قوته .

وهكذا قامت للمرة الأولى منذ ١٩١١ فصيلة من القوات النظامية باختراق منطقة « حمادة » بأجمعها في فترة حروب العصابات أثناء فصل الصيف ، وظهر خطأ تلك الفكرة القائلة بأنها منطقة لا يمكن التغلغل فيها أو انتهاك حرماتها .

وبعد أن عاد هذا الفيلق بذاته إلى مقر العمليات التي تمت قام بتكرار قطع المسافة التي سارها بطريقة عكسية تتبعه المصفحات .

وقد أصبح الآن من الممكن تسيير هذه الوسيلة الحربيـة القويـة من شبكة طرق الطابونية في منطقة « حمادة » الشاسعة حتى « درج » .

ولسوف ترن في جوانبها أصوات طلقات المدافع الرشاشة « المترااليوزات » ومحركات السيارات فضلاً عن أزيز الطائرات التي طارت فوق كل جزء منهـــا وكشفت كل طريق من طرقاتها .

وسرعان ما أسرع ثوار « الزنتان » بإرسال وفد لكي يعبر عن رغبتهم في في الاستسلام لماريشال إيطاليا الذي أظهر أنه يعرف كيف ينفذ بكل إخلاص وبكل همة تهديده بإخماد الثورة بنفس الطريقة التي عرف بها كيف يمنح العفو والسماحة كما كان يعمل زعماء الرومان في الأزمان السالفة .

وكانت طبيعة الخطة السياسية التي وضعها محمد بن حاج حسن قد أعدت بوجود قدامى الزعماء من أمثال محمد «فكيني» زعيم «الرجبان» وسالم عبد النبي

زعيم الزنتان في « المحلة » وقد كان هؤلاء يريـدون ان يكونوا آلة الثورة في الجبل حيث لا يزال العنصر العربي بالرغم من إخضاعه وهزيمته يضمر الحقـد والكراهية للبربر المنتصرين .

لذلك فإنه بينما كانت القيادة تبحث عن العدو في « حمـادة » بكل نشاط كانت تهتم كل الاهتمام بتقوية « الجبل » لكي تتجنب وصول هجوم العدو إليه إذا ما بقيت المنطقة بدون دفاع مما يضر هيبة الحكومة ضرراً بالغاً .

ولقد تم تحقيق هذا الغرض بتأليف قوات احتياطية متحركة تحملها السيارات ، وبتسليح رجال القبائل الذين تقدموا الينا في كل مكان للعمل معنا بدون أجر .

لذلك كان العمل الدائم خلف خـط الجبل الذي استمر سنوات وسنوات دون تغيير اتجاهه وأغراضه يؤتي ثمراته .

وقد قيل ان محمد فكيني الزعيم الطاعن في السن قد وقـع قتيلاً في معركة « أم ملاح » .

على أن هذا الخبر قد ظهر كذبه فيما بعد .

ومع هذا فإن من المهم أن نعرف مضمون خطاب كتبه هو ، وجـدناه في ميدان المعركة ، والذي ننقل نصه فيما يلي ؛ ويظهر من هذا الخطاب بطريقـة جلية أن ثمانية أعوام قامت اثناءها الحكومة بتنفيذ سياسة ترمي لتثبيت هيبتها وسيطرتها ، وثمانية أعوام كلها فتوحات وانتصارات ، قد انقضت دون أن تستطيع التأثير على عقلية هذا الزعيم وغيره من الزعماء ، أو تحدث فيها أقل تغيير أو تعديل .

فإن آراءهم بالنسبة لنا لم تتغير قط عما كانت عليه في سنة ١٩١٩ إلى ١٩٢٩ . وكان لهذا العناد جذور ، في مدينة طرابلس ، التي كانت تصل منها نحو الجنوب بطرق خفية التوجيهات والآمال والتشجيعات .

أما الغرض الرئيسي منها فهو : إيجاد المضاربات السياسية اعتماداً على الاجتماعات والوسطاء والأموال .

وهذا هو الخطاب .

إلى اللفتنانت كولونيل جالياني – مزدة .

تلقيت خطابكم المؤرخ في ٢٢ فبراير ١٩٢٩ .

واسمحوا لي أن اذكر لكم شيئاً من تاريخ ماضي طرابلس الغرب .

إن سكان طرابلس الغرب وبرقة الحقيقيين هم العرب وليسوا البربر أو أي أناس من اجناس أخرى . وإن طرابلس الغرب، التي كانت قبلاً حكومة مستقلة يحكمها أجداد وأسلاف حسونة باشا القرمانلي ، حتى مجيء الحكومة التركية ، وبعد أن دافعت عن نفسها حتى النهاية، ورأت ألا قدرة لها على مقاومة حكومة قوية ، وقعت مع هذه الحكومة معاهدة بمقتضاها كان أهالي طرابلس الغرب رغماً من وقوع بلادهم تحت السيطرة التركية – يحتفظون بكامل حريتهم وبجميع حقوقهم وحصلوا على حق حمل الأسلحة ، فضلاً عن حصولهم على عفو شامل عن الأعمال السابقة .

وقد استمرت هذه الحالة حتى جاءت دون علم من أحد حكومتكم التي قام جميع الاهالي بمقاتلتها بإصرار وعناد ، دفاعاً عن بلادهم ودينهم ودفاعاً عن الحكومة التركية التي كانت تحكم هذه البلاد . ثم إن الأهالي عندما أدركوا أن حكومتكم هي حكومة قوية ، خضعوا لها جميعاً ما عدا أهالي الجبل وأهالي الصحراء .

ولما رأيت أن « الباروني » يعمل لنفسه وللبربر فقط فإنني كنت أول من استسلم ، وكنت أقوم لمدة ثلاثة أشهر للدعاية للحكومة الإيطالية ، ولو أن

الباروني والكونت « سفورزا » كانا مستمرين في عملهم لصالح البربر وإضراراً بالعرب .

في ذلك الوقت قامت قواتكم بقيادة الجنرال « لكويو » باحتلال « الجبل » وهرب الباروني مع أتباعه ما عدا يوسف خربيش الذي – رغماً من ارتباطه به – فضّل البقاء معي أنا الذي ربيته وكنت ضامناً لحياته .

وهكذا بقيت الحكومة في الجبـــل وفي الأراضي الأخرى ، حتى نشبت الحرب العالمية .

في تلك الفترة لم أتأخر عن العمل في القتال معكم وعن عمل كل شيء لمصلحتكم كما تعرفون جنابكم .

ولقد سبب انسحابكم إلى الساحل الاضطراب والفوضى في كل مكان ، وقام كل رئيس قبيلة بحكم قبيلته لحسابه الخاص وتحت إشراف السنوسية . ولما تم عقد الصلح صرت بفضل أشخاص يؤمنون بالحرية من أمثال « تارديتي » وغيره أشغل منصب عضو في مجلس الحكومة التي سقطت على أثر صدور الدستـــور الذي منحته إيطاليا للبلاد . وكان الجميع مغتبطين بهذا الحل ، ما عدا « الباروني » وأتباعه ، الذين لم يكونوا يرغبون إلا في خراب طرابلس الغرب – فإنه بواسطة شقيق الدكتور عزام الذي كان موجوداً في إيطاليا ، وبواسطة أشخاص ايطاليين كانوا موجودين في مدينة طرابلس ، من أمثال « متزيتي » وغيره – بـــذروا بذور الخلاف بين « الشتيوي » وغيره في المنطقة الشرقية .

أما في المنطقة الغربية فإن هؤلاء جميعاً قد ساعـــدوا الباروني وخليفة بن عسكر (الذي استدعي إلى مدينة طرابلس وقدمت اليه الأمـوال والأسلحة والمؤن والذخائر) ، حتى يقوموا ببذر الشقاق أيضاً في المنطقة الغربية بهـدم سلطتي وسلطة أنصاري . وبعد ذلك أعيد الايطاليون المخلصون الذين كانوا قد عملوا كثيراً في سبيل الهدوء لخير إيطاليا وإسعاد هذه البلاد إلى وطنهم .

ولما كان ولدي حسن قد درس في المدرسة الإيطالية وانضم الى حزب الأحرار، فإنه ذهب الى وزارة المستعمرات للتحدث مع المسئولين فيها وللدفاع عن الدستور الذي تم منحه للبلاد، والذي قام بمهاجمته في ذلك الوقت بمنتهى العنف الأشخاص الذين كانوا يعادونه . وعند عودته قمنا بمقاتلة الباروني وابن عسكر ، ومات ولدي حسن في ساحة المعركة ، وعلى أثر ذلك فقدنا جميع أملاكنا وأصبحنا مضطرين لترك مدينة طرابلس والإلتجاء إلى الصحراء . وهكذا انتهى أيضاً رمضان الشتيوي وخليفة بن عسكر .

ثم جاء بعد ذلك الكونت « فولبي » الذي بدأنا معه بمفاوضات جديدة للحصول على السلام لنا ولبلادنا .

وبينما كنا نقوم بهذه المفاوضات قـام الكونت « فولبي » والجنرال « جرازياني » والبربر على العكس من ذلك بخيانتنا واستعمال القوة . وبدلاً من ذلك العفو الذي كنا ننتظره من الحكومة فقد تهدمت منازلنا وأهدرت دماؤنا ، وحتى أولئك الذين استسلموا قد انتهى بعضهم الى المشنقة وأعدم البعض الآخر رمياً بالرصاص وآخرون ألقي بهم في غياهب السجـون ، وصودرت جميع أملاكهم .

وإذا كانت الحكومة عازمة حقيقة على منح العفو وبدء المفاوضات، فلترسل لجنة من أشخاص إيطاليين موثوق بهم ومن بعض أعيـان طرابلس الشرفاء ، ولتطلق سراح المسجونين، ولترد جميع الأملاك المصادرة إلى أصحابها، ولتعوض علينا جميع الأضرار التي لحقت بنا ، ولتسمح لنا بالاحتفاظ بأسلحتنا بضعة سنوات أخرى ، لأنكم تعلمون حق العلم أن طرابلس الغرب بها صحراوات ، والبدو في حاجة ماسة إلى حمل البندقية لإنقاذ ماشيتهم والدفاع عن أنفسهم من قطاع الطرق .

وإننا إذا ما وعدتنا الحكومة وعداً صادقاً ، فإننا لا يمكن أن نرجـع في

الكلمة التي أعطيناها والوعد الذي وعدنا به . ومما يثبت ذلك أنه لا يزال معكم لى الآن في خدمتكم ألفان أو ثلاثة آلاف عسكري ، كلهم عرب وابناء عرب، إوليس بينهم سوى ثلاثة من الإيطاليين .

وإني أرجو سيادتكم أن ترسلوا رسالتي هذه إلى الحاكم العام ، وإنه إذا ما بحث عن سلوكي في الدفاتر ، فلسوف يرى أنني سرت دائماً حسب نصوص الدستور ؛ ولسوف يجد الخطابات التي وجهتها إلى الحاكم العام « فولبي » وإلى أسلافه وإلى الجنرال جرازياني أيضاً .

وقد عملت دائماً بشرف وبضمير حي .

وعندما عاد اهالي « الزنتان » و « الرجبان » إلى بلادهم أخذوا منهم أملاكهم ، وتم شنق كثيرين منهم ، واعتقل كثيرون لمسائل شخصية .

وكان على الحكومة - عكس ذلك - أن تعامل الجميع على السواء . فإما العفو عن الجميع أو إعدام الجميع رمياً بالرصاص .

إن كل الناس الذين بقوا يعاملون معاملة العبيد ، فلا تحترم ديانتهم ولا عائلاتهم ، ولا أملاكهم .

إن أعيان طرابلس الغرب الذين هم اليوم من الفارين والمهاجرين هم الذين قدموا في الماضي أصلح النصائح والإرشادات ، وقاموا بأجل الخدمات للحكومة .

إن جنابكم تقولون في خطابكم ، إن الحاكم الجديد هو الرجل الذي انتصر في الحرب ، وهو رجل عظيم الشجاعة والكرم.

ولنا كبير الأمل .... ولما كان صاحب السعادة له جميع السلطات من قبل الحكومة المركزية ، فليعقد مجلساً من الأعيان الطرابلسيين ومن أشخاص إيطاليين،وليطلق سراح جميع المسجونين وليرد إليهم كل أملاكهم وليعوض عليهم

ما أصابهم من أضرار ، لأن أولئك الذين في السجون لا ذنب لهم ، وقد عوقبوا نتيجة لأكاذيب خصومهم ، وإن الحاكم إذا مـا فعل ذلك سوف يحصل على الهدوء في طرابلس الغرب ويترك فيها اسماً . وليذكر دائماً أن العرب هم بدو ويستطيعون التنقل من جهة إلى أخرى باستمرار .

ولك التحيات من صديقك القديم ،

تحريراً في شوال

المخلص

« محمد الفكيني »

ويبدو ان هذا الخطاب ما هو إلاّ نسخة من خطاب آخـــر كتبه الفكيني هذا ، منذ سبع سنوات ، إلى الجنرال جرازياني عندما كان لا يزال برتبـــة الكولونيل ويتولى قيادة الألاي الذي هاجم واحة «الجوسن» لإعادة البربر مرة ثانية إلى الجبل .

ونرى من المناسب إيراد نصه لمقابلته بهذا الخطاب .

إلى السنيور الكولونيل جرازياني ،

لقد تسلمنا خطابكم وفهمنا مضمونه الذي يتلخص في أنكم تخبرونني باعتقالـكم لابن عسكر ، الذي كان ينوي شن الحرب ، بينما تريدون أنتم الصلح بين أهالي « الجبل » إلى غير ذلك .

ويجب أن تعلموا سيادتكم أن أهالي « الجبل » (البربر) هم أعـــداؤكم الحقيقيون ، ولكنهم بفضل خـــداع « متزتي » و « الباروني » أصبحوا من محاسيب الحكومة ومحل عطفها وهذا من عمل متزتي .

لقد فوجئنا بهذه المعاملة غير العادلة التي تعاملوننا بهـــا ، ونحن لم نرتكب ذنباً ضد الحكومة .

إننا عندما كنا في حرب مع البربر ، قدم أنصار حكومتكم إليهم السـلاح والذخائر والمؤن ، ونحن جميعاً – سواء أهـــالي « الزنتان » أو « الرجبان » وانصارنا – قد تظاهرنا بأننا لا نرى شيئاً ، وبالرغم من هـذا لم نهاجم قوات الحكومة .

وفي أثناء ذلك قام الحاكم العام بمهاجمة « مصراتة » ، وعمل على أن يجتمع أعيان العرب ويكتبوا طلبات يتعهدون فيها بعدم الإضرار بالحكومة . ولكن نظراً لعناد البربر ومحرضيهم وحماتهم اتسعت شقة الخلاف وازداد الصراع وبقينا نحن أهالي الجبل في الانتظار ، وكلنا أمل في عقد الهدنة .

وإنكم الآن – على العكس من ذلك – قد بدأتم زحفكم وتقدمت قواتكم ، لفرض مسألة تسوية حالة البربر بالقوة .

أما ابن عسكر ، فانه بالنسبة لنا أقل خطراً من الفساطوي ومن خربيش اللذين هما والباروني أعداء هذا الإقليم ومستغلوه في الماضي ، وبعد ذلك إذا ما رجعتم الى التاريخ .

لقد كنا بالأمس نتلقى خطابكم، وفي تلك الأثناء كانت قواتكم تتقدم للقتال. ونحن مع ذلك مصممون كل التصميم على عزمنا على ألا نقبل أن تكون للـــبربر السيطرة والتفوق علينا . وإنكم إذا أردتم السلام عودوا الى أماكنكم في زوارة. وليعقد الحاكم العام هدنة معنا ومع لجنة المريض بك الشرقية ورفاقه . لأننا نحن العرب كلنا بلا استثناء متفقون على أن الصلح أو الحرب يجب عملها على أساس مشترك . وعند ما يتم عقد الهدنة سوف نناقش طريقة حقن الدماء وإعـــادة بناء البلاد التي تهدمت بسبب أنصاركم وعجرفة البربر .

وإنكم إذا أردتم فرض سيطرة البربر علينا ، فإننا سوف نعترف بـكم دون

شك كحكومة ، ولكن سوف نجاهد في سبيل ديننا ، ومن أجل وطننا وشرفنا حتى آخر نفس من أنفاسنا .

أما إذا كتب الله لنا النصر فسوف نرضي ضمائرنا وإرادتنا ، وأما اذا انتصرتم أنتم فإننا سوف نلتجيء جميعاً الى الصحراء ، ولكن البربر بفضل الله لن يستطيعوا الإقامة في بلادهم رغماً عنا . ولن يستطيع جنودنا أن يبقوا ساكنين .

هذا هو عزم الجميع وتصميمهم .

وإنكم متى عدلتم عن عزمكم ، يجب عليكم أن تتراجعوا إلى الوراء وتقبلوا الهدنة ، وبعد المفاوضات يصلح الله الأحوال السيئة .

إننا لم نبدأ حتى الآن في القيام بأي عمل ضدكم ، لأننا نريد أن نعرف قبل كل شيء نياتكم . ولكن إرادة الله سوف تتم أولاً وأخيراً ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

واننا ننتظر اليوم ردكم ،

شوال ١٣٤٠ (٤ يونيه ١٩٢٢)

خادم البلاد

« محمد الفكيني »

وجميع أهالي الزنتان والرجبان والصيعان

ولعمري إن هذه الوثائق تظهر ، إذا كان لا يزال هناك احتياج لذلك ، كيف أن عقلية الزعماء تبقى دون تغير أو تطور ، ومعادية لكل مبدأ من مبادىء الحكم ، ولو بعد تجارب شاقة ، كما تظهر مقدار الحاجة إلى استعمال القوة إلى جانب كل عمل من أعمال التهدئة ، لأنه عندما نتكلم عن العفو الكريم فإن

العرب من السهل أن يفهموا ذلك ، على أنه دليل الضعف ، إذا لم تصاحب هـذا العفو مظاهرة من مظاهر قوتنا الكبيرة وتفوقنا الحربي .

وقد أجاب الكولونيل جرازياني في عام ١٩٢٣ على هذا الخطاب المثير الذي بعث به الفكيني وهو يقوم بالزحف على الجوسن وجادو بعد أن تنبـأ للزعيم الشيخ بأنه لا بد أن يموت في يوم من الأيام ميتة البؤس والشقاء في قلب الصحراء، بعد أن يتخلى عنه ويلعنه رجاله الذين جرهم إلى الخراب والدمار .

ولقد تحققت هذه النبوءة أو أنها على وشك التحقق .

هذا وقد أجيب على خطابه الذي كتبه في شهر مارس من عام ١٩٢٩ — على العكس من ذلك بهزيمة أم ملاح قبل أن تصل الوثيقة إلى أيدينا ، إذ أنها كانت من ضمن غنائم الحرب التي وقعت في أيدينا .

ومما لا شك فيه أن مراسلات محمد فكيني وأصدقائه الطرابلسيين السياسية لم تكن موفقة ولا سعيدة الحظ منذ سنة ١٩٢٢ إلى ما بعدها .

وبينما كانت هذه الأحداث تجري في المنطقة الجنوبية الغربية ، كانت هناك أحداث أخرى أقل أهمية تحدث في المنطقة الشرقية .

وقد أرسلت بالفعل بعض دوريات الخيالة « السواري » التي كلفت للقيـام بعمليات الاستطلاع في ١٩ ابريـل وذكرت ان ما يقرب من ٢٠٠ من الثوار تحميهم قوات من الكشافة يقومون بجمع الشعير من سيـدي بجيري (شمال شرقي النوفلية) .

وسرعان ما قامت قيادة المنطقة الجنوبية الشرقية بجمع بعض قوات فيلق سرت وتركيزها في « مرسى العويجة » في يومي ٢٠ و ٢١ .

وفي الساعة السابعة والنصف من صباح يوم ٢٢ تحركت هذه القوات بقيادة الكولونيل « تراكيا » واصطدمت في « وادي الرتم » مع الثـوار ، وضربتهم

واضطرتهم الى التقهقر نحو الجنوب .

وبعد ذلك وصل الكولونيل كوبيدو قائد المنطقة بفيلق سرت واتجه إلى جيفة ووجدها خاوية على عروشها .

وقد كان من اللازم عندئذ البحث عن محلة سيف النصر وتدميرها واحتلال الشويرف احتلالاً كاملاً لمنع الثوار نهائياً من دخول بونجيم والقريات وغدامس، وطرد جميع عناصر الثوار الموجودين في الشاطىء الذي يقع على مسيرة خمسة أيام من مراكز احتلالنا الأمامية .

ولقد صدر الأمر إلى فيلق الجبل بالقيام بتطهير الأراضي الواقعة بين زمزم العليا والطابونية من الثوار ، على أن يتجه بعد ذلك بكامل قواته نحو القريات التي لا بد أن يكون قد انتقل اليها أيضاً فيلق غدامس . أما قوات خليفة خالد غير النظامية فإنها بعد أن وصلت « مزدة » صدر الأمر بحلها لانتهاء مدة خدمتها .

بعد ذلك انتقل قائد القوات العسكرية إلى « بونجيم » لكي يبحث الموقف في ذلك القطاع عن كثب .

وكانت فكرة العمليات هي التحرك في الحال من القريات ومن بونجيم بالفيلقين في منطقة « الشويرف » .

ولكن الحالة الجوية كانت صعبة للغاية بحيث رئي استحالة التحرك من الجهة الشرقية في طريق لا يزال مجهولاً ومواردة المائية غير محددة ونادرة ، مثل طريق بئر رشيدية و « واللحيقة » و « العلقة » .

لذلك تقرر في الحال حل الفيلق والعودة بالقافلة إلى سرت .

ولما وصل هذا الخبر إلى معسكر العدو وتأكد منه الزعيم الوطني اقتنع بأن احداً لن يتقدم في هذه الجهة مما سهل لنا عمليتنا كثيراً .

وقد أهمل بالفعل اتخاذ أي إجراء من إجراءات المراقبة في الجهة الشرقية ، وحوّل كل اهتمامه إلى فيلق « الجبل » القادم من القريات والذي كان يتولى قيادته عندئذ الكولونيل « جيلياريللي » (قائد منطقة الأراضي الجنوبية) الذي قام من يوم ٣ مايو بالبحث عن محلة العدو في المنطقة الواقعة جنوب غربي القريات ، تجاه الشويرف .

ومع هذا، فإنه لنجاح أية عملية هجومية كان من اللازم معاونة قوات تستطيع القيام بمناورة خلف العدو ، في المثلث المائي « بئر العلقة » و « الشويرف » و « أم الخيل » ، حيث أمكن بواسطة المعلومات التي قدمها الطيارون ، أو بواسطة عمليات الاستطلاع الأرضية ، افتراض وجود قاعدته فيها .

ولقد كانت القوات الوحيدة التي يمكن إسناد مثل هذه المهمة إليها هي القوات الصحراوية التي كانت حتى هذه اللحظة منهمكة في أعمال التموين الثقيلة في مثلث « هون » و « زلة » و « تاقرفت » .

ولذلك تركزت في « هون » بقيادة اللفتننانت كولونيل « فراري أورس » الفرقتان الثالثة والرابعة الصحراوية ، وقسم من المدفعية محمول على ظهور الجمال ونصف فرقة من الخيالة « السباهيس » .

وكان هذا القائد هو الوحيد الذي يعرف نيات قائد القوات العسكرية .

ولقد ذاع هذا الخبر في كل مكان ، كما ذاع أن الفيالق سوف تقوم بغارة على جبال هروج .

وكانت خطة المناورة المقررة هي كما يلي :

على فيلق الجبل أن يقوم من « ثمد قوريرة » حيث كان متوقفاً (بعد أن يتقوى في الوقت المناسب بفيلق غدامس الموجود في القريات) والانضمام إلى الفرق الصحراوية من « هون » والفيلق الخفيف القادم من « بونجيم » (الكتيبة

الليبية السادسة ونصف فرقة من الخيالة « السباهيس » ـ بالاندفاع في مثلث : آبار الشويرف ، أم الخيل ، والعلقة ، ولعمل كاشة لمحلة العدو .

اتجاه التحركات : يتجه فيلق الجبل (بقيادة الكولونيل جيلياريللي) إلى ثمد قوريرة ، الشويرف ، والفرق الصحراوية (اللفتننانت كولونيل فراري اورسي) الى هون ، بئر المخرق ، سانيه ارجيلات ، القشيرية ، أم الخيل أو « بئر العلقة » .

وفيلق بونجيم (بقيادة اللفتننانت كولونيل اماتو) الى بونجيم ـ بئر رشيدية ، بئر العلقة .

ويقوم بالعملية الرئيسية الفيلقان الأولان ، وبالعملية الثانوية الفيلق الثالث .

وكان المقصود من اتجاهات الزحف ـ فضلاً عن البحث عن العدو ـ سد طريقي الانسحاب المتجهين نحو الجنوب في وجهه ، وأولهما المؤدي إلى بير « القشيرية » . والثاني الى بير « نسيبة » في (زلة) وهما المكانان الوحيدان اللذان توجد بهما المياه واللذان يجب أن يعتمد عليهما من ينسحب من الشويرف الى الشاطىء .

ولقد بدأت خطة العمل المرسومة في يوم ٢٠ مايو بتحرك الفرق الصحراوية من هون الى بئر المخرق .

وفي يوم ٢٥ كان الموقف على الوجه التالي :

فيلق الجبل على مسيرة أربع ساعات من آبار « الشويرف » .

الفرق الصحراوية ، على مسافة أربع ساعات من آبار « أم الخيل » .

فيلق بونجيم في بئر « رشيدية » .

وفي ليلة ٢٦ اتصلت قيادة القوات العسكرية بالفيلقين وأمرت بتنسيق العملية التكتيكية والقيام بها في صباح اليوم التالي على أن تكون أهدافها هي

آبار الشويرف وأم الخيل .

وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ٢٦ بـــدأ فيلق الجبل والقوات الصحراوية الزحف الذي كان عليها توجيهه نحو ميدان القتال .

وفي الساعة السادسة والنصف بدأ فيلق الجبل أول اصطداماته بالعدو الذي انسحب ، ولكن الكولونيل جيليارليلي وقف في وجهه بحركة خاطفة بالقوات الأمامية لكي يسمح لفيلق « فراري » بمهاجمته من الخلف في اللحظة الحاسمـــة أثناء العملية التكتيكية . وكانت هذه اللحظة قد تم تحديدها منذ بداية حركة التطويق التي تم القيام بها من الجهة الشرقية ، من جانب فيـلق « غدامس » (بقيادة اللفتنانت كولونيل فورامار كو) وهو الفيلق الذي كان قد أصبح تابعاً لفيلق « الجبل » .

وقد تمت العملية ووقعت أثناءها عدة معارك في وقت واحد . ولما استنفـد العدو ـ الذي كان قوامه حوالي ٨٠٠ بندقية ـ العدد الكبير من قواته في الجهة الأمامية ولاقى تهديداً من جانبه الأيمن ، اضطر إلى التقهقر في اتجاه أم الخيل . على انه سرعان ما وجد نفسه وجهاً لوجه امام فيلق « فراري » الذى أكمـــل هزيمته .

ولقد اتصل سلاح الطيران أثنـــاء كل هذه العملية باستمرار وبدون توقف بمختلف الوحدات القائمة بالهجوم ، وكان يقذف قنابله على العدو بنجـــاح ويصوب إليه رشاشاته (مترالیوزاته) بكل جرأة وشجاعة .

ولما رأت القيادة أن العدو ـ بعد أن انهزم في « الشويرف » ـ قد يتجه الى « بئر العلقة » لكي يتزود بالمياه منها ، سرعان ما أصدرت تعليماتها إلى قوات « فراري » و « مورامار كو » لمهاجمة تلك البئر ، حيث كان فيلق أماتو على وشك الخروج من بئر « رشيدية » .

وفي يومي ٢٧ و ٢٨ تمت التحركات بنظام ، تساعدها الطائرات ، كما أن

الفيالق الثلاثة فاجأت بقايا المحلة ومخيماتها ، بينما كان رجالهم منهمكين في التزود بالمياه ، واجبروهم على الانسحاب بدون نظام نحو الجنوب بعد ان أوقعت بهم خسائر فادحة في الرجال والماشية .

أما بقية رجال « المحلة » الذين انقسموا الى جماعتين ، كان يسير مع إحداهما حامد سيف النصر – فاتجهتا الى « زلة » التي وجدتا انه قد تم احتلالها بواسطة بعض القوات التي تقدمت اليها بناء على فكرة قائد قطاع هون (اللفتننانت كولونيل ناتالي) الذي كان يتتبعها بأنظاره من مسافة قريبة هو وفيلقه .

وهنا استحال عليهم ايضاً التزود بالمياه .

وهكذا تقهقروا في شيء كثير من الارتباك وعدم الانتظام إلى الشاطىء ، بعد ان تركوا كل ماشيتهم الصغيرة ومزارعهم ونساءهم وأطفالهم .

هكذا دفع حمد سيف النصر ثمناً غالياً لغروره وطموحه ، وهكذا أصبح زعماء البدو الموالون لنا يطلقون عليه اسم السيف المكسر (المكسور) بدلاً من اسم سيف النصر .

وبعد احلال آبار الشويرف تقرر الاحتفاظ بها نهائياً .

وهكذا فشلت فشلاً ذريعاً مرة أخرى خطة الثوار الذين كانوا يرمون بنقلهم الهجوم من فزان البعيدة حتى قلب منطقة احتلالنا – إلى تأخير نزولنا الى الجنوب أو عرقلته أو منعه ، وإفساد مشروع التهدئة الذي كان قد بدأه الحاكم الماريشال بكرم نبيل وعزيمة صادقة .

وقد تمت حلقة العمليات هذه في أرض صحراوية بحتة بمناورات واسعة النطاق على النحو التالي :

من هون الى الشويرف	٢٢٠ كم
من درج الى الشويرف	٣٨٠ كم

من بونجيم الى الشويرف ١٦٠ كم

واستخدمت فيها فيالق عاملة لا يزيد عدد رجالها إلا قليلاً عن عدد رجال العدو ، وكان من الممكن أن يصطدم كل فيلق من هذه الفيالق في ميدان المعركة بقوات من قوات العدو لا تزيد قواته على قواتنا . ولقد نجح نجاحاً كاملاً بفضل توجيهات صاحب السعادة الماريشال « بادوليو » التي أصدرها منذ يوم وصوله الى المستعمرة ، تلك التوجيهات التي قامت القيادة بتطبيقها بـإرادة طيبة وبمنتهى الحكمة والحزم .

وقد دللت هذه الفيالق مرة أخرى على ما بلغته جيوش قواتنا الاستعمارية من الكمال ، في خلال سنوات وسنوات قضتها في حملات عسكرية ناجحة ، كما أثبتوا ما يتمتع به رؤساء الجيش والضباط والجنود من الاستعداد الكامل .

ومن الممكن أن نستنتج من هذه العمليات كثيراً من التعليمات ، ولكن مما تجدر الإشارة به من هذه التعليمات ما يأتي :

فائدة الكتمان والمباغتة وأثرهما الفعال ، أهمية الاتصالات التي تمت بواسطة المحطات اللاسلكية والطائرات التي سمحت للقيادة بإدارة المناورات والعمليات العسكرية من مسافة تبلغ ٥٠٠ كم . واخيراً تقديس قيمة العوامل المائية .

ولقد كان من الممكن تسمية هذه الهزيمة بالنسبة للثوار (باسم هزيمة العطش) فقد ذهب ضحية العطش عدد كبير من الرجال والدواب الذين ماتوا في ذلك السير الطويل الشاق .

ولقد التقى حامد سيف النصر أخيراً في « براك » بمحمد بن حاج حسن ، وأدرك هذان الزعيمان في حزن وألم كيف أن الحظ قد تخلى عنهما .

ولكن ترى هل سيعترفان بعد كل ذلك بالهزيمة ، وبأنهما قد غلبا على أمرهما؟ وهل سيتخليان عن القتال وعن معارضة نزولنا إلى الجنوب ؟ ان هذا الأمر مشكوك فيه .

إن موسم البلح سوف يضطرهما إلى البقاء في منطقة الشاطىء دون شك حتى حلول الشتاء . ولسوف يتوقف مسلكهما في المستقبل على عوامل من السهل فهمها وعمل حسابها .

ولكن ليس من الممكن التأكد من تحديد هذه العوامل على وجه الدقة ، لأن الأحوال المحلية غير الثابتة والمتغيرة هي التي تفرضها .

ولقد أثرت حوادث الشويرف تأثيراً كبيراً في البدو الرحل الموالين لنا في « منطقة القبائل »، أولئك البدو الذين ولو انهم بقوا - ايام كانت الحرب سجالاً بيننا وبين الثوار - على إخلاصهم لنا وسلكوا مسلكاً طيباً مفيداً لنا فيما عدا فئات قليلة ، ولكنهم لم يجرؤوا على الاشتراك في العمل بنشاط إلى جانبنا وفي صفوفنا ، وذلك لترددهم الذي من الممكن فهمه .

لذلك كانت اللحظة مواتية للقيام بنزع السلاح من أيديهم .

ولقد تم الإعداد لنزع سلاحهم ، ولم يكن يعرف ذلك سوى الحاكم العام وقائد القوات العسكرية .

ولقد تعاونت في ذلك العمل الفيالق الخفيفة الآتي بيانها :

جادو	اللفتنانت كولونيل « بيتسي ».
غريان	اللفتنانت كولونيل « كرارا » .
مزدة	اللفتنانت كولونيل « جالياني » .

الذين زحفوا على عشائر المشاشي بأقصى سرعة من بئر مورهان - نسافوا - شيجبيجا ، وقاموا بتطويقها وفرضوا عليها في أيام قليلة تسليم الأسلحة .

فيلق ورفلة	اللفتنانت كولونيل برايدا .
فيلق الجبل	الكولونيل جلياريللي .

فيلق غدامس   اللفتننانت كولونيل مورامار كو .

الفرق الصحراوية   اللفتننانت كولونيل فراري اورسي .

التي بعد أن تركزت في « تجميـــل » من الشويرف والقريات بقيـادة الجنرال جرازياني المباشرة قامت في ٤٨ ساعة بنزع سلاح الجارحة وأولاد بوسيف في مناطق كاريجا وبوفيجا ووادي زمزم غير المضيافة .

وقد تمت العمليات دون وقوع أي حادث .

وأطاع الزعماء أحمد بن قرزة ، وسالم بن نصر ، ومسعود الشويشين دون تردد هذا الأمر الصادر من الجنرال جرازياني باسم صاحب السعادة الحاكم العـــام ، الذي كانت هيبته دون شك هي أساس كل هذه الانتصارات التي تم إحرازها بمنتهى السرعة ، سواء في الحقل العسكري أو في الحقل السياسي .

ولقد كان انتشار القوات على نطاق واسع حول معسكرات هذه الفيـالق كافياً لإظهار إرادتها في فرض الطاعة على الجميع .

وهكذا فإن بدو منطقة القبائل ، الذين كان من المعتقد أن من المستحيل إخضاعهم بعد ما يقرب من ثمانية اعوام من أعمال سياسية تمت بصبر وجلد وبعد نظر ، قد تنازلوا عن أثمن شيء لديهم في الحياة وهو الســلاح (١٥٠٠ بندقية) وقد قهرتهم هيبتنا أكثر مما غلبتهم قوتنا .

ولقد استوعبهم من الآن فصاعداً جهازنـــا السياسي الإداري ، وأصبحت منطقة القبائل مخزن بارود انطفأت نيرانه ، وكان في ذلك نفع كبـــير لتطور العمليات المقبلة نحو الجنوب ، اذ أننا سوف نترك ظهرنا وجنبنا الأيمن مأمونين من كل تهديد ومن كل خطر ، بعد أن أزلنا خطأ من الأخطاء الرئيسيـــة التي وقع فيها آلاي مياني . وفي الوقت الذي وقعت فيه هذه الأحـداث الجوهرية كانت قوات برقة تقترب في « وادي فرج » من محلة تتألف من المغاربـــة ،

وتدمرها ، بينما كان زعيم الثورة المحلية عمر المختار ، يقوم بالتسليم دون قيد أو شرط .

وهكذا وقعت في كلتا المستعمرتين في مدى خمسة أشهر أحداث سياسية وعسكرية على جانب عظيم من الأهمية ، وبدأت في أحسن الظروف عملية التهدئة على أساس هيبة الحكومة وكرامتها .

الفصل العاشر

الهدف البعيد

(فزان)

الهدف البعيد
(فزان)

عموميات :

تمتد فزان إلى جنوب حمادة الحمراء وجبل السوداء، وهي منطقة شاسعة تزيد مساحتها على ٣٠٠٠٠٠ كم مربع . ويبلغ طولها من الشرق الى الغرب ٧٠٠ كم ، ومن الجنوب الى الشمال ٥٠٠ كم .

وتتبع فزان من الناحية الجغرافيــة الصحراء الكبرى ، وليست فزان في الحقيقة وحدة جغرافية قائمة بذاتها ، بل يمكن اعتبارها بالأحرى أقليمياً شبه صحراوي . وهي منطقـــة متوسطة بين المناطق شبه الصحراوية القائمة بين الهضبة الرئيسية وبين الصحراء الرئيسية .

وان حدود فزان الشمالية واضحة كل الوضوح ، ومحددة ، لأن حمادة الحمراء وجبل السوداء يهبط أولهما هبوطاً مفاجئاً ، وأمــا الثاني فيهبط تدريجياً على فزان .

أما الحدود الشرقية والغربية فإنها أقل وضوحاً، وهي حدود متفق عليها، إذ أن اولاهما تخترق « أيدين » ثم تتصاعد حتى الغرب إلى أن تصل إلى وادي « طاطرت » ، وتقطع هضبة « تكاهات » وتنحني إلى الجهة الجنوبية الشرقية حتى وادي «وراريت» وتشمل رؤوس الوديان التي تمتد إلى غات وفي وادي «ايسين» .

أما الحدود الثانية فانها على العكس من ذلك يحددها خط العرض الذي يمر على مقربة من شرق واحة « واو الناموس ».

وتمتد الحدود الغربية الى مقربة من غرب طريق القوافل غدامس - إيسّقصار - شيبرما - اهاراج - تارس اولنّى ثم تلي ذلك من الجهة الجنوبية الغربية جبال « تاسيلي » وجبال « تومو ».

وفزان هضبة صحراوية ، وارضها غير مستوية الى حد ما ، وتتدرج من الشمال نحو الجنوب لكي تتصاعد فجأة الى أن تصل الى جدار جبلي هو حدها الطبيعي (تاسيلي ، تومو ، تيبستي).

وترتفع هضبة فزان من ٤٠٠ متر الى ٦٠٠ متر، ويتكون منها تكملة مستمرة لمنطقة « ايدين » و« حماده والسرير » تخترقها منخفضات عريضة وعميقة تقوم عليها الاماكن المسكونة في المنطقة والتي يمكن الحياة فيها وحدها ، لأن العروق المائية تجري فيها على عمق قليل تحت اراضيها . ويطلق على هذه المنخفضات اسم الوديان ، لأنها تشبه وديان طرابس الغرب الشمالية ومع ذلك فانها تختلف عنها لأنها منخفضات مغلقة وعميقة الوسط وجوانبها مرتفعة .

ولذلك فانه اذا أمكن جريان المياه السطحية فيها فانها لا تسير في اتجاه واحد ، ولكنها تتجمع في وسط المنخفض حيث تتركز فيه .

وان المنخفضات الثلاثة التي تعتبر اكبر المنخفضات واهمها هي من الشمال الى الجنوب :

وادي الشاطىء : الذي يمتد من الغرب الى الشرق ويبلغ طوله حوالي ١٥ كم . وينقسم الى قسمين الشاطىء الغربي في الغرب ، والشاطىء الشرقي في الشرق .

ثم وادي اجال : وطوله حوالي ٢٢٠ كم ويمتد من الغرب والجنوب الغربي الى الشرق والشمال الشرقي . وينقسم الى : الوادي الغربي والوادي الشرقي .

ثم وادي برجوش ووادي عتبه : ويكاد يكون كل منهما تكملة واستمراراً للآخر ، ويمتد لمسافة تزيد على ٣٠٠ كم ويتكون منهما منخفض موازٍ لوادي آجال .

ومن الممكن القول بأن منخفض وادي زلاف الكبير يتصل بوادي الشاطيء ، الذي هو فرعه الايمن . كما يتصل بوادي عتبة .

منخفض الحفرة : الذي يمتـد نحو الشمال الشرقي في وادٍ كبير يسمى الحفرة الشرقية .

كما أن حوض هذه الوديان الكبيرة ينخفض في بعض الاحيان الى ما يزيد على ٢٠٠ متر بالنسبة للاراضي المحيطة به ، ويبلغ اتساعه بين ثمانية امتار وعشرة ، وتتكون هذه الوديان من الرمال والصلصال ويغطيها الهيش وطبقة من « الحموس » المحلول وكمية كبيرة من الملح تبدو منتفخة بفعل الشمس والمياه التي تجري على عمق قليل .

ولذلك كانت الحياة في الواحات تصبح ممكنة وتوجد فيها اراض صالحـــة بنوع خاص للزراعة ، كما ان الارض بين وادي الشاطيء وجبل السوداء تنبسط وتستوي ، وهذه الاراضي إما ان تكون مرتفعة وتسمى بالسرير وإما ان تكون سهولاً واسعة مملوءة بالحصى .

وتتصل نحو الغرب بحمادة الحمراء فيتكون منها هضبة قليلة التعـــاريج ، حتى « ايدين » .

وفي الطرف الغربي البعيد من اطراف منخفض الشاطيء تأخذ تلك الهضبة أسم كنير . ثم تتجه نحو الجهة الجنوبية الغربية وتمتد في شريط مملوء بالحصى الى « حمادة » ويبلغ اتساع عرضها من عشرة كيلومترات الى اربعين ، وتنتهي في وادي « تومباكه » الشاسع ، ثم الى مرتفعات « بلخ احمر » . وكل هذا السهل من

حمادة الحمراء إلى « بلخ احمر » تتكون منــه اراضي « بنغاستن » التي تمتد إلى شمال (ايدين) .

أما الاراضي الواقعة بين الشاطىء ووادي آجال ، فانها كلها مملوءة بالرمال والكثبان الرملية التي تبدو كأنها استمرار لمنطقة (ايدين الكبيرة) وتمتد بين وادي اجال ومنخفضات وديان برجوش حماده مرزق ، وهي منطقة شاسعة على شكل مائدة مستطيلة تتكون من سرير وحمادة ، تشقها عدة خطوط عميقة تؤدي إلى المنخفض الكبير .

ويتكون من حمـــادة مرزق جهة الغرب السهل أو صحراء (تايتا) ونحو الشرق يتخذ معظمها شكل سرير ، الى جبل السوداء حتى هاروجي والحفرة الشرقية .

وفي جنوب منخفض البرجوش والحفرة تستوي الأرض في الجانب الغربي، حيث تمتد صحراوات شاسعة مليئة بالحصى، وكلها قاحلة وخالية من المزروعات. وأما في الجانب الشرقي فان السهول الصحراوية على العكس من ذلك غالباً مـا تتخللها كتل من التلال وسلاسل من المرتفعات ومنخفضات يقوم فيها شيء من الحياة لوجود الماء بها .

وادي الشاطىء .

يمتد منخفض الشاطىء الفسيح من اقصى طرفه الغربي نحو الشرق والشمال الشرقي بحوالي ١٥٠ سم (؟)، ثم الى ملتقى (هران) ثم ينحني الى الجهة الشرقية ويأخذ ذلك الاتجاه حتى يصل الى أم العبيد .

أما مستواه فانه يختلف بين ٢٠٠ متر الى ٥٠٠ متر ، وامـــا حوضه فانه يبدو اكثر انخفاضاً في الوسط ويرتفع عند الطرفـــين . لذلك كان

انخفاضاً واسعاً مستطيلاً غنياً بالواحـات ، يحتوي على مجرى مائي قليل الغور .

أما شاطئه الشمالي فإنه صخري ومرتفع، بينما شاطئه الجنوبي رملي منخفض. وفي منتصف مجراه يتصل من الجهة الشمالية الغربية بوادي (سدرة) — ويبلغ عرضه كيلو مترين ، من قاعة المتلىء بالرمال والفخار – وتحت هذا القاع يجري شريط مائي طويل يروي المرج وبعض النخيـل المنعزلة كما يروي بعض المراعي الرملية الضئيلة او المرتفعة .

ومع هذا فاننا اذا ما صعدنا الى هـــذا الوادي من فتحته في الشاطىء فاننا لا نستطيع بعد اربعين كيلو متراً ان نميز تلك القناة التي تتبدد في مروج رملية واسعة وفي هضاب واسعة « سرير » .

واما الشاطىء الوحيد الذي يبقى مرتفعـــاً فهو الشاطىء الايسر الصخري الجبلي الذي يتخذ شكل « حمادة » بين كل مسافة وأخرى كلما صعدنا الى اعلى بقفزة قصيرة نحو حمادة الحمراء .

وغربي ملتقى وادي (سدرة) لا يوجـــد في وادي الشاطىء أي مكان مسكون ، لأن قاعه تغير عليه رمال (ايدين) ولأن العروق المائية التي في باطن الأرض وقلة غور القناة —بالنسبة للاراضي المحيطة بها— من شأنها انتقل المياه او توجد فيها على عمق كبير بحيث تجعل المزروعات تنمو بمشقة في المروج والوديان العديدة .

اما الاماكن المسكونة الرئيسية في الشاطىء الغربي من الغرب الى الشرق ، فهي : ايديري (امام فتحة وادي سدرة) .

تميسان ، ونزريق ، برقن ، محروقة ، العوينات (وهي عـين ماء صغيرة بها بعض الاكواخ) ، آجار .

واما الاماكن ذات الاهمية الثانوية فهي : دويسة والغردة ، جنوبي المحروقة .

وفي الشاطىء الشرقي ، الذي يبتدىء بعـد (سرير) الاجار ، نلاحظ ما يأتي :

براك (هي عاصمة الشاطىء) اشكدة، دبدب، قيرة ، شب ، وعين غزال (وهي عيون مائية حولها قليل من النخيل) .

ويوجد في الجهة الشرقية على مكان بعيد خارج الوادي مرج أم العبيد .

وادي الاجال .

هذا وان (ايدين) الكبرى التي تمتد من الغرب بين وادي شاطىء ووادي الاجال تنحدر الى هذا الوادي الاخير بتدرجات منحدرة ، تتكون من نتوءات رملية ، بينما نلاحظ ان حمادة مرزق التي تمتـد إلى جنوب آجال تتكون منها الضفة الجنوبية ، وهي مرتفعات صخرية بارزة .

ويبلغ طول وادي الاجال حوالي ٢٢٠ كم كما يبلغ اتساعه من ٦ امـــتار الى ١٠ أمتار ، ويتكون منه منخفض مستطيل يبلـــغ ارتفاعه من ٦٠٠ متر إلى ٤٠٠ متر ، ويزداد انخفاضه في وسطه .

والى الغرب قليلا من الخرائق ، بين الفجيج والتكرتيبة يبرز فوق الضفتين الضفتين المتقابلتين مرتفعان يمتدان في الوادي حتى يكادا يسدان الوادي .

وهذه هي النقطة التي تقسم وادي الاجال إلى قسمين :

وادي الغربي في الجهة الغربية والوادي الشرقي في الجهة الشرقية .

اما الوادي الغربي الذي يبدأ من سهل (تايتنا) الى مرتفعي الخرائق فانه

اطول ولكنه أضيق من الفرع الآخر، وضفته الشمالية الرملية تتدرج من الشرق الى الغرب، بينما الضفة الجنوبية – التي تتكون من منحـــدرات امساك تسير صاعدة في نفس هذا الاتجاه .

وبعد حوالي مائة كيلو متر من سهل تاتيا الى جهة الشرق تصبح جرداء تماماً وغير مسكونة ، ثم تصير مليئة بالمزروعات وتزدحم بالسكان .

اما الوادي الشرقي فان ضفته اكثر انحـــداراً ويمتد حتى واحـة (سبها) ووراءه سلسلة من الواحات ذات الانخفاض الطبيعي (تيمنهنت ، سمنو ، زيغن، أم العبيد) .

وان استمرارها يدل على انه كان فيهـا واد كان بدون شك يستمر الى ما وراء ام العبيد ليلتقي بوادي الشاطىء .

هذا وان كل اراضي وادي الاجال تغطيها طبقة من الهيش يبلغ ارتفاعها متر واحد الى اربعة امتار ، تجري تحتها العروق المائية الكثيرة التي تمد الواحات بالحياة، التي بسبب قلة غورها وغزارتها تجعل زراعة الحدائق والحقول سهلة.

إلا انه تستعمل بعض جهات تسيكا طريقــة (الفغاغير) وهي مجارٍ في باطن الارض افقية تؤخذ منها المياه بواسطة آبار ضيقة رأسية.

هذا وان اماكن السكنى الرئيسية في الوادي الغربي، هي من الشرق للغرب، الفجيج ، قرقارة ، الخرائق ، تكرتيه، تويوا، فكفاكة، بريك، الطواسن، جرما (وهي مدينة جراما القديمة التي كانت مدى قرون عديدة عاصمة فازانيا) ، الجريفة واوبارى .

اما في الوادي الشرقي فتوجد الاماكن المسكونة الآتية :

الابيض ، التنهيا ، الرقيبه ، بندبجـــا ، توكون ، اسنوده ، مرشان ، أم الغزلان ، بشيون ، ثم واحة سبها الكبرى (التي كانت فيها من قبل متصرفيتنا

في فزان) ، تيمهنهنت ، زيغن ، ... الخ ...

ايدين الكبرى .

تمتد بين حمادة وواد الاجال بمسافة تزيد على ٢٠٠ كم (ايدين) الكبرى التي يبلغ طولها في اكبر اتساعها من الشرق الى الغرب ما يقرب من ٦٠٠ كم من حمادة « تنجرت » (جنوب الجزائر) الى مرج أم العبيد . وهي مساحة لا حد لها من الرمال والكثبان التي تتتابع وتتلاحق ويأخذ بعضها برقاب بعض في مناطق واسعة مستوية كثيرة التلال والتعاريج والتموجات التي تعطيها الرياح بين حين وآخر اشكالاً غريبة ، فتارة تشبه الأمواج البحرية وتارة أخرى تبدو كأنها اراض زراعية تحولت الى رمال ، وطوراً تكون مخروطية الشكل . كما ان تأثيرات الريح القبلية والريح الشرقيـــة التي تسيطر عليها دون ان تجد ما يعترضها تجعل المناظر فيها كثيرة التغير والتبدل ، من حين لآخر ، غير انها في المنخفضات الرطبة التي تمد بالحياة بعض المزروعات القليلة ، وتحتفظ هذه الاماكن بطابعها الخاص بحيث يمكن التعرف عليها بسهولة والاهتداء الى طرقاتها ومسالكها .

ومع ذلك فان من العسير السير فيها بسبب وجود الكثبان الرملية التي يجب تخطيها أو اجتنابها باللف حولها مما يسبب كثيراً من المصاعب والإرهاق .

هذا وانه لمن اصعب الامور بصفة خاصة السير في اتجـــاه الشرق ، حيث تتكدس الرمال البيضاء وتتكون منها كومات عالية أو جبال صغيرة من الأتربة الدقيقة التي تغوص فيها الأقدام ، واذا ما سار فيهـا الانسان يشعر بالكثير من التعب والآلام .

وكل هذه الساحة الرملية الهائلة ، التي يمتد نصفهـا في الأراضي الجزائرية ، توجد فيها هنا وهناك مسافات مكشوفة تبرز فيها الصخور العارية أو (السرير)

التي كما تبدو شديدة اللمعان ، لمـــا فيها من حصى وشطف ، تجلوها الرمال باستمرار .

وان هذه المسافات العارية من الرمال كثيرة العدد بدرجة لا يتصورها العقل. فهي عادة تشبه سنام الإبل فوق الرمال المتحركة أو السهول العالية التي تسفعها الريـاح .

ولكن توجد هناك فضلاً عن هذه المساحات المكشوفة التي كثيراً مـــا تغير تحركات الرمال مساحات اخرى عارية من الرمال على الدوام .

وهكذا نجد ان (ايدين) تتخللهـــا من الشمال الى الجنوب مساحة طويلة مستوية ، تمتد من وادي (اوهانت) الى وادي (ترت) تعلوهـا نتوءات صلصالية كالجبال في (اكاميل) (جنوبي « اوهانت ») ومثل « اجيله » (في المساحة المتوسطة التي تتكون فيهـــا رؤوس وديان تاج انتورت) ومرتفعات «اكبرانه» (على ضفة تارات الشمالية واوباركات). وفي هذا الشريط المملوء بالحصى يقوم طريق القوافل (غدامس ، اوهانت ، بولينياك) .

وهناك شريط آخر من تلك الشرائط العارية وهو الذي يمتـد في الاراضي الايطالية بين البلح الاحمر وطرف حمادة الجنوبي الشرقي وضفة الشاطىء الشمالية. وهذا الشريط يبدو في حمادة كثير الشبه بحمادة الحمراء ويتخـذ اسماء مختلفة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي يسمى (اغاغه وتيغيفين وقير) .

وبالجملة فانه يتميز باسم أرض بنغاساتن، لأن قبيلة الطوارق الكبيرة تستخدمه كطريق للنقل بين حمادة والشاطىء وغات .

ومن هـذا الشريط الصخري يتضح ان (اغاغه) هي الاكثر وعُورة ، إذ تتخلل السهل هنا وهناك كتل من الصخور تتخذ اشكالا غريبـــة . فهي تارة اكوام او نتوءات او قباب تنحتها الرياح والهواء او تبسطها .

ومن الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي يتخلله وادي (ساكامارن) (مراع

واخشاب دون أي أثر للماء) . وتشقه رؤوس وديان (كاديجا) و(امسيهك) .

وفي جميع هذه المنطقة الصخرية التي تتحول في جهـــة (قير) الى سهل صخري تتكدس كميات كبيرة من الاحجار الجيرية ومستودعات من الجص والصلصال . أما المياه فهي نادرة ولا يمكن العثور عليهـا إلا في المنخفضات التي احتفظت الرطوبة فيها ببعض رمال ثبتتها المزروعات .

أما آبار الميـــاه الرئيسية في (ايدين) فهي : حاسي سواس وحاسي هارهه وفنتاكوفي، وحاسي الجديد المنعزلة في اراضي بنغاستن، السجسار (انسرجان). وفي زاويه، وحاسي ميزيلان . وفي « واو » شيخ وحاسي الفرطاس وحاسي ناهية وحاسي دمبابه وبئر المور وادفانا وتيسان او كيسان (او الحاسي) ، دويسا ، على طول الحد الشمالي الشرقي من ايدين .

وهناك آبار اخرى متناثرة وهي : واو كتـــان (جنوبي دمبابة)أو يوسف وبئر طويل وحاسي انتيكو وحاسي وان دحمان وحاسي وان تجاك وحاسي ان جذراس وحاسي ان ادواي ، حاسي تـــين كارتن ، وحاسي ان اجيول وتيمينو كالين ... الخ .

وتمتد بلدة دوادة بين وادي مكمدة — المتفرع من الجانب الايمن من وادي الشاطىء — وبين وادي الشرقية (و معنى كلمة (دوادة) اكلة الدود) .

ومن مميزات هذه البلدة ان المياه الدائمة توجد باستمرار في بحيراتها الصغيرة التي يشتمل الكثير منها على كميات من النطرون والديدان الصالحة للأكل .

وأهم هذه البحيرات هي : بحيرة المندرة (شمالي وشمال شرقي تكرتيبة) وام الماء (وتشتمل على مياه عذبة دائمة) وتازوفه ، مافو وبحر داود ، تادمكا ، بحر الطرونية .. الخ .

الحفرة .

هذا وان ثالث المنخفصات الكبيرة الموجودة في فزان ، والذي فضلاً عن كونه وادياً من الوديان هو منطقة منخفضة ،كثيرة المروج والاحراش والهاويات تقوم فيها الواحات وتزدهر المزروعات .

ومع هذا فان النواحي الغربية منها بنوع خاص قليـــلة الموارد ، اما في الشرق فان الامر على عكس ذلـــك . اذ ان المنخفض الذي يطلق عليه اسم (الحفرة) غني بالحدائق والبساتين والواحات. على ان المياه التي فيه رغم كثرتها ليست من النوع الجيد، كما ان ارضها الصلبةالتي لا تمتص المياه من شأنها ان تتركز المياه في بعض منخفضاتها وتتكون منها مستنقعات تشتد الحرارة والرطوبة على مقربة منها ،وتكون سبباً في الحميات المعدية التي تصيب الاوروبيين ولا يسلم منها الوطنيون .

وفي شرق ممر (جاليه) على سلسلة جبال (امساك) تبدأ سلسلة المنخفضات واولها منخفض (ارهازارتيسي)، حيث يوجد مرعى من المراعي التي لا بأس بها . على ان المياه تنقصه بسبب كثرة تبخير الشمس لها وبسبب ميل الطبقات الموجودة تحتها ، التي تحول مياه المطر نحو الشرق .

واننا اذا ما تقدمنا نحو الشرق نجد واديين متقابلين وهما وادي ارهازارنيها جمارني (اناناجرني) ووادي هازار امام سميدنه .

أما الهازارنيها جارني فانه هوة تحيط بها الصخور العالية على ارتفاع ٤٠ — ٥٠ متراً ، ارضها حجرية ولكنها غنيـــة بالمزروعات ومع ذلك فان المياه تقل فيها .

واما ارهازار امام سميدنة فانه على العكس من ذلك قاع طيني تغطيه طبقة

رقيقة من الرمال ، وضفافه اقل وعورة ، ومزروعاته غنية بالنباتات الغذائية . كما ان به ثلاث آبار غنية بالمياه العذبة الجيدة والوفيرة .

كما ان وادي تيليبسارهن له اهمية عظمى بالنسبة لحياة البلاد . وهذا الوادي هو منخفض فسيح ذو جدران صخرية خشنة . ويوجد في قاعه عدد كبير من النتوءات البارزة التي يطلق عليها اسم (الفلقة) ومرعى طيب ، اخشاب ، واشجار الطلح . كما يوجد في غربه واد طيني فسيح تجري فيه المياه لمدة ثلاثة أو اربعة اشهر في السنة تقريباً . كما ان قطعان الماشية التي ترعى فيه في اشهر الشتاء تهاجر منه الى الجهة الشرقية في فصل الصيف لكي تجد اماكن للمياه او مرعى خيراً منه .

هذا وتستحق الذكر تلك النقوش العديدة التي تشاهد على صخور « جريز » وهذه النقوش تكشف عن اعمال اوحى بها ذوق سليم ومهارة فنية عظيمة .

وهناك وديان أخرى تستحق الذكر وهي : واديالتمودة (وادي الجمال) ، وهو هاوية بعيدة الغور مشقوق بين جدران صخرية وبه مرعى من احسن المراعي .

وكذلك وادي العوين ، الذي يهبط من الجنوب بعد أن يقطع نحو عشرة كيلو مترات في الرمال ، تجري فيه مياه الامطار بين مجريين صخريين من مجاري السيول يتكون منهما حوض تبلغ مساحته ٣٢ × ١٦ ويصل عمقه من مترين الى خمسة امتار ، من السهل وجود المياه فيه مدة خمسة اشهر او ستة من شهور السنة .

كذلك يوجد هناك واد هام آخر ، وهو وادي « انتللود » وهو واد صخري فسيح ، له انحدار وعر . وتنقصه المياه ، وموارده الوحيدة هي بعض الاعشاب وقليل من الأخشاب . وليس لكل هذه الوديان فتحات أو منافذ . وتمتد حسب اتجاه الانخفاض .

ومع هذا فانه من السهل ان نجد بعض القنوات التي تدل على وجـــود واد وحيد التقت فيه هذه الوديان الصغيرة في الازمنة الغابرة ، ولا بد ان تكون الريح والامطار النادرة والجفاف الشديد قد كونت فيه بعض المجاري والاكوام التي جزأت هذا المنخفض الكبير .

ومن الواضح ان هذه الوديان تستمد مياههـــا من وادي برجوش الذي يمتد الآن في منخفض ضيق غني بالاعشاب والطلح حتى يصير على مقربـة من عيته .

ومن الملائم ان نشير بهـذه المناسبة الى ان ثالث المنخفضات القزانيـــة الكبيرة يختلف عن المنخفضين الآخرين بما يأتي : اننا نجد هذا التجزؤ في الجهة الشرقية اكثر مما نجده في غيرها ، في وادي عتبه ووادي الحفرة ووادي الشرقية (الذي هو استمرار لوادي الحفرة) . وربمـــا كان ذلك ناتجاً من أثر وجود الرمال التي انهالت بسرعة على المنخفض وردمت الاجزاء الاكثر رطوبة وبقيت فيها تحميها الجدران الصخرية العالية . ومما يثبت ذلك الفرض أنـه من الممكن قطع طريق مستمر في ارض هوائية كونتها الرياح او في منخفض من واديعتبه أو من وادي الشرقية حتى ممر (جاله) .

وينتهي وادي « اباراهو » (وهو الاسم الذي يطلق على الجزء الاخير من وادي « برجوش » في شرق (اجامينان) وبعـــد ذلك بقليل يمتد منخفضان طويلان متوازيان من الغرب الى الشرق وهما : وادي انجريم في الشمال ووادي عتبه مع واديnساوة في الجنوب .

وادي انجاريم .

ان وادي انجاريم أو انجارم هو واد ضيق مستطيل طويل يسمى في بدايته باسم وادي (قوداس) ويقطع فيه ٦ كم من الجنوب إلى الشمال ثم ينحني نحو

الشرق ويبقى في ذلك الاتجاه مسافة ٥٠ كم تقريباً .

وتوجد على مقربة من رأسه بئر « صديه » (أي البئر المسدودة ومياهه قليلة ولكنها جيدة) . كما حفرت بعد منتصفه بئران هما بئر الحاج علي – الذي امتلأ بالرمال – وبئر حمران . وقد تعطل عند التقاء واد رزين فرعه الايمن بـه .

وعلى مسافة تقرب من اربعين كيلومتراً شرقي هـذا الاخير توجد بئر بن غراف على ضفة هذا الوادي اليمنى ، ومياهه غزيره ويتجه الوادي بعد ذلك نحو الشرق إلى ان ينتهي في حمادة .

وادي عتبـة .

يمتد منخفض وادي عتبة (يسمى خطأ وادي آجار) ووادي نساوه الذي هو واد ضيق ورملي نحو الشرق حتى دوجال ثم يصير اكثر اتساعاً ، وتنخفض ضفتاه في اتجاهه نحو الشمال الشرقي الى ان يصل الى واحات جودوا او غدوة .

وللجزء المتوسط منه قطاع مغطى بالرمـال المحلولة او بالحصى وهو غير مسكون لأنه واد قحل ويخلو خلواً تاماً من المياه لمدة ستة اشهر من شهور السنة على الاقل . وتساعد طبيعة باطن الارض على ذلك . اذ انها تمتص المياه بسرعة كبيرة الى اعماق بعيدة .

وهذه الحالة السيئة ناشئة عن عـدم وجـود طريق للقوافل في مجرى وادي نساوه تربط بين وادي (عتبه) ووادي (غدوة) .

والأماكن المسكونة في وادي عتبه من الغرب الى الشرق كما يلي : تساوه (تيساوه) ، عتبه او عتبـه بالضم او بالكسر) ، آجار (آجّار) بتشديد الجيم ، تيفادست (اوتاسنيديت) ، تيجروتين او (اوتجروتين) ، مارهادا ، ودوجال .

وادي النشاوه .

يتكون وادي نشاوه الاعلى من التقاء وادي (غدوه) الذي توجـــد فيه واحة غدوة و«بئر نيشاوه » بوادي نيمل (الذي توجد فيـــه بئر قالاديما) ووادى تيشاوه « او تيساوه » الذي توجد في فتحته بئر دله . وهذه الآبار المذكورة فيما سبق تعطي مياهاً طيبة وغزيرة .

وتوجد الى شرق بئر «تيساوه» في نهاية احـد الوديان الصغيرة بئر «الشيباني» (مياه طيبة ولكنها ليست غزيرة).

وفي شمال (غدوه) وسط الرملة توجد بئر (الوشكة) وهي بئر بها مياه طيبة وتكفي حاجة قافلة صغيرة ، وبعد ذلك تستمر الرمال لمسافة قصيرة حتى تصير الارض بعد وادي (جرجيف) الرملي (سريراً) عظيم الاتساع (سرير المعلا) . وبعد تخطي وادي (السوداني) وهو واد يمتلىء قاعه بالحصى والحجارة تصبح الارض قليلة التموج وصخرية حتى البيبان ، وهي منطقة من مناطق الكثبان الرملية تمتد حتى هضبة (ملحاف) على مقربة من قارة « سبها » .

وفي سرير المعلا لا توجد المياه مطلقاً إلا أنه توجد في طرفه بئر - هي بئر الدومران — على طول طريق القوافل بين سبها وتينينا .

حمادة مرزق .

تمتد حمادة مرزق بين وادي الآجال ومنخفض وادي (برجوش) وعتبه ونشاوه وهي هضبة يزيد طولهـا من الشرق إلى الغرب على ٤٠٠ كم ، كما ان عرضها يتراوح بين ٣٠ و ٧٠ كم والجزء الشرقي منها يقطعه وادي (انجاريم)

وهي صخرية ويتكون منها (سرير) . اما في الجهة الغربية فانها على العكس من ذلك تأخذ شكل (حماده) وارضها مستوية وصخريـــة في نهايتها . وهي نادرة المرتفعات وبها عـــدد كبير من المروج والاحراش الصغيرة القليلة المزروعات .

ويتكون طرفا حمادة مرزق الشمالي والغربي من سلسلة جبال « امساك » التي تمتد على شكل قوس عظيم الاتساع لمسافة تزيد على ٢٠٠ كم التي تقسمها إلى قسمين : قسم يقال له «امساك ملت» في الغرب و «امساك ستافت » في الشرق. والقسم الأول وعر واكثر ارتفاعاً ، بينما يتدرج الثـــاني نحو الشرق وينحدر في درجات عظيمة الانخفاض في طريقه نحو الشمال وتوجد فيه اكوام صخريـــة في الجهة الجنوبية . وكل هذه السلسلة وعرة ومرتفعة ، وتصل في بعض جهاتها الى الى ارتفـــاع ٨٥٠ م. وخاصة في « ملت » حيث تجعـــل الهاويات العميقة ومجاري السيول المرور امراً عسيراً. وتتصل امساك في الجهة الجنوبية الشرقية بهضبتين صخريتين في حمادة مرزق تنتشر فوقها بين مسافـــة وأخرى كثبان رملية وبعض المروج الرمليـــة الكثيرة الاعشاب مثل مرج « برساولة » ، تينكوماني ، تيدوا (قليل الميـــاه) ، اباوهه ، تنيس ، ام النقـّي« بئر بها مياه طيبة ونخلتـــان ومرعى جيد ، واستانم ، وتاجينتورن كرادة (قليل من الميـــاه ومرعى طيب واخشاب) . وكلهـــا تصطف على طول طريق القوافل الممتد بين العوين واكروف والوديان فيها قليلة ، اما اشهرها فهي الموجودة في ارامس التيتنتهي في الجهة الجنوبية الشرقيـــة في الرملة ، وهي غنية بالمراعي وحوضهـــا كبير الاتساع وينخفض انخفاضاً بسيطاً في الوادي .

المنخفضات الثانوية .

أما المنخفضات الثانوية فهي وادي تشيوين (مرعى طيب لا مـــاء فيه) ووادي « ارته وند » ثم وادي « رازا » (وادٍ متناهي الصغر غـــني بالمراعي) .

هذا ويمتد غربي امساك من الشمال إلى الجنوب ممر يبلغ طوله حوالي ١٦٠ ك . م ، وعرضه ٤٠ ك . م ، يحده من الغرب مرتفع بارز وجبال « اكاكوس » التي يهبط الانسان منها في الوديان الواسعة التي تؤدي الى (غات) .

وهذا الممر تختلف اشكاله من الجنوب إلى الشمال ، فتشغل الجزء الجنوبي منه هضبة (ندرات) وهي هضبة صخرية قاحلة بها كتل سوداء بارزة وبعض مرتفعات من الاحجار الجيرية ، واما وسطها فهو صحراء (تايت) وهي سهل فسيح من الاحجار الجيرية ،أما الجزء الشمالي فانه على العكس من ذلك عبارة عن منعطفات جبلية من شماله إلى جنوبه تسد بعض الوديان الضيقـة والمنخفضات الخفيفة ذات المراعي الطيبة .

من الشرق الى الغرب يطلق على هـذه المنعطفات « ثنيه ان توكلت » من (وادي امونيمو)و(وثنيه اكارف) و(ثنيه اتافنت اهاد) ، و(ثنيه ترامج) ، (ثنيه ارينانيوبي) .

وتمتد بين ثنيه (اكاراف) و (ثنيه اتافنت) منطقة منخفضة ورملية ، هي رملة الكلمى ، التي تنتهي من الجـــهة الشرقية إلى مرتفعات حجرية تسمى قارة عثمان ، وفيما وراء ثنية اتافنت يوجد وادي تيسالين الفسيح كما توجد وراء ثنية (ارينانوبي) وادي « اوبركات » (وهنا يوجد مرج « تيوراتين » الذي يحتوي على مراع واخشاب ويكاد يكون جافاً على الدوام) .

هذا ويوجد في غرب وادي اوبركات الاوسط مرج سردلس الفسيح الذي يتكون من وادي «اراهوه» ووادي « تساوت » وكلاهما غنيان بالمراعي .

وتوجد في هذا المرج الذي يرتفع خوالي ٧٠٠ متر عن سطح البحر ثلاثة من اماكن المياه الهامة هي العوينات « عينان من عيون المياه الوفيرة ، غابات من البلح ، مراع ، بعض الاكواخ يسكنهـا نحو عشرين نسمة » ، واجرام « مياه قليلة ومراع » وتهيسين « منطقة رملية بهـا مرعى ضئيل ومياه في فصل الشتاء فقط » .

جبال اكاكوس .

تتكون جبال « اكاكوس » من سلسلة من المرتفات القائمة على الحافة الغربية من الهضبة الصحراوية التي تنحدر الى الوديان الغربية كوديان (افاجيلاشن) ، و (أدرينجيلين) و (بيديجيلس) التي تشق صحراء (تايتا) .

وتتخلل هذه السلاسل ممرات تمر فيهـا طرق القوافل المؤدية الى (غات) واهمها اربعة وهي : تين الخرمة (ممر ضيق بين الجبال) وتنسفار (ممر صخري ضيق) ، حاقلاقلن (ممر مريح وموضع مائي مناسب) لانه على مقربة من بئر تليه التي هو مورد صحراء تايتا الوحيد) ، وتاسبولوا وين تولا (واد رملي به مراع قليلة) .

وتبدأ على مسافة قريبة شمالي (تين الخرمة) كثبان (تيسارهرت) .

سكان الحفرة .

تمتد الحفرة الى جنوب وادي فساده بعد تخطي مسافـة قصيرة من الرملة ويقوم إلى شرقها وادي (الشرقية) الذي يتخذ اسم الحفرة الشرقية .

هذا وان القرى والاماكن المسكونة الموجودة في (الحفرة) وفي (الشرقية) هي بلا شك أكثر عدداً من القرى والاماكن الموجودة في المنخفضات الفزانية الاخرى . وذلك بالرغم من وجودها في منطقة غير صحية .

والمدينة الرئيسية هي (مرزق) التي كانت مـــدة طويلة من الزمن عاصمة فزان .

أمـــا الاماكن المسكونة الاخرى في الحفرة فهي : تراغن (المقر القديم لسلاطين كانم السود) ، عين قندرمة (وهي عين غنية قريبة من ضاحية النزلة على مسافة قريبة من تراجن) ، مريزيق وموغاتن وفنقل والبدان والكليب، وبن دليف ومعفن وجبّار والطويلة. .الخ.

هذا ونجد في الشرقيـــة الاماكن الآتية : زويله (شلالة الرومانية) أم سغين « او مشيغين » وحميره ، ام الارانب ، وحريشه ، مابس وتمسه .

والى جنوب زويله تقوم في منخفض « الجدول » كل من « تربو » و « ام الزوير » .. الخ .

الاراضي الواقعة شرقي الحفرة .

هذا وان الاراضي بين « تمسة » و « هاروجي » ما هي إلا صحراء شاسعة مليئة بالحجارة ، يندر وجود المروج ذات الاعشاب فيها . كما يقوم فيها عدد من المرتفعات المتآكلة بفعل الرياح . ويوجـــد بالقرب من شمال « تمسة » مباشرة مرج كبير تعلوه طبقة ملحيـــة وبعد ذلك يبتدىء « سرير » «لمطومية» الكبير الذي هو غابة قاحلة للغاية يقع بعـــده مرج كوفن (به مرعى واخشاب) ، وتوجد بعد ذلك في اتجاه « فقها» منخفضات « ليمسيت » (مرعى ، اخشاب ، وقليل من المياه) . ووادي الهيريه « بئر بها مياه متوسطة ».

هذا وتكثر نحو الجهة الشرقية « القارات » و « القور » وتصبح بسبب ميزاتها نقط الارشاد للمسافرين .

ومع هذا فان الصحراء جدبة الى حد كبير واماكن المياه الوحيدة هي « قرارة منديل » « الجراية » (بئر وغابة نخيل) .

هذا وان ان المنطقة الواقعة بين جبال « هاروجي » والحفرة الشرقية وواحات « واو » منعزلة وفقيرة ، وتتكون من رمال و « سرير » وهناك مكان لا بأس به من اماكن المياه هو بئر « الهيدان » ، وهو ارض جافة في منخفض وادي « رقطة » .

كما ان هناك منطقة رعي لا بأس بها هي منطقة قرارة مونجير وهي تقع على مسافة قصيرة جنوبي اطراف جبال هاروجي البيضاء .

هذا ونلاحظ ايضاً ان الارض بين «الشرقية» و « واو الكتيب » متموجة ومتكسرة .

وتوجد في شرق « تربو » حطية ام الادم « مرعى ومياه قليلة » التي تتسع . وترتفع الصحراء بعدها وتأخذ شكل سهل وعر صخري تقوم فوقه مرتفعات اشبه بتلال « قرارة اللا » الواقعة في الجهة الشمالية الغربية ، قرارة الطريق الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية ، وجبل المزو في الجهة الشمالية الشرقية ومرتفعات جبل بن جنيمي الصخرية في الجنوب .

وان هذه الهضبة التي تتخذ شكل مربع غير منتظم يشقها منخفض عريض ، هو « وادي زنيمة » الذي يمتد الى الجهة الجنوبية في منخفض وادي بن غنيمي « بئر ومرعى » . وهذان الواديان يقسمان هذا السهل الى قسمين : قرارة اللا وقرارة الطريق من جهة وجبل المزو وجبل بن جنيمي من الجانب الآخر .

وتلتقي بوادي زنيمة وديان صغيرة كوادي جمال ، ووادي الهنه ووادي الرملة ، وكلها آتية من الشرق ، ويعبر وادي الحنـــة طريق القوافل المؤدي الى واو .

ويتجه جبل جنيمي نحو الشرق وينحدر انحداراً رأسياً يقـــوم في آخره مرتفع حجري ، هو حطية الحمراء ، الصغيرة الرملية « مراعٍ قليـــلة » . ثم ينخفض جهة الشمال انخفاضاً بسيطاً لكي يعود إلى الارتفاع في جبل « كوسا » « به كهوف عديدة » .

هذا ويوجد على مسافة بعيدة نحو الشرق وادي « زويلة » (مرعى جيد) ، ثم سهل صخري يتصل حتى واو الكبير .

وبين هذه الواحة الاخيرة واحة « واو الناموس » تصبح الصحراء متشابهة ، صخرية ، قاحلة وليس فيها منخفضات ولا مرتفعات تستحق الذكـر .

طرف فزان الجنوبي الأقصى .

تمتد الى جنوب وادي برجوش منطقة عظيمة الاتساع ، يبلغ طولها حوالي ٤٠ ك . م وعرضها مثل هذه المسافة ، وهي منعزلة تمام الانعزال وقاحلة مقفرة. وكلها مغطاة بالرمال في الجزءين الشمالي والأوسط منها ، ثم تتحول في الجنوب الى « سرير » يرتفع تدريجياً حتى يصل الى طرف جبــال « تومو » الصخرية . ويوجد في كل هذه المنطقة الشاسعة مكان واحد للمياه هو « اناس » وهو الذي تعتمد عليه القوافل التي تقوم من الحمراء الى السودان الغربي والتي تسير في طريق « الجرامانتين » القدماء .

وجهة اناي هذه هي مكان منعزل تماماً كأنه صخرة وسط بحر من الرمال والسراير . وتقوم على حـــدود ايدين ، على مسافة تقرب من ٢٥٠ ك . م من

مرزق ، وعلى مسافة ٣٠٠ ك . م من غات و ١٣٠ ك.م من مدروسة و ١٤٠ ك . م من بئر الحمادة « هي مكان جيد للمياه » في شمال جبل تومو . ويتصل بطريق القوافل عند واحة « ابرج موج » التي تقوم في وسط مساحة رملية في الجنوب . والارض عند شرق هذه المنطقة الصحراوية تزداد تموجاً ويتغير شكلها باستمرار .

ففي وسط الحفرة بعد تخطي بعض الكثبان الرملية توجد مسافة صغيرة من ارض مستوية يطلق عليها اسم « الحد » « مكان تقام فيه المخيمات » ، وتبدو سلسلة من التلال المنخفضة ، جبل النصف الذي تتجه اطرافه نحو الشرق « جبل مستوته » ويمتد نحو الجنوب الغربي في سلسلة من المرتفعات والمنخفضات التي تتجمع حول كتلة صماء عارية أكثر ارتفاعاً تسمى « جرد الكبير »

ويوجد على سفح جبل (مستوته) مرج صغير مملوء بالاعشاب وحطية مستوته التي تقوم على مقربة منها قلعة متهدمة .

وإلى الجنوب الغربي من هذه المرتفعات تصبح الارض سريراً قاحلاً يمتد حتى منخفض وادي « ايكيمه » .

وهذا الوادي هو منخفض يستوي في آخره وتعلوه الرمال . ويسير من الشمال والشمال الشرقي الى الجنوب والجنوب الغربي ، ويزيد طوله أكثر من ١٢٠ ك . م كما يتراوح عرضه بين ٣ و ٩ كيلومترات .

أما الاماكن المسكونة في هذا المنخفض فهي :

القطرون – البكيّ – مدروسة – تجرهي ، أو تجري – ويشرف عليها رأس تجرهي . والماء في كل هذا المنخفض وفير ، وذلك لعدم امتصاص باطن الارض للمياه ونظراً لوضع الطبقات الصخرية الذي يكاد يكون افقياً .

وفي جنوب رأس « تجرهي » بعد بئر « أوماه » « بئر جيدة » ، ترتفع الارض

ويتكون منها سهل صخري صلب « الحاد » تستريح فيه القوافل المتجهة الى « تومو » وبعد تخطي واد فسيح صخري وسهل من الاراضي المرتفعة « سرير » يصل الانسان الى هضبة صحراوية تسمى (دندال جالاديما) يوجد في جنوبها بئر « مكرو » كثيراً ما تمتلىء بالرمال . وقد اشتهرت بوجود عدد كبير من العظام البشرية فيها التي هي بقايا هياكل جثث العبيد الذين يؤتى بهم من السودان الى فزان . وتصبح الارض مائجة جنوبي مكرو«بيبان مكرو».ثم ترتفع في تدرجات صخرية « تنية الكبيرة » ، ويتكون منها سرير كبير يتخلله منخفضان متخربان ثم تتخطى بعد ذلك منعطف « تنية الصغيرة » الذي ترتفع فوقه مرتفعات جبل يمن وجبل « الابرو ». ثم ترتفع مرة ثانية لتتكون منها هضبة « الوطاكيو» التي هي الطرف الشمالي من جبال « تومو » . ثم تمتد الى الجنوب سلسلة « تومو » التي يتخللها ممر « ارنيمو » عند رأس وادي « اوليفوس » وتوجد على مقربة من هذه الجهة وسط مرج كبير غني بالمراعي تومو وواحة صغيرة بها بئر طيبة . والى الشرق من شريط الارض الذي سبق وصفه تصبح الارض مائجة متغيرة .

وتوجد في الشمال الشرقي (لأم الادم) شبكة الجرات الصخرية، ونحو الجنوب يمتد سهل (مرابيشا التيدا) الصحراوي (الواقع غربي وادي ايكيما شرقي بئر عبو، وجنوبي بن غنيمي) .

هذا وتقوم جنوبي جبل (بن غنيمي) مرتفعات جبل (دباسة) الجيرية الطينية التي يوجد في طرفها الشمالي الشرقي منخفض «دباسة دوبا » (مرعى) الذي يمتد على انحداراته الشرقية مكان نخيات « الويج الكبيرة » (اخشاب ، مرعى ضئيل ، وشجر الطلح) وتقوم ايضاً نحو الجنوب مرتفعات (الوعير الصغير) المنعزلة غرباً و (الوعيرالكبير) شرقاً وكلا الاثنين نقطتان هامتان لإرشاد المسافرين لأن من الممكن رؤيتها من مسافة بعيدة .

ولا توجد في هذه الجهة اماكن للمياه ولا يوجد في المروج العديدة سوى قليل

من المراعي والاخشاب ، على انه يوجد القليل من الميـــاه في منخفض « ايمي ماديا » وفي « توجامادوا » .

وتقوم شرقي «مورابيديا التدة» فضلاً عن مرج «بيرابوعبو» (مياه وفيرة ، مراعٍ ، مخيمات) صخور كبيرة سوداء و « بئر الاسود » ذات الاهمية الكبيرة التي تعتمد عليها المواصلات بين وادي ايخيمه وواحات واو والتيبستي .

منطقة غات .

تتدرج « تيسيلي أن ازجر » نحو الشمال في هضبة « تا كاهات » التي تترامى اطرافها حتى « البيلج الاحمر » وهي منطقة صخرية مغطاة بالرمال .

وهذه المنطقة الواقعة بين « جبرتان » و « تارس اولى » و « تارات » يحدها من الغرب وادي « تارات » شمالي منخفض « تيومبا كا » ومن الجهة الجنوبية الغربية وادي « تيتاقيسين » .

وتتصل بهذا الوادي الاخير وبوادي تارات عدة فروع تغوص في الارض على عمق كبير ، وتتكون منها هوات ، وبئر وانخفاضات تخلع على هذه الارض منظراً خشناً .

ويوجد في هذه الوديان الصغيرة كلها تقريباً قليلٌ من المراعي ، على ان هذه المنطقة هي منطقة مرور ليس إلا ، وليست مكاناً للبدو ، لأن مراعي « تيسيلي » افضل منها بكثير لأن المياه في تيسيلي غزيرة للغاية .

اما اماكن المياه الاكثر اهميـــة فهي « تاشيوميت » و « اسوان نخلة » و « إن أزان » (فرع وادي تيتاقسين) ، و « تارس ويلي » على مقربة من وادي تالوت . وفي الجنوب الغربي من وادي «امارهيديت » .

وتنخفض « تاسيلي » نحو الشرق وتتحول الى وديان واسعة ، مثل وديان «وراراريت » و « تانيسوفت » و « ايسين » التي تلتقي في أراض يقوم فيها واحة « غات » .

اما وادي « اسين » ووادي «تانيسوت » (الذي يتخذ في جزئه الجنوبي اسم وادي« ايجيفينيس »)فيتكون منهما ما يشبه شريطاً مستوياً كثير الرمال، تحده من الشرق سلسلة جبال اكاكوس الوعرة، وتقوم عليه مرتفعات منعزلة مثل جبل « أول » وجبل « إيدنين » وكلاهما يتكونان من صخور بركانية ، ومثل جبل « الوس » الذي يشرف على الوادي ، وجبـــل « كوشيان » الذي يشرف على الاماكن المسكونة .

واما جبل « ايدنين » الذي يبلغ ارتفاعه ما يقرب من ٧٠٠ متر فيسمى باللغة العربية « قصر الجنون » (الجن) لان الوطنيـــين يعتقدون أنه تسكنه الجن الشريرة . فيتخذ شكل الهلال ، ويتجه انخفاضه نحو الجنوب ، ويبدو شكله وعراً وصعب المرتقى ، بسبب وجود الهاويات والبئر .

وأما « اكاكوس » فهي جـــدار صلب وعر من اصعب الامور عبوره والمرور فيه .

وكانت تقوم في هذه الاراضي ايام الرومان دي رابسا ، وهو محطة حربية ، اقيمت لمراقبة الوديان المؤدية الى الصحراء .

ويبدو ان اصل غات لا يرجع إلى « رابسا » هذه . إذ لا بد ان تكون غات قد انشئت بعد ذلك بزمن طويل ، على أثر الصلح الذي قام بين قبيلتي ازجر . وضواحي مدينة غات جرداء ورملية ومجدبة ، على انه تقوم فيها مناطق مائية تزدهر فيها المزروعات .

ومع هذا فيمكن القول بأن ثرواتها الرئيسية تأتيها من النخيل التي يوجد منها نحو خمسين نوعاً .

وتقوم على مقربة من (غات) واحات (تونين) و (تادرامانت) كما توجد في الجهة الشرقية منها واحة « فيوات » الجميلة . وفي الجهة الغربية واحة (البركات) .

ويوجد جنوب واحة البركات منخفض يطلق عليه اسم (كرامة ، توجد بعده بئر (إيسِّين) ثم بعد ذلك يمتد واد فسيح غني بالمراعي وشجر الاثل . والى الجنوب بعد اطلال القلعة التي من المحتمل ان يكون قد شيدها (تين الكوم) يمكن الوصول الى صعيد هو آخر درجة من درجات (ناسيلي) يتكون من صخور حمراء باهتة اللون تتخلله كتل من الطين الاخضر .

هذا ويوجد على مقربة من (تاسيلي) واد جميل يطلق عليه اسم (ارهازار إن كارو) (او أهيرو) . توجد فيه بين الصخور خزانات لتخزين مياه الامطار .

معلومات تاريخية .

لا شك ان اول اخبار عرفها الناس عن (فزان) هي تلك الاخبار التي رواها المؤرخ الشهير (هيرودوت) (القرن الخامس قبل الميلاد) وقد علمنا منها ان تلك الاراضي كانت تشتمل ايضاً في ذلك الوقت على مناطق خصبة غنية بالنخيل .

ولقد كانت هذه الاراضي نفسها يسكنها (الجارامانتيون) وهم شعب كانت تحكمه حكومة مستقلة ، تتألف من الرجال الابطال الاقوياء الشكيمة ، يرجع اصلهم الى الجنس الاسود ، واختلطوا بعد ذلك بالعناصر الشمالية .

وقد احتل الرومان فزان في سنة ١٩ قبل الميلاد على يدي (لوشيوكورنيليو بالبو الصغير) واحتفظوا بوضع ايديهم عليها حتى القرن الخامس بعد الميلاد .

ولقد كانت عاصمة فزان في ايام الرومان هي مدينة (جاراما) التي

يطلق عليها اليوم اسم (جيرما) وهي واقعة في الوادي الغربي .

ولم يستطع (الفاندال) ولا (البيزنطيون) بسط سيطرتهم على هـــذه المنطقة ، إذ ان فزان بعد ان تركها الرومان ، عادت الى استقلالها . وقد حكمها في أول الامر ملوك وطنيون ، ثم حكمتها في القرون العاشر والحـــادي عشر والثاني عشر أسر بربرية من بني الخطاب التابعين الى قبـــائل (اوريغة) التي تسمى ايضاً باسم (هوارة) .

وقد أطـــل العرب على فزان في المرة الاولى في القرن السابع وكان يقودهم (عقبة بن نافع) مبعوث (عمرو بن العاص) الذي كان قد فتح مصر قبل ذلك بقليل .

ولقد قام العرب في القرون التالية ببعض فتوحات في هذا الاقليم ، ولكن كان ذلك من قبيل الاغارة .

واثناء القرن الحادي عشر استطاع السيطرة عليهـا ملوك (كانم) وهم من الجنس الأسود ، ووضعوا ايديهم عليها مـــدة قرن من الزمان تقريبـاً ، حتى اللحظة التي قام فيها العرب بفتحهم النهائي .

وقد حدث ذلك في القرن الثاني عشر بواسطة عرب (دباب) من بطون(لبني سليم) وحوالي سنة ١٣٠٠ دخلهـا الشريف (منتصر بن محمد) من قبيلة اولاد محمد ، وهو من أصل مراكشي .

ولقد بقيت فزان مستقلة تحكمها سلالة المنتصر لمدة خمسة قرون حتى سنة ١٨١١ وهي السنة التي قـــام فيها (يوسف القارامانلي) بإرسال محمد المكني للاستيلاء عليها (وكانت اسرة القارامانلي هذا قد حلت محل الحكومة التركية في طرابلس الغرب منذ سنة ١٧١٤) .

وسرعان ما اصبح هذا بعد احتلاله للإقليم مستقلاً بحكمها وارهـــق اهلها بكل نوع من انواع الإرهاق .

وقد قام في وجهه عبد الجليل زعيم قبيلة « اولاد سليمان » الذي استطاع طرده من البلاد والحلول محله في حكمها .

وفي سنة ١٨٤٠ ارسلت الحكومة العثمانية التي كانت قد عادت في هذه الاثناء الى حكم طرابلس – حملة عسكرية قوية استطاعت الاستيلاء على الاقليم ، بعد ان هزمت (عبد الجليل) وقتلته في مكان قريب من (بئر البغلة) .

هذا وان الاحداث المتتابعة التي وقعت في هذا الاقليم ليست معروفة بأكملها . اذ احتفظت تركيا بوضع يدها على (فزان) حتى ابرام معاهدة صلح (لوزان) في (١٨ اكتوبر ١٩١٢) .

وبعد ذلك الصلح وبعد التغلب على المقاومة الاخيرة التي ابداها ضدنا في الجبل (سليمان الباروني) استطاع اللفتننانت كولونيل مياني ، بعد معارك الشب واسكده ومحروقه (٢٣ ديسمبر) الموفقة ، بسط سيطرتنا وسلطاننا على هذا الاقليم .

ومن المعلوم ايضاً اننا في سنة ١٩١٤ قد تركنا فزان وتخلينا عنه بسبب الموقف الاوروبي المتحرج .

وهكذا وقعت فزان بين يدي الزعماء السنوسيين الذين كانوا في تلك الاثناء قد تولوا الهيمنة على الحركة الثورية اضراراً بنا .

على ان حكمهم استمر وقتاً يسيراً . اذ ان تركيا بعد ان حالفت المانيا في اواخر سنة ١٩١٤ عادت من جديد الى فزان وارسلت اليها الصاغ « صاحب بك » الذي استطاع الاستيلاء عليها دون ان يلاقي اية مشقة ، وقد ساعدته الظروف السعيدة على ذلك وقد هزم الزعماء السنوسيين وطردهم منها .

وفي آخر الحرب الاوروبية بعد ان عادت الدول الى السلام، اضطرت تركيا الى استدعاء جنودها من طرابلس الغرب .

وهكذا سافر من « فزان » « صاحب بك » وبقي الاقليم بطبيعة الحال في يدي سكرتير هذا الاخير « خليفة زاوية » . ولكن في هذه اللحظة بالذات سرعان ما ظهر المعارضون له ، واستطاع خليفة في مبدأ الامر ضرب خصومه ، عبد الجليل سيف النصر وعبد النبي بو الخير .

ومع هذا فقد تمت هزيمته بعدئذ في « زويلينة » ووجـــد نفسه مضطراً للبحث عن ملجأ له في مدينة « مرزق » . وبعد ان حوصر في هـذه المدينة اضطر إلى التسليم بسبب نقص المؤن .

ولما سقطت المدينة استطاع خليفة بجهد النجاة بنفسه والهرب من الموت الذي كان قد حكم عليه به . وبعد مخاطر كثيرة ومغامرات شاقة استطاع تقديم نفسه في « غريان » في آخر سنة ١٩٢٦ إلى الجنرال « جرازياني » قائد القوات الايطالية فيها ، الذي كان قد اتصل معه منذ ١٩٢٤ بالمراسلات الكتابية .

هكذا بقيت « فزان » تحت سلطة اثنين من اعظم زعماء الثوار ، عبدالجليل سيف النصر ، وعبد النبي بو الخير ، اللذين يقومان مع الزعمـــاء الآخرين الاقل شأناً بالسطو على مكان الحضر الذين فضل جانب منهم «مقارحة » و « عثمان والحساونة» ترك المنطقة والالتجـــاء إلى خطوطنا ، في انتظار قيام الحكومة بإعادة احتلال الاقليم .

السكان .

ان سكان فزان الذين يزيد عددهم على ١١٠٠٠٠ نسمة تقريباً يتألفون من عناصر عربية يرجع أصلها إلى « سليم » ومن عناصر بربرية منحدرة من قدمـاء « الجرامانتيين » الذين اندمجوا قليلاً أو كثيراً بالعرب أو اختلطوا بعناصر اخرى من العناصر التي استقرت في الاقليم . واغلب الاولين من البدو الرحل ويستقرون على طول الشاطىء .

ويتخذون لأنفسهم اسم« عربان » لتمييز انفسهم عن الثانين ، الذين يتحدون اسم « اهالي » ولهـــم عادات مستقرة ، وينتشرون في كل جزء من اجزاء الاقلـيم .

هذا ويعيش في فزان كثيرون من السودانيين « التيبو » والطوارق ومختلف السلالات التي اختلطت بهذه العناصر .

والعربان هم الطبقة المسيطرة ، وأما الاهالي فهم المحكومون إذ اصبحوا لا حول لهم ولا قوة بسبب اخضاعهم الذي استمر زمناً طويلاً .

والعرب كما قلنا ينحدرون من « سليم » أو على وجه التحديد من فرع بني « زغب » وتمثلهم العشائر الآتية : المقارحة والحساونة ، وعثمان ، والقوائدة .

وأمـــا مقر « المقارحة » الرئيسي فهو « براك » والاماكن الاخرى التي يقيمون فيها هي : الزاوية ، قيرة ، زليواز ، اجار ، المحروقة ، الزيغن .

أما العشائر الاخرى الاقل شأناً فتنقسم بين المراكز التاليـــة الواقعة على الشاطىء تماده ، تمساوه ، تاروت ، الغورة ، وينزيرك ، ادري .

أما الطوارق فانهم تابعون لفرع « صنهاجة » البربري ويمكن الاعتقاد بانهم انقى سلالة من سلالات « الجرامانتيين » أما المقيمون منهم في اراضينا فانهـم تابعون لفرع « ازجر » .

وكلمة « طوارق » ومفردها « طارقي » من اصل عربي ويبدو انها تشير إلى مقاومة اعتناق الدين الاسلامي ، وهم يسمون انفسهم باسم « ايموعاج » ولغتهم هي لغة « تميعات » .

وينقسم «طوارق ازجر » إلى خمس جماعات :الايمانان، اراغن، ايمنغازاتن، ايفوجاس ، هاداناراني .

ويبلغ عددهم جميعاً نحو ٩٠٠ أسرة يقرب عدد افرادها من ٤٠٠٠ شخص

منهم ألفان فقط يعيشون في اراضينا وهم : اراغن الذين يسكنون اراضي غات و « ايمانغازاتن » الذين يتنقلون في الشاطىء الغربي وفي منطقة « اوباري » .

أما فيما يختص بالقبائل والعناصر الاخرى التي تتوجه في فترات معينة إلى فزان ، فيمكن القول بأن القبائل تابعة إلى الجنس الحامي . وهم يسكنون عادة في منطقة « بوركو » ومنطقة « تيبستي » ولا ينتقلون إلى فزان إلا بقصد التجـارة .

ثم ان بدو « سرت » الرحّل الذين يظهرون في فزان في فترات معينة هم : اولاد سليمان واتباعهم المنحدرون من الغزاة العرب الاوائل « بني سليم » ويعتبر هؤلاء الناس انفسهم للآن سادة هذا الاقليم . وبهذا الوصف يأخذون منه بالقوة كل ما يمكنهم أخذه .

وكذلك الحال فيما يتعلق ببدو منطقة القبائل «اولاد بوسيف» و«المشاشي» و«الزنتان » فانهم يتوجهون إلى فزان في فترات معينـــة للحصول على البلح وللاتجار في الماشية .

خاتمة

توجهت انتقادات كثيرة الى احتلال « فزان » الذي قـــام به الكولونيل ميانى في سنة ١٩١٤ ، ولكن من السهل الانتقـــاد دائماً وذلك عندما تبوء بالفشل العمليات التي تتم من خـــلال عوامل عسكرية تبدو في اول الأمر مناسبة .

فقد جرى العرف في الحروب القديمة والحديثة على توجيه التنديد واللوم الى شخص واحد حتى ولو كان الخطـــأ صادراً عن اشخاص كثيرين كما يقول المثل اللاتيني .

وهذا ما حدث بالنسبة للبطـــل الكولونيل « مياني » الذي كان حائزاً لأعظم الفضائل وأكمل صفـــات القواد والذي يجب الحكم عليه باتزان ورويـــة .

فمن وجهة النظر الحربية يمكن اعتبار نزولنـــا لأول مرة في فزان انموذجاً للحملات العسكرية الاستعمارية البعيدة المدى ، وذلك لما كان يتمتع به الألاي العامل من التنظيم الكامل في اعداده ، ونظراً للانتصارات العسكريـــة التي تم احرازها في « اسكدة » و« المحروقة » على قوات متعادلة في عددها مـــع قوتنا — الأمر الذي خلع طابعاً عسكرياً حاسماً على ذلك القتال الذي تم القيام

به وانتهى في صالحنا ودل دلالة واضحة على مهارة القائد وبسالة الضباط والجنود .

على ان الامر الذي يمكن انتقاده من الوجهة الاستراتيجية هو انه كانت هناك عشائر « منطقة القبائل » شرقاً « وعشائر صحراء «سرت» غرباً بأسلحتها على طول جانبي خط المرحلة . وقد اهملها هـو ولم يعمل لها حساباً ، كما انه لم يعرف الموقف السياسي ولم يقدره حق قدره .

لذلك كان من الممكن ملاحظة ان أي ظرف عرضي قـد يكون سبباً في ازمة خطيرة بسبب بقاء ذلك الموقف السياسي الضعيف .

وفضلاً عن ذلك فان تلك السياسة العامـة التي كانت لا تزال غير ثابتة او مستقرة في كل مكان ، لم يكن من شأنها ان تجعلنا مطمئنين الى أي نفوذ حازم.

وكانت السياسة قد اصيبت بذبذبـة كبيرة واثارت في مختلف الرؤساء المضاربين كثيراً من الاطماع لكي تكون لهم ثقة في الاحتفاظ بالموقف السياسي في الجنوب .

وفضلاً عن هذا فاننا قد اهملنا مبدأ اساسياً في السياسة الوطنيـة ، وهو الاستمرار في التظاهر بالقوة الفعلية لعـدم الاضطرار الى استعمالها وللحصول دائماً على التفوق في كل ظرف من الظروف .

واذا كان ألاي (مياني) الذي تبلغ قوته ١٢٠٠ بندقية كافيـاً بحالته هذه لضرب الخصم في ميـدان المعركة ، فإنه لم يكن كافياً للاحتفاظ بالهيبة والسيطرة في اقليم ممتد الاطراف بهذا القدر .

هذا ولقد تمت تجزئة هذه القوة القليلة وتقسيمها الى عـدة حاميات على مسافات بعيدة دون وجود وسائل الاتصال السريعة ، وقد وجد القواد انفسهم فيها في حالة تسلح اضعف من حالة الوطنيين المحليين .

ولم يبق في يد رئيسها عنصر متحرك قوي يسمح له بالقيـام بأي هجوم

حاسم تقضي به الضرورة ويفرض الخضوع والاستسلام على الثوار وللاحتفاظ بهيبته عالية مؤكدة .

وفي الحق انه لم يكن من الممكن فرض الاستسلام والاحتفـاظ بالهيبة إلا بالتفوق في القوات تفوقاً مطلقاً لا شك فيـه ، سواء لاستعمالها او للتهديد بها .

وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هـذه الضرورة نفسها هي التي ارشدت فرق « بالبو » الرومانية التي سارت من غدامس على رأس ٢٥٠٠٠ رجـل للاستيلاء على « فزانية » لأنه من الممكن ان نفترض منطقياً ان « الجرامانتيين » رغماً من كونهم من المحاربين الاشداء لم يكن في مقدورهم ان يضعوا في ميدان المعركة مثل هذا العدد من المقاتلين .

ومن المناسب اذن أن نعترف بأنـه كان هناك في حملة « فزان » الاولى نقص كبير في الاستعدادات في كل ناحية ، وخاصة في الناحيـة السياسية والحربية .

فقد فاتنا انه في مسائل الغزو الاستعماري يتمثل الاحتلال العسكري في تنظيم الزحف اكثر مما يتمثل في العمليات الحربية البسيطة .

ويشمل التنظيم على وجـه التحديد كل تلك العناصر ذات الصفة العسكرية السياسية المدنية والادارية والاقتصادية التي رأيناها تسير جنباً الى جنب مدى تلك الاعوام الثمانية التي مضت منذ نهضة طرابلس الغرب حتى اعادة احتلالها ، والتي كانت بدلاً من ذلك في سنة ١٩١٤ في حالة البداية بالنسبة لقوة جميـع العناصر غير المأمونة وغير المخلصة ، التي كانت ترافق غزونا لليبيا .

لذلك كانت هناك عجلة ، وللمرة الاولى في التاريخ الاستعماري في العالم القديم والحديث شوهد مثل هذا التوسع العجيب إلى أوسع مدى إذا صح أن هـذا التوسع قد تم بالفعل .

ولندع جانباً الماضي البعيد ولنقتصر على إلقاء نظرة على الحملات الاستعمارية التي تمت في العصر الحديث ولنتأمل ذلك العمـــل التدريجي الذي تم في سبيل الاستيلاء والسيطرة على الجزائر من جانب الفرنسيين، وذلك العمل الآخر الذي يتم الآن بالنسبة لمراكش ، ولسوف نقتنع بانـه ليس من الممكن التغلب على بعض العوامل المعينة بدون ان يكون الوقت قد بدد العناصر التي تكونت فيه واعد العدة بكل قوة للتغلب عليها .

ومع هذا فليس ثمة شك في أن نشوب الحرب العالميـة وما تلاها من الدعاية التركيـة والالمانية قـــد ساعد الثورة الطرابلسية التي ألقت بالشعلة الاولى من نيرانها على فزان في نهاية سنة ١٩١٤ وأدت الى تخلينـا عن البلاد وتركها حتى الساحـل .

على ان هذا السبب الثانوي يمكن ان يكون في رأيي تبريراً للأخطاء التي تم ارتكابها ، بل هو على العكس من ذلك دليل دامغ على فداحتها .

لأننا لو كنا قد وقفنا ثابتين في بداية الحرب العالمية في خط « الجبل » لكان في مقدورنا الاحتفاظ بهذا الخط، ولكان في وسعنا ان نتجنب كل تلك المواقف المؤلمة وذلك الإذلال والتحقير وخيبة الامل التي تلت الجلاء عن « فزان » وما اعقب ذلك من كارثة « قصر بوهادي » .

ومن المناسب ان نذكر ونفكر على الطريقة الفاشستية .

فان صاحب السعادة الماريشال« بادوليو » ما إنْ تولى منصبه كحاكم في ليبيا حتى اشار إلى الهـــدف البعيد بكلمات قليلة جازمة باسلوبه المعتاد بوصفه زعيماً كبيراً .

ولقد استعددنا للوصول الى هذا الهـــدف بعد عشرين سنة من احتلالنا الاول للبلاد .

وبعد ثمانية اعوام سرنا اثناءها على هدي سياسة استعمارية فاشستية ثابتة ومستقيمة —لا تغيير في برامجها واسلوبها، ولكن كانت تطبق مبادئها الاساسية بطريقة جدية ، وبذلك استعدنا هيبتنا بوصفنا امة من الامم الكبرى المنتصرة في الحرب العالمية ، ورفعناها إلى ذلك المستوى الذي يعتبر أساساً جوهرياً لأي عمل من اعمال السيطرة والفتح فيما وراء البحار .

ولقد قمنا بشن الحرب في كل مكان كان لا بد من شنها فيه وانتصرنا دائماً على العدو وأبقيناه تدريجياً في ملاجئه الاخيرة في الاراضي الجنوبية في حالة هزيمة وشقاء ومذلة .

لقد أخضعنا كبرياء الزعماء – بإيقاع الهزيمة بهم في ميدان القتال ، وفي كل مكان حملوا فيه السلاح – وقد طهرنا العمل السياسي من المضاربات والدسائس .

ولقد قمنا بتنظيم الاراضي التي احتللناها حديثاً تنظيماً عسكرياً على أكمل الوجوه ، كما قمنا بنزع السلاح من ايدي الاهالي واستولينا منهم منذ سنة ١٩٢٢ حتى الان على ما يقرب من ٤٠٠٠٠ بندقية ، كما اوجدنا الادارات المدنية وشجعنا جميع الاعمال الانشائية والمنشآت الاقتصادية التي بدأ المواطنون بفضلها في العمل والازدهار والنجاح ، وقد محونا كل طريقة من طرق الضعف وطبقنا بدلاً منها قواعد العدالة بمنتهى الدقة مع احترام التقاليد المحلية وخاصة الدينية منها .

ولقد اكملنا جهازنا الحربي العجيب وبلغنا به اعلى الدرجات ، ويعيش الان في ظلاله الليبيون الوطنيون ويخلصون له كل الاخلاص ، كما محونا اخطاء الماضي ، وعملنا على تأمين جوانب خطوط عملياتنا وظهرها في المستقبل تأميناً مطلقاً ، كما اعددنا قواداً استعماريين من خيرة القواد .

وبالاختصار اكملنا اجهزتنا وتنظيماتنا التي تسير الى الامام في ثقة وعزم نحو الاهداف الاخيرة التي خطها لنا القـــدر والتاريخ والمعاهدات على هدي شعارات روما القديمة التي تركت في كل مكان آثاراً لا تمحى، وعلى سنن ابطالنا الذين لا يزالون ينتظرون الثأر لهم .

ولذلك فنحن نسير قدماً دون مبالغة في التفاؤل ، ودون أي تشاؤم ضار ، وبمعرفة حقيقية ونظرات ثاقبة للمصاعب التي لا يزال من واجبنا التغلب عليها وتذليلها في طريق تصفية الثورة الطرابلسية والمضي بحدودنا الجنوبية الى المكان الذي كان يجب ان تكون فيه شرعاً ، ونحن ثابتون في هـــذا العزم الذي لا يتزعزع وفي سبيل عظمة روما ومجدها .

حاشية

البربر وصراعهم

يعيش البربر على سواحل افريقية الشمالية ، وعلى الجبـــال وفي الصحارى الخلفية ، من برقة الى ابعد الحــدود المراكشية . كما ان لغتهم وعاداتهم وازياءهم وتقاليدهم وكذلك انفصالهم الديني الذي يجعلهم يختلفون اختلافاً كلياً عن بقية المسلمين ، كل اولئك يظهر قدرتهم الخارقة على المقاومة .

وان اشراك البربري مع العربي في ثقافة استعمارية سريعة وغير كاملة ، كما ان ادماج هذا الجنس المستقل مع الغزاة العرب الذين لم يكن في مقدورهم قط أن يدمجوهم ادماجاً تاماً أو على الأقل في تغيير صفاتهم كان ذلك مصدراً للخطـــأ الذي وقعت فيه كل الامم الاوروبية التي تم اتصالها به .

لذلك فإننـــا اذا عدنا الى الحديث باختصار عن اصول الشعب البربري وتطوراته ونشاطه عبر التاريخ ، ومميزاته ، سواء في الحياة المدنية او الدينية ، يكون من المناسب ان ندرك الاحداث الاخيرة التي تمت في عهدنا والتي كنا على اتصال بها .

وبالرغم من ان الحشود الكبيرة من البربر تسكن في مراكش حيث يتكلم اكثر من نصف السكان المسلمين لغتهم ، فان فرقتين قويتـــين منهم توجد في

الجزائر في «منطقة القبائل الكبرى وفي اوراس». هذا وقد احتفظت تونس ببعض الجماعات الصغيرة من البربر في جزيرة «جربة» على مسافة من هضبة «مطماطه» وفي بعض اماكن اخرى أقل اهمية .

ولذلك فانه فيما يتعلق بمستعمرتنا الليبية يسكن البربر على الساحل الغربي في منطقة عاصمتها (زواره) وفي جبل (نفوسة) الذي يضم اراضي (نالوت) و (فساطو ويفرن) وواحة (سوكنه) و (غدامس) و (غات) مع قبائل الطوارق المجزأة وبعض القبائل الاخرى التي استقرت في فزان .

واما في برقة حيث وصل الفتح العربي في عنفوانه وشدته ، فان البربر لم يبقوا الا في واحة « اوجله » على طريق القوافل الذى يصل من بنغازي الى واحة كفرة ، وفي واحة سيوه المصرية ، وهي مدينة آمون القديمة .

هذا ويقدم الينا المؤرخون بالاجماع البربر بمميزاتهم الخاصة . كبدو رحل او نصف رحل أو حضر .

ولقد اشتهر البربر بحسن استعدادهم لممارسة الشئون التجارية وبروح عـــدم الخضوع التي تأصلت فيهم وبتطلعهم الدائم الى الاستقلال التام. ولكنهم ليسوا جديرين – بسبب تنافس زعمائهم وطموحهم الخاص – بأن تتكون منهم امة كبيرة ، وهم دائماً على اتم الاستعداد للتجمـــع في اقرب وقت والوقــوف في وجه عدوهم المشترك في سبيل الدفاع عن اراضيهم ، تحت زعماء يأتون بطريق المصادفة ينتخبهم رؤساء الأسر ، فاذا مـــا انتهى الصراع وانقسمت الغنائم يعودون الى حالة الفوضى، حيث يغار كل منهم من الآخر، وهم دائماً لا يرغبون في التآلف ولا يقبلون الخضوع للغير والظلم .

ولم يستطع أي شعب من الشعوب استيعابهم استيعاباً تامـــاً ، حتى ولا العرب الذين فرضوا عليهم دينهـــم ونظام حياتهم العائلية حسب النصوص القرآنية .

واننا اذا حاولنا ان نجد في البربري الرجـل المسلم ودرسناه بعناية ، فاننا سوف نلاحظ أنه يعيش منه – بسبب تقاليد الجـــدود المتوارثـة ، وبسبب العادات القديمة ، وبسبب التعلق بالماضي العنصر الذي يشهد بهزيمة البيزنطيين ، وبانتقال وبسقوط الامبراطورية الرومانية ، وبقوة قرطاجنـــة ، وبنشاط الفينيقيين التجاري .

هذا ويحاول البربري ازاء العدو الذي يتفوق عليه فيالعدد ان يقف في وجهه ببسالة ، واذا ما غلب على امره فانه سرعان مـــا يعود الى جباله التي يصعب التغلب عليها او يستأنف سيره في طريق الصحراء ويبقى في انتظار اللحظـــة المواتية لكي يعود الى الهجوم .

وهكذا يحتفظ باستقلاله الخاص وحريته عن طريق حركات المد والجزر التي تتعب جميع المستعمرين .

وان نظرة اجمالية سريعة للاحداث التاريخية البعيدة لتكفي لتوضيـــح مميزات الرجل البربري .

ولقد كان المصريون من اقـــدم العصور هم اول من توغلوا في الشواطىء الافريقية الشمالية وفتحوا لهم فيها اسواقاً ، واقتصروا على التجارة في المنتجات الثمينة بسبب جدتها وبعد مصادرها ، وذلـــك في مقابل الثروات التي كانت تتوافر في الاراضي الافريقية .

وليست هناك آثار واخبار دقيقة عن العلاقات التي كانت قائمة بين البربر والمصريين ، ومن المحتمل ان يكون هؤلاء الاخيرون قد اقتصروا على مبادلات تجارية بسيطة في المنطقة الساحلية .

اما الفينيقيون – الذين هم شعب نشيط وشجاع ، ذكي ألقى بهم الشرق على شواطىء البحر الابيض المتوسط لكي يهبوها حياة جديدة وحركة جديدة – متدربون على القوة وعلى الحروب ، فانهم بوصفهم من التجـــار المهرة فتحوا

مراكز تجارية كبيرة خلعوا عليهـا اسماء اشهر مدن البحر الابيض المتوسط القديمة . ولقد توغل نشاطهم في داخل البلاد للعمل على تدفق المنتجات الثمينة النادرة الى البحر .

ولقد استمرت الخصومات الشديدة بين التجـار الجشمين الأقوياء الفينيقيين وبين القبائل البربرية التي انهزمت في يوم من الأيام ورأت اسواقـاً تجارية تقوم على الشاطىء في سرت .وفي بلدة « لبتس مانيا » « لبدة » و « صبراتة » و « ادرومنتو » و « قرطاجنة » و « أوتيكا » و« ايبونا » .

ولقد استطاع الشعراء الأقـدمون ان يعرفوا كيف يصورون في اسلوب اسطوري « ميتولوجي » ذلـك الصراع الذي قام بين الرجل البربري — الذي تمثل في شخص ابن « اطلنطي » وبين « انتيو » الذي وجد في الصراع القوة باتصاله بالارض الخصبة التي قامت بتغذيتـه وجعلت منه شخصاً قويـاً ، والقرطاجني ابن فينيقيا الذي لإلهه الواقي « هرقل » واجب إنهاض العـدو الأبدي لكل غزو ، وانتشاله من الارض التي تغذيه وتقويه .

ولما أصبحت قرطاجنة ملكة البحر الأبيض المتوسط ، كانت لها دون أدنى شك علاقات وثيقة وقوية بالبربري . وقـد اعطتهم لغتها وافكارها وعاداتها وازياءها، على ان آثار مدينتها تكاد تكون قـد اختفت عن الانظار . ولم يعد في مقدورها ان تشهد بالدرجة التي وصلت اليها قوتها ومقدار تأثيرها على الروح البربرية التي لا تخضع ولا تلين . وكل ما نعرفه ان ذلك لا يمكن تكذيبه من تلك المحاولات المختلفة التي قام بها امراء سيراقوزا لهدم جبروت قرطاجنة والتغلب عليه . فقد وجدوا دائماً في البربر حلفاءهم الطبيعيين ضد العدو المشترك.

وهكذا فان اجاتوكلي عندما انقض من صقلية على قرطاجنة وعلى « اتيكا» وكان على علم بعواطف البربر ومصالحهم افاد من كراهية البربر لأهالي قرطاجنة وحقدهم عليهم . وسرعان ما انتصر على خصمه القديم .

وما كان أكبر تلك الحركة التي قامت في صالح الحاكم الجديد عندما هرعت

القبائل البربرية لمساعدته تحت قيادة « اوثلا » قائد « الاسكندر » .

ولقد تكرر هذا الأمر اثناء الحروب البونية . فقد تزعزعت قوة قرطاجنة زعزعة شديدة بعد الحرب البونية الثانية . ولم تكن قرطاجنة هي العدوة الوحيدة التي اصطدم بها الشعب الروماني فوق هذه الشواطىء ، فقد تحرك الجنس البربري في ظل اطلال فينيقيا واحتل الجانب الأكبر من هذا الاقليم .

ولقد انحاز كثيرون من زعماء البربر الى قضية روما وانضموا الى صفها .على ان كثيراً من القبائل الشريدة بقيت مستقلة استقلالاً كاملاً وفي فوضى تامة . وان وضعهم تحت سيطرة زعمائهم الذين كانوا يقدمون أكبر ضمانة على الاخلاص واحتلال معظم مدن « فينيقيا » الرابضة على طول الشاطىء وحمايتها بفرقها الخاصة ووقايتها من جانب الصحراء أكثر من وقايتها من ناحية البحر ، كان كل ذلك هو العمل الذي يجب على روما القيام به اثناء ستة قرون من الزمان بقيت تسيطر اثناءها على السواحل الافريقية .

ولكن اسم زعيمي القبائل العظيمين في « نوميديا » في فترة حكم القناصل وهما « سينانشره »و« ماسينيسا» اللذين ساعدا بالتناوب مرة لروما ومرة اخرى لقرطاجنة على الانتصارات التي احرزها « جيجوراثا » على القبائل المعادية والصعبة .

كما ان ذكرى تاكفاريناس في الفترة الامبراطورية وعلى وجه التحديد تحت حكم الامبراطور « سيسيريو » الذي تمت على يديه هزيمة البربر الذين ثاروا عدة مرات وتشتت شملهم بواسطة انصار روما قد جرؤ على ان يطلب منهم اقليماً لنفسه ولمحاربته ، والا هدد بإثارة حرب قاتلة. وكل ذلك يثبت بجلاء مرة اخرى ان روح الجنس البربري لم تتغير في كثير أو قليل اثناء السيطرة الرومانية والفينيقية .

هذا واننا نجد في فزان وفي اطلنطي حيث تركت روما آثار قوتها وحصونها وملاعبها القديمة ان نسور الامبراطورية لم تقم بالطيران ، ولكنها قد

حملها الى الامام بصعوبة رجال الفرق الرومانية خلال مجهودات تجل عن الوصف ومعارك حامية الوطيس نشبت ضد الاهالي الذين كانوا يغارون على استقلالهم .

وما إنْ ظهرت علامات انحطاط الامبراطورية الرومانية وبدا من المتوقع في القريب العاجل خرابها وتدهورها حتى افاد البربر الذين اعتنقوا المسيحية او الذين بقوا على وثنيتهم من كل فرصة لاحت لهم وتذرعوا بكل وسيلة لزحزحة النير الروماني عن كاهلهم .

كذلك كان الكفر والإلحاد والشك موضوعات صالحة للغاية لإحياء جذوة الثورة والتمرد وابقائها مستعرة ضد السلطة الرومانية . وقد تقدمت القبائل البربرية التي عبرت الصحراء ونزلت من فوق جبالها لزعزعة سلطة لم تكن تستطيع الصمود والوقوف على قدميها — تقدمت هذه القبائل تحت اسوار « لسبتس مانيا « لبدة » وفي سهول طرابلس الغرب وفي اقاليم الجزائر وفي مراكش البعيدة .

ولقد كان البربر احسن من أي شعب آخر واصلح من غيرهم للسيطرة الرومانية ، فاستوعبوا عاداتها وديانتها . اذ ان تلك الوثنية التي كانت مناسبة وسخية ومتسامحة كانت تستقبل في معابدها الآلهة الاجانب بعد ان تفرض عليها اسماء لاتينية — وكان البربر قد نسخوا عادات الغزاة بعد ان اختلفوا الى مدارسهم .

ولقد لمعت اسماء بربرية شهيرة في الأدب اللاتيني ، على ان لغة ما لم تستطع قط ان تجعلهم ينسون لهجتهم الوطنية .

ولقد كان لزعماء البربر قصور وحمامات ، وكانوا يتولون الوظائف في البلديات . كما كان يشيدون المدرجات ، وكانوا يحصلون على المجد والعظمة في مصارعاتهم ، وانتصاراتهم ، وكانوا يتحدثون من أعلى الفورم ... «الملاعب» .

ولكن كل هذا لم يمنع هؤلاء الزعماء الذين تعلموا مدى سبعة اعوام في مدارس روما عندما سقطت الامبراطورية الرومانية بسبب ضعف قياصرتها ولم يجد « الفندال » أي عائق يعوقهم على التغلب عليهم على الشواطىء الافريقية من ان يهرعوا الى القادمين الجدد ويسيروا خلفهم ويقوموا بتحيتهم ويخلعوا عليهم اسم حماتهم .

وبدلاً من ان يتحول بربر الصحراء الى قوة حرة الى جانب جماعات « الفندال » كان الجبليون من سكان «الأوراس» واهالي جبل « نفوسة » هم الذين قد عاونوا على هدم ما كانت قوة روما قد شيدته .

وهكذا استقبل البربر البيزنطيين كما كانوا قد استقبلوا الفانداليين بالاشمئزاز . اذ ادركوا انهم لم يربحوا شيئاً من تغير الغزاة ، واستطاع هؤلاء الاخيرون ان يجمعوا ذلك الميراث التعيس الذي خلفته روما . ولكن بيزنطه كانت قد شاخت ، ولم يكن من الممكن اعادة بنائها على هذه الاطلال .

وفي عهد حكم البيزنطيين قامت كل مدينة من مدن الساحل بدفع الجزية المفروضة عليها للامبراطور الذي كان يمثله الحاكم والي المديرين . وفي مقابل ذلك كان هؤلاء يتعهدون بحماية الرعايا من الغارات الدورية التي كان يقوم بها البربر الذين كانوا ينزلون من الجبال للسطو والغارة على السهول – وكانوا ينهبون المدن والاماكن المسكونة غير الحصينة ، وكانوا يذبحون الحاميات المنعزلة ويسرقون قطعان الماشية ويعودون الى جبالهم التي كان لا يستطيع القواد الاغريقيون الوصول اليها.. وقد حاول خلفاء «بيلزاريوس» دون جدوى عرقلة هذا الغزو الموجه الى الشاطىء .

ولكنهم بعد معارك غير مجدية فضلوا التفاهم السلمي وعقد المحالفات مع البربر المحبين للقتال الذين كانوا يحصلون بذلك على استقلالهم .

وفي اوائل القرن السابع ظهر جنس جديد من الشباب ومن الاقوياء انقض

من شبه الجزيرة العربية على بقايا الامبراطورية العجوز المضعضعة التي لم تستطع – بسبب عدم اتحادها وضعف قوتها – الدفاع عن استقلالها السياسي .

وكان أتباع محمد الذين تعودوا على حياة البداوة في صحراء بلاد العرب الرملية المنعزلة التي لم يستطع احد التغلغل فيها لإخضاعهم ، والذين كانوا قد ذاقوا لذة الفتح عندما قاموا من مصر واتجهوا شطر ساحل برقة . ولقد اجتذبهم المغرب العجيب واراضي افريقيا الغربية ، حيث كانت تتكدس ثروات عظيمة .

ولقد وجد الفتح الاول بقيادة عمرو بن العاص في سنة ٦٤١ بربر برقه – بني لواثة وهوارة – مستعدين أكثر مما يجب لكي يستطيعوا العمل والقتال ضد مثل هذه القوة الكبيرة – وقد اسرع هؤلاء بالخضوع والاستسلام ، ولتجنب وقوعهم تحت نير العبودية افتدوا انفسهم بجزية ضخمة دفعوها ذهباً .

وفي اثناء ذلك قام عقبة بن نافع الذي اشترك فيما بعد في جانب كبير من احداث افريقية بأمر القائد الافريقي – بغزو الاقاليم الجنوبية وتقدم والنصر حليفه حتى زويلة عاصمة « فزان » .

وبعد ذلك بعام واحد تم احتلال «ودان» وسقطت تحت السيطرة الاسلامية وخضعت لنظام الجزية .

وفي تلك السنة – على ما يرويه بعض المؤرخين ، وعلى ما يراه آخرون في سنة ٦٤٢ دفع عمر بغزواته الى اقليم « سرت » بعد ان أتم احتلال « أجدابية » . ولقد سقطت « لبتس مانيا » (لبدة) كما ان طرابلس تم حصارها والسيطرة عليها ، كما التهمت النيران « سابراطه » .

ولقد كانت طرابلس في ذلك الوقت يسكنها الاغريق والوطنيون ، وكان هؤلاء الاخيرون تابعين لعشائر « بني لواثة » و« اداسة » ويسكنون جنوب طرابلس الشرقي . كما كان سكان نفوسة الذين كانوا يسكنون المنطقة الممتدة بين ساحل طرابلس الشرقي وجبل نفوسة ، كان هؤلاء البربر في مبدأ الامر

يقفون لإنقاذ بلادهم واستقلالهم في وجه الغزاة، ولكن لما غلبتهم القوة الراجحة على امرهم اضطروا إلى ترك الساحل والالتجاء إلى الجبل .

ولقد حاول البربر العمل عبثاً لمدة الثلاثين سنة التالية الى جانب البيزنطيين ضد السيطرة الاسلامية على السواحل وفي سهول تونس .

هذا وان الاغارات المتكررة التي كان يقودها على خير الوجوه رجال اشتهروا بالجرأة والشجاعة كان يدفعهم اليها الرغبة في الحصول على الكثير من المغانم انزلت هزائم ساحقة بالوطنيين الذين اضطروا للالتجاء الى الجبال ، بينما تحصن الاغريقيون بالمدن الساحلية التي كانت لا تزال فيها الضمانات الكافية بما كان يأتيها من المساعدات والإمدادات عن طريق البحر .

كانت قد مضت سنوات قليلة بعد الغزوات الاولى ، وكانت تونس قد تم احتلالها على يد عقبة بن نافع الذي شيد فيها مدينة القيروان الجديدة ، كمركز ديني وسياسي للقادمين الجدد وللوطنيين الذين تم اخضاعهم . وكان العمل على اعتناق المسيحيين للدين الاسلامي الشغل الشاغل للحكام العرب الذين كانوا يفرضون العقيدة الاسلامية الجديدة بدلاً من الجزية . ولم يكن بالشيء العسير انتقال البربر من المسيحية إلى الديانة الجديدة التي كانت تتفق وروح الاستقلال التي كانوا يؤمنون بها .

هذا ولقد ظهرت محاولات ومعارضات ، وخاصة من جانب تلك القبائل البربرية التي لم تكن قد اتصلت بعد بالمغيرين الجدد . وكانت اقوى هذه القبائل هي قبيلة « اوربه » التي كانت تقيم على الحدود الشرقية من حدود مراكش الحالية .

ولما كان رجال هذه القبائل اقوياء وشجعاناً لدرجة انهم كانت لهم السيطرة على القبائل الاخرى فانهم لم يكونوا يبالون بالاحداث التي كانت تمس الاقاليم المرتفعة البعيدة ، فإنهم كانوا ينتظرون العدو الجديد الذي كانوا لا يعرفون شيئاً

عن شجاعته واساليبه في القتال .

ولما انهزم زعيمهم « كسيلة » في أول اصطدام بالعرب ووقع في الأسر ، سرعان ما اعتنق ديانة العدو أو على الأقل تظاهر باعتناقهـا ، ورافق عقبة بن نافع في زحفه المظفر عبر مراكش وعلى طول الساحل الاطلنطي حتى مدينـة « اغادير » .

وبينما كان يعيش مع العرب كأسير استطاع الاتصال بزعماء القبائل البربرية في الجزائر وتونس ومع الاغريقيين المقيمين على الساحل .

ولما كان قائد المسلمين على وشك العودة منتصراً إلى القيروان ، اثار (كسيلة) في وجهه ومن خلفه جميع البربر الذين قتلوا (عقبة بن نافع) وهزموا الجيش العربي وطردوه من المراكز التي كان يحتلها وتعقبوه الى ما وراء حدود تونس . واضطرت طلائع الجيش العربي للالتجاء الى برقه ، تحت ضغط بربر « نفوسة » على جوانبها .

ولقد قامت غزوات عربية اخرى فيما بين سنة ٦٤١ وسنة ٦٨٣ كلفت ثمناً غالياً من الثروات التي تبددت والدماء التي اريقت ، ولم يبق لها من أثر سوى ذكرى الهزيمة الأليمة وانتصار الاستقلال البربري .

على ان هذا الاستقلال لم يدم طويلا وكان قصير الأجل ، إذ انـه على أثر موت « كسيلة » بعد خمسة اعوام اختلفت القبائل فيما بينها بسبب تنافس زعمائها وحسد بعضهم للبعض الاخر – ووجدت نفسها بدون زعيم يعرف كيف يسيطر عليها ويجمع شتاتها ويجعلها تقف صفاً واحداً امام الاسلام عند ما عاد ثانية إلى افريقيا أكثر عزماً واشد قوة وصلابة .

ولكن حدث ان قامت امرأة هي الملكة الكاهنـة التي كانت تقيم بينهم والتي كان رجال قبيلة البرانس يعترفون لها بهذه الصفة .

ولقد أصبحت هذه المرأة قوية السلطان واستطاعت ان تجمع حولهـا جميع رجال جنسها الثوار ، وجمعت المقاتلين ونزلت من الجبل وذهبت لمقاتلة قائد المسلمين حسن بن نعمان الغساني الذي بعد ان وصل الى تونس استرد المواقع التي كان المسلمون قد فقدوها .

ولقد اثبت البربر بقيادة مليكتهم مرة اخرى شجاعتهم وصلابتهم . وقد تقابل الجيشان في المساء على حافتي احد الوديان في سهول الجزائر وقضيا الليل ورجالهم مسلحون في انتظار طلوع الفجر .

وفي المعركة العنيفة الداميـــة التي قامت بينهما انتصر البربر الذين تعقبوا العدو بسيوفهم حتى مدينة « تالس » . وبعد ايام قلائل تجمع العرب في «سرت» بعد ان اخترقوا كل اراضي طرابلس الغرب وتحصنوا تحت تاورغة في مكان اقاموا فيه الاستحكامات التي اتخذت اسم جسور الحصن .

ولقد استانف خلفاء الشرق هجومهم بواسطة قواد اكفاء من امثال « موسى ابن نصير » الذي سار على آثار اسلافه حتى وصل طنجة واخضع قبائل البربر واخمد كل محاولة قامت بها للتمرد والثورة .

ولقد كان موسى بن نصير قائداً عظيماً وسياسياً بارعاً . اذ انه بعد ان اخضع البربر عرف كيف يستفيد من روحهم الحربية العظيمة ومن تعطشهم الى المغامرات والغنائم ، فجند منهم جيوشاً قوية كان قد جعل افرادها يعتنقون الإسلام اولاً واسند قيادة ١٩٠٠٠ مقاتل من قبيلة «مصمودة » الى طـــارق بن زياد الذي عينه حاكماً لمدينة « طنجة » .

ولقد كان طارق هذا من قبيلة «نفزاوة» التي استقرت فيما بعد في ضواحي مدينة طرابلس وفي منطقة « زليطن » .

ولقد اسند اليه موسى بن نصير ايضاً واجب العبور من سواحل افريقية الى اسبانيا . على ان يبدأ — على سبيل التجربة — بالقيام بذلك الغزو التاريخي الذي

بدأ في سنة ٧٠٠ واستمر حوالي ثمانية قرون .

ويقول المؤرخون ان القائد البربري « طارق » رغبة منه في جعل جنوده يرتبطون بهذا المشروع وفي توثيق صلتهم به ، ما إن نزل على شواطىء اسبانيا حتى احرق سفنه ، وذلك لاجتناب كل محاولة للعودة .

ولقد خلع اسمه على ذلـــك الجبل الذي يقوم حارساً على البوغاز « جبل طارق » .

كان من الممكن ان يكون الغزو العربي لأراضي اسبانيا اعظم اثراً لو لم تقم ثورة من جانب البربر في افريقيا في سنة ٧٣٢ وتضطر القوات الاسلاميـــة للتفرق لمواجهة الخطر الذي ظهر خلف ظهورهم .

ولقد كان السبب في هذه الثورة في هذه المرة دينياً .

وكما كان البربر قد عارضوا ارثوذكسية الديانة المسيحية بالعقائدالوثنية التي استنها « دوناتو » و « آريوس » فانهم عارضوا امراء المسلمين المتدينين بمذاهب الخوارج التي ظهرت لمعارضة الدين الجديد .

ورغبة في الاستفادة مما كان بين الخلفـاء من منافسات انضموا الى طائفـة الخوارج والى مذهب الشيعة ، وكانت هذه فرصة عظيمة لعدم الاعتراف بسلطة خلفاء دمشق وبغداد وسلطة ممثليهم وولايتهم .

وهكذا كانت سلطة الحكام العرب في افريقيا الشمالية حتى سنة ٨٠٠ ، سلطة وقتية ازاء العنصر البربري المشاغب .

ولقد ادرك الخليفة العباسي هارون الرشيد انه لا يمكن اخضاعهم لطاعتـه وفضل ان يسند السلطة نيابة عنه إلى « ابراهيم الاغلب » الذي كان في ذلك الوقت حاكماً « لمدينة نذاب » . وقـــد استطاع هذا الرجل ان يفوز بعطف البربر وانشاء اسرة « الاغالبة » التي حكمت مـدة ١١٠ سنوات ، ومـــد فتوحاته الى صقلية وإلى شواطىء ايطاليا .

وقد اخذت هذه الحركة التي كانت ترمي الى الخروج على سلطة الخلفاء المباشرة في التوسع في القرون التالية باستقرار اسرة « الادارسة » في مدينة «فاس» وبتأسيس دولة الخوارج في « تهارت» على « ايدى قبائل بني رستب ». وفي « سجلماسة » « لقبيلة بني مدرار » .

وفي سنة ٩٠٩ توفي آخر ملوك الاغالبة بعد ان قام بمصادمات عنيفة مع الاهالي الوطنيين الذين كانوا يضجون دائماً من حكمه .

ولقد عاون على سقوط هذه الاسرة مغامر عربي اسمه « عبيد الله » الذي ادعى أنه من نسل الامام الثالث [1] وعلى ذلك فيكون خليفة شرعياً لمحمد ، وادعى انه ينحدر عن فاطمة بنت الرسول وزوجها علي .

وسرعان ما قام البربر الذين كانوا دائماً على استعداد للمشاغبة بمد يد المعاونة الصادقة الى المغتصب الجديد الذى اسس دولة الفاطميين . ولما احتل مصر أحد ملوك هذه الاسرة وهو المعز لدين الله واستقر فيها انتهزوا فرصة غيابه واستعادوا حريتهم المفقودة .

ولما كانت كل قبيلة تدعي حق السيطرة والغلبة وتريد تولي الحكم ، ظهر بنو « ارستان » وبنو «زيري» وبنو «حمادات» «والمرابطون» « الموحدون » و « بنو جيرن » و « بنو حفص » الذين اخذ كل منهم دوره في ممارسة سلطانه وبسط نفوذه حسب ما كان يقع تحت يده من السلاح وما يحيكه من دسائس ، ونشبت الحرب الاهلية الهدامة التي اثارت غزو بني هلال وبني سليم، وهي قبائل طموحة صعبة المراس ، دفع بها الخلفاء الفاطميون على افريقيا الشمالية للانتقام لهم من البربر .

---

١ – هكذا في الاصل – ولعل المقصود به الامام الرابع .

وقد مر هؤلاء النهابون على ظهور جيادهم وأخذوا ينهبون كل شيء ويحرقون الحقول ويقلعون النخيل ويخربون الترع ويردمون الآبار ويهدمون القرى ويضيقون الحصار على المدن التي يعملون فيها السلب والنهب .

كان هذا هو ما قام به غزو بني « هلال » الذين استوعبت الاوساط البربرية الكبيرة جانباً منهم . بينما استطاع البعض الاخر في الاوساط الصغيرة الغلبة على العناصر المستقلة ، وعمل على ادماجهم في الجنس العربي . ولم يكن لأي ردة فعل أثر وذلك للافتقار الى الاتحاد وللاحقاد العائلية التي كانت السبب في تضحية مصالح الجنس البربري الحيوية.

وقد تلا ذلك انحطاط شديد للشعب البربري ولم يسلم منه الا سكان جبال مراكش .

واما فيما عدا ذلك فقد خضع البربر لعادات المنتصرين وتفرقوا في قبائل اضعفها الغزو والحروب الاهلية ، بعد ان فقدت ذكريات تاريخها القديم واسمها ولغتها الأصلية .

وقد بقيت هذه القبائل في جبال «اوراس» وفي «منطقة القبائل الكبرى» وفي جزر « جربة » وعلى جبل « نفوسة » وفي بعض المناطق الصحراوية

وعندما كان امراء المسيحيين – بعد طرد المسلمين من اسبانيا – يستعيدون السيطرة على افريقية في القرن السادس عشر تحصن البربر الذين استطاعوا عدم الاندماج في العرب في اماكنهم القديمة وهم على أتم الاستعدد للدفاع عن انفسهم في صمت وسكون .

هذا وقد سقطت سواحل افريقية بعد مجيء الاتراك مرة ثانية في ايدي المسلمين الذين اقتصر نفوذهم لمدة ثلاثة قرون على الشاطىء وعلى البحر ، ولم يكن لهم سوى نفوذ قليل في داخل البلاد .

وتدلنا اخبار تلك القرون الثلاثة على ان الحكومات التي تتالت في ولايات تونس وطرابلس الغرب والجزائر قد اقتصرت على العمل لتأمين طرق القوافل لتسهيل الاتجار مع الداخل والمطالبة بالجزية من القبائل الخاضعة لها .

ومع هذا فان هذه الاغراض لم يمكن تحقيقها بسبب تلك الثورات الدورية التي كان يقوم بها العرب والبربر الذين كانوا في بعض الاحيان يدفعون برجالهم الى أسوار المدن الساحلية .

واما فيما يختص بمستعمراتنا فان الاضطرابات المتعـــددة التي طالما ازعجت حكومة ولاية طرابلس الغرب سواء في ايام حكم الباشوات الذين كان يرسلهم سلاطين العثمانيين أو اثناء حكم الامراء « القرمانليين » او في ايام الحكم التركي كان يقوم بها زعماء البربر الذين كانوا يجدون في الحروب مصدر حياتهـــم ويعيدون بها ذكرى ماضيهم المجيد .

اما في اقاليم طرابلس الجنوبيـــة السحيقة فان « الطوارق » الذين يعيشون منفصلين عن عالم لا يهتمون بأمره ، قد اقتصروا على الاختباء للقوافل الغنية التي تمر من الداخل في طريقها الى البحر وايقاعها في مكامنهم .

ولما قام في عهد من العهود المتأخرة احد زعماء الثوار واسمه « غومة » برفع اعلام الثورة ضد الحكومة التركية هرعت إليه كل قبائل الجبل والتفت حوله وعاونته في القتال ولم تتركه إلا بعد قتل هذا الزعيم .

هذا ولم يهتم المؤرخون في هذا الحادث او في امثاله بالتمييز بين الاجناس ، وكان اسم العرب يشمل البربر ايضاً .

هذا وقد حارب البربر ضدنا اثناء احتلالنا لمستعمرة ليبيا – كما سبق ذكره – وكان قتالهم ضدنا عنيفاً بقيادة سليمان الباروني الذي كان يحلم بتأسيس إمارة بربرية مستقلة في جبل نفوسة .

ولما انهزموا في معركة «الأصابعة» المشهورة (٢٣ مارس ١٩١٣) على يـــدي

الجنرال « ليكويو » استسلموا في « يفرن » ومن تلك اللحظة اخذوا في معاونة الحكومة حتى في تلك السنوات الأليمة التي مرت بين ١٩١٥ وسنة ١٩١٩ .

وفي سنة ١٩٢٢ نزلوا الى الميدان الى جانبنا ضد عدونا المشترك العربي ، كما اسهموا أيضاً في جميع العمليات العسكرية لإعادة الاستيلاء على البلاد باخلاص تام وبسالة عظيمة .

ومن الممكن اليوم اعتبارهم آلة فعالة في يد سيطرتنا السياسية والعسكرية في غرب طرابلس الغرب .

ميداليات طرابلس الغرب الذهبية

يوزباشي البرساليري برجوليزي رفائيلي

سيدي المصري– ٢٣ اكتوبر ١٩١١.

اليوزباشي فروي بيترو

الهانىء – ٨ – ٢٦ اكتوبر ١٩١١ .

ملازم اول بسلاح الفرسان سولا رولي باولو

شارع زاوية – ٢٦ اكتوبر ١٩١١.

ملازم ثان بحري جرازيولي لانتتازيكاردو

عين زارة – ٤ نوفمبر ١٩١١ .

ملازم ثان مشاة فردوني فيتوريو

شارع الشط – ٩ نوفمبر ١٩١١.

يوزباشي مشاة – سوما دوناتو

مرقب – ٢٧ فبراير ١٩١٢

جندي مشاة كانتوني ارمينيجيلدو

جنزور – ٨ يونيه ١٩١٢.

ملازم اول مشاة جازاني سيزاري

جبل لبدة — ١٢ يونيه ١٩١٢ .

الجنرال فارا جوستافو

عين زارة — بئر طبراس — مصراته — غيران —
من ٤ ديسمبر ١٩١١ الى ٢ يوليه ١٩١٢ .

لفتنانت كولونيل مشاة جادوليني فيتوريو

سيدي بلال ٢٠ سبتمبر ١٩١٢ .

ملازم اول من فرق الالب اربوزيتو جوفاني

درنه — ٢٧ ديسمبر ١٩١١ — ١١ — ١٢ فبراير
و ٣ مارس سنة ١٩١٢ .

جندي مشاة بونومو كارميليو

سيدي بلال — ٢٠ سبتمبر ١٩١٢ .

يوزباشي برساليري دي جاسبيرو اركولي

الاصابعة — ٢٣ مارس ١٩١٢ .

يوزباشي مشاة دي دومينيش دومنيكو

محروقه (فزان) — ٢٤ ديسمبر ١٩١٣ .

دوناماريا بوني بريجنتي

ترهونة — ١٨ يونيه ١٩١٥ .

لفتنانت كولونيل مشاة بيليا شيزارى

ترهونة — يونيه ١٩١٥ .

ملازم اول مشاة تسيرافانتي بيترو

الزنتان — ١٠ يوليه ١٩١٥ .

صاغ مشاة بيريجنتي كوستنطينو

بني وليد — ١٦ مايو ١٩١٦ .

يوزباشي مشاة دي ليليس جريجوريو

سواني بن آدم — ٢٦ ابريل ١٩٢٢ .

ملازم ثان مشاة فيورنسا جوزبي

وادي ويف - ترهونة - القصبات - زاهت فرجاني - القطار زواتير - الشميخ - بئرتارسين ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٥ - ٢٠ - ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ - ٢٦ مايو ١٩٢٥ .

باشجاويش طيار جبانا انريكو

ودان — ١٠ يناير ١٩٢٤ — سوكنه يوليه ١٩٢٦.

الذين انعم عليهم بالمدالية الذهبية ، والذين لا يزالون في قيد الحياة

الجنرال فارا جوستافو
الجندي يونومو كارميليو
الملازم اول اسبوزينو جوفاني
اليوزباشي بيرجوليزي رفائيللي
ملازم ثان فيورنسا جوزيبي

* * *

جثث حازت الميدالية الذهبية
مدفونة تحت تمثال الجندي المجهول في طرابلس الغرب

دونا ماريا بوني بريجنتي
الصاغ بريجنتي كوستنتينو
اللفتنانت كولونيل بيليا شيزاري
الكولونيل باستوريلي جوفاني
اليوزباشي فرري بيترو
الملازم اول تيرافنتي بيترو
اللفتنانت كولونيل جادولينو فيتوريو
الجندي كانتوني ارمينيجيلدوا

يوزباشي جاسبيرو اركولي
الملازم ثان فيردوني فيتوريو

* * *

جثث حائزة للميدالية الذهبية
مدفونة في اماكن اخرى من المستعمرة

ملازم اول ارسي جوزيبي

دفن مع آخرين من زملائه في السلاح، في الكنيسة الخلوية المقامة بمعرفة الكتيبة ٨٤ الاريترية على مقربة من بورتابينيتو (باب بن غشير) .

يوزباشي ديكارولي ريكاردو

دفن في كنيسة «الخمس» المسيحية

يوزباشي سوما دوناتو

دفن في كنيسة « الخمس» المسيحية

ملازم اول جاساني شيزاري

دفن في كنيسة « الخمس » المسيحية

اليوزباشي دي دومينيشي دومينيكو

دفن في محروقة بإقليم فزان

باشجاويش جبانا انريكو

دفن في هون (الجفرة)

* * *

جثث حائزة للميدالية الذهبية
نقلت الى ايطاليا

ملازم اول سلاح الفرسان الماركيز سولارولي باولو
ملازم ثان بحري جرازيولي لانتي ريكاردو
يوزباشي مشاة دي ليليس جريجوريو

أسباب الإنعام بالميدالية الذهبية

التي منحت في طرابلس الغرب

يوزباشي البيرساليري بيرجوليزي رفائيللي

الاسباب : لم يهتم اثناء المعركة بالنيران الحامية التي كان يتعرض لها وأخذ يشجع جنوده بالأقوال والافعال بعد اصابته بجرح بالغ . احتفظ امام مرؤوسيه بموقف بطولي عظيم واستمر على حفزهم على البقاء جديرين بتقاليد فرقتهم المجيدة . سيدي المصري ٢٣ اكتوبر ١٩١١ .

يوزباشي فرري بيترو

الاسباب : كان اول من يندفع الى الخنادق اثناء الهجمات الليلية المتكررة من ٨ الى ٢٦ اكتوبر ١٩١١ ، وهو يقوم بقيادة الجنود والبحارة بهدوء وبسالة خارقة للعادة . وفي صباح يوم ٢٦ اوكتوبر بينما كان يشترك بكل حماسة في الهجوم بفصيلة من البحارة سقط قتيلاً على اثر اصابته في رأسه وصدره ، وكان مثالاً عظيماً للجرأة والشجاعة البطولية الهانىء ٨ — ٢٦ اكتوبر ١٩١١

ملازم اول سواري الماركيز سولا رولي باولو

الاسباب : كان يقود بحماسة بطولية فرقته وهو مترجل عن جواده ضد

العدو الذي بعد اختراقه الخندق قد وجه هجومه صوب دار جميل بك . وقد جرح اولاً في معصمه ثم جرح ثانية في ركبته . ولكنه استمر في قيادة جنوده ببسالة فريدة في نوعها . ثم جرح مرة ثالثة جرحاً مميتاً وانتهت حياته في ميدان القتال – شارع زاوية ٢٦ اكتوبر ١٩١١ .

ملازم اول مشاة اورسي جوزيبي

الاسباب : لما كان في الخندق وهاجمته قوات متفوقة من الامام ومن الخلف قاوم بثبات وبشجاعة عظيمة . ولما علم بأن الجانب الاكبر من السرية يتقهقر أمر مفرزته بأن تلتف حوله قائلاً :

هذا هو مكاننا . انضموا حول ضابطكم . هنا يجب ان نحمي شرف كتيبتنا .

ولقد مات وسط جنوده – شارع زاوية ٢٦ اكتوبر ١٩١١.

ملازم ثان بحري جرازيو لي لانتي ريكاردو

الاسباب : بعد ان قام في يوم ٢٣ اكتوبر في خمس بمنتهى الشجاعة بتأدية إحدى المهمات في ارض كانت تطلق عليها نيران العدو نزل ثانية الى البر لنقل اخبار واسند الى غيره مهمة نقلها الى السفينة وقام بنفسه بالحلول محل قائد بطارية النزول الى البر الذي كان جريحاً . وأخذ في تشجيع الجنود وبث فيهم حماسة جديدة بعد الخسائر التي اصابتهم والمتاعب التي حلت بهم والجوع الذي كانوا يشعرون به ، وقام بجمع المواد الحربية التي اصابها تلف كبير ورغما من ظلام الليل ونيران العدو التي كانت تستمر بدون انقطاع وبين مصاعب الارض الشديدة قام بقيادة البطارية على اكمل وجه

من الخنادق . وكذلـــك في يوم ٢٨ اكتوبر في « الخمس » اعطى مثلاً لجنوده على الثبات والبطولة حيث قاد بطارية النزول الى البر وعرض نفسه ببسالة لنيران العدو اثناء توجيهه اطلاق المدافع حتى سقط على الارض بعد اصابتـــه بجرح مميت في الخمس – ٢٣ – ٢٨ اكتوبر سنة ١٩١١ .

ملازم ثان مشاة فردوني فيتوريو

الاسباب : اصيب بجرح بليغ بينما كان مشتبكاً في المعركة ، ولكنه لم يتوقف عن قيادة مفرزته . بل رفض كل مساعدة تقدم بها اليه جنوده ، ولكنه لما وقع على الارض استهان بحالته الخطيرة ولم يتوقف قط عن تشجيع جنوده ومرؤوسيه على القتـــال حتى اسلم الروح . شارع الشط ٩ نوفمبر ١٩١١ .

يوزباشي مشاة سوما دوناكو

الاسباب . بينما كان يقود سريته بهمة وشجاعة فريدة في نوعها اثناء الهجوم على مرعب استطاع الاستيلاء على موقع العدو واجباره على الفرار بمنتهى السرعة ، اصيب بجرح مميت من رصاصة من العدو – مرقب ١٧ فبراير ١٩١٢ .

بعد ان امتاز بشجاعة لا مثيل لها في المعارك السابقة .
كويفية ٢٨ نوفمبر ١٩١١ – الخمس ٩ يونيه ١٩١٢ .

يوزباشي مدفعية ديكارولي ريكاردو

الاسباب : اثناء الهجوم على مرعب اتخذ موقفاً في قتال جريء من مكان مناسب ولكنه كان ايضاً اكثر تعرضاً من غيره للخطر . وهو قمـــة مرقب–وكان مثلاً لمرؤوسيه ولفصائل المشاة الاخرى على الشجاعة

البطولية ، اصيب بجرح مميت ومع ذلك فقد قصر اهتمامه على عمل بطاريته - مرقب ٢٧ فبراير ١٩١٢ . وبسالة عظيمة في المعارك السالفة. باب مزدي ديسمبر ١٩١١ . عين زاره - ٤ ديسمبر ١٩١١.

جندي مشاة كانتوني ارمينيجيلدو

الاسباب : اثناء مهاجمة الخنادق في التركية بالحراب بعد ان قام بحفز همم رفاقه وتشجيعهم على التقدم الى الامام وصل مع أول من وصل حتى العدو ، ولما حاصرته جماعة من العرب قتل منها اثنين وجرح ثالثاً حتى اصيب برصاصة اطلقت عليه فوقع على الارض قتيلاً ضحية بطولته .

جنزور - ٨ يونيه ١٩١٢ .

ملازم أول مشاة جازاني شيزاري

الاسباب : عند ما كان يقود احدى الحاميات هوجمت بغتة وبمنتهى العنف اثناء الليل واطلقت عليها النيران فواجه العدو المتفوق عليه بهمة عظيمة وبهدوء ورزانة واوقع بالعدو - هو ورجاله الذين ابدوا بسالة عظيمة - خسائر فادحة وحال بينه وبين التقدم. وهكذا اتاح الفرصة لأحد الألايات المساعدة للاسراع الى مطاردته . جبل لبدة - ١٢ يونيه سنة ١٩١٢ .

الجنرال فارا غوستافو

الاسباب : من اجل صفاته العظيمة بوصفه جندياً وبشجاعته التي ابداها تحت نيران العدو قبل ترقيته وبعدها ومن اجل جدارته الحربية في معارك حملة ليبيا العديدة التي اشترك فيها .

عين زاره - ٤ ديسمبر ١٩١١ - بئر طبراس ١٩ ديسمبر ١٩١١ - مصراطه ٨ يوليه ١٩١٢ - غيران ٢٠ يوليه ١٩١٢ .

ليفتنانت كولونيل مشاة جادوليني فيتوريو

الاسباب : رغماً من اصابته برصاصة في جبينه هجم على رأس كتيبته ببسالة فريدة في نوعها حتى اصيب اصابة اخرى قاتلة .

سيدي بلال ٢٠ سبتمبر ١٩١٢ ابدى شجاعة فريدة ايضاً في مهاجمة حصن سيدي المصري ٢٦ نوفمبر ١٩١١ .

جندي مشاة بونومو كارميلو

الاسباب : اصيب بجرح بينما كان يستعد للهجوم ولكنه اشترك فيه بهمة فائقة ، ولما جرح مرة ثانية صمم على الاستمرار في القتال ولم يترك خط النار إلا بعد ان اصيب اصابة ثالثة . وقد اثار بسلكه النبيل اعجاب رفاقه الذين كانوا يحرضونه على التوجه الى مكان العلاج.

سيدي بلال ٢٠ سبتمبر ١٩١٢

ملازم اول فرق الالب اسبوزيتو جوفاني

الاسباب : هجم وهو في نهاية الطرف الايسر من فصيلته في مقدمة جنوده بشجاعة عظيمة وهو يقودهم بشجاعة بالحراب على الحصن الذي يحتله العدو . وقد امتاز ايضاً بسلكه البطولي وبشجاعته في معركة يوم ٢٧ ديسمبر ١٩١١ .وفي معركة ٣ مارس ١٩١٢ رغماً من اصابته برصاصة من العدو اخترقت فخذه - استمر في القتال حتى سقط بعد اصابته مرة اخرى على وجهه . درنه في ٢٧ ديسمبر ١٩١١ - ١١ - ١٢ فبراير ٣ مارس ١٩١٢ .

يوزباشي برسا ليبري دي جاسبري اركولي .

الاسباب : قدم مثلا عظيماً على الشجاعة الشخصية بينما كان يقـــود اثناء الهجوم سريته اثناء المعركة . اصيب اصابة قاتلة ورغماً من معرفته بقرب منيته اخذ يحرض رجاله على المداومة على القتال وكان يوجه اليهم انبل الكلمات ويعبر لهم عن اسمى العواطف لجعلهم يستمرون في القتال . الاصابعة ٢٣ مارس سنة ١٩١٣ .

يوزباشي مشاة دي دومينيش دومنيكيو

الاسباب : كان يقود سريته بهمة عظيمة وشجاعة فائقــة اثناء الهجوم على العدو وفي تعقبهم له . ولما استدعي بعد ذلك للعمل في جهة اخرى لإنقاذ جزء من المدفعية كان العدو يهدده بالتطويق العاجل ، واجه بكل شجاعة بسريته وحدها قوة كبيرة من الاعداء كانت متحصنة في خنادقها على مسافة قريبة . وقد استطاع انقاذ قطع المدفعية ، وايقاف عملية التطويق ، وسقط بعد اصابته بجرح بالغ ، ومات في اليوم التالي – محروقة (فزان) ٢٤ ديسمبر ١٩١٣ .

دونا ماريا بوني بريجنتي .

الاسباب : اثناء حصار ترهونة الطويل الاجل كانت تشجع الجنود وتحفز هممهم وكانت مثلا للفضائل الحربية بروحها القوية العالية و كانت تسهر على العناية بالجرحى والمرضى وتسليهم وترفه عنهم بأنوثتها الحلوة . وفي يوم ١٨ يونيـه ١٩١٥ سارت مع الحامية التي تتقهقر ورفضت النجاة بنفسها . وكانت تريد ان يحل بها ما يحل بالجنود. واصيبت عدة مرات من رصاص الاعداء بينما كانت تعاون الجرحى وتسعفهم اثناء القتال . وماتت ببطولة وسط المقاتلين – ترهونة – مايو – يونيه ١٩١٥ .

لفتنانت كولونيل مشاة شيزاري بيليا

الاسباب : اثناء حصار الزنتان اصيب بجرح بليغ في كتفه اليسرى ولكنه استمر على القتال بشجاعة . ولما اصيب مرة اخرى بجرح مميت لا يمكن علاجه استمر في بث روح الحمية في نفوس مرؤوسيه واخذ يحثهم على الثبات والشجاعة . ولما وقع في الاسر مات بعد ذلك متأثراً بجراحه ، وكان مثلاً رائعاً على الروح العالية والفضائل السامية العسكرية .الزنتان ١٠ يوليه ١٩١٥

صاغ مشاة بريجنتي كوستنتينو

الاسباب : اثناء حصار بني وليد الذي دام زمناً طويلاً قدم دليلاً واضحاً على رباطة الجأش والهمة والشجاعة ، وقد بث روح الحماسة العالية والبسالة والاقدام في جنوده الذين كانوا على استعداد للسير خلفه في اشد المعارك واعنفها في ذلك الميدان الذي وضع له الخطة اللازمة اذا لم يفرض عليه ذلك الموقف اليائس الذي كانت تقفه الحامية الاستسلام رغماً مما ابداه من بطولة عظيمة . وقد مات بعد سنة من اسره . بني وليد مايو سنة ١٩١٦ .

يوزباشي مشاة دي ليليس جريجوريو جوزيبي

الاسباب : كان يقود سرية من عساكر الكتيبة الليبية السادسة وبث فيها الكثير من ايمانه وروحه القوية . وقد قام باعمال كثيرة من أعمال البسالة في زاوية وسيدي نصر . ولما كان يقود سرية من الطلائع اثناء عملية استكشاف في سواني بن آدم اشتبك في القتال اثناء الهجوم على موقع جانبي اثناء الزحف الذي كان يقوم العدو بالدفاع عنه دفاع المستميت وابدى في ذلك الشيء الكثير من الشجاعة والبطولة ، وقد اصيب اولاً بجرح في بطنه ولكنه لم يتخل عن العناية برجاله

وقد اصيب للمرة الثانيـــة في ساقه ، وجه اهتمامه بالسرية التي اصيبت بخسائر فادحة ، ولكن رصاصة ثالثة انتزعت منه حياته مع صرخة عالية بحياة ايطاليا . كان مثلا رائعاً لأسمى الفضائل العسكرية . . سواني بني آدم ، ٢٩ ابريل ١٩٢٢ .

ملازم ثان مشاة فيورنسا جوزيبي

الاسباب : امتاز في عدة معارك سابقـة ونظراً لصفاته العسكرية الجيدة ولشجاعته غير المعتادة واستهانته بالاخطار . كان مثالاً يحتذيـــه الجميع على الاخلاص للواجب والتضحية في سبيـل الوطن ، وعلى قوة المقاومة والجلد والهمة العالية اثناء معركة حامية قامت بينـه وبين العدو الذي كانت قوتـه راجحة رجحاناً كبـيراً حتى اصيب بجرح ولكنه استمر في قيادة سريته بهـــدوء ورزانة وعلى القتال ببسالة عظيمة وهو يشجع مرؤوسيه بمثله الرائع وبصوته المؤثر .

ولما اصيب للمرة الثانية بجرح بليغ وافقده احـــدى عينيه سببت له تلك الاصابة فقد عينه الثانية – بقي في موقف القيادة ورفض كل مساعدة لكي لا يسحب من المعركة أي رجـــل من المقاتلين الذين كان قد تناقص عددهم بسبب الخسائر التي لحقت بهم .
وادي ويف ١١ – ١٢ سبتمبر ١٩٢٣ .

تارهو القصبات ٣ – ١٥ سبتمـبر ١٩٢٣ ، زاهت فرجاني القطـار ٢٠ سبتمبر ١٩٢٣ ، زويتير ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ الشيمخ ٢٨ ديسمبر ١٩٢٣ – بئر تارسين ٢٦ مايو ١٩٢٥ .

باشجاويش جبانا انريكو

الاسباب : طيار عظيم الشجاعة ، امتاز فيما مضى في عمليات سابقـــة من

عمليات الاستطلاع وقذف القنابل والضرب بالمترااليوزات من ارتفاع منخفض .

وكان يطير باستمرار دون كلـل في احوال جوية صعبة فوق الاراضي الافريقية الوعرة والصحراوية للعمل على ايجاد اتصالات بين مختلف ألاياتنا. حتى اضطر الى الهبوط هبوطـاً اضطرارياً في ارض العدو. ولما وقع في الاسر تحمل بروح رومانية نبيلة خشونته وآلامه ومصاعبه . وقـد اودى ذلـك الاسر بحياته عندما حاول الهرب من الاسر وقتل واحداً من حراسه ووقـع قتيلاً بعد صراع عنيف غير متكافىء . وقد مات وهو يهتف بحيـاة ايطاليا وكان مثلاً للأبطال .

ودان ١٠ يناير ١٩٢٤ — سوكنه يوليه ١٩٢٦

* * *

فهرست